إبراهيم

من وحي القرآن والسُنّة

تأليف

أ. د. عقيل حسين عقيل

القاهرة 2017

المحتويات

المقدمة 6

إبراهيم من وحي القرآن 39

صفاتلنبي إبراهيم.. 83

نسبه وحقّيقة أبوة آزر: 105

آل إبراهيم: 110

تهيؤ إبراهيم: 156

التهيؤ لدى الإنسان: 161

التهيؤ بين العقل والعاطفة والغريزة:................................ 165

أركان التهيؤ:.. 182

مستويات التهيؤ:.. 185

التهيؤ للحدث الخارجي: 192

تهيؤ الأشياء:.. 193

التهيؤ المطلق:... 197

أنواع التهيؤ 206

زمن التهيؤ:... 209

التهيؤ بين الأنا والآخر: 210

أسباب التهيؤ: 214

التهيؤ لمعرفة الخالق:.. 215

التهيؤ للخلافة: 224
اصطفاء إبراهيم:.................................. 237
النبوّة اصطفاء: 246
مظاهر اصطفاء إبراهيم:.............................. 248
قضية الإرهاب: 261
التمييز بين الإرهاب والتخويف والإذلال: 281
الابتـلاء: 289
قضية الابتلاء: 292
الـملّة: (ملة إبراهيم) 298
ملّة إبراهيم طريق الهداية: 312
إمامة الهدى بشرى للطائعين: 346
جدل إبراهيم:.................................. 347
مجادلته مع أبيه آزر. 362
*مجادلته مع أبيه وقومه في الأصنام:.......................... 366
*مجادلته مع الذي حاجّه في ربّه: 370
*مجادلته مع الملائكة في قوم لوط: 371
أواه حليم:.................................. 372
الرّبط بين العبادة والإنابة: 383
قضية الخِلَّة:.................................. 403

وما علاقة الحنيفية بالإسلام؟.. 417
معطيات اليهودية:.. 452
معطيات النصرانية: 458
معطيات الكفر:.. 461
معطيات الشّرك: 463
معطيات الحنيفية: 464
وصية إبراهيم:... 470
الكلّمات:... 487
إبراهيم من السُنّة 510
إبراهيم خير البريّة: 510
حبّ النبي لاسم إبراهيم: 514
من أوصافه التي وصفه بها النّبي محمّد:............................. 517
نجاة إبراهيم من النّار: 524
رمي الجمرات: 527
رفع البيت: 529
حديث الأسرة: 530
البشارة بإسماعيل:.. 533
إبراهيم أمّة: 535
قصّة الذّبح: 536

شّكّ إبراهيم: 538

الجدل حجّة: 541

تحدّي إبراهيم للصّعاب: 551

المقدمة

الحمد لله نستغفره ونتوب إليه، عليه متوكّل ولا حول ولا قوّة إلّا به جلّ جلاله.

أما بعد:

لقد خلق الله تعالى الكون كلّه: السماوات والأرض، وما بينهما وما فيهما وما فوق ذلك بالحقّ، وأرسل الحقّ تعالى رسله بالحقّ، وأنزل كتبه بالحقّ

فقد سَعُدَ من اتبع الرّسُل الذين أرسلهم الحقّ بالحقّ لطاعته لهم واتباعه منهجه، ففاز بالفلاح في الدنيا والآخرة، وسَعُد من بالكتب التي أنزلها الله تعالى على رسله بالحقّ.

والحقّ ضد الباطل والضلال، فقد جاء الرّسُل بالحقّ ودعوا إليه وجاء الشيطان وأتباعه بالباطل والضلال ودعوا إليه، والحقّ تعالى يريد أن يحقّ الحقّ ويبطل الباطل، فاصطرع الحقّ والباطل ولا يزالان كذلك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

إنّ قضية الصراع بين الحقّ والباطل وبين الخير والشر قضية قديمة بدأت فصولها مع بداية وجود الإنسان على الأرض، وسوف تتواصل هذه الفصول طالما كان هناك إنسان في هذا الوجود، ولقد أرسل الله سبحانه وتعالى أنبياءه ليقودوا صراع الخير ضد الشر، وصراع الحقّ ضد الباطل ممثلا بجهادهم في سبيل الله بالكلّمة والحجّة والمنطق.

إنّ أفضل الجهاد هو جهاد الأنبياء والرّسُل الكرام عليهم الصّلاة والسّلام، وهو جهاد الحجّة والبرهان في الدعوة إلى الله ووحدانيته، وإخلاص العبادة له، ودحض الشرك والضلال بكلّ أنواعه، ودفع الشبهات وقمع الشهوات التي يرفع لواءها المبطلون، في مقاومة ما جاء به الرّسُل من التوحيد والحقّ اللذين تكون عليهما سعادة البشر في الدنيا والآخرة، وبالرّسُل تكون النجاة والخلاص من غضب الله وما ينشأ عنه من الشقاء والهلاك في الدنيا والآخرة.

إنّ الله تعالى ابتعث إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام والبشرية كلّها تتخبط في ظلمات حالكة مطبقة من الجهل والشرك والكفر والضلال والظلم، فكان إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام أمة في الهدى، هدى الله به أممًا كثيرة بتنقله في فجاج الأرض زارعا النبوّة من ذريته فيها ليمضي الله أمرا كان مفعولا.

لقد تنقل إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام في سبيل الدّعوة من أرض إلى أرض ومن مكان إلى مكان وفق مشيئة الله تعالى وإرادته كي يؤسس للإيمان وينشر الهدى في مواضع ومواطن تكون مراكز إشعاع إن صح التعبير كي يغطي أكبر رقعة جغرافية لدعوة التوحيد حيث:

انطلق من العراق

دخل مصر وتزوج فيها

انتقل من مصر بصحبة زوجتيه

أسكن من ذريته بوادٍ غير ذي زرع

رفع قواعد البيت في الوادي نفسه

أنتقل بعد رفع القاعد إلى الأرض المباركة

أقام مع بعض ذريته في الأرض المباركة

لوط على مقربّة منه

كان يشكلّ مرجعية للوط

لقد هدى الله تعالى تلك الأمم التي أناط الله تعالى بإبراهيم هدايتها، فأخرجها من الظلمات إلى النور، واستضاءت بنور التوحيد وتفيأت ظلاله، بعد أن رَضِيَتْ:

بالله ربّا

وبالإسلام دينا

وبإبراهيم رسولا

واتباعه ملة

فأقبل كثير من تلك الأمم على تعاليم الإسلام وتوجيهاته بما أوحى الله تعالى لنبيه إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام في دعوته التي كان لها قلبا حافظا ووعاء واعيا وتطبيقا صادقا في مجال العقيدة والعبادة والأمانة في التبليغ ليصل بالبشرية إلى قمة السعادة في الدنيا والآخرة، بما دعا إليه من العدالة والأخوة والمحبة الصادقة في الله، والإيثار في جنب الله، والمساواة في الحقّوق والواجبات بين جميع الأمم التي انضوت تحت لواء دعوته مباشرة، أو عن طريق ذريته من إسماعيل وإسحاق وصولا إلى محمّد عليه الصّلاة والسّلام.

لم يكن حصر النبوّة في إبراهيم وذريته من قبيل تكريم الله تعالى لخليله عليه الصّلاة والسّلام، وإن كان ذلك كذلك، إلا أن هناك أمرا

أهم من هذا لعلم الله تعالى بما سيقول المبطلون في حقّ الله تعالى وفي حقّ دعوة الأنبياء من بعد إبراهيم.

فإن كانت دعوة إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام هي دعوة الإسلام القائمة على التوحيد وهو رأس ذرية هذا الأصل من النبوّة، ودعوة محمّد عليه الصّلاة والسّلام مصداقا لدعوة إبراهيم كونه مأمورا باتباعها خاتما لهذه النبوّة، فما بال ما انحصر بين الدعوتين في ادعاءاتهم، بجحودهم ما قاله يعقوب عندما حضره الموت: {أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ}[1].

ولد إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام في أور الكلّدانيين في العراق، وكان قومه الذين ولد فيهم يعبدون الكواكب السيّارة والأصنام, حتى كاد أن يكون لكلّ منهم صنم خاصّ به؛ فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ "جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ عليه الصّلاة السّلام؛ فَقَالَ: يَا خَيْرَ الْبَرِيَّةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ عليه الصّلاة السّلام: ذَاكَ إِبْرَاهِيمُ"[2].

بعث الله تعالى رسوله إمام الحنفاء، وأبا الأنبياء، وأساس الملة الخالصة، إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام خليل الرّحمن في أرض بابل وهو:

إبراهيم بن آزر وهو تاريخ بن ناحور بن شاروغ بن أرغو بن فالغ بن عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح بن لمك بن

[1] - البقرة 133

[2] رواه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل باب من فضائل إبراهيم رقم: 150.

متوشلح بن خنوخ وهو إدريس بن يارد بن مهلاييل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم، خليل الرّحمن يكنى أبا الضيفان[3].

الذي أزال الله به تلك الشرور والأباطيل، وأبطل به ذلك الشرك والضلال، فإن الله سبحانه آتاه رشده في صغره، وابتعثه رسولا، واتخذه خليلا في كبره، وجعل النبوّة في ذريته خُلْعَةً سنيةً لا تضاهى؛ تكريما له من ربّ العالمين عزّ وجلّ.

إنّه إبراهيم الخليل عليه الصّلاة والسّلام الذي نهى أبيه آزر عن عبادة الأصنام مع فائق التقدير والتأدّب، {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاما آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}.

وللعلماء والمفسرين أقوال كثيرة حول حقّيقة أُبُوَةِ آزر لنبي الله إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام فمنهم من قال: إن أبا إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام هو تارح، ومنهم من ضبطه بالخاء المعجمة

وقيل: آزر هو اسمٌ كان ينادي به إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام أباه، بمعنى يا شيخ أو يا مُخَرِّف، وإن اسم أبي إبراهيم هو تارح.[4]

ومثل هذا القول لا يخفي علينا عدم صوابه فليس من أخلاق النّاس العقلاء مثل هذا الفعل بأن يلقب الرجل والده بالخَرِف، فما بالك بالأنبياء والرّسُل الذين يصطفيهم الله لتبليغ رسالاته، مصداقا لقوله تعالى: {اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ}[5]

أيجوز ذلك في حقّهم؟

---

[3] قصص الأنبياء ج1، ص 197، تاريخ دمشق ج 6، ص 164.

[4] المفصل في الرد على شبهات أعداء الإسلام: 6 ،430.

[5] الأنعام 124.

وهل يجوز ذلك في حقّ أبيهم إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام خصوصا؟

وهو الذي قال عنه ربّه تعالى: {وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ}[6] أي بطهارته وكماله وتَرَفُّعِهِ عن النقائص من الأفعال والأقوال.

وقيل أنّ نبي الله إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام ولد يتيما، مات أبوه تارح وهو في بطن أمّه، ثم عاش في بيت عمّه آزر وهو المشار إليه في الآية الكريمة السابقة.

ولأنّ عمه آزر قد ربّاه أُطلق عليه إنّه أبوه، وإلاّ فهو عمه، حيث لا يكون المشرك عابد الصنم أبا للنبي.

وهنا أتساءل:

أيكون آزر بشركه بالله تعالى من المصطفين المطهرين؟!

أيكون آزر بإصراره على الشرك بالله تعالى من المرحومين المباركين؟!

وعليه:

فهل يعقل أن يكون آزر من الآل الذي يرجع إليه إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام؟

وهل يعقل أن يكون آزر من أهل بيت إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام؟

أم إنّه لا هذا ولا ذاك؟

[6] الأنبياء 51.

وللإجابة عن هذه التساؤلات نقول:

لمعرفة كيفية الانتساب إلى الآل والأهل، لابدّ من معرفة الفرق بين كلّمتي: (آل)، (أهل)

فقلنا:

آل: يؤل أولا، وآل الشيء للشيء رجع إليه Revert to.

والآل الأصل الذي يؤل الدم إليه.

ولذا يُنسب الأبناء لآبائهم من حيث ثبات ونقاء الأصل، مصداقا لقوله تعالى: {ادْعُوهُمْ لِآَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آَبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا}[7].

وعليه فإنّ:

. "آل الرّجل: كلّ من يشاركه في النسب إلى أقصى أب له في الإسلام"[8].

بدليل قوله تعالى: {ذِكْرُ رَحْمَةِ ربّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا إِذْ نَادَى ربّهُ نِدَاءً خَفِيًّا قَالَ ربّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ ربّ شَقِيًّا وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا

[7] الأحزاب 5، 6.

[8] معجم لغة الفقهاء، ج 1، ص 36.

فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آَلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ ربّ رَضِيًّا}[9].

هذا دعاء مستجاب بإنجاب الولد الذي هو من صلبه ليرثه دما وعلما ونبوة، فكانت الاستجابة وفقا للطلب؛ وهو طلب الذكر وليس الأنثى (وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آَلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ ربّ رَضِيًّا).

وهذا ما نرى صوابه، حيث إنّ قاعدة الاصطفاء تقتضي التنزيه.

ومن التنزيه:

1 . أن لا يكون النبي أو الرّسول من الكافرين بالله قبل تكلّيفه النبوّة والرّسالة.

وهذا متحقّق في جميع الأنبياء والرّسُل فكلّهم كانوا على هداية وإيمان، ولم يكونوا يوما ما كافرين، بدليل سيدنا عيسى عليه الصّلاة والسّلام، الذي أنطقه الله تعالى في مرحلة ليس من المألوف أن يحصل فيها النطق من الإنسان، فتكلّم في المهد إيمانا، بما يَنُمُّ عن إيمانه المسبق، مصداقا لقوله تعالى: {فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آَتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصّلاة وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا والسّلام عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الحقّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ}[10].

---

[9] مريم 2 . 6.

[10] مريم 29- 34.

وعُرِفَ ذلك منه لأنّ الله تعالى أنطقه فصرح بذلك على رؤوس الأشهاد، ولو أنطق الله تعالى باقي الأنبياء والرّسُل في مهدهم لقالوا إيمانا.

2 . أن لا يكون النبي أو الرّسول من صلب كافر بالله أو مُصِرٍّ على الكفر.

مصداقا لقوله تعالى: {وَتَوَكلّ عَلَى الْعَزِيزِ الرّحيم الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ}11

ولذا فإنّ نسب رسول الله محمّد عليه الصّلاة والسّلام يتقلب في الساجدين، من آدم عليه الصّلاة والسّلام، وصولا إليه عليه الصّلاة والسّلام.

وهذا ينطبق على إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام، فهو من آباء سيدنا محمّد عليه الصّلاة والسّلام.

وعليه فلا يكون أبو أحد من الأنبياء كافرا؛ وذلك لأن الكفر بالله والإشراك به من عمل الشيطان، ونقيصة ونجس مصداقا لقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا}12

وهنا أتساءل:

لماذا هم نجس؟

وهل النجس هنا مادّي أم معنوي؟

---

[11] الشعراء 217 – 219.

[12] التوبة 28.

وما الفرق بين الذين آمنوا والمشركين؟

ومع أنّ النبي إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام فردا ولكنّ الله قد وصفه بالأمّة، والأمّة هي القوم الذي لهم آمال وآلام مشتركة وينتمون إلى ما يمكّنهم من الذات العامّة، ولهذا كان إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام أمّة كون شعوره الفردي هو شعور الأمّة، وآلامّه من آلام الأمّة وجهل الأمّة وعلم الأمّة كلّها يتجسّد فيه حتى أصبح وكأنّه الأمّة بكاملها؛ فكان إبراهيم أمّة في أخلاقه، إذ تجمّعت فيه خصال الخير فكان أمّة في إخلاصه وحبّه وعبادته لله تعالى، وهذا يستوجب دوام الطّاعة المتمثلة في القنوت لله تعالى. فإبراهيم أُمَّة في الفضل والسّمو والنبل والخير. وقد ذكرت له مزايا وفضائل كثيرة في القرآن الكريم منها:

أنّ الله تعالى اتخذه خليلا ذلك لأنّه أمّة.

جعله للناس إمامًا لأنّه أمّة.

اجتباه واصطفاه نبيا للأمّة.

آتاه رُشده أمّة

جعل النبوّة في ذريته أمّة.

أمر باتخاذ مقامه مصلّى أمّة

إضافة إلى اتصافه بالحلم والإنابة والصِّدِّيقيّه والشكر والقنوت وسلامة القلب والكرم والوفاء؛ فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، فِي قَوْلِهِ: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}13، قَالَ: كَانَ عَلَى الْإِسْلَامِ وَهُوَ الْإِيمَانُ بِاللَّهِ وَلَمْ يَكُنْ فِي زمانه فِي قَوْمِهِ أَحَدٌ عَلَى الْإِسْلَامِ

[13] النحل 120.

غَيْرُهُ، فَلِذَلِكَ كَانَ مُطِيعًا. " قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ: وَمِنْ أَعْظَمِ حُجَجِ الْمُرْجِئَةِ الَّتِي يَقُولُونَ بِهَا عِنْدَ أَنْفُسِهِمُ: اللُّغَةُ، وَذَلِكَ إِنَّهُمْ زَعَمُوا أَنَّ الْإِيمَانَ لَا يُعْرَفُ فِي اللُّغَةِ إِلَّا بِالتَّصْدِيقِ، وَزَعَمَ بَعْضُهُمْ أَنَّ التَّصْدِيقَ لَا يَكُونُ إِلَّا بِالْقَلْبِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا يَكُونُ إِلَّا بِالْقَلْبِ وَاللِّسَانِ14

لقد ارتبط جميع الأنبياء من بعد إبراهيم عليهم الصّلاة والسّلام بإبراهيم آلا ونسبا، وارتبطت الكتب السماوية بصحف إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام توحيدا وعقيدة، وكانت دعواتهم لا تغادر ما دعا إليه أبوهم إبراهيم عليهم الصّلاة والسّلام أجمعين، حيث أسّس للإسلام الذي ارتضاه الله دينا لعباده بما كان عليه إبراهيم حنيفا مسلما إذ إنّه:

نفر من بيت في وادٍ كلّه زرع (العراق)

وبشر بقواعد بيت في وادٍ ذي زرع (مصر)

ورفع القواعد من البيت في وادٍ غير زرع (مكة)

وأرسى قواعد بيت في وادٍ ذي زرع (بيت المقدس)

على هذا جاءت دعوة إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام بدين الله تعالى الذي:

نفر فيه من بيت

وبشر فيه في بيت

ورفع قواعد البيت

وأرسى قواعد بيت

---

14 تعظيم قدر الصلاة لمحمّد بن نصر المروزي، 2، ص 716.

فأهدى إلى أهل التوحيد:

الأمّة

والملة

والخلة

ولذا كانت كلّ دعوة نبي بعده، لا تخرج عن أبوّتها في النسب، ولا عن التوحيد في الانتماء من فرعيها إسماعيل وإسحاق عليهما الصّلاة والسّلام، قال تعالى: {إِنَّ أَوْلَى النّاس بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ}15.

وكذلك قوله تعالى: {ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}16.

وهكذا كانت دعوة إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام هي دعوة التوحيد التي تمثل واسطة العقد بين من سبقه من الأنبياء، ومن كان منهم من ذريته فيما بعد، وهذا الارتباط واضح في كلّ دين جاء به الأنبياء، إذ حمل إليهم دعوة الإيمان بمن سبقهم، ويحمل لأجيالهم بشرى بمن يأتي بعدهم فيما انحصر في ذرية إبراهيم من الأنبياء ولقد ذكرت التوراة والإنجيل كلاهما هذه العلاقة وسجلتها تسجيلا: {ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ}17.

ولقد أبان عيسى عليه الصّلاة والسّلام هذا الارتباط وهذه العلاقة: {وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ

[15] – آل عمران 68

[16] – النحل 123

[17] – الفتح 29

مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ}18.

كلّ هذا يعطي مفهوما واضحا هو المسؤولية الكاملة النهائية لكلّ ميراث النبوّة والرّسالة، والارتباط بين أنبياء الله ورسله على كلّمة التوحيد يسلّمها كلّ منهم إلى من بعده حتى تبلغ الرّسالة الكافة.

قامت دعوة إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام على التوحيد الخالص وجاء في القرآن الكريم أربّعة مواقف له في بداية الدعوة:

موقف مع أبيه

موقف مع عَبَدَة الأصنام

موقف مع عَبَدَة الكواكب

موقف مع الذي حاجّه

1 . دعوته لأبيه: لقد ورد في القرآن الكريم قوله تعالى: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّه كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرّحمن فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا}19. إلى أن يردّ عليه والده بغلظة وجفوة ويهدده بالرجم، إلا أن حلم إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة ما زاد على قوله: سلام عليك سأستغفر لك ربّي.

---

[18] - الصف 6

[19] - مريم 41- 45

2 . دعوته لعبدة الأصنام: فقد بدأها بالحوار ليمهد به للمرحلة التي تليها وهي تكسير تلك الأصنام، قال تعالى: {إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالحقّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ قَالَ بَلْ ربّكُمْ ربّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ}[20].

ويظهر جدل إبراهيم بالحجّة المقنعة دون التعرض إلى القوم، وإنما يتعرض للأصنام ويصفها بأنّها عدوة له ولله الذي خلقه ليثير لديهم تساؤلا كبيرا حول الخلق والخالق، وما هو الفرق بين الخالق والمخلوق دون أن يتعرض لهم بأنفسهم، وإنما طرح تساؤلات تستدعي أن يفكر بها عقلاء القوم وإن لم يُظهروا ذلك له، فمثل هذه الموضوعات هي التي انصب عليها اهتمام البحث.

3 . دعوته لعبدة الكواكب: لقد بدأ دعوته لعبدة الكواكب بطريقة تظهر للمتتبع إن لم يكن متأملا، بأن إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام في موقف الريبة والشك والحيرة، إلا أن هذا الأسلوب في الجدل والحوار بأن تسلم لخصمك بما يقول من أجل تفنيد حجته من خلال قناعته وهي طريقة ناجحة، في موافقة الخصم في الظاهر من أجل إلزامه الحجّة وإفحامه فيما يقول، وهذا واضح بيّن في قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا ربّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآَفِلِينَ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا ربّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي ربّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا ربّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمّا تُشْرِكُونَ إِنِّي وَجَّهْتُ

[20] – الأنبياء 56

وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} 21.

فإبراهيم عليه الصّلاة والسّلام لم يعتقد قط بربّوبية الكوكب، كما فهم بعض النّاس من ظاهر السياق القرآني، وذلك لعدة أسباب منها:

أن القول بربّوبية الكوكب كفر بالإجماع

الكفر لا يجوز على الأنبياء، حتى قبل النبوّة

أنّ هذه الواقعة كانت بعد أن أراه الله ملكوت السماوات والأرض

وبعد أن وصل إلى درجة اليقين بدليل فاء التعقيب في قوله: (فلما جنّ عليه الليل) إضافة إلى التعقيب على الحادثة من الله تعالى بقوله: (وتلك حُجّتنا آتيناها إبراهيم على قومه) ولم يقل: على نفسه!

4 . محاجة إبراهيم:

لقد أوتي إبراهيم من العقل والحلم ما هو أهل له، وقد أفضنا البحث في هذا الجانب غير أننا لا نستطيع أن نحيط به نحن ولا غيرنا، وقد يجلى لنا شيء من هذا القبيل في قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي ربِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ ربِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْربِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} 22.

[21] – الأنعام 75- 79.

[22] – البقرة 258.

لقد عمي الذي حاج إبراهيم في ربّه عن أدلة الإيمان وجادل خليل الله في ألوهية ربّه ووحدانيته، وكيف أخرجه غروره بملكه ـ الذي وهبه ربّه ـ من نور الفطرة إلى ظلام الكفر فعندما قال له إبراهيم: إنّ الله يحيي ويميت، بنفخ الروح في الجسم وإخراجها منه قال: أنا أحيي وأميت بالعفو والقتل، فقال إبراهيم ليقطع مجادلته: إنّ الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغربّ إن كنت إلها كما تدعى، فتحير وانقطع جدله من قوة الحجّة التي كشفت عجزه وأبانت ضعفه.

وقد تناولنا أيضا ما استطعنا من تناوله من الفضائل التي أكرم بها الله تعالى نبيه إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام.

فإبراهيم أُمَّة في الفضل والسمو والنبل والخير. وقد ذكرت له مزايا وفضائل كثيرة في القرآن الكريم منها:

أنّ الله تعالى اتخذه خليلا

جعله للناس إمامًا

اجتباه واصطفاه

آتاه رُشده

جعل النبوّة في ذريته

أمر باتخاذ مقامه مصلّى

إضافة إلى اتصافه بالحلم والإنابة والصِدِّيقيّه والشكر والقنوت وسلامة القلب والكرم والوفاء ممّا سيقف عليه القارئ في ثنايا هذا البحث.

ـ آل إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام مصطفون ومطهرون.

. أهل بيت إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام عليهم رحمة الله تعالى وبركاته.

وعليه فذكر الله تعالى لكرامة خليله إبراهيم في الدارين، بأن كان في الدنيا من صفوته، وفي الآخرة من المشهود له بالاستقامة في الخير، يقتضي على كلّ عاقل ألا يعدل عن ملته، مصداقا لقوله تعالى: (وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ).

واصطفاء الأنبياء يكون من نفخ الروح فيهم، بدليل قوله تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ}[23]

و(من قبل) هنا حسب اعتقادنا إنّها تعني من بداية خلقه وذلك وفقا لتحليلنا أن الرشد الذي آتاه الله تعالى لإبراهيم عليه الصّلاة والسّلام هو التهيؤ العقلي والنفسي والعقدي لحمل ما سيكلّفه الله تعالى به من النبوّة والرّسالة والذي به تحقّقت له العصمة من الوقوع فيما يقع فيه غيره من أخطاء وآثام وفق قاعدة الاصطفاء.

ومن ثمّ؛ فالنبوّة والرّسالة محض فضل من الله يختص به من شاء من عباده، وهو سبحانه أعلم بمواقع فضله، ومحال رضاه، وأعلم بمن يصلح لهذا الشأن، فهو سبحانه صاحب الخلق والتدبير، والاختيار والاصطفاء، مصداقا لقوله تعالى: {وربّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}[24]، ولقوله تعالى: {وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ}[25].

---

[23] الأنبياء 51.

[24] القصص 68.

[25] الأنعام 124.

فالله تعالى يختار للنبوّة مع إنّها هبة إلهية يهبها لمن يشاء وفقا لقاعدة الاصطفاء لعباد خصهم وميزهم بخصائص ومميزات ليست موجودة في سائر البشر.

فالأنبياء والرّسُل:

أكمل البشر خَلْقًا وخُلُقًا

وأرجحهم عقلا

وأوفرهم ذكاء

وأكثرهم إيمانا

طاعة

صفاء

نقاء

صبرا

وهذا هو شأن الأنبياء والرّسُل أجمعين.

ورسول الله إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام اصطفاه الله لمهمة النبوّة والرّسالة، وخصّه بخصائص ليست موجودة في غيره، وهيأه تهيئة خاصّة لتناسب هذه المهمة الجليلة.

ومن المهم ألا نغفل عن مخاطبة إبراهيم لآزر: وابتدأها بلفظة (يَا أَبَتِ) كلّمة تعبق بالحنان واللين، والمحبة والطاعة، مع إنّه ليس أباه، إلا إنّه لم يناده باسمه؛ لما في ذلك من الجفوة والوحشة وعدم الاحترام عندما يكون الخطاب من الابن إلى الأب.

* لم يقدم إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام دعوته لمن هو في مكانة أبيه على صورة الآمر، بل كان في مقام الناصح موضحا له سبب اعتراضه على عبادته لغير الله تعالى بقوله: (لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا).

هذا دليل عقلي يقبله كلّ عاقل، وحجّة تدحض كلّ عبادة لغير الله تعالى، ما لا ينفع ولا يضر، ولا يملك حتى أن يرد الضرر عن نفسه.

* حوار سيدنا إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام مع آزر، يُظْهِرُ صفة من صفات كلّ الأنبياء والمستخلفين في الأرض ألا هي التواضع مع الغير.

ويتجلى ذلك من قول إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام (يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا) وفيها يظهر أدب رفيع من الابن مع من هو في مقام الوالد.

فلم يقل له: أنا أعلمَ منك.

ولم يقل له إنّك جاهل.

بل قال له: جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ.

وهذا القول يحمل في طياته ضمنا صفة العلم لآزر، ولكن شتان بين علمه، وما جاء إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام من العلم، بدليل قوله: (فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا).

فعلم آزر لم يهده إلى الصراط المستقيم، فهو علم لا يستند إلى حقّ ولا يؤدّي إليه. وعلم إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام يهدي إلى الصراط المستقيم؛ لأنّه من علم العليم المطلق مصداقا لقوله تعالى:

{لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكلّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}[26].

* تصريح إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام بالنهي لآزر عن عبادة الشيطان، المتمثلة في عبادة ما دون الله تعالى لم يكن خاليا من مصاحبة الأسباب والدوافع لهذا النهي، والتي تتمحور في دائرة المحبة، والخوف عليه من أن يحل به غضب الله تعالى.

ويتضح ذلك من قوله عليه الصّلاة والسّلام: (يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا يا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرّحمن فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا).

فأي تودد في هذا الحوار، وأي حب مشبع بلفيف من المشاعر، والرأفة والخوف عليه من الأذى، الذي يؤدّي إليه الطريق الذي يسير فيه آزر وقومه.

فماذا كان مقابل هذه الدعوة من الطرف الآخر؟

هل كان هناك تقبل منه لدعوة الطرف الأوّل؟

هل وجد عنده الاحترام لرأي ودعوة الطرف الأوّل؟

أكان من آزر احترام لحرية الرأي والفعل لدى الطرف الآخر؟

وكذلك فقد استوفي البحث في إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام بعض ما ابتلي به.

---

[26] المائدة 97.

فقد ابتُلي أبو الأنبياء عليه وعليهم الصّلاة والسّلام بأعظم أنواع البلاء، فصبر وظفر. ومن أهم ابتلاءاته عليه الصّلاة والسّلام التي تناولها البحث:

إلقاؤه في النّار.

الابتلاء في الكلّمات اللاتي أتمهن.

أمر الله إياه بذبح ولده إسماعيل.

هذا بعض من الابتلاءات التي حاول البحث أن يقف عند أسبابها ومسبباتها وصولا إلى أهدافها والغاية منها.

إنّ ابتلاء الله العباد ليس ليعلم أحوالهم بالابتلاء، لأنّه عالم بهم، ولكن ليعلمَ العبادُ أحوالهم حتى يعرفَ بعضُهم بعضا.27

وهنا أتساءل:

لماذا ابتلى الله تعالى إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام؟

وبماذا ابتلاه؟

وما نتيجة الابتلاء؟

ألا يكون الابتلاء خير؟

"والابتلاء هو استخراج ما عند المبتلي وتعرف حاله في الطاعة والمعصية بتحميله المشقة وليس هو من التكلّيف في شيء"28

[27] تفسير البغوي ج 1، ص 145.

[28] الفروق اللغوية ج 1، ص 139.

والابتلاء يتخذ أشكالا ودرجات متباينة، ومن أشكال الابتلاء ما يلي:

أولا: ابتلاء ظاهره موجب وباطنه سالب:

فقد يكون الابتلاء والاختبار بلون من ألوان النعم كمنح الله تعالى هذا الإنسان الرزق الوفير والجاه وأسباب القوّة، فيُحدث هذا الابتلاء ردة فعل سالبة في نفس هذا الإنسان تتمثل في تباهيه وتفاخره واستحقّاقه لهذه النعم وثقته باستحالة زوالها، قال تعالى: {فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ ربّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ ربِّي أَكْرَمَنِ}29

فظاهر هذا الابتلاء موجب أما تأثيره على نفس المبتلى فهو سالب، كما جاء أيضا في قوله تعالى: {وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آَتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى ربِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا}30.

فنتيجة الابتلاء تحددها درجة الإيمان لدى الإنسان، والتي قد تتناسب طرديا مع شدة الابتلاء.

ثانيا: ابتلاء ظاهره سالب وباطنه سالب:

قال تعالى: {وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ ربِّي أَهَانَنِ}31، فهنا يقف الإنسان من فقره (الابتلاء السالب) موقفا

---

[29] الفجر 15.

[30] الكهف 32، 36.

[31] الكهف 16.

سالبا يتمثل في التضجر والتأفف وعدم الرضا بقضاء الله تعالى، وهذا دليل واضح على قصور نظر المبتلى وانطماس بصيرته وضعف إيمانه.

ثالثا: ابتلاء ظاهره سالب وباطنه موجب

كابتلاء الإنسان بمرضٍ أو نقص في الرزق بأنواعه، كما جاء في قوله سبحانه وتعالى: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ}[32].

رابعا: ابتلاء ظاهره موجب وباطنه موجب:

كأن يكون الابتلاء بوهب النعم المختلفة من مال وأولاد وقوة وجاه وحُسن خَلق وغيرها فيزداد تواضعا وخشية من الله تعالى الواهب لهذه النعم، وثقة بأنّها زائلة لا محالة.

وعليه فإنّ إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام لم يكن على ملة اليهود، ولا على ملة النصارى، ولم يكن مشركا، بل كان على ملة الحقّ التي عليها كلّ الأنبياء والمرسلين، مصداقا لقوله تعالى: {مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}[33]

---

[32] البقرة 155، 157.

[33] آل عمران 67.

وقال تعالى أيضا: {قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}[34] ففي الآية الكريمة أمر من المولى عزّ وجلّ باتباع ملة إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام،

فنتساءل:

ما سبب هذا الأمر بالرّغم من اتباع محمّد عليه الصّلاة والسّلام لها؟

ألا يدلّ ذلك على أنّ ملة إبراهيم هي الملّة المنجية لمتبعيها؟

ومن المعروف أن ملة إبراهيم هي التي سمّت كلّ المؤمنين بالله المسلمين، مصداقا لقوله تعالى: {وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حقّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرّسول شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النّاس فَأَقِيمُوا الصّلاة وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ}[35]

والدّعوة إلى الإيمان بملة إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام، إيضاح لأن جوهر الإيمان لا يحتمل الخلاف، فموكب الإيمان والرّسُل والأنبياء موكب واحد، وكلّمة (اتبعوا) تعني أن هناك متبوعا كما أن هناك تابعا.

المتبوع هو الملة الحقّ، الهادية، المنجية، الموضحة للدين الحقّ.

والتابع هو كلّ من أراد أن يكون مهديا ناجيا من عذاب الله تعالى، مصداقا لقوله تعالى: {وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ

---

[34] آل عمران 95.

[35] الحج 78.

مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا}36، وإلى جانب ذلك كان إبراهيم إماما.

ولمتسائل أن يتساءل:

ماهي الإمامة؟

وكيف كان إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام إماما؟

ولماذا كان إماما؟

ولمن هو إمام؟

للإجابة على هذه التساؤلات نقف على بعض المعاجم اللغوية التي تناولت مفهوم الإمام بشيء من الإيضاح

قيل: الأمُّ بالفتح القَصْد، أَمَّهُ يَؤُمُّه أَمّا إذا قَصَدَه، والأَمُّ: العَلَم الذي يَتْبَعُه الجَيْش، والإِمَّة والأُمَّة: السُّنَّةُ، وتَأَمَّم به وأْتَمَّ: جعله أَمَّةً، وأَمَّ القومَ وأَمَّ بهم: تقدَّمهم، وهي الإِمامةُ.

والإِمامُ كلّ من ائتَمَّ به قومٌ سواء كانوا على الصراط المستقيم، أَو كانوا ضالِّين. مصداقا لقوله عزّ وجلّ: {يَوْمَ نَدْعُو كلّ أُناسٍ بإِمامِهْم} قالت طائفة: بكتابهم، وقال آخرون: بنَبيّهم وشَرْعهم، وقيل: بكتابه الذي أَحصى فيه عَمَله.37

ومن ذلك نقول:

إن الإمامة تقدُّم واتباع:

---

[36] النساء 125.

[37] لسان العربّ 12، 22.

تقدم وتميُّز لمنْ كان إماما فيما اتُّبِعَ فيه من أفعال وأقوال وأعمال.

واتباع ممن سار على خطوات الإمام مقلدا له فيما تميز به عنهم من أفعال وأقوال وأعمال.

فلا يكون الإمام إماما إن لم يتبعه جمع، فيما تفرد متقدما به عنهم، ولا يكون المأموم مأموما إن لم يكن مُتَّبِعا لمن هو متقدم عنه فيما اتبعه فيه.

وعليه فالإمامة على وجوه منها:

. إمامة في الهدى مصداقا لقوله تعالى: {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآَيَاتِنَا يُوقِنُونَ}38

وقوله تعالى: {وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصّلاة وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ}39

ولذا كان سيدُنا محمّد رسولُ الله عليه الصّلاة والسّلام إمامُ أُمّتِه، وعليهم جميعا الائتمامُ بسُنَّته التي مَضى عليها، وكذلك كلّ نبي لأمته.

. إمامة في الضلال (إمامة الباطل) مصداقا لقوله تعالى: {وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النّار وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ}40

وقوله تعالى: {وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ}41

---

[38] السجدة 24.

[39] الأنبياء 73.

[40] القصص 41.

وعليه:

فالإمامُ هو ما ائْتُمَّ به، والجمع أَئِمَّة، وإِمامُ كلّ شيء: قَيِّمُهُ والمصْلِح له.42

فالقرآنُ إِمامُ للمُسلمين؛ مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكلّ شَيْءٍ أحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ}43؛ لأنّه يُقَوِّمُ أخلاقهم، ويُصْلِحُ أحوالهم، وسَيدُنا محمّد عليه الصّلاة والسّلام إمام الأَئِمَّة، والخليفة إمام باستخلافه في الأرض.

ولمتسائل أن يتساءل:

ما سبب اتخاذ الله إبراهيمَ خليلا؟

وهل تنتفي بهذه الخلة عبودية إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام لله تعالى؟

وما الذي يمكن أن نستفيده من هذا الخبر الإلهي؟

قبل الإجابة عن هذه التساؤلات علينا أن نقف على معنى الخليل في اللغة.

قيل:

الخِلُّ: الوُدُّ والصَّدِيق، وقولك: إنّه لكريم الخِلِّ والخِلَّة كلّاهما بالكسر أَي كريم المصادَقة والموادَّة والإِخاءِ44

---

41 التوبة 12.

42 لسان العربّ 12، 22.

43 يس 12.

44 لسان العربّ 11، 211.

ولنا هنا أن نسأل:

أيعني ذلك أنّ الخلة هي الصداقة الناشئة عن الوُد والأخوة؟

جاءت الإجابة عن هذا السؤال في معجم الفروق اللغوية ببيان الفرق بين الصداقة والخلة فقال:

الصداقة: اتفاق الضمائر على المودة، فإذا أضمر كلّ واحد من الرجلين مودة صاحبه، فصار باطنه فيها كظاهره سُمِّيا صديقين؛ ولهذا لا يقال الله صديق المؤمن في حين إنّه وليه، مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّ أَوْلَى النّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ}45

أما الخلة: فهي الاختصاص بالتكريم؛ ولهذا قيل إبراهيم خليل الله لاختصاص الله إياه بالرّسالة، وفيها تكريم له، ولا يجوز أن يقال: الله خليل إبراهيم لأن إبراهيم لا يجوز أن يخص الله بتكريم.

وقال البعض: إنّه يطلق على المؤمن إنّه خليل الله.

وقال البعض: لا يقال ذلك إلا لنبي؛ لأن الله عزّ وجلّ يختصه بوحيه، ولا يختص به غيره فالأنبياء كلّهم أخلاء الله تعالى.46

ونحن نقول:

إنّ مفهوم الخلّة مع الله تعالى مغاير تماما لمفهومها على المستوى البشري

فالخلة مع الله تعالى تنتفي فيها عدة أشياء منها:

---

[45] آل عمران 68.

[46] معجم الفروق اللغوية 1، 214.

* الحاجة. قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النّاس أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ}47

* النِّدِّيَّة. قال تعالى: {فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}48

* التكامل. قال تعالى: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ}49

ونقول أيضا:

إن الخلة مرتبة أعلى من مرتبة الصداقة وهذا على المستوى البشري، فقد يكون للشخص كثير من الأصدقاء وليس بالضرورة أن يكونوا هم أخلّاءه، بل يمكن أن يكون البعض منهم الذين حصل بينهم وبينه التوافق التام والانسجام.

وهنا لا يفوتني طرح قضية الحنيفية:

ولقائل أن يقول: إن كلّ من اتبع دينا من الأديان السماوية، أو غيرها يكون حنيفا وفق منظوره باعتباره على الدين القيم.

نقول:

لا يكون على حنيفية إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام إلا من كان على ما كان عليه إبراهيم من توحيد وعبادة ودين.

[47] فاطر 15.
[48] الشورى 11.
[49] الإخلاص 1 . 4.

ونحن نعلم يقينا أن إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام لم يكن مشركا بل كان موحدا لله تعالى لا شريك له، مصداقا لقوله تعالى: {إِذْ قَالَ لَهُ ربّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِربّ الْعَالَمِينَ}50

ومصداقا لقوله تعالى: {إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ}51

فمن هذا القول حكايةً على لسان إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام يظهر لنا الآتي:

1. إبراهيم مؤمن بالله تعالى، بدليل قوله: (إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ) وما يفيد الوحدانية هنا في قوله هذا، اسم الموصول (الذي) المستعمل للدلالة على الفردية، فهو لم يقل (اللذان) الدال على المثنى أو (الذين) الدال على الجمع.

فالذي فطر السماوات والأرض واحد أحد (الله)

والذي وجّه إليه إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام وجهه مؤمنا عابدا، واحد أحد (الله)

2. إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام موحد، بدليل قوله (حَنِيفًا)، وقد قلنا أن الحنيف هو القادر على الوصول إلى الله تعالى بدون نبي أو رسول أو داعية.

وهذا ما حصل مع سيدنا إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام بعد أن تأمل في ملكوت السماوات والأرض محاجا قومه بما برعوا فيه من جدل

---

[50] البقرة 131.

[51] الأنعام 79.

وحجج عقلية ومنطقية، حتى توصل بهم إلى معرفة الله تعالى المعبود بحقّ (إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)

فهو لا يعبد إلا الله تعالى وحده، ولا يشرك معه شيئا في العبادة، ولذا ما كان من المشركين.

3. إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام ليس مشركا، بدليل قوله: (وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

ولو سأل سائل:

لماذا نفي إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام الشرك، ولم ينفي عن نفسه اليهودية والنصرانية؟

وهل في عدم نفيه ذلك ما يدل على إنّه يهوديا أو نصرانيا كما يدعون؟

نقول:

إنّ السبب الذي لأجله نفي إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام عن نفسه الشرك، ولم ينف اليهودية والنصرانية هو:

أنّ الشرك بالله كان موجودا في عهد سيدنا إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام، فقومه كانوا يعبدون من دون الله أصناما وتماثيل مصداقا لقوله تعالى: {إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ قَالُوا وَجَدْنَا آَبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآَبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ

مُبِينٍ}52 وقوله تعالى: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ}53

ولم ينف إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام عن نفسه اليهودية ولا النّصرانية لأنّهما لم يكونا في عهده، وما كانا إلا من بعده مصداقا لقوله تعالى: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ}54

فقد ادعى كلّ من اليهود والنصارى أن إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام كان منهم، فاليهود كانوا يقولون: إن إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام كان على دينهم، والنصارى كذلك كانوا يقولون: إن إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام على دينهم، وفي هذا جادلوا رسول الله عليه الصّلاة والسّلام والمؤمنين بغير علم مصداقا لقوله تعالى: {هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ}55

وهنا لنا أن نتساءل:

هل ينتسب الأبناء إلى الآباء وينتمون إليهم أم العكس؟

ونحن لا نقول أنّنا استطعنا أن نفي هذا البحث حقّه من الدراسة ولن نستطيع، ولكنها محاولة في الوقوف على المقاصد الإلهية من خلال رسالة إبراهيم:

في جعله أمة

---

[52] الأنبياء 52، 54.

[53] الشعراء 69، 71.

[54] آل عمران 65.

[55] آل عمران 66.

رأس ملة

للرحمن خليلا

جعل النبوّة في ذريته

وما نبتغي في ذلك إلّا وجه الله، ودعوة صالحة من قارئ صالح، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

أ د عقيل حسين عقيل

القاهرة 2017

إبراهيم

من وحي القرآن

إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام هو الذي اصطفاه الله نبيا، وجعل من بعده وفي ذريته النبوّة.

انتشرت من قبله بين العباد ظاهرة عبادة الأصنام، التي يعتقد عبَّادها إنّها ستقربّهم إلى الله زلفي، مصداقا لقوله تعالى: {مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفي}.56

ولأنّ إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام حنيفا مسلما، فهو موحد لا يشرك مع الله أحدا.

ولأنّه نبيٌّ مرسلٌ فكان قوله اتباع الحقّ ومناصرته، والحياد عن الباطل ومواجهته.

لذا غضب من الذين يعبدون الأصنام من دون الله، ودعاهم إلى توحيده تعالى.

ولأنّه حنيفٌ مسلمٌ، كان يعلم أن مكة هي البيت الحرام مصداقا لقوله تعالى: {رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ}57

فلو لم يعلم مسبقا إنّها محرَّمة ما قال: (عند بيتك المحرم)

وعليه كان من بعده التداول بهذه التسمية الكريمة وسيظل.

---

[56] الزمر 3.

[57] إبراهيم 37.

لذا فإبراهيم إمام لمن بعده، والكعبة قِبلة للمتقين الذين أسلموا وجوههم لله ربّ العالمين.

إنّه خليل الله الذي حاول قومه الكفرة والمشركون إحراقه، وهو الذي حطَّم الأصنام إيمانا بالواحد الأحد، وإعلانا لمحاربّة الشرك.

لذا فقد رفع قواعد البيت ليظهره للعباد قبلة وآية من آيات التوحيد، وأذَّنَ في النّاس بالحج، فأتوه رجالا، وعلى كلّ ضامر، من كلّ فج عميق.

ولقد اتخذ المسلمون البيت مثابة وأمنا، واتخذوا من مقام إبراهيم مصلّى، استجابة لقوله تعالى: {وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصلّى}58.

القبلة التي اتخذها إبراهيم وإسماعيل عليهما الصّلاة والسّلام مصلّى، هي القبلة التي اتخذها محمّد عليه الصّلاة والسّلام مصلّى، مصداقا لقوله تعالى: {قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ إنّه الحقّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ}59.

لقد كلّفَ إبراهيم من الله تعالى ومعه ابنه إسماعيل عليهما الصّلاة والسّلام، أن يُطهّرا البيت من الشرك والمشركين، وما يُعبد من دون الله من أوثان وأصنام، مصداقا لقوله تعالى: {وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ}60.

[58] البقرة 125.

[59] البقرة 144.

[60] البقرة 125.

وبهذا العهد كان الإعلان بالرّسالة، والعمل بها ومن أجلها، تبشيرا، وتحريضا لأجل الهداية إلى الحقّ، والاستقامة بالتوجه إلى الله تعالى دون وسيط.

لقد ابتلاه الله برؤية يرى فيها إنّه يذبح ابنه إسماعيل، ففداه الله بذبح عظيم، إنّه نبي من الله ورسول له مصدّقا ومن الصالحين فكان ابتلاء الله له آية كريمة، ومعجزة عظيمة يُعتق بها الابن من الذبح بذبح عظيم، ولأنّها آية، فالمؤمنون الذين أسلموا وجوههم لله تعالى يُحْيُونَهَا كلّ عام بصلاةٍ وبذبائح عظيمة وبتواصل وتسامح وتراحم.

ومع أنّ إبراهيم أبو الأنبياء، إلّا أنّ أبناءه من بعده كانوا على ثلاثة، وفقا للقاعدة المستمدة من قوله تعالى: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ}61

الأولى: منهم الأنبياء والرّسُل الكرام صلوات الله وسلامه عليهم.

قال تعالى: {وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النبوّة وَالْكِتَابَ}62

الثانية: منهم المسلمون الذين يسلمون وجوههم لله ربّ العالمين.

قال تعالى: {وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ}63

الثالثة: كان منهم الظالمون والسفهاء الذين لم يتخذوا من مقام إبراهيم مصلّى، وليس لهم من مكارم الأخلاق نصيب.

قال تعالى: {قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ}64.

---

[61] البقرة 256.

[62] العنكبوت 27.

[63] البقرة 128.

إبراهيم أبو الأنبياء عظّمه الله وجلّه برحمة واسعة؛ فجعله إماما وورّث أبنائه من بعده رُسُل كرام؛ أي ورّث الطّائعين من أبنائه رحمة في الدّارين، وهذه نعمة من المنعم النّافع. الذي أنقذ ابنه إسماعيل بما ينفع النجاة وهو الذبيح البديل، قال تعالى: {فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآَخِرِينَ سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إنّه مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ}65. فقوله (إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ) وقوله (كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ) قوله قول اليقين النافع، أي الذي إحسانه نافع لمن يسلّم أمره لله تعالى، وهنا كان التسليم المطلق من إبراهيم بذبح ابنه وتسليم الأبن بأن يذبح طاعة للأبّ في مرضاة الله وهذه الطّاعة النافعة. قال تعالى: {فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا}66 ولو كان النّاس يصلحون على الخير وحده لكان الله عزّ وجلّ أولى بذلك الحكم، وفي سنن الخلق والأمم والأقطار والأزمان جميعا، كان استعمال المكروه والمحبوب دليل على أن الصواب فيه دون غيره وهو مجلبة للنفع، وإذا كان النّاس إنّما يصلحون على الشدة واللين، وعلى العفو والانتقام وعلى البذل والمنع، وعلى الخير والشر، عاد بذلك الشر خيرا وذلك المنع نفعا وذلك المكروه محبوبا، وإنما الشأن في العواقب، وفيما يدوم ولا ينقطع، لذلك فإن الخليفة يجعل العدل والإنصاف في الثواب والعقاب حاكما بينه وبين غيره، فمن يقدمه منهم فإنما يقدمه على الاستحقّاق، وبصحة النية في مودته، وخلوص نصيحته لما يحمل من أخلاق وشيم تكمن فيها المنفعة، وهو مع ذلك يحمل من العطف والشفقة والرحمة على

---

64 البقرة 124.

65 الصافات 103 . 111.

66 النساء 19

النّاس ما لا يحمله غيره وذلك لمعرفته بما يضرهم وما ينفعهم، فينأي بهم عما يضرهم وينجو بهم إلى ما ينفعهم بالرفق واللين والخطاب المؤثر في النفوس وبهذا الأسلوب الرقيق من أجل النفع ودفع الضرر جاء خطاب إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام لأبيه حيث قال تعالى: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرّحمن فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا}67 فهذا كلام يهز أعطاف السامعين، وفيه من الفوائد والمنافع ما لا يخفي على عاقل، وهو لما أراد إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام أن ينصح أباه ويعظه وينقذه مما كان متورطا فيه من الخطأ العظيم الذي عصى به أمر ربه، رتب الكلام معه في أحسن نظام، مع استعمال المجاملة واللطف والأدب الحميد والخلق الحسن، مستنصحا في ذلك بنصيحة ربه من أجل نفعه، وذلك أنه طلب منه أولا العلة في خطيئته طلب منبه على تماديه كي يوقظ غفلته بسؤاله لمَ تعبد الشيطان، ثم ثنى بعد ذلك بدعوته إلى الحقّ مترفقا به، فلم يصف أباه بالجهل المطلق ولا نفسه بالعلم الفائق، ولكنه قال: إن معي طائفة من العلم وشيئا منه، وذلك علم الدلالة على سلوك الطريق فلا تستنكف وهب أني وإياك في مسير وعندي معرفة بهداية الطرق دونك، فاتبعني أنجك من أن تضل، ثم ثلث ذلك بتثبيطه عما كان عليه ونهيه، فقال: إنّ الشيطان الذي عصى ربك إنما هو عدوك وعدو أبيك آدم هو

---

[67] مريم 41، 47

الذي دعاك إلى الخروج على طاعة الله، وألقاك في هذه الضلالة، وإنما ألغى إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام ذكر معاداة الشيطان إلا التي تختص بالله، وهي عصيانه واستكباره، ولم يلتفت إلى ذكر معاداته آدم وذريته، ثم بعد ذلك بدأ بتخويفه أبيه سوء العاقبة، فلم يصرح بأن العقاب لاحقّ به، ولكنه قال: إني أخاف أن يمسك عذاب ملاطفة لأبيه، وصدّر كل نصيحة من هذه النصائح بقوله: (يا أبت) توسلا إليه واستعظاما لشأنه، وهذا بخلاف ما أجابه به أبوه، فإنه قال: (أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم) فأقبل عليه بفظاظة الكفر، وغلظ العناد، فناداه باسمه ولم يقابل قوله يا أبت بقوله يا بني، ونحن نجد أن الخليفة قد حمل هذه الصفات واستخدمها صونا للناس وحرصا عليهم، وطاعة لله، ومحبة لهم بأنه يتصف بصفة النافع بالإضافة فهو يدرك بما يحمل من علم كيف يكون نافعا في امتثاله لقول الله تعالى: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ}[68] فالدعوة هنا إلى طريق الحقّ الذي شرعه الله تعالى من أجل فائدة الخلق ومصالحهم ومنافعهم في الدنيا والآخرة، إنما تكون بسلوك الطريق الذي يناسب كل واحد منهم حسب مقامه ومنزلته وقدرته العقلية على استيعابه للأمور، وتكون مخاطبتهم على قدر عقولهم فدعوة خواصهم ذوي الأفهام بما يرقى إلى مداركهم العالية بالقول الحكيم المناسب لقولهم، ودعوة بقيتهم على حسب ما يستطيعون إدراكه من إيراد المواعظ وضرب الأمثال التي توجههم إلى الحقّ وترشدهم من أقرب طريق مناسب لهم، ويكون جدال أصحاب الملل والمعتقدات بالمنطق السليم والقول اللين، والمجادلة الحسنة التي لا يشوبها عنف ولا سِبَاب حتى يتمكن من إقناعهم واستمالتهم

[68] النحل 125

وكل ذلك لأنه نافع ويريد نفع الآخرين. هذا هو الطريق لدعوة النّاس إلى الله على اختلاف ميولهم، فسلوك هذا الطريق هو الذي يؤدّي إلى منفعة ما أراده النافع جل شأنه، وبعد ذلك يكون أمرهم إلى الله تعالى الذي يعلم من غرق في الضلال منهم وابتعد عن طريق النجاة، ومن سلم طبعه فاهتدى وآمن بما جاء به الحقّن فالذين اهتدوا وصلح أمرهم فقد نالوا من النفع حظا وافرا ونصيبا وافيان والذين ابتعدوا عن الحقّ والهداية وجب على الخليفة إعادتهم إلى الطاعة بالقوّة النافعة التي تعود عليهم بالخير، إذ أن تركهم يعني مكافأة لهم على عصيانهم وهذه إساءة للمجتمع، وليس من العقل في شيء أن يُكافئ المسيء على إساءته، فمن قابل الإساءة بالإحسان فقد خالف سنة الله في التدبير، وظن أن رحمته فوق رحمة الله تعالى، والنّاس لا يصلحون إلا على الثواب والعقاب، فمن باب الحكمة استخدام القوّة النافعة كلما اقتضى الأمر في هذه المواقف، وهذا ما يلجأ إليه الخليفة بصفته نافع بالإضافة، والحكمة أوفى منحة وأوفر نعمة يسبغها الله تعالى على خليفته لينفع بها خلق الله وقد قال تعالى: يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ}[69] فالله تعالى يعطى صفة الحكمة من إصابة الحقّ في القول والعمل من يشاء من عباده، ومن أُعْطِيَ ذلك فقد نال خيرا كثيرا ونفعا كبيرا لأن به انتظام أمر الدنيا والآخرة، وما ينتفع بالعظة الحسنة والاعتبار والحكمة إلا ذوو العقول السليمة التي تدرك الحقّائق من غير طغيان الأهواء الفاسدة، ولا يتعظ بالعلم ويتأثر به إلا ذوو العقول السليمة والنفوس الطاهرة التي تدرك الحقّائق وتستخرج منها ما هو نافع في هذه الحياة، وهنا يتجلى النافع سبحانه وتعالى في رحمته بالعباد أنّ آتى بعضهم هذه الحكمة ليكونوا

---

[69] البقرة 269

خلفاء في أرضه وشهودا على خلقه، لأن الله سبحانه وتعالى لا يريد بعباده إلا ما ينفعهم باسمه النافع، وإضافة إلى الحكمة التي لا يدركها كثير من الخلق، وعلمه المسبق بذلك فقد اختار من العباد قيّما على هذه الحكمة يعرف معناها ويدرك مغزاها ويؤدّي حقّاها ويسعى في نفعها ليوصلها إلى الذين هم بحاجة إليها وإلى نفعها في الدين والدنيا فكان الخليفة مكلف بذلك لأنه هو النافع بالإضافة، وكذلك من المنافع التي يؤتيها النافع جل شأنه، هي حكمة مواعظ القرآن ومعاني آياته وتبيينها والتوفيق للعلم والعمل بها، فهو يبينها ويوفق للعمل بها من يشاء من عباده، ويؤتيها بموجب سعة فضله وإحاطة علمه بما تحمله من المنافع العظيمة والعبر البالغة التي يدور عليها فلك منافع الخلق وهي أيضا دعوة إلى اغتنامها والمسارعة إلى العمل بها، فمن وصل إلى هذه الدرجة وأعطي العلم والعمل فقد أوتي خيرا كثيرا لأنه قد حاز خير الدارين، وما يتعظ بما أوتي من الحكمة إلا أصحاب العقول النيرة والخالصة من شوائب الوهم ولا يركنون إلى متابعة الهوى، والمراد هنا الحكماء العلماء الذين يعملون بما علموا وأول هؤلاء هو الخليفة، ولا يتناول كل مكلف وإن كان ذا عقل لأن من لا يغلب عقله على هواه فلا ينتفع به فكأنه لا عقل له، ومن أعطي علم نافعا ينبغي أن لا يتواضع لأهل الدنيا لأجل دنياهم لان ما أعطي له من خير كثير، والدنيا متاع قليل، وأما الذين يدعون إلى ترك ما ينتفع به من الحكمة فإنما هي دعوة للفحشاء التي هي اسم جامع لكل سوء لأنّها تتضمن معاني البخل والحرص واليأس من الحقّ والشك في مواعيد الحقّ للخلق بالرزق والخلف للمنفق ومضاعفة الحسنات وسوء الظن بالله وترك التوكل عليه وتكذيب قول الحقّ ونسيان فضله وكرمه وكفران النعمة والإعراض عن الحقّ والإقبال على الخلق وانقطاع الرجاء من الله تعالى وتعلق القلب بغيره ومتابعة الشهوات وإيثار الحظوظ الدنيوية وترك العفة

والقناعة والتمسك بحب الدنيا وهو رأس كل خطيئة، فمن فتح على نفسه باب الوساوس فسوف يبتلى بهذه الآفات ومن سد هذا الباب فان الله يكرمه بأنواع الكرامات ورفعة الدرجات والله واسع عليم يؤتى الحكمة من اجتنب الوساوس، لأنّ الحكمة من مواهبه ترد على قلوب الأنبياء والأولياء والخلفاء عند تجلى صفات الجلال والجمال وفناء أوصاف الخلقية بشواهد صفات الخالقية فيكاشف الأسرار بحقّائق معان أورثتها تلك الأنوار سرا وإضمارا. فحقّيقة الحكمة نور من أنوار صفات الحقّ يؤيد الله بها عقل من يشاء من عباده فهذه ليست مما تدرك بالعقول والبراهين العقلية والنقلية وأما المعقولات فهي مشتركة بين أهل الإيمان وأهل الكفر، فالمعقول ما يحكم العقل عليه ببرهان عقلي وهذا ميسر لكل عاقل بالدراية وعالم بالقراءة فمن صفي عقله عن شوائب الوهم والخيال فيدرك عقله المعقول بالبرهان دراية عقلية ومن لم يصفُ عقله عن هذه الآفات فهو يدرك المعقول قراءة بتفهيم معلم مرشد، فأما الحكمة فليست من هذا القبيل وما يذكر إلا أولو الألباب وهم الذين لم يقنعوا بقشور العقول الإنسانية بل سعوا في طلب لبها بمتابعة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فأخرجوهم من ظلمات قشور العقول الإنسانية إلى نور لب المواهب الرّبانية لنوال أعلى درجات المنافع، فتحقّق لهم أن من لم يجعل الله له نورا فما له من نور، وكان الخليفة ممن خصهم الله بهذه السجية وهو نوع من الاصطفاء وسنأتي عليه إن شاء الله في مستهل كلامنا. إن الله سبحانه وتعالى رحمة منه في العباد ولطفا بهم وشفقة عليهم لأن الإنسان خلق ضعيفا ولأن الله غني عن العالمين فقد سخر لهم ما في جميع الأرض من منافع حيث قال تعالى: {وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي

ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}[70] لقد ذلل لكم من أجل الانتفاع كل ما في السماوات من نجوم مضيئة وكواكب، وكل ما في الأرض من زرع وضرع وخصب وماء ونار وهواء وصحراء جميعا، ليوفر لكم منافع الحياة، وإن فيما ذكر من نعم لآيات دالة على قدرته لقوم يتدبرون الآيات بأنّه وحده الذي ذلل البحر تجري السفن فيه بأمره، وتحمل النّاس وجميع ما يحتاجون، وبفضله يمكنكم أن تطلبوا من خيرات البحر بالتجارة والصيد واستخراج ما فيه من لآلئ وتشكروه على ما أفاض عليكم من هذه النعم، وكل هذه النعم آيات تدل على قدرته تعالى لقوم يتفكرون في صنائع الله القدير، وأنه بيده الملك وهو النافع القادر على النفع، وإن الآيات توضح القدرة الإلهية من جانب الخلق والإبداع ولكنها تدل المتأملين والمتفكرين على النافع وعظمته في الخلق والتمييز بين أنواع هذه المخلوقات وجواهرها ومعادنها وما لهذه المخلوقات من تباين في هذا الكون مما يدل عل اختلاف أنواع المنفعة، فالسماوات والأرض من جنسين مختلفين ولكن كل منهما يؤدّي منفعة لا يعوضها غيره على الرغم من البعد والمسافات والأرضون كلها من جنس واحد وهو التراب وهذا الاختلاف تكمن فيه الفوائد والمنافع، وكذلك اختلاف الليل والنهار، أي في تعاقبهما في الذهاب والمجيء يخلف أحدهما صاحبه إذا جاء أحدهما ترك الآخر خلفه أي بعده وفي الزيادة والنقصان والظلمة والنور، كل ذلك من أجل منفعة الإنسان حيث سخر النافع عزّ وجلّ هذه المخلوقات لاستمرار الحياة، وهذه الفلك التي تجرى في البحر لا ترسب تحت الماء وهي ثقيلة كثيفة والماء خفيف لطيف وتقبل وتدبر بريح واحدة تجري مصحوبة بالأعيان والمعاني التي تنفع النّاس فإنهم ينتفعون بركوبها والحمل فيها للتجارة فهي تنفع الحامل

---

[70] = الجاثية 13

لأنه يربح والمحمول إليه لأنه ينتفع بما حمل إليه، فهذه المخلوقات الكونية كلها، أوجدها النافع خدمة لنفع الإنسان، ومن هنا كانت صفة النافع التي اتصف بها الله تعالى، حيث خلق الجن والإنس للعبادة وسخر بقية مخلوقاته منافع للإنسان حيث قال تعالى: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ}[71]. الله هو الذي أنشأ السماوات وما فيها، والأرض وما فيها وما عليها، وأنزل من السحاب ماء مدرارا، فأخرج بسببه رزقا لكم هو ثمرات الزرع والشجر، وسخر لكم السفن لتجري في البحر تحمل أرزاقكم وتجارتكم بإذنه ومشيئته، وسخر لكم الأنهار العذبة لتنتفعوا بها في ري الأنفس والزروع، وسخر لكم الشمس والقمر دائبين، للإضاءة وإصلاح النبات والحيوان، وسخر لكم الليل للراحة، والنهار للسعي والعمل وقضاء الحاجات، فهو النافع لكم، والخليفة الذي يختاره الله لإعمار الأرض فهو أيضا نافع بالإضافة ويأخذ بأسباب الفائدة والنفع من أجل الحقّ وإقامة العدل فإن خالفه مخالف أو عارضه معارض أو عانده معاند كان معذورا إن انتفض لإعادة الأمور إلى نصابها ووضع الموازين في أقساطها إذ أن الخروج على النافع بالإضافة هو ضرر يلحقّ المجتمع، لذلك كان من حقّ الخليفة أن يستنهض جميع الأسباب لأن يردع كل من خرج عن طاعة الله سبحانه ولو بإعلان الحرب دفعا للضرر وجلبا للمنفعة التي منحها الله تعالى للخليفة من أجل إقامة العدل وبسط سلطانه، ودحر الظلم والجور وإزهاقه، وبهذا يكون الخليفة قد أدى ما عليه من حقّ الله تعالى في إطاعة أوامره باستخدام ما خوله الله من قوة تصب في مجال

---

[71] إبراهيم 32، 33

النفع وإن كانت ضارة من وجهة نظر الأعداء، إلا أن الله تعالى ليردع بالسلطان ما لا يردع بالقرآن، والردع من أعظم أسباب جلب المنافع ودرء المفاسد، وبهذا تتجلى صفة النافع في الخليفة بدفع الظلم وإقامة العدل وإعمار الأرض وإصلاح العباد ونشر الأمن والطمأنينة في نفوس البشر في ديارهم وبلدانهم، وبهذا يكون أدى ما عليه من حقّ هذا النفع المستمد من قوة النافع جل شأنه بالكلمة والنصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لجلب المنافع ودفع المفاسد ودحر الضرر فمن نعم النافع على خلقه بصفته نافعا أنه مُصطفي، يَصطفي من يشاء من عباده ويصطفيهم برسالاته ليبينوا للناس سننه عليه الصّلاة والسّلام في خلقه وما يريد تعالى من خير ونفع للخلق حيث قال سبحانه: {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آَدَمَ وَنُوحًا وَآَلَ إِبْرَاهِيمَ وَآَلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}72 فمن رحمة الله تعالى ونفعه لخلقه وعباده أنه اصطفي محمدا عليه الصّلاة والسّلام لتبليغ رسالته الخاتمة للكافة، وجعل إتباعه وسيلة لحب الله ومغفرته ورحمته التي يترتب عليها جميع المنافع في الدنيا والآخرة، كذلك من قبل قد اصطفي آدم عليه الصّلاة والسّلام وجعله من صفوة العالمين فهو أول هؤلاء الصفوة المختارة من النافع لنفع الخلق وإرشادهم إلى الخير والهدى والصلاح فاصطفاه ربه واجتباه واسكنه فسيح جناته وسخر له كل ما فيها لينتفع من نعيمها إلا تلك الشجرة حيث قال تعالى: {وَيَا آَدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الجنّة فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ}73، فالله سبحانه وتعالى أمر آدم عليه الصّلاة والسّلام أن يسكن هو وزوجه دار الكرامة والخلود، وهى الجنّة، ويتنعما بما فيها، يأكلان من أي طعام أراداه لأنه سيعود عليهما بالفائدة والانتفاع

[72] آل عمران 33، 34

[73] الأعراف 19

حيث أن كل ما في الجنّة نافع، إلا هذه الشجرة، فلا يقرباها حتى لا يكونا من الظالمين لأنفسهما، وما كان النهي عن تلك الشجرة إلا لمنفعة لم يدركها آدم عليه الصّلاة والسّلام، ولكن الشيطان زين لهم الإقدام على الأكل منها فكان العقاب المترتب على المخالفة هو الخروج من الجنّة، وعلى هذا يمكن القول أن الله سبحانه وتعالى كما اصطفي الأنبياء لنفع البشر بإرشادهم إلى طريق الخير والسداد، كذلك اختار لهم خلفاء يقومون بأمورهم بما يعود عليهم بالنفع من الخير والرشاد. واصطفي نوحا عليه الصّلاة والسّلام بالرسالة، واصطفي إبراهيم وآله إسماعيل وإسحاق ويعقوب عليهم الصّلاة والسّلام والأنبياء من أولادهم، ومنهم موسى عليهم الصّلاة والسّلام، واختار من آل عمران عيسى عليه الصّلاة والسّلام وأمه الصديقة، اختارهم ذرية طاهرة، فهم يتوارثون الطهر والفضيلة والخير، فهؤلاء جميعا إنما جاء اصطفاؤهم من النافع عزّ وجلّ من أجل انتفاع النّاس بهم وبما يحملون من العلم والفضيلة والخير والرشاد ليصلوا بالنّاس إلى الهدى والحقّ والعدل الذي أمر به الله تعالى وجعل انتفاع خلقه بإتباع هداه، والهدى الذي يبينه هؤلاء الأخيار لانّ الفلاح والنفع منوط بإتباع من اختارهم وجعل منهم الرّسُل الذين يبيّنون للناس طريق الله ومحبته، فقد اختار الله هؤلاء وجعلهم صفوة العالمين بجعل النبوّة والرسالة فيهم كما اصطفي محمدا عليه الصّلاة والسّلام لتبليغ رسالته للكافة، والاصطفاء أخذ ماصفا من الشيء، فالله سبحانه وتعالى اختار آدم بالنفس القدسية وما يليق بها من الملكات الروحانية والكمالات الجسمانية المستتبعة للرّسالة في نفس المصطفي كما في كافة الرّسُل عليهم الصلاة السلام أو فيمن يلده وينشأ في رعايته كما في مريم أو اصطفاه بأن خلقه بيده في أحسن تقويم وبتعليم الأسماء وإسجاد الملائكة له وإسكانه الجنّة، واصطفي نوحا بكونه أول من نسخ الشرائع إذ لم يكن قبل ذلك تزويج المحارم

حراما، فقد نسخ ذلك وحرَّمه، وجعل الله ذريته هم الباقين استجابة لدعوته في حقّ الكفار والمؤمنين حيث قال تعالى: {وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا}74 وهذه الدعوة من نوح عليه الصّلاة والسّلام على الكافرين إنما كانت من أجل منفعة، وقد حمله على متن الماء حيث قال تعالى: {وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ}75، فأدى الله تعالى إليه منفعة بدفع ضرر الطوفان، فمن اصطفاه الله فقد جعل فيه الخير والنفع وصافاه وكان له وليا منتخبا مكرما مواصلا، يورثه عزائم الأنبياء، ويزيده في التقريب زلفي، ويثبت في محاضر النجوى، ويصطنعه للخلة والاصطفاء، ويرفعه إلى الغاية القصوى، ويبلغه في الرفعة إلى المنتهى، ويشرف به من ذروة الذرى على مواطن الرشد والهدى، وعلى درجات البررة الأتقياء، وعلى منازل الصفوة والأولياء، فيكون كله منتظما وعليه بالتمكين محتويا، وبأنبائه خبيرا عالما، وعليه بالقوّة والاستظهار حاكما، وبإرشاد الطالبين له إليه قائما، وعليهم بالفوائد والعوائد والمنافع دائما، ومن كانت هذه صفاته وأحاطه الله بهذه العناية ومنحه هذه الرعاية فهو إمام الهداة العظماء والأجلة الكبراء اللذين جعلهم للدين عمادا وللأرض أوتادا، فهذا هو الخليفة الذي أمر الله بإتباعه وجعل فيه الخير وعلى يديه النفع، فكان هو النافع للعباد بحيث يقوم بقضاء حاجات النّاس التي ينتفعون بها إما بعلمه وعقله وإما بماله أو ببدنه فيقوم بحاجاتهم على سبيل الواجب ابتغاء مرضاة الله، فقد قال صلّى الله عليه وسلّم: "من مشى في حاجة أخيه كان خيرا له من اعتكاف عشر سنين، ومن اعتكف يوما ابتغاء وجه الله جعل الله بينه وبين النّار ثلاث خنادق، كل خندق أبعد مما بين

---

[74] نوح 26

[75] القمر 13

الخافقين"76، وإضافة إلى كونه الخليفة المفوض، ففي النهوض بقضاء حوائج النّاس ثواب وذلك لا ينال إلا بالمخالطة من أجل التوجيه والتصويب وإبداء الرأي والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وكل ذلك من النفع للخلق في دينهم ودنياهم مع القيام بحدود الشرع، ومع ذلك فهو ممن انفتح له طريق العمل بالقلب بدوام الذكر والتفكر فذلك لا يعدله شيء. وأما النافع تبارك وتعالى فقد سخر كل مخلوقاته خدمة للإنسان، وكل ما في الوجود من شيء خلقه الله تعالى إلا وجعل فيه منفعة وفائدة لخلقه دون استثناء ولعباده على وجه الخصوص، فإن لم تكن فائدة مباشرة فإنها فائدة ومنفعة غير مباشرة لا محال، إذ ما من شيء في السماوات والأرض وما فيهما من مخلوقات إلا وهي مسخرة لمنفعة الإنسان بصرف النظر عن طاعته أو عصيانه أو إيمانه أو كفره في هذه الدنيا، وأما في الآخرة فكل نفس بما كسبت رهينة، فالله سبحانه وتعالى خلق هذا الكون للمنفعة والاعتبار حيث قال تعالى: {أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ}77 ألم يبصروا الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا في بدء خلقهما ملتصقتين، فبقدرتنا فصلنا كلا منهما عن الأخرى، وجعلنا من الماء الذي لا حياة فيه كل شيء حي، فهل بعد كل هذا يُعرضون، فلا يؤمنون بأنه لا إله غيرنا ومن دلائل النفع أن الله جعل في الأرض جبالا ثوابت، لئلا تضطرب بهم، وجعل فيها طرقا فسيحة، ومسالك واسعة، لكي يهتدوا بها في سيرهم إلى أغراضهم

---

[76] المعجم الأوسط للطبراني، ج 16، ص 113

[77] الأنبياء 30، 33

وحاجاتهم ومنافعهم وجعل السماء فوقهم كالسقف المرفوع، وحفظها من أن تقع أو يقع ما فيها عليهم، وهم مع ذلك منصرفون عن النظر والاعتبار بآياته الدالة على القدرة والحكمة والرحمة. وهو الذي خلق الليل والنهار، والشمس والقمر، كلٌ يجرى في مجاله الذي قدَّره الله له تقديرا، ويسبح في فلكه لا يحيد عنه، فإبداع السماوات والكواكب التي تسير فيها بانتظام دون أن تتزاحم أو تصدم، بل تبعث الحرارة والنور لهذا الكون، والأرض وما فيها من البر والبحر، وتعاقب الليل والنهار، كل ذلك من المنافع للناس، كذلك ما يجري في البحر من السفن التي تحمل النّاس والمتاع بقدرته، كذلك فهو الذي يرسل الرياح لواقح وتبعث المطر، فيحيي الإنسان والحيوان والنبات، ومن خلقه أيضا ما ترونه من السحاب المعلّق بين السماء والأرض وكل ذلك منفعة وفائدة لهم، فالله سبحانه وتعالى يظهر الدلائل الدالة على وجود النافع، وهذه الدلائل أيضا دالة على كونه منزه عن الحاجة، وكذلك دالة على حصول الترتيب العجيب في العالم، فهذه الدلائل تدل من هذه الجهة على التوحيد فتكون كالتوكيد لما تقدم. وفيها أيضا رد على اليهود بقولهم في أن الله سبحانه بحاجة لخلقه حيث قال تعالى: {لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حقّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ}[78] فكيف يجوز في العقل أن يعدل الخالق بالمخلوق الذي لا يضر ولا ينفع، فهذه الأرض وما أقلت والسماء وما أظلت فقد خلقهما النافع جل شأنه لمنفعة المخلوقين دون استثناء، وخص منهم الإنسان على وجه التحديد لما ميزه بالعقل وفرض عليه العبادات وشرّع له الشرائع كل ذلك من أجل منفعة وفائدة تعود عليه بالخير والسعادة والهناء في الدنيا والآخرة،

---

[78] آل عمران 181

فالنافع سبحانه وتعالى جعل المنافع أيضا بما فرضه من عبادات حيث قال تعالى: {لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ}[79] ففي المشهد العظيم يوم الحج عندما يؤدّي الحجاج هذه الفريضة يحصلون على منافع دينية من خلال أداء فريضة الحج، ومنافع دنيوية بالتعارف مع إخوانهم المسلمين (المستخلفين فيها)، والتشاور معهم فيما ينفعهم في دينهم ودنياهم، وذكر اسم الله في يوم عيد النحر والأيام الثلاثة بعده على ذَبْح ما رزقهم ويسَّر لهم من هذه النعم التي يكون فيها منافع مادية ومنافع روحية، فكلوا منها ما شئتم وأطعموا الذي أصابه الفقر والبؤس، فالبائس الشديد الفقر والفقير المحتاج الذي أضعفه الإعسار ليس له غنى، فهؤلاء تعود عليهم المنافع من هذه العبادة التي فرضها الله على العباد لمنفعة كانوا يجهلونها، فاتضح خيرها ونفعها في ممارستها وتطبقها، ومن المنافع الدينية والدنيوية التي يصيبها الحاج من هذه العبادة ألا وهي العفو والمغفرة والتجارة والكسب في أيام الحج وهو نوع من المنافع مخصوص بهذه العبادة لا يوجد في غيرها من العبادات، وهي منافع عظيمة الخطر كثيرة العدد، ويجوز أن يكون أي نوع من المنافع الدينية والدنيوية، وتعميم المنافع بحيث تشمل النوعين منافع في الدنيا ومنافع في الآخرة فأما منافع الآخرة فرضوان الله تعالى وأما منافع الدنيا فما يصيبون من مكاسب معرفية وفضائل حسان بمعرفة الآخر الذي زاد على قوته قوة مما جعل مظهر الإسلام في الحج استعراض للقوة المادية والمعنوية والروحية، وهكذا كانت لهم مكاسب البيع والشراء وما يستبدلون، وللسائل أن يسأل أين يكمن دور الخليفة فيما فرضه الله من هذه العبادة وكيف تتضح صفة النافع النسبية في هذا المجال؟.

[79] الحج 28

وللإجابة على هذه التساؤلات لابد من أن نذّكر بصفة الخليفة النافع في عبادة الزكاة التي يجمعها من الأغنياء ويردها على الفقراء وهو أعلم بذلك حيث جاء في قوله تعالى: {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}[80] وكون الخليفة على ما ذكرنا من صفات العلم والورع والتقى والفقه وما إلى ذلك فهنا يكون نافعا في تقديم نفقات الحج لمن ليس لديه استطاعة، وتأمين المواصلات وسبل النقل وأمن الطريق في الحفاظ على أرواح حجاج بيت الله الحرام وتأمين مستلزمات المسافر وما يحتاجه، والاستعداد إذا داهم الحجاج مرض أو وباء بتأمين الأدوية والأطباء للعلاج والشفاء فإذا عددنا المنافع التي يقدمها الخليفة في هذه الشعيرة من الشعائر والأجر الذي يناله من الله لا يسعنا أن نقول إلا ما جاء عن أبي حنيفة رحمه الله بعد أن حجّ: "أنه كان يفاضل بين العبادات قبل أن يحج فلما حج فضل الحج على العبادات كلها لما شاهد من تلك الخصائص"[81] ويدل ذلك على حجم النفع ومقداره الذي يحصل من عبادة الحج ماديا ومعنويا وروحيا في الجانب الإيماني، وهذا يبين لنا أن النافع جل شأنه جعل النفع متدرجا من الأعلى إلى الأدنى، فالله سبحانه وتعالى نافع مطلقا وتأتي النسبية بالتدرج إلى الأدنى فالأدنى، حيث الأنبياء والخلفاء، ثم بعد ذلك تتفاوت العباد فيما بينها، ولا يقف أمر النفع من هذا الجانب عند هذا الحد، ولكنه قبل ذلك يعود عليهم من الأضاحي والنذور حيث قال تعالى: {لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ}[82] لقد ذكر النافع عزّ وجلّ في هذه العبادة منافع

---

[80] التوبة 60

[81] تفسير حقي، ج 7، 397

[82] الحج 33

إلى أجل مسمى وهي أيام الحج إلا أن هذا النفع مسجل في ميزان حسنات كل واحد منهم يوفي أجره يوم القيامة، وهذا غير النفع المباشر الذي يحصل عليه أثناء حجه من التعارف الاطلاع والتجارة والراحة النفسية حين يصرفوا ما نذروه لله إن كانوا قد نذروا شيئا غير الأضاحي، وعندما يطوفون بالبيت الحرام ليس لهم دعاء غير التوحيد وإعلان الطاعة والتوبة، وطلب الرضا من النافع عليه الصّلاة والسّلام لينفعهم في الدارين استخلافا ووراثة، فمن يلتزم أوامر الله ونواهيه في حجه تعظيما في نفسه كان ذلك خيرا له في دنياه وآخرته وحصل له أعظم النفع، ولأجل الحصول على النفع العظيم والخير الوفير أمروا أن يكونوا مخلصين لله حريصين على إتباع الحقّ غير متخذين أي شريك لله في العبادة، فإن من يشرك بالله فقد سقط من حصن الإيمان، وتنازعته الضلالات، وعرض نفسه لأبشع صورة من صور الهلاك، وكان حاله حينئذ كحال الذي سقط من السماء فتمزق قطعا فتخاطفته الطيور فلم يبق له أثر، أو عصفت به الريح العاتية فشتتت أجزاءه، وهوت بكل جزء منه في مكان بعيد، والذي يكون هذا حاله، فإنه لم يفقد النفع فقط، وإنما خسر الدنيا والآخرة، فلذلك كان أمر الله بتعظيم شعائر الحج لما فيها من منافع يعود على أهل الإيمان، لأن من يعظم دين الله وفرائض الحج وأعماله والهدايا التي يسوقها إلى فقراء الحرم، فيختارها عظيمة لا عيب فيها فقد اتقى الله، لأن تعظيمها أثر من آثار تقوى القلوب المؤمنة، وعلامة من علامات الإخلاص، ودليل على المنفعة التي تعود عليه، ففي هذه الهدايا منافع دنيوية ومنافع دينية، وفي كل ذلك يكون التقرب إلى الله والاتصال به جلّ وعلا، ولذا فلم يقصر النافع عزّ وجلّ نفعه على شيء دون شيء مما خلق خدمة للإنسان، ولكنه جعل النفع عاما شاملا في كل مخلوقاته بشكل متكامل من حيث المنفعة الخاصة للذات المنتفعة بتلك المنافع، وكذلك تبادل المنافع

بين تلك الذوات المنتفعة بما سخره النافع عزّ وجلّ، فقد جعل الله تعالى الأرض بساطا لخلقه وتفضل عليهم بصفة النافع الذي هو من أسمائه الحسنى، بأن أودع فيها من المنافع ما لا حصر له، حيث أنه سبحانه وتعالى لم يطلب منهم العبادة والطاعة إلا وأمّن لهم مستلزمات هذه العبادة من الرزق والخير الذي يعود عليهم بالنفع وتكفل بكل ما له خير ومنفعة لهم في دينهم ودنياهم حيث قال تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو القوّة الْمَتِينُ}[83] فالله عليه الصّلاة والسّلام هو النافع فما خلق الجن والإنس لشيء يعود عليه بالنفع منهم، وإنما خلقهم للعبادة، والعبادة كلها بما فيها من صلاة وزكاة وصوم وحج تعود عليهم بالنفع لما فيها من الفوائد العظيمة. فالله تعالى فجر منابع النفع من الأرض وصبّها من السماء على الخلق، فهو لا يريد منهم من رزق لأنه غنى عن العالمين، وهو وحده المتكفل برزق عباده، لذلك خلقهم لعبادته تعالى وهم مستعدون لها أتم استعداد ومتمكنون منها أشد التمكين بأكمل وجه لأنه جل شأنه أمّن لهم جميع أسباب النفع، فالله سبحانه وتعالى ليس شأنه مع عباده كشأن السادة مع عبيدهم أو الأجراء مع من استأجروهم، لأنهم إنما يملكونهم أو يستأجرونهم ليستعينوا بهم في تحصيل معايشهم وأرزاقهم، والمالك النافع عزّ وجلّ نفي أن يكون ملكه إياهم لذلك فكأنه قال سبحانه: ما أريد أن استعين بهم كما يستعين ملاك العبيد بعبيدهم فليشتغلوا بما خلقوا له من عبادتي، وهو توضيح لدفع توهم الحاجة من خلقهم، أي انتفاء حاجة النافع جل شأنه لخلقه أو كونهم مخلوقين لحاجة، وهذا النفي حتى لا يتوهم

[83] الذاريات 56، 58

أحد مما وقع في العرف العام أن الذي يملك لا بد له من منفعة، فالذين يملكون العبيد أو يستأجرون الأجراء على قسمين:

القسم الأول: يتخذونهم لإظهار العظمة بالمثول بين أيادي ساداتهم وتعظيمهم إياهم كعبيد الملوك.

القسم الثاني: يتخذونهم للانتفاع بهم في تحصيل الأرزاق أو لإصلاحها، فكأنه قال سبحانه: إني خلقتهم ولا بد فيهم من منفعة لأنفسهم فليتفكروا في أنفسهم هل هم من قبيل أن يطلب منهم تحصيل رزق لمن خلقهم؟!، فهم ليسوا كذلك، فما أريد منهم من رزق، وهل هم ممن يطلب منهم إصلاح قوت أو طعام وتقديمه لمن يصنع؟، فالنافع ليس كذلك، وهم ليسوا كذلك أيضا، لأنه ما يريد منهم أن يطعمونه، فالله سبحانه كرر نفي الإرادتين لأنّ السيد قد يطلب من العبد التكسب له وهو طلب الرزق وقد لا يطلب إذا كان له مال وافر، لكنه يطلب قضاء حوائجه من حفظ المال وإحضار الطعام من ماله بين يديه، فنفي الإرادة الأولى لا يستلزم نفي الإرادة الثانية فكرر النهي على معنى لا أريد هذا ولا أريد ذاك، وهذا النفي من باب الترقي في بيان غناه عزّ وجلّ وكأنه قال سبحانه: لا أطلب منهم رزقا ولا ما هو دون ذلك وهو تقديم الطعام بين يدي السيد فإنّ ذلك أمرٌ كثيرا ما يطلب من العبد أو الأجير إن كان التكسب لا يطلب منه، فالله سبحانه وتعالى هو الغني عن ذلك المغني بذلك، ولكونه النافع أبدا فقد أغنى واستغنى، فبث في هذه الأرض كل حاجات الإنسان التي هي منفعة له سواء ما ينبت فيها من الشجر والفواكه والغذاء كقوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا

حقّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ}84، فمن أجل النفع الذي يعود عليكم خلق جنات وحدائق من الكرم، منها ما يغرس ويرفع على دعائم، ومنها ما لا يقوم على دعائم وخلق النخل والزرع الذي يخرج ثمرا مختلفا في اللون والطعم والشكل والرائحة وغير ذلك كثير، وخلق الزيتون والرمان متشابها في بعض الصفات وغير متشابه في بعضها الآخر، مع أن التربة قد تكون واحدة وتسقى جميعها بماء واحد، فكلوا من ثمرها إذا طاب لكم لتنتفعوا به، وأخرجوا منها الصدقة عند نضجها وجمعها لنفع الآخرين، ولا تسرفوا في الأكل فتضروا أنفسكم وتضروا الفقراء في حقّهم، لأن الله لا يرضى عن المسرفين في تصرفاتهم وأعمالهم، ذلك أن النافع جل شأنه لم يخصص خلقا دون خلق بالفائدة والنفع، وإنما كان أمر الله بالنفع عاما، ولذلك جعل خلقه منهم نافع لنفسه ونافع لغيره، ومنهم منتفع بغيره نافع لنفسه، وذلك من أجل أن تستمر الحياة وتعمر الأرض على الوجه الذي أمر به النافع عزّ وجلّ، إذ لا يكمن أن يكون البشر كلهم متساوون وفي درجة واحدة من العلم والفهم والحكمة والحزم والعزم والغنى والفقر والحاجة والاكتفاء، فلو كان الأمر كذلك لتوقفت الحياة، فكانت حكمة النافع جل شأنه أن يجعل هذا التفاوت بين النّاس حتى في الأشكال والألوان والألسنة حاجة ومنفعة متبادلة حيث قال تعالى: {وَمِنْ آَيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ}85 فمن الدلائل على كمال قدرته وحكمته خلق السماوات والأرض على هذا النظام البديع، واختلاف الألسنة في اللغات واللهجات، وتباين الألوان في السواد والبياض والصفرة والحمرة وغيرها، إن في ذلك لدلائل ينتفع بها أهل العلم والفهم، فلو توافقت وتشاكلت

---

[84] الأنعام 141

[85] الروم 22

لوقع التجاهل والالتباس، ولتعطلت المصالح والمنافع، ولم يقتصر نفع الله تعالى لعباده على النبات والزرع، وإنما سخر مخلوقات أخرى لمصلحة الإنسان تدرّ عليه من المنافع ما لا حصر لها، فكل ما يدبّ على ظهر الأرض فيه منفعة للإنسان وإذا ذكرنا قسم منها فهذا لا يعني أن الذي لم نذكره خارج دائرة النفع، وإنما نختار بعض ذلك لتوضيح النفع من النافع لخلقه في خلقه، وقد جاء ذكر بعض هذا النفع في القرآن الكريم مجملا متداخلان وبعضه منفردا مفصلان فمثال الأول كما قال تعالى: {وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}86 حيث ذكر تعالى منافع هذه المخلوقات جملة لبيان التكثير في النفع وليس لبيان جزئيات ذلك النفع، فذكر هذه الأنواع من الأنعام لفائدتها الجليلة ومنفعتها الكبيرة وللموعظة والاعتبار لما في الإبل والبقر والنعم من المنافع دون تفصيل جزئيات المنافع التي تعود منها، ولو أنه ذكر التنقل والارتحال عليها، إلا أن الصورة التي تظهر إبداع النافع في استخراج النفع بالقدرة الإلهية ما تحار به الألباب من تدبير الخالق المبدع الحكيم، حيث يكون الانتفاع بالسقيا من بعض ما في بطونها من بين فضلات الطعام والدم لبنا صافيا سهل التناول كامل الغذاء والفائدة والنفع سائغا للشاربين، وكذلك من ثمرات النخيل والأعناب التي أنعم بها على الخلق فمنها ما يكون عصيرا مسكرا غير حسن، ومنها ما يكون طعاما طيبا حسنا، إن

---

[86] النحل 66 ، 69

في ذلك لعلامة دالة على القدرة والرحمة لقوم ينتفعون بها وينتفعون بعقولهم على إدراك حسن صنعها وإبداعها، وكذلك ألهم ربك النحل أسباب حياتها، ووسائل معيشتها، فأوحى إليها بأن تتخذ من الجبال بيوتا في كهوفها، ومن فجوات الشجر، ومن عرائش المنازل والكروم بيوتا، ثم هداها النافع سبحانه وتعالى، لتنتفع بالأكل من كل ثمرات الشجر والنبات، وسهّل لها أن تسلك لذلك طرقا هيأها لها ربّها مذللة سهلة، فيخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للنّاس، إن في ذلك الصنع العجيب لأدلة قوية على وجود صانع قادر حكيم، وهذا الشراب جعله الله تعالى عاما في النفع، ينتفع به البشر جميعا ولم يأت على التخصيص، لأنّ هناك نفع خاص بالمؤمنين كما قال الله تعالى في نفع القرآن الكريم: {وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا}87 فهو شفاء لما في الصدور من الشك والريب، وسبب رحمة وعفو وغفران لمن آمن به، أما الطعام والشراب فلم يخص منفعته على المؤمن دون الكافر، وإنما جاء النفع عاما دون استثناء أحدن وأما ما جاء مفصلا في فائدته ونفعهن والذي سخره الله لخلقه فهو كثير فقد جاء في قوله تعالى: {وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ}88 فالله سبحانه وتعالى لأنه نافع جعل لكم هذه النعم التي تنتفعون بها وجعلكم قادرين على إنشاء بيوت تتخذون منها مساكن، فجعل لكم من جلود الإبل والبقر والغنم وغيرها منازل

---

[87] الإسراء 82

[88] النحل 80، 81

تسكنون فيها وتنقلونها في حلكم وترحالكم بخفة وسرعة في أسفاركم، وتتخذون من صوفها وشعرها ووبرها فرشا تتمتعون بها في هذه الدنيا إلى حين آجالكم، وكذلك من نفعه لكم أن منحكم الصحة والعافية التي تنتفعون بها لتكونوا قادرين على استخدام هذه المنافع في تحويلها إلى بيوت ومساكن تطمئنون فيها بأمن وسلام، فكان التنوع في المنافع بما جعل لكم من أصواف الضأن وأوبار الإبل وأشعار المعز أثاثا ومتاعا لكم ولبيوتكم من الملابس والفرش وغيرها، وكذلك من المنافع التي سخرها لكم النافع جل شأنه هذه الأشجار التي خلقها فكانت ظلالا تقيكم شر الحر، ومن المنافع أيضا هذه الجبال التي تتخذون منها كهوفا ومغارات تسكنون فيها كالبيوت، ومن الصوف والوبر والشعر والقطن والكتان وغيرها تصونكم من حرارة الشمس، أو تلجئون إلى ظل تستظلون به من الحر كالغمام والشجر والجبل وغيرها، وكذلك تقيكم ألم البرد على اختلاف مصادرها ومنابتها من الحيوانات أو من الزراعة فكلها منافع لكم من النافع جلّ وعلا، وكذلك المعادن فالذهب والفضة تتخذون منها الحلي والزينة والحديد تصنعون منه دروعا تصونكم من قسوة حروب أعدائكم، فجعل لكم هذه الأشياء كلها منافع، ليتم عليكم نعمته وتقروا بفضله، لتنقادوا لأمره وتخلصوا عبادتكم له دون غيره شكرا على تلك المنافع التي حباكم بها، وتتجلى صفة النافع فيما منح الله لخلقه من أشياء ينتفعون بها، في أعظم نعمة وهو الماء الذي جعل منه كل شيء حي، وقد خص النافع جل شأنه الماء بمنافع لا يضاهيها أي شيء آخر مما خلق، وذلك نوع من التكريم لهذا المخلوق حيث قال تعالى: {وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ}[89] وأجل من هذا وأعظم في تكريمه قوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي

[89] الأنبياء 30

خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ}90، وأول ما يتبادر للذهن عند ما يذكر الماء أنه الحياة، فبدون الماء ينعدم وجود الأحياء، وهذا يعني أنه ما من حي تدبّ فيه الحياة إلا والماء هو سبب لحياته، فهذا النفع لا يخفي على أحد، ولا يمكن لأحد أن يقرنه بنفع آخر من أي شيء، أما أنه سبب في المنافع فهي مما لا يكاد يحصيها عدد، ولكن لا بدّ مما ليس منه بدّ، إذ أننا نأخذ بعض وجوه منافع الماء وأولها قوله تعالى: {وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}91 فعلى الرغم من اختلاف البحرين في الملوحة والعذوبة إلا أنهما يشتركان في منافعهما، فهذا ماؤه عذب فرات بالغ العذوبة بحيث يكسر العطش ويقطعه لشدة عذوبته وحلاوته وسهولة تناوله وسائغ شرابه لسهولة انحدار مائه في الحلق فان العذب لكونه ملائما للطبع تتقبله النفس وتستهويه وتجذبه لشعورها بالراحة والطمأنينة، وهذا ملح شديد الملوحة، ومن كل منهما تأخذون مما فيهما من منافع حيث تأكلون لحما طريا مما تصيدون من الأسماك وتستخرجون ما تتخذونه زينة كاللؤلؤ والمرجان، وهذه أولى المنافع التي ينتفع بها النّاس، وأما البحر الأجاج الشديد الملوحة وهو نقيض الفرات، فالحكمة في كون ماء البحر ملحا أجاجا لا يذاق ولا يساغ لئلا ينتن من تقادم الدهور والأزمان وعلى ممرّ الأحقّاب والأحيان فتهلك من نتنه وتعفنه المخلوقات، ولو كان عذبا لكانت انتفت منه الفائدة والمنفعة، بل على العكس لو كان عذبا لأصبح ضرره

---

[90] هود 7

[91] فاطر 12

لا يحتمل بحيث يؤدّي إلى الهلاك وينتفي نفعه، وأما الأنهار العظيمة العذبة فبسبب جريانها دائما لم يتغير طعمها ورائحتها فان التغير إنما يحصل من الوقوف في مكان، ومن كل واحد من البحرين المختلفين في الطعم، تأكلون لحما طريا وتستخرجون حلية وزينة من اللؤلؤ والمرجان، ورب قائل يقول إنّ النساء هن اللواتي يتحلين بالزينة فلماذا كان الخطاب يشمل الرّجال والنساء؟. فنقول لأنّ النفع في هذا الاتجاه يشمل كلا من الرّجل والمرأة، ذلك أنّ المرأة التي تلبس الزينة فإنها تشبع حاجة في أنوثتها وهو جانب يصب في النفع النفسي، والرجل الذي ينظر إلى امرأته وهي متحلية بتلك الزينة فإنّه أيضا يحصل على النفع النفسي من جانب المتعة النفسية أيضا، فلما كان تزينهن بها لأجل الرجال فكأنها زينة ولباسا لهم ولذا اسند إليهم، وأما ما يطلب من ركوب البحر من أجل التجارة والسفر والانتقال فهو أكبر من أن تحصى منافعه فترى السفن تجرى فيه شاقة الماء بسرعتها طلبا للمنافع.

فالنفع من النافع سبحانه وتعالى، لم يتوقف على شيء دون شيء أو على زمن دون غيره ولكنه يكمن فيما خلق الله تعالى من منافع خلقها وسخرها للناس بما شاء أن يكون، قال تعالى: {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}[92] وقبل أن نتناول النفع من الله النافع سبحانه وتعالى، وهذا النفع الناتج عن فعل الكينونة، لا بد من الكلام عن الفعل نفسه، فالله تعالى إنما شأنه في الخلق إذا أراد إيجاد شيء أن يقول له: (كن)، فيكون في الحال، فأمره سبحانه بين الكاف والنون، فإن قال قائل إنما أمره أن يقول له كن فهو يحدث من غير توقف على أي شيء آخر أصلا، فإذا كان المقصود هو تمثيل لتأثير قدرته تعالى فيما أراده بأمر الآمر المطاع للمأمور المطيع في سرعة

[92] يس 82

حصول المأمور به من غير توقف على شيء ما، فلا وجه لحمل الكلام على الحقّيقة، إذ ليس هناك قول ولا آمر ولا مأمور، لأنّ الأمر إن كان واقعا حال وجود المراد تكوينه، فلا وجه للأمر، وإن كان حال عدمه، فالأمر كذلك، إذ لا معنى لأن يؤمر المعدوم بأن يوجه نفسه، والتعقيب والتأخير في فعل الكينونة إنما نشأ من العبارة، وإلا فلا تأخير ولا تعقيب في سرعة نفوذ قضائه وهنا إشارة إلى أن الإرادة الازلية كما تعلقت بإيجاد المكونات تعلقت القدرة الازلية على وفق الحكمة الازلية بالمقدورات إلى الأبد على وفق الإرادة بإشارة أمركن فيكون إلى الأبد ما شاء في الأزل، وبما أن النفع من النافع وهو خاضع لفعل الكينونة ينسحب عليه ما انسحب على الفعل نفسه، ولتوضيح ذلك فقد قال تعالى: {بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}[93] وهنا لا بد من الاستفاضة بشيء من الكلام لتوضيح العلاقة بين الإرادة والكينونة والنفع، فالإبداع إظهار الشيء لا عن مادة ولا في زمان ولاعن مثال يحتذى، وذلك في إيجاده تعالى للمبادئ وهو غير الصنع إذ هو تركيب الصورة بالعنصر، من وجوه ترجع كلها إلى إتمام الشيء قولا أو فعلا وإطلاقه على الإرادة من استعمال اللفظ المسبب في السبب فإن الإيجاد الذي هو إتمام الشيء مسبب عن تعلق الإرادة لأنه موجب في قضى المتعلق بالإرادة، وأما قوله: قضى أي أراد الذي جاء بصيغة الفعل الماضي والذي نتج عنه فعل الكينونة المتضمن للنفع هو ممكن، وعلى هذا فإن كل ما سوى الموجود الواجب ممكن لذاته، وكل ممكن لذاته محدث، وكل محدث فهو مخلوق لواجب الوجود، والمخلوق لخالقه لا يملك له ضرا ولا نفعا، ولبيان أن الله تعالى نافع غير منتفع نقول: أن كل ما سوى الموجود الواجب ممكن لذاته، فلو وجد

---

[93] البقرة 117

أكثر من واجب لاشتركوا في وجوب الوجود، ولامتاز كل واحد منهم عن الآخر بميزات التعين والصفات المختلفة، ولكانوا اشتركوا ببعض الصفات التي لا تقبل المشاركة، كالخلق مثلا وهنا يقع التضارب في الإرادة، فالذي يُشترك به من الصفات غير التي لا تقبل التمايز، فيلزم من صفات الاشتراك، أن تكون مركبة، وكل مُركب متشكل من أجزاء، وكل جزء مفتقر إلى غيره، إذا كل مركب محتاج لسواه، وكل محتاج هو مفتقر لغيره، وكل مفتقر لغيره فهو ممكن الحدوث، وكل محدث يحتاج إلى حادث يحدثهن والحادث الذي أحدث المحدثات انتفت عنه علاقة المنفعة المتبادلة بين المركبات، وبهذا ثبت لله تعالى صفة النافع أبدا، وانتفت عنه المنفعة مطلقان لأن كل ما سوى الله محدث مخلوق، وأن وجوده إنما حصل بخلق الله تعالى وإيجاده وإبداعه، فثبت أن كل ما سواه فهو خلقه وملكه فيستحيل أن يكون شيء من خلقه نافعا له، وهذا يعني أن له كل ما سواه على سبيل الملك والخلق والإيجاد والإبداع. ويتجلى هذا التسلسل من النافع عزّ وجلّ بتدرج المنفعة وانتقالها في خلقه حسب مشيئته من الخصوص إلى العموم في قوله تعالى: {إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ وَيُكَلِّمُ النّاس فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي

ذَلِكَ لَآَيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}94 إن هذه البشرى التي بشرت الملائكة بها مريم بمولود يخلقه الله بكلمة منه على غير السنة العادية في التوالد، لم تكن مريم عليها السلام تدرك النفع الحاصل من الضرر الذي سيلحقّ بها من النّاس جرّاء هذه البشرى، فاستنكرت ذلك متعجبة من وجود الولد على غير نظام التوالد بقولها: من أين يكون لي ولد ولم يمسسني رجل؟ فذكر الله تعالى لها أنه يخلق ما يشاء بقدرته غير مقيد بالأسباب العادية، فإنه إذا أراد شيئا أوجده بتأثير قدرته في مراده من غير افتقار إلى موجب آخر، وما جعله إلا رحمة والرحمة لا تكون إلا في مجال النفع، لذلك صبرت واحتسبت أمرها إلى الله، لأن دلالة البشرى لا تكون إلا في خير ونفع، وقد خلقه الله ذا مكانة في الدنيا بالنبوّة والبراءة من العيوب وهو أعظم خير لحمل النفع ولمن ينتفع منه في الدنيا، وفي الآخرة بعلو درجته مع الصفوة المقربين إلى الله من النبيين وهذا أعلى درجات النفع، وأما ما ميزه الله به من خصائص حيث كان يكلم النّاس وهو طفل في مهده كلاما مفهوما حكيما، كما كلمهم وهو رجل سوي، من غير تفاوت بين حالتي الطفولة والكهولة فكان نفعه في مهده وطفولته كنفعه في رجولته، وهذا النفع المتدلي نزولا من النافع إلى المنتفعين هو من طرق إثبات الصفات الدالة على المتصف بالصفة، فإذا كان النافع جل شأنه أسبغ على المنتفع المخلوق من النعم ما يكون به أهلا لنفع الآخرين، فإن المخلوق يدل على وجود خالقه، وعلى حياته، وعلى قدرته وقوته، وعلى علمه وحكمته ومشيئته باختياره. فالفعل الاختياري يستلزم ذلك استلزاما ضروريا. لأنّ ما فيه من الإتقان، والإحكام، ووقوعه على أكمل الوجوه يدل على حكمة فاعله وعنايته وما فيه من الإحسان والنفع، ووصول المنافع العظيمة إلى

[94] آل عمران 45 49

المخلوق يدل على رحمة خالقه، وإحسانه وجوده، وما فيه من آثار الكمال يدلّ على أنّ خالقه أكمل منه، فمعطي الكمال أحقّ بأن يكون كاملا وواهب النفع مستغنٍ عنه بالضرورة.

فقد وهب النافع للإنسان الفطرة، ورفده بالعقل ومنحه التفكر، وجمع له هذه الخصال وما هو أكثر منها في نفسه، وبسبب هذه الميزة الظاهرة فضل جميع المخلوقات حتى صار يبلغ منها مراده بالتسخير والإعمال واستخراج المنافع منها وإدراك الحاجات بها وهذه الميزة التي له مستفادة بالعقل، لأن العقل ينبوع العلم، والعلم أداة وسيلة للتفكر، والعلم والفكر يشد بعضه بعضا، فصواب بديهة الفكرة من سلامة العقل، وصواب روية الفكرة من صحة الطباع، وصحة الطباع من طمأنينة النفس لأن النفس المطمئنة هي أعظم الأنفس نفعا من الله النافع ولذلك خاطبها عزّ وجلّ حيث قال تعالى: {يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي}95 إنّ النفس المطمئنة هي التي نالت أعلى درجات النفع من النّافع، والمنتفع هو الذي أشبع حاجاته فوصل إلى السعادة لذلك وضح الله تعالى بيان سعادة النفس المطمئنة. والاطمئنان السكون بعد الانزعاج وسكون النفس إنّما هو بالوصول إلى غاية الغايات في اليقين والمعرفة والشهود وفي قوله تعالى: {أَلاَ بِذِكْرِ الله تَطْمَئِنُّ القلوب}96 تنبيه على أنه بمعرفته تعالى والإكثار من عبادته يكتب اطمئنان النفس الذي فيه أعلى درجات النفع وإذا وصلت النفس إلى مقام الاطمئنان بذكر الله صار صاحبها في مقام التمكين آمنا من الرجوع إلى الأحكام الطبيعية والآثار البشرية.

---

[95] الفجر 27، 30

[96] ، الرعد 28

وعليه، فالذي يعرف مكامن النفع إنما هو الخليفة النافع بالإضافة المهتدي إليه بعقله وقلبه، لأن العقل بالضرورة يعرف أسباب النفع ومسبباته، وفي القلب تكمن السكينة، وهما القوّة العاقلة والضامرة التي تستطيع الترقي، وأن القوّة العاقلة إذا أخذت تترقى في سلسلة الأسباب والمسببات، فكلما وصل إلى سبب يكون هو ممكنا لذاته طلب العقل له سببا آخر، هكذا تطمئن القلوب والنفس بذكر الله، فكلما ذكر الذاكرين ربهم عليه الصّلاة والسّلام ازدادوا اطمئنانا، وهكذا ينتقل العقل من كل شيء إلى ما هو أعلى منه معرفة، حتى ينتهي في ذلك الترقي إلى واجب الوجود لذاته مقطع الحاجات ومنتهى الضرورات، فلما وقفت الحاجة دونه وقف العقل عنده واطمأن إليه القلب والنفس، ولم ينتقل عنه إلى غيره، فإذًا كلما كانت القوّة العاقلة ناظرة إلى شيء من الممكنات ملتفة إليه استحال أن تستقر عنده، وإذا نظرت إلى النافع جلّ وعلا، وعرفت أن الكل منه استحال أن تنتقل عنه، فثبت أن الاطمئنان لا يحصل إلا بذكره تعالى، وأن حاجات العبد متنوعة ومتعددة ومتطورة إلى النهاية، ولا بقاء ولا قوة ولا قدرة إلا من النافع تعالى، فالاطمئنان في الحياة الدنيا هو شعور نفسي بالرضا غير الذي سبق ذكره من اطمئنان الآخرة، ويعود على المطمئن بمنافع كثيرة من الشعور بالارتياح والرضا عما يقول ويعمل، مما يولد السكينة والوقار، الأمر الذي يجعله أكثر نفعا، وأكثر النّاس اطمئنانا هو الخليفة لذلك يحمل من الشعور بالارتياح والرضا ومن الهيبة والسكينة والوقار ما يجعله أكثر النّاس نفعا، ومن هنا كان نافعا بالإضافة، ولو لم يكن الله هو النافع ما كان الخليفة، ولهذا الخليفة هو النافع بالإضافة، حيث استمداده قيمة النفع من النافع المطلق جلّ وعلا، ولما كان الخليفة بما حباه الله من النعم وما أسبغ عليه من الصفات النسبية، فهو إذا نافع بالإضافة لما استخلف فيه من أمور الخلق، ونفع الخليفة هو جزء من

التكليف المفوض به حيث أنه يسهم في إشباع حاجات المجتمع على اختلاف منافعها سواء أكانت دنيوية أم أخروية، فالخليفة يكون نافعا بالأمر والنهي والمشورة والرأي الصائب الذي يسهم في الإصلاح أو يؤدّي إليه، وهو بهذا يكون نافعا بالإضافة لأنّ الله تعالى قال: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ}97 والمراد بسوق السحاب الحامل للماء أن الله النافع يجري المطر إلى الأرض التي قطع نباتها فيخرج به زرعا تأكل منه أنعامهم، ويأكلون حبه وثمره، لأنه هو الذي ينسب إلى الله تعالى، وأمّا السقي بالأنهار فمنسوب إلى العبد وإن كان الإنبات من الله تعالى، فالنافع هو الذي يسوق الماء إلى الأرض الميتة فتسقى وتنبت حدائق وبساتين بعد جفاف عودها وزوال المأنوس منها، فيعود عودها مورقا بعد ذبوله فيخرج به زرعا ونباتا ينتفع به، فهذا النافع وهذه قدرته جل شأنه، وأما الخليفة فإنه نافع بالإضافة حيث يأمر بشق الترع وحفر الآبار ونصب السواني ومدِّ الأنابيب وما إلى ذلك من وسائل النفع التي بها تعمر الأرض ويتم إصلاحها، ولهذا الخليفة مصلح لا مفسد فهو الذي ينفق في أوجه الإصلاح والعمار، ولا يتأخر عن ذلك، وذلك لأنه يعلم أن نتيجة ما ينفقه على الآخرين الذين هم في حاجة يعود عليه يوم الحساب رحمة، قال تعالى: {وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ}98 ولأنّ ما تبذلونه من معونة لغيركم ففائدته عائدة عليكم ومنفعته تكون لكم، والله مثيبكم عليه، ويكون الخليفة نافعا في صونه أرواح النّاس وأعراضهم والحفاظ على مصالحهم وتعليم أبنائهم القول الحقّ، ذلك أن العلم هو مفتاح المنافع لما يعود به على المجتمع بأسره،

97 السجدة 27

98 البقرة 272

فالمعلم والطبيب والمهندس والعامل كل واحد من هؤلاء يؤدّي منافع متنوعة، وهنا يقوم الخليفة النافع بتوجيه منافع الله تعالى لأنّ لله عبادا يختصهم بالنفع لمنافع العباد، فنعم الله في أرضه وافرة المنافع.

وبما أنّ العباد لا يصلح حالهم إلا بالتقوى، فقد أوكل الله الخليفة كونه نافعا بالإضافة في توجيه هذا النفع بما يعود على جميع أفراد المجتمع بالخير الوفير، وأوّل توجيه للخليفة النافع في هذا المجال يكون في توزيع ملكية الأرض، مصداقا لقوله تعالى: {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ}[99] فالأرض ليست ملكا خاصا لأفراد أو جموع معينة، ولا ملكا حكوميا لحكومة معينة أو مجموعة حكومات، الأرض لله تعالى، ولذا فهي ملك لكل مصلح، ولهذا فالخليفة مصلح لا يسمح بأن يستأثر عدد قليل من الأفراد بأكبر مساحة من الأرض على حساب حاجات الآخرين، وذلك كي لا ينقلب النفع ضررا، ولهذا يكون توجيه النفع من قبل الخليفة بالتوزيع العادل للأرض التي استخلفه الله فيها بشكل يناسب إصلاح النّاس جميعا، ثم يوجه استخدام الملكية حسب حاجة المجتمع في زراعتها مراعيا سدّ الحاجة ومشبعاتها المتطورة والمتنوعة، فالخليفة يتصف بصفة النافع النسبية ويؤدّي النفع ويقدمه في جميع مرافق الحياة، فالله لم يترك الخلق غفلة ولا هملا لا في دينهم ولا في دنياهم لشدة ما حباهم به من منافع حيث قال تعالى: {وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ}[100]، أي لا تستطيعون أن تحصروا وتحصوا ما أنعم عليكم من

[99] الأنبياء 105 . 108.

[100] إبراهيم 34

المنافع التي سخرها خدمة للناس إلا أننا سنذكر عشر دلائل تتجلى من خلالها المنافع التي شمل بها النافع عزّ وجلّ خلقه بها، فالله الذي خلق السماوات والأرض، وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم، وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره، وسخر لكم الأنهار، وسخر لكم الشمس والقمر دائبين، وسخر لكم الليل والنهار، وآتاكم من كل ما سألتموه، وعلى الرغم من جزيل هذه النعم والمنافع، فإن كثيرا من العباد لا يشكرون النافع على ما أكرمهم به، ومع ذلك فإن الله تعالى كونه حليما رحيم فهو نافع بحلمه ورحمته الواسعة، إذ أجل عنهم الحساب والجزاء في الثواب والعقاب بصفته مؤخرا لأنه نافع حتى وإن تمادى بعض الخلق في الطغيان على سبيل التحدي بقولهم: {وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ}[101] وذلك عند سماعهم بتأخير عقاب الله تعالى إلى الآخرة فقالوا ذلك بطريق الاستهزاء والسخرية ربنا عجل لنا قسطنا ونصيبنا من العذاب الذي توعدنا به ولا تؤخره إلى يوم الحساب، إلا أن الله الحليم الرّحيم النافع يؤخر الحساب لتكون الفرصة سانحة أمام من يتوب لتكون المغفرة رحمة واسعة من النافع على المنتفع، قال تعالى: {ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ}[102] فالذين عملوا السوء تحت تأثير طيش وغفلة عن تدبر العواقب، ثم تابوا من ذلك الذنب، وأصلحوا نفوسهم وأعمالهم، فإن ربك يغفر لهم ذنوبهم، فالتوبة لا تكون إلا من بعد الانغماس في السيئات والزلات والغفلات، ولهذا فهي تأتي بعد الصحوة من الغفلة والالتفات إلى الطاعات والعبد إذا رجع عن السيئة وأصلح عمله أصلح الله شأنه، ولهذا ينال التائب نفع النافع من تأخير العقوبة في فسح المجال أمامه ومنحه فرصة العودة إلى

---

[101] ص 16

[102] النحل 119

الطاعة وطريق الهدى وسبيل الرشاد، وبذلك تعود عليه أفضل المنافع رحمة وشفاء من ضلال، أنه نافع وخير النفع من النافع ما كان في الآخرة حيث قال تعالى: {وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}103 فقد وعدهم الله الجنّة خالدين في نعيمها وأعد لهم مساكن تطيب بها نفوسهم في دار الإقامة والخلود، ولهم مع ذلك رضا اللّه عنهم يستشعرون به، وهو النعيم الأكبر، وذلك هو الفوز العظيم، وكذلك فالله النافع في الدنيا فإن نفعه في الآخرة كونه المؤخر أكبر فائدة وأعظم نفعا فقد قال تعالى: {وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الجنّة زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الجنّة حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ}104 فكانت مكافأتهم عظيمة من النفع الدائم الذي لا يحول ولا يزول ولا يبلى، وكما كانوا منتفعين من الأرض في الدنيا والتصرف والتمكين مما هو يعود عليهم بالنفع، كذلك كان جزاؤهم من النافع في الآخرة بأن أورثهم الجنّة، حيث دخل المتقون إلى الجنّة جماعات جماعات، وأفواجا أفواجا، حتى إذا بلغوها، وقد فتحت أبوابها، وقال لهم حفظتها: أمان عظيم عليكم، طبتم في الدنيا من دنس المعاصي، وطبتم في الآخرة بما نلتم من النعيم، فادخلوها مقدرا لكم الخلود، فإن لكم من النعيم ما لا يخطر على بال وهذا هو منتهى النفع، غير أن بعض النّاس يصرف وقته وجهده وعمله فيما يسخط الله لكي يرضي بعض النّاس ظننا منه أن أعماله هذه نافعة، مثل الذين يمشون بالنميمة أو يحلفون بالله كذبا ليرضى النّاس عنهم ويشعر أنه انتفع بهذه

---

103 التوبة 72

104 الزمر 73، 74

الأعمال فقد قال تعالى: {يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ}105، فيعتذرون ويؤكدون معاذيرهم بالإيمان ليعذروهم ويرضوا عنهم، وبذلك يعتقدون أنهم نالوا النفع. غير أنّ الله سبحانه وتعالى يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، فالذي يكون هذا دأبه لكسب المنافع بما يسخط الله تعالى فقد عاد عمله عليه ضررا، فبكسب منافع الدنيا يخسر الآخرة ويسخط الله عليه ويسخط عليه النّاس أيضا، مع العلم أن رضا النّاس غاية لا تدرك، وما أرضى أحد قوما إلا أغضب آخرين، ولهذا رضا الله أيسر، فلماذا الغفلة؟! فهو المستحقّ لأن يقصد وحده إذ هو المسخر للقلوب بالمنع والإعطاء فلا رازق ولا معطي ولا ضار ولا نافع إلا هو تبارك وتعالى، فكيف يترك الله تعالى ونفعه برجاء كاذب ووهم فاسد ناقص يصيب ويخطئ، وهذا الواهم المنافق الكاذب لو أطلع النّاس على ما في قلبه من الرياء لطردوه ومقتوه، فمن أراد أن ينتفع وينفع الآخرين فعليه أن يتخلق بالفضائل ويترك الرذائل لأن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، وبهذا تكون منه المجاهدة في التوجه إلى النافع جل شأنه لأن الله لا يضيع أجر المحسنين حيث قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا}106. فالله لا يظلم أحدا شيئا ولا ينقص من أجر عمله ولا يزيد في عذابه شيئا، ويضاعف للمحسن ثواب حسناته مهما قلت، ويعطي من فضله عطاء كبيرا غير مقابل بالحسنات التي يضاعفها وهذا هو النفع المرتجى.

لكن الذي شغل نفسه بطلب رضا النّاس عنه وتحسين اعتقادهم بظنه أنهم يقدمون له نفعا أو يدفعون عنه ضررا فهو مغرور،

---

105 التوبة 62

106 ، النساء 40

لأنه لو عرف الله حقّ المعرفة علم أن الخلق لا يغنون عنه شيئا، وأنه لا نافع إلا هو جلّ وعلا، ولهذا رضا النّاس صعب لا ينال، ورضا الله النافع ميسَّر لا صعوبة فيه، إنه سهل المنال، فمثل هؤلاء كمن يستبدل ما هو أدنى بما هو خير، ولهذا فالخليفة فاز بنيل رضا الله النافع جلّ وعلا، قال تعالى: {قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}107. فذلك اليوم الذي ينفع فيه الصادقين صدقُهم، لهم حدائق تجرى تحت أشجارها الأنهار، وهم مقيمون فيها لا يخرجون منها أبدا، يتمتعون فيها برضوان الله عنهم ورضاهم بثوابه، وذلك النعيم هو الفوز العظيم وهو أعلى درجات النفع. غير أن الأخذ بالأسباب في الدنيا هو الذي يؤدّي إلى نفع الآخرة، والعمل النافع ما كان حال التكليف، فالجاني المعترف يوم القيامة بجنايته لا ينفعه اعترافه وصدقه وكذلك الجاني المعترف في الدنيا بجنايته لا ينفعه يومئذ اعترافه وصدقه، فإنه ليس المراد كل من صدق في أي شيء نال النفع.

إنّ الأمور كلها تنقسم إلى ما هو نافع في الدنيا والآخرة جميعا كالعلم وحسن الخلق برحمة من الله وفضله حيث قال تعالى: {وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ}108 فلولا فضل الله ورحمته عليهم في الدنيا بعدم التعجيل بالعقوبة، وفي الآخرة بالمغفرة لنزل بهم عذاب عظيم، وإلى ما هو ضار فيهما جميعا كالجهل وسوء الخلق الذي يؤدّي إلى الكفر، لذلك قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ

107 ، المائدة 119

108 النور 14

أَلِيمٌ}109 فهو لن ينفعهم أبدا إن استطاعوا أن يملكوه، وإلى ما ينفع في الدنيا ويضر في الآخرة، كالتلذذ بإتباع الشهوة، وإلى ما يضر في الدنيا ويؤلم ولكن ينفع في الآخرة كقمع الشهوات ومخالفة النفس الهامعة والضالة، فالنافع في الدنيا والآخرة هو النعمة وما شملت مادية كالمال والبنين إذا وجهت وفق ما أراده النافع جل شأنه فقد قال الله تعالى: {يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ}110، أي بنفس سليمة من الكفر والمعاصي وإنما أضاف السلامة إلى القلب لأن الجوارح تابعة للقلب فتسلم بسلامته وتفسد بفساده حيث قال صلّى الله عليه وسلّم: "أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ"111. فالذين يقولون نحن أكثر أموالا وأولادا فأخبر الله انه لا ينفعهم ذلك اليوم لا المال ولا البنون لعدم سلامة قلوبهم في الدنيا وأما المستخلفون فيها فتنفعهم خيراتهم وينفعهم ما عملوا من عملا صالحا. والقلب السليم الذي ينفع صاحبه له ثلاث علامات:

أوّلاها ألا يؤذى أحدا.

والثانية ألا يتأذى من أحد.

والثالثة إذا اصطنع مع أحد معروفا لم يتوقع منه المكافأة، فإذا هو لم يؤذ أحدا فقد جاء بالورع، وإذا لم يتأذَّ من أحد فقد جاء بالوفاء، وإذا لم يتوقع المكافأة باصطناع المعروف فقد جاء بالإخلاص، وهذا ما يعود عليه بالنفع في الآخرة. والمنفعة معنوية هي كالعلم وحسن الخلق.

---

[109] المائدة 36

[110] الشعراء 88، 89

[111] صحيح مسلم، ج 8، ص 290

والنفع يندرج تحت باب الخير والنعم، والخيرات تنقسم إلى نافع ولذيذ وجميل، فاللذيذ هو الذي تدرك راحته في الحال، والنافع هو الذي يفيد في المآل، والجميل هو الذي يستحسن في سائر الأحوال، فالخير كالعلم والحكمة فإنها نافعة وجميلة ومفضلة عند أهل العلم والحكمة، وأما في الشر فكالجهل فإنه ضار وقبيح ومؤلم، وإنما يحس الجاهل بألم جهله إذا عرف أنه جاهل، وذلك بأن يرى غيره عالما، ويرى نفسه جاهلا، فيدرك ألم النقص فتنبعث منه شهوة العلم اللذيذة بحيث يشعر بحاجة الانتفاع من العلم، ثم قد يمنع الحسد والكبر والشهوات البدنية عن التعلم فيتجاذبه متضادان فيعظم ألمه، فإنه إن ترك التعلم تألم بالجهل وأدرك النقصان، وإن اشتغل بالتعلم تألم بترك الشهوات أو بترك الكبر وذل التعلم فيكون قد بادر إلى النفع، وضروب النفع وأنواعه مختلفة، فرب نافع مؤلم كقطع العضو الضار من الجسد، ورب نافع قبيح كالأحمق الذي لا يستغنى عنه، وفقدان العقل نافع لمن فقد عقله لأنه رُفع عنه القلم، ورب نافع من وجه ضار، كإتلاف المال لإنقاذ النفس أو إتلاف بعض المال لإنقاذ بعضه، فإنه ضار للمال نافع للنفس في نجاتها. والنافع الضروري كالإيمان وحسن الخلق فهما يوصلان إلى سعادة الآخرة وهما العلم والعمل إذ لا يقوم مقامهما شيء، ثم إن العلم نافع وجميل في كل حال أبدا، والمال تارة يجذب إلى الهلاك وتارة يجذب إلى النجاة، ولذلك ذم الله تعالى المال في القرآن في مواضع حيث قال تعالى:{وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ}112 وإن سماه خيرا في مواضع أخرى حيث قال تعالى: {الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا}113، وأمّا قصور أكثر الخلق عن إدراك لذة العلم

[112] الأنفال 28

[113] الكهف 46

كونه نافعا، فإمّا لعدم الذوق وإمّا لعدم الشوق، إذ الشوق تبع للذوق، وإما لفساد أمزجتهم ومرض قلوبهم بسبب إتباع الشهوات، كالمريض الذي لا يدرك حلاوة العسل ويراه مرا فلا يرى فيه نفعا، وإما لقصور فطنتهم، إذ لم تخلق لهم بعد الفطنة التي بها يعرف نفع العلم، كالطفل الرضيع الذي لا يميز بين التمر والجمر، فلكل منهما منافع ولكنّه لا يملك توجيه المنفعة، فالقاصرون عن إدراك منفعة العلم والحكمة ثلاثة، إما من لم يحي فطنته كالطفل، وإما من مات بعد الحياة بإتباع الشهوات، وإما من مرض بسبب إتباع الشهوات وكان في قلبه مرض كما قال تعالى: {فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ}114 إشارة إلى مرض العقل وهذا إنذار من الله لمن كان حيا، لأنه لم يحيى حياة ينتفع بها، وكل حي بالبدن ميت بالقلب فهو عند الله من الموتى وإن كان عند الجهال من الأحياء، ولذلك كان الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون فرحين وإن كانوا موتى بالأبدان، غير أن الله تعالى أحياهم حياة لا نعرفها ولم نألفها، لأننا نحن أحياء في الحياة الدنيا وما يحكمها من القوانين الطبيعية والفيزيائية وفق الغذاء والزمان والمكان، ولكن النافع جل شأنه عندما أراد (وهو مريد) مكافأة من يقتل في سبيله نفعه بما لم ينتفع به أحد فجعلهم أحياء عنده عليه الصّلاة والسّلام حيث قال: {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحقوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ}115، فهؤلاء الذين قُتِلوا في سبيل الله ليسوا أمواتا بل هم أحياء حياة استأثر الله بعلمها، يرزقون عند ربهم رزقا حسنا لا يعلمه إلا

114 البقرة 10

115 آل عمران 169، 171

هو، يتألق السرور بالبشر من وجوههم بما أعطاهم الله بسبب فضله من المزايا، ويفرحون بإخوانهم الذين تركوهم في الدنيا أحياء مقيمين على منهجهم وبأنه لا خوف عليهم في شيء ولا من شيء، ولا هم يحزنون لفوات شيء يندمون عليه، وبالنتيجة أن هؤلاء قتلوا وماتوا. وصفوة القول في هذا أن الله سبحانه وتعالى كونه النافع، فكل ما خلقه من شيء إن هو إلا نفع للبشر لأن الله كان بخلقه رحيما، فما من شيء من المأمور بأخذه أو فعله إلا وبه خير ومنفعة للإنسان، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النّاس كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ}116 وما من شيء منهي عنه إلا لمصلحة الإنسان ولعلم الله أن في النهي والمنع منفعة للإنسان حيث قال تعالى: {قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالحقّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}117 فهذه المنهيات التي أمر الله تعالى باجتنابها والابتعاد عنها إنما هي من المحرمات التي ينبغي أن لا تقربوها وتبتعدوا عنها لأن الضرر يكمن فيها، والنفع يأتي من اجتنابها وتركها، فلا تجعلوا لله شريكا، بأي نوع كان من أنواع الشرك وهذا أعظم الضرر وأبعد ما يكون عن النفع، ولا تسيئوا إلى الوالدين، بل أحسنوا إليهما إحسانا بالغا حتى تبلغوا مرضاة الله التي تنالون بها أعظم المنافع، ولا تقتلوا أولادكم بسبب فقر نزل بكم، أو تخشون نزوله في المستقبل، فلستم أنتم الرازقين لأن الرزاق هو الله النافع الذي ينفعهم برزقه، بل هو الذي يرزقكم ويرزقهم، ولا تقربوا الفواحش من الزنا والرّبا والخمر التي تؤدي إلى انتشار الرذيلة التي تجلب الأضرار، وتدحر

[116] البقرة 168

[117] الأنعام 151

الفضيلة التي تحمل لكم جميع المنافع فهذه الأمور متناهية في القبح والسوء، سواء ما ظهر منها للناس حين إتيانها أو ما لم يطلع عليه إلا الله، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله قتلها لعدم موجبه، إلا إذا كان القتل بحقّ تنفيذا لحكم قضاء يجلب المنفعة، فبديهة العقل وفطرة الإنسان التي جبلت على الخير تقتضي اجتناب ما ذُكر جلبا للمنافع. وبالنتيجة فإن أمور العباد وتصرفاتهم رجعها ومآلها إلى مولاهم ونفعهم وضرهم إلى الله النافع، فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء، حيث لا ينفع مال ولا بنون ولا شيء من محاسن الدنيا وملكها إلا إذا أراد الله أن ينفعه بأن ينال العفو والمغفرة وتشمله رحمة الله تعالى ليكون من الذين انتفع في الآخرة بأسباب ما قدم في حياته الدنيا على الرغم من قلته نسبة إلى الخيرات والنعم والمنافع التي سخرها له النافع عزّ وجلّ، فالله سبحانه نافع لأنّه هو خالق المنافع وهو مصدرها، أي لو لم يكن النافع ما كانت المنافع، وجميع خلقه تحت رعايته وفي عنايته، وجميع خلقه محتاجون إلى نفعه، وهو غني عن المنافع ومغنٍ بها لما خلق، وإن عمَّ جميع الأحياء إلا أنه خص الإنسان دون غيره لأنه نفعه وميزه عن بقية المخلوقات بنعمة (أحسن تقويم) وبذلك استخلفه في الأرض وهيأ له أسباب الخلافة وإمكاناتها بما يعود عليه بكسب النفع الذي يؤدّي إلى حسن الخاتمة.

وعليه فالنافع هو الذي بيده الأمر والنهي، وهو على كل شيء قدير، وهو مالك الملك، ولذا فهو ينفع بما يملك من أمر وقوة وقدرة وعلم وحكمة، إنه عالم الغيب والشهادة وهو الرّحمن الرّحيم.

النافع، هو من يملك المطلق الذي به يتم النفع، ولذا فهو النافع في الظاهر والباطن، وهو الذي بيد المشيئة، الحياة ومعاشها بضيائها ونورها، والممات وراحته وسكونه، والبعث وسرمديته ونعيمه. ولهذا

النافع هو من لا حاجة تلاحقّه وهو بمشبعاته يمد حاجات المخلوقين رزقا.

من

صفات النبي إبراهيم

1. مُبْتَلَى:

الابتلاء اختبار للطائعين لأجل أن يزدادوا إيمانا ويقينا، فالأنبياء والرّسُل، والصالحون، والصِّدِّيقون، والذين هم على خُلق عظيم، يتعرضون لذلك فيزدادون تثبيتا.

قال تعالى: {وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ}[118]

فالكلّمات التي ابتلى الله تعالى بها إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام، يصعب حصرها فيما جاء في بعض التفاسير.

ومنهنّ إنّه جعله إماما، وأمره بتطهير البيت، وأداء المناسك.

ونحن نقول: الابتلاء الأكبر أن يقبل إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام أن يُقْدِمَ على ذبح ابنه إسماعيل ويفوز بالجائزة ويكرم بالطمأنينة.

ومن ابتلائه أيضا أن يتقبل وضعه في النّار، ولا يقبل أن يحيد عن أداء المهمة التي كلّفه الله بها للعالمين.

---

[118] البقرة 124، 125.

ولأنّ في ابتلائه تكريم له قال تعالى: {قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آَلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ}119

وقال تعالى: {فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآَخِرِينَ سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إنّه مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ}120.

2. خَيِّرٌ: وهو من يحب الخير للآخرين، ولا يأمل لهم ضررا، إلا بما كسبت أيديهم.

ولأنّ إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام من الخيّرين الأبرار، كان يأمل أن يَعُمَّ الأمن والرزق كلّ البلاد، ولم يقصر هذه الأمنية على زوجه وبنيه، إنّها نفس المؤمن المصلح والنبي المصطفي.

مصداقا لقوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ ربّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آَمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آَمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ}121

ولذا فالمفلحون هم وحدهم الذين يزرعون الخيرات في نفوس العباد، وفي إعمار الأرض، وحماية العِرض، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويدافعون عن النفس التي حرّم الله أن تقتل بغير حقّ.

مصداقا لقوله تعالى: {وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}122

[119] الأنبياء 68. 70.
[120] الصافات 103. 111.
[121] البقرة 126.
[122] آل عمران 104.

وقوله تعالى: {وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالحقّ}123

3 . حنيف: الحنيف هو المستقيم ومتبع الهداية، والمخلص في اتباع الحقّ المتمسك به، والداعي إليه والمدافع عنه.

ولأنّ الاستقامة في قول إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام، وفي سلوكه، وعمله، وفعله، كان إبراهيم حنيفا مؤمنا، موحدا لله تعالى، كافرا بما يعبد الكفّار والمشركون.

قال تعالى: {قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}124

وقال تعالى: {قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}125

4 . محاججٌ: أي مجادل في الحقّ بقوله واتباعه، ولذلك فالمحاجة لا تكون إلا بامتلاك السند الذي يَحتكم به ويُحتكم إليه.

ولذا فإبراهيم عليه الصّلاة والسّلام كان متقيا لله في أقواله وأفعاله، ولا يخاف في الله لومة لائم.

ومن يكون كذلك يُطْمَأَنُّ إليه، ويُؤخَذُ برأيه، ويُتبع إلى ما يدعو إليه.

ولذا كان إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام أمة.

قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ

[123] الأنعام 151.

[124] البقرة 135.

[125] آل عمران 95.

إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آَيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}126.

المؤمن ليس له بدّ إلّا أن يقتنع بالحجّة الصادقة التي لا يأتيها الباطل أبدا، ولهذا فالمجادل بعد معرفته الإعجاز واطلاعه عليه، وفقا لنصّ الآيتين السابقتين قال: (فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ).

وهكذا كانت المحاجّة بين إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام، وربّه في قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ ربّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}127.

وعليه فالمجادلة محاجّة في الحقّ بالحقّ، ولا تكون إلّا على منطق التمسك به، وعدم الحياد عنه، إلى أن يتبيّن الحقّ للمجادلين والمحاجّين.

قال تعالى: {فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ}128

---

[126] البقرة 258، 259.

[127] البقرة 260.

[128] هود 74.

وعليه فمجادلة إبراهيم في قوم لوط، مجادلة حقّ إلى أن تبيَّن الحقّ.

ولذا فإنّ المحاجّة من صفات إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام.

والمجادلة لا تكون إلا بعد التمسك بالأسباب المحقّة للحقّ، بعد تبيُّنه ومعرفته من أحد الأطراف المجادلة، وبأسباب التمسك بما يخالفه من بعض الأطراف الأخرى {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ}[129]

5 . البحث عن الطمأنينة: ولأنّ إبراهيم حنيفا مؤمنا تضرَّع إلى ربّه أن يَرِيه كيف يحيي الموتى فأراه فأطمأن قلبه مصداقا لقوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ ربّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي}[130].

ولذا فالطمأنينة غاية من غايات المؤمنين الذين يتبعون ملة إبراهيم حنيفا وتطمئن قلوبهم بذكر الله {الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ}[131].

وعليه:

فالنفس المطمئنة هي التي تعلم الحقّ وتعرفه وتتبعه، وهي التي لا تقول الباطل ولا تتبع أفعاله، تحب العباد وهم يحبونها، وتتقي الله ولا تشرك به شيئا، ولهذا فهي المطمئنة، ومصيرها الجنّة مصداقا لقوله

[129] الأنعام 74.

[130] البقرة 260.

[131] الرعد 28.

تعالى: {يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى ربّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي}132.

6 . التيقُّن: عندما يرى الإنسان الحقّيقة بأم عينيه يتيقَّن بإزالة اللبس والغموض عنه، ولا يكون للظن مكان من بعده في الذهن أو العقل، ولا يكون وجود للشكوك التي تزحزح العباد عن اتباع الحقّ والدفاع عنه والتبشير به، ولهذا فقد أرى الخالق إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام ملكوت السماوات والأرض فكان من الموقنين للحقّ، مصداقا لقوله تعالى: {وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ}133.

ولأنّ إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام حنيفا ونبيا من المرسلين فهو العابد لربّه، والمسبّح باسمه في كلّ حين، ولإكثاره التعبد لله ربّ العالمين أظهره الله على اليقين حتى أصبح التيقن صفة من صفاته العظام.

ولهذا على المؤمن أن يعبد ربّه العزيز ليكون على اليقين مصداقا لقوله تعالى: {وَاعْبُدْ ربّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ}134

واليقين يكون على ثلاثة أوجه:

أ . حقّ اليقين: هو الشيء الذي يجب أن يُتبع، وهو أيضا الشيء الذي يجب الحياد عنه {فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ وَأَمَّا إِنْ

---

[132] الفجر 27 . 30.

[133] الأنعام 65.

[134] الحجر 99.

كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حقّ الْيَقِينِ}135

وعليه فإنّ حقّ اليقين بيّن لا يُخفي، ولا لبس ولا غموض ولا معذرة من بعده فليؤمن من يؤمن، وليكفر من يكفر.

ب ـ علم اليقين: هو العلم الذي لا يزحزحه باطل، ولا تشوبه شائبة ولا يغيّره مُتغيّر، ثابت ثبات الجنّة، وثبات جهنّم، وثبات الحياة الدنيا في عالمها الزائل، وثبات الحياة الآخرة في عالمها الباقي، والذين ألهاهم التكاثر في الحياة الدنيا سيرون بأمهات أعينهم، وكامل وعيهم الجحيم عندما يُصلَون، أمَّا المؤمنون فيعلمونها علم اليقين قال تعالى: {أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ}136.

ج ـ عين اليقين: هي الحقّيقة هي كما هي عليه، فعندما يقف الإنسان عندها يراها بعينيه ماثلة أمامه، سواء كانت ذات مؤثر موجب أو ذات مؤثر سالب سواءا كانت الجنّة أم كانت النّار، وسواء أكان الثواب أم العقاب، فالحقّيقة لم تعد معرفة عن خبر أو علم غيب، بل هي المثول فيها قال تعالى: {لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ}137.

7 ـ الاستغفار: إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام محب للخير وعامل عليه، ومحب للأهل وعامل من أجلهم، ولكن عمله من أجلهم لأجل أن يكونوا على الطاعة والتوحيد لا الكفر والشرك بالله تعالى.

---

135 الواقعة 95.

136 التكاثر 1 ـ 5.

137 التكاثر 6، 7.

ولذا فالاستغفار عبادة لله وطاعة له وهو على أوجه ثلاثة:

أ ـ الاستغفار المباشر: أن يستغفر العبد كلّما أخطأ، ويحيد عن ارتكاب كلّ ما من شأنّه أن يؤدّي به إلى الخطأ الذي يعد ارتكابه معصية لأمر من أوامر الطاعة أو الانتهاء أو الاجتناب، وإذا ما تكرر معه الخطأ تكرر من بعده الاستغفار.

ولذا فالاستغفار يعد تكفيرا عن السيئة أو الخطأ، قال تعالى: {وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ}[138]وقوله تعالى: {قَالَ ربّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ}[139].

ب ـ الاستغفار غير المباشر: دعاء يطلب من الغفَّار عليه الصّلاة والسّلام من الآباء إلى الأبناء أو من الأبناء إلى الآباء كدعاء إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام لأبيه قال تعالى: {وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ}[140]

والاستغفار غير المباشر عندما يكون في محله تكون الاستجابة، وعندما لا يكون لا تكون.

ولهذا جاءت الاستجابة بالممّانعة على استغفار إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام لأبيه آزر، مصداقا لقوله تعالى: {وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ

[138] آل عمران 147.

[139] ص، 35.

[140] التوبة 114.

إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ إنّه عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ}141.

ج . الاستغفار المشترك: هو استغفار رحمة بين المؤمنين يطلبه ذوي العلاقات والقربى بعضهم لبعض أو مع بعضهم البعض، قال تعالى: {ربّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ}142

وقال تعالى: {ربّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ}143

وقوله تعالى: {قَالَ ربّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ}144.

8 . أواه: وهو الذي يحس بالآخرين ويشعر بحالهم ويأمل لهم أن يكونوا على مكارم الأخلاق، فيدعو الله أن يصلح أحوالهم ليعودوا إلى رُشدهم ويكفِّرون عن أخطائهم وانحرافاتهم وذنوبهم ويتوبون إلى الله، ولأنّهم في بعض الأحيان لا يعودون ولا يكفِّرون عن سيئاتهم فيتأوه من أجلهم، ولا ييأس ولا يقنط من رحمة الله في دعائهم لاتباع الحقّ، قال تعالى: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ}145 أي كثير المطالبة والدعاء لمن يأمل أن يكون من المؤمنين.

9 . حليم: لقد كان إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام حليما متسامحا، بل كثير التسامح خاشعا ومتضرعا، ومحبا للخيرات وعاملا

---

[141] التوبة 114.

[142] إبراهيم 41.

[143] نوح 28.

[144] الأعراف 151.

[145] التوبة 114.

عليها، ليّن الطباع غير قاسٍ، ولأنّ إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام خليفة في الأرض فهو بطبيعة الحال كان مستمدا لصفاته من صفات خالقه ولهذا فحُلم إبراهيم استمده من الحليم المطلق جلّ وعلا، قال تعالى: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ}146

وعليه فالحليم هو من يستمد صفاته من صفات خالقه؛ ولهذا كان إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام حليما.

10 . كريم: الكريم هو من يجود ممّا لديه من رزق وعطاء على الآخرين الذين هم في حاجة، ولا يكون الكرم إلا من مكارم الأخلاق أي لا يكون إلا من كريم {وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ}147،

ولأنّ الكريم ليس بالقول فقط بل بالفعل والسلوك استضاف إبراهيم الكريم الرّسُل الملائكة المكرمين الذين جاءوه بمأدبة تليق بهم وبه، ولهذا كانت الاستضافة بدون تأخير مصداقا لقوله تعالى: (فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ).

11 . الخوف من المجهول: وهذه صفة بشرية والأنبياء والرّسُل بشر يأكلّون الطعام ويشربّون الماء ويموتون كغيرهم وفقا لسنة الحياة والموت، ولكن الفارق في المهمة والتكلّيف والاصطفاء الذي هو من عند الله، ولهذا كان الخوف علامة دالة على إنّه لا كمال إلا لله تعالى، والخوف في كثير من الأحيان موجب، ولهذا كان خوف إبراهيم على أبيه موجبا مصداقا لقوله تعالى: {يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ

---

146 التوبة 114.

147 هود 69.

مِنَ الرّحمن فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا}148، وقوله تعالى: {فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ}149.

هذه طبيعة البشر من حرصهم يخافون، ومن نقص معرفتهم يخافون، ومن الآخر يخافون حتى يألفوه أو يتبينوا.

12 . منيب: مخلص في العبادة والطاعة لله ربّ العالمين وهو المتقي له فيما يقول ويعمل وهو الداعي إلى الأخذ بما يجب الأخذ به والناهي عما يجب الانتهاء عنه ولذلك يُرجع كلّ أموره وأمور الحياة والممّات إلى الله تعالى ولا يُشرك به شيئا، قانتا لله موحدا له، متمسكا بعبادته وطاعته، إنّه معلن التوبة ومجاهر بها {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ}150، ثلاث صفات متتالية تبرز قوة شخصية إبراهيم ووعيه وفضائله وأخلاقه الكريمة إنّه نعم العبد المنيب، والإنابة علاقة تربّط قلب المؤمن بربّه فتجعله قانتا له، ومثل هؤلاء هم الذين تُزلف لهم الجنّة مصداقا لقوله تعالى: {وَأُزْلِفَتِ الجنّة لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكلّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ مَنْ خَشِيَ الرّحمن بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ}151.

13 . الحرص: هو التمسك بما يجب الأخذ به، وتجنب لما لا يجب الأخذ به أو اتباعه، ولأنّ إبراهيم كان كذلك قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ ربّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آَمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ

[148] مريم 45.

[149] هود 70.

[150] هود 75.

[151] ق 31 . 33.

ربّ إنّهنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النّاس فَمَنْ تَبِعَنِي فَإنّه مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}152.

حريص على البلاد ومن فيها من العباد، ولهذا كان حريصا على أن تكون البلاد آمنة من كلّ الشرور والمفاسد، ولأنّ إبراهيم أمة قانتا لله قدم البلاد كلّها باعتبارها هي المكان الشامل للناس بما فيهم هو وبنيه، ثم بعد ذلك خصَّ نفسه وبنيه حرصا منه على اتباع الطاعة والهداية، والكفر بما يعبد الكافرون والمشركون.

الحرص لا يكون إلّا من مسؤول، ولأنّ إبراهيم كان كذلك أمام ربّه تعالى فكان حريصا على أن تؤمن البلاد بمن فيها من العباد ولكن الصراع بين أهل الخير وأهل الشر في حالة استمرار إلى يومنا هذا وسيظل إلى أن يقذف الله بالحقّ على الباطل مصداقا لقوله تعالى: {بَلْ نَقْذِفُ بِالحقّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ}153.

14 . محرّض: التحريض دفع لأجل الإقدام على العمل وتحفيز عليه لتحقّيق غاية، ولأنّ إبراهيم مؤمن قانت منيب لله تعالى فهو محرض على الإيمان به عليه الصّلاة والسّلام ومحرض على أعمال الخير وأفعاله الحسان بين النّاس، {فَمَنْ تَبِعَنِي فَإنّه مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}154، الذين استمعوا لقول إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام وعرفوا علاقته بربّه الكريم تُحفِّزهم هذه الآية أو تُحفِّز بعضا منهم على اتباعه في الطاعة، ومع ذلك يلتمس للبعض الآخر المغفرة والرّحمة وفي هذه أيضا تحفيز على أن لا ييأس العباد من طلب المغفرة والرّحمة والعمل عليهما.

---

[152] إبراهيم 35، 36.

[153] الأنبياء 18.

[154] إبراهيم 36.

وقوله (فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنّه مِنِّي) تدل على الآتي:

أ . من اتبع دعوة إبراهيم لله تعالى فقد اهتدى.

ب . من اتبع دعوة إبراهيم فإنّ إبراهيم إمامه.

ج . من اتبع ديانة إبراهيم كان على الحقّ.

د . من اتبع ملة إبراهيم قولا وعملا وفعلا فقد فاز.

وفي مقابل ذلك من رغب عن ملة إبراهيم فقد سفه نفسه {وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ}[155]

15 . شكور: كثير الشكر على ما آتاه الله من فضله من نعم بها اطمأن قلبه وبها تبيَّن الحقّ من الباطل وبها حُفظ من كيد الكائدين ومكرهم وبها جعل في ذريته النبوّة والكتاب، ولهذا كان إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام أمة شاكرا لأنعمه مهتديا إلى صراط مستقيم ولم يكن عليه الصّلاة والسّلام من المشركين، {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}[156].

16 . صدِّيق: صفة لإبراهيم عليه الصّلاة والسّلام في اتباع ما أمره الله به، ولذا فالتصديق لا يتم إلا عن وعي وإرادة ولا يتم إلا باليقين، ومن بلغ التصديق فقد اهتدى وأصبح من الطائعين للحقّ والمتمسكين به والداعين إليه والمحرضين عليه.

[155] البقرة 130.

[156] النحل 120، 121.

قال تعالى: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنّه كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا}157.

التصديق قيمة عالية الموازين لا يقوم بها إلا واثق بنفسه وبما يصدِّق به وبمن صدَّق، ولذلك فالصدِّيق لا يُبدل أبدا مصداقا لقوله تعالى: {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا}158.

17 . النبوّة: لا تكون إلا من عند الله وهي لا تتم إلا بالاصطفاء، والإنباء بها علم غيب لا يظهره الله إلا على يد ملك أو نبي أو رسول كريم، أو يتم الكلام به تكليما، ولأنّ إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام نبيا فمن صفاته الإنباء أي إنباء العباد بما أنبئ به من عند الله، والإنباء إعلام لأجل الصحوة من الغفلة أو الجهالة وعدم المعرفة، ولذلك فالإنباء يؤدّي بالعباد إلى التبيُّن ويُمكِّنهم من الاختيار والاتباع الواعي.

{وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنّه كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا}159، أي إنّه كان صدِّيقا أوّلا، ثم من بعد ذلك استحقّ الإنباء فكان نبيا من عند الله الذي آمن به وصدَّقه في كلّ ما أظهره عليه، والفرق بين الصدِّيق والنبي هو: أن الصدِّيق يُسلِّم بما يرى أو بما يُظهر عليه ويحبه فيؤمن به، والنبي موحى إليه فبعد التصديق والمحبة يعمل من أجل الهداية بما نُبئ به من عند الله تعالى.

---

157 مريم 41.

158 الأحزاب 23.

159 مريم 43.

18 . الصَّلاح: صفة لا يتَّبعها إلّا مهتدٍ بالحقّ إلى الحقّ فيكون على الصراط المستقيم وهو من الذين أنعم الله عليهم فكان من المؤمنين غير الكافرين ومن المهتدين غير الضالين، والصَّالح هو الذي لا يقصر أمر الصلاح على نفسه بل يتعدى به إلى الآخر لأجل أن يصلح حاله ويعمل على تغييره إلى كلّ ما من شأنه أن يؤدّي إلى المحبة وإلى ما هو أفضل وأجود وأنفع في غير معصية لله أو شركٍ به، ولذا فمن لا يتبع الصالحين قد يسفه نفسه ويكون في الآخرة من النّادمين.

والصالحون في الآخرة هم العاملون عليها في الدنيا، قال تعالى: {وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّه فِي الْآَخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ}[160]

19 . عليم: صفة لا تستمد إلا من العليم عليه الصّلاة والسّلام ولهذا فإن علم إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام من العليم المطلق عزّ وجلّ، مصداقا لقوله تعالى: {يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي}[161]

يفهم من هذه الآية أنّ العلم في صوره البلاغية الإعجازية هو الذي جاء لإبراهيم عليه الصّلاة والسّلام أي أتاه إتيانا من ربّه تعالى، ولذلك فهو عليم بما لم يعلمه غيره، ولأنّه يعلم ما لم يعلمه غيره فهو على البيِّنة التي بها يُحقّ الحقّ ويُدمغ الباطل فيُزهق.

20 . رشيد: الرشد بلوغ الوعي والإدراك الممكِّن من التمييز بين ما يجب والإقدام عليه والتبشير به وبين ما لا يجب وتجنبه والحياد عنه وتصحيح السلوك المؤدي إليه والتحريض على عدم اتباعه، والرشيد

---

[160] البقرة 130.

[161] مريم 43.

هو المتوافق قولا وعملا مع الحقّ ولا يتبع الهوى، وهكذا كان إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام رشيدا من عند الله، مصداقا لقوله تعالى: {وَلَقَدْ آَتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ قَالُوا وَجَدْنَا آَبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآَبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}[162]، ولأنّ إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام رشيد، لم يؤمن بالتماثيل وما يعبد أبوه وقومه، ولأنّه رشيد حاجّهم وجادلهم بالحجّة التي تقلل من شأن ما يعبدون من دون الله تعالى وترفع من شأنهم إن تخلوا عن عبادتها بعبادة الواحد الأحد، ولأنّه رشيد لم يتخذ ما اتخذه آباءُه من معبودات من دون الله تعالى، ولم يرتض أن يستمر أباه وقومه على عبادة الباطل ولذلك فهو رشيد.

21 . لطيف: اللطيف الله عزّ وجلّ، ومن يستمد صفاته منه فهو لطيف، ولذا فاللطف حسن معاملة، ورفق ولباقة في الحوار والحديث والمحاجّة والتأدب، ولذلك كان إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام أسوة في إظهار الملاطفة في القول والسلوك والعمل والفعل، قال تعالى: {إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرّحمن فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آَلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ ربِّي إنّه كَانَ بِي حَفِيًّا}[163]، ولأنّ إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام لطيف كان متأدبا في الحديث والحوار مع أبيه مع إنّه يَعبُد مالا يُعبَد حقّا، ولذلك كلّما خاطب أباه قال:

---

[162] الأنبياء 51 . 54.

[163] مريم 42 . 47.

يا أبتِ: (يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا).

وقال: (يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا).

وقال: (يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا).

وقال: (يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحمن فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا).

ثم قال: (قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ ربِّي) مع أن أباه كان مصرا على الشرك إلا أن إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام كان لطيفا متأدبا في جدله ومحاجته لأبيه، وعليه فاستخدامه طوال الحديث مع أبيه جملة (يَا أَبَتِ) يدل على تمسكه بالملاطفة الرفيعة والإصرار الواعي على كلّ ما يقول عليه الصّلاة والسّلام، ثم ختم حديثه بقوله: (سَلَامٌ عَلَيْكَ) والسّلام قمة الملاطفة في الحديث بين العباد.

وقال أيضا: (سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ ربِّي) والاستغفار هو الآخر لا يقوله إلا لطيف متلطف أمام ربّه ونفسه والآخرين.

22 ـ متضرّع: المتضرّع هو الخائف من المترتب الشديد ليتفاداه أو يتخلّص منه أو يتجنبه بطلب المساعدة، وهو المعترف بمحدودية قدرته النسبية أمام القادر المطلق، ولذا فالمتضرّع موقن بالإجابة من المتضرَّع إليه ولهذا يتضرع.

وعليه فالتضرع يدل على رابطة وصلة بين المتضرّع والمتضرَّع إليه مع وثوقه من الاستجابة.

يحتوي التضرع في مضمونه الآتي:

أ ـ معرفة الرّحمة ومصدرها.

ب ـ طمع في المجيب.

ج ـ طلب من المجيب.

د ـ وثوق في المجيب.

هـ ـ وثوق في الإجابة.

ولأنّ إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام كان متضرعا لربّه جاء في القرآن الكريم قوله تعالى: {الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ربّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالحقّنِي بِالصَّالِحِينَ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ وَاغْفِرْ لِأَبِي إنّه كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ}[164].

23 ـ القنوت: إخلاص في الطاعة وتعلق بالمطَاع والتصديق بآياته والتمسك بأمره، قال تعالى: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}[165]، إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام مع إنّه فرد واحد إلا إنّه جاء في عليه الصّلاة والسّلام الآية الكريمة السابقة على الجمع بقوله تعالى: (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً) وهذا الأمر يدل على ما يمثله إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام من رحمة على أمته فكان قانتا من أجلها يحس بإحساسها ويتأوه من آلامها ويستغفر لأخطائها ويتضرع من أجل الرّحمة والتوبة لها، ولذلك فهو أمة بأسرها.

---

[164] الشعراء 78 ـ 87.

[165] النحل 120.

24 . أسوة حسنة: الأسوة الحسنة صفة تتعلق بالقدوة في القول والعمل والفعل والسلوك، وهذه تتطابق مع إبراهيم الأمة عليه الصّلاة والسّلام مصداقا لقوله تعالى: {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ}166

25 . دخول الجنّة: الجنّة هي الغاية الكبرى التي يأملها المؤمنون المسلمون الذين يعملون عليها في حياتهم الدنيا لتكون هي الجزاء الأوفر لكلّ ما يَأمل المؤمن ويتمنى.

الجنّة أبوابها مفتَّحة للجميع، وهي ليست مطلبا يُطلب بل هي استجابة لِما يقال ويؤخذ به أو يؤخذ بأحسنه، فمن طلبها بالعمل الصالح في الحياة الدنيا عاشها عين يقين في الحياة الآخرة.

وعليه فإنّ توحيد الله الواحد الأحد هو الأصل في بني آدم، وهو المقصود الذي خلقهم الله تعالى له، وأمَرَهُم به على ألسنة جميع أنبيائه ورسله صلوات الله وسلامه عليهم، فكانت دعوتهم كما أخبرنا بها عزّ وجلّ بقوله: {اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ}167.

وكان النّاس على هذا الأصل كلّهم على الإسلام، والتوحيد، والإخلاص، والفطرة، والسداد، والاستقامة.

الأمة واحدة.

والدين واحد.

والمعبود واحد.

---

[166] الممتحنة 4.

[167] العراف 59.

وذلك منذ زمن أبينا نبي الله آدم عليه الصّلاة والسّلام إلى قُبيل عهد رسول الله نوح عليه الصّلاة والسّلام؛ بسبب اتباعهم هدي نبوته وأوامره التي جاء بها من الله تعالى.

وأهدى الله تعالى البشر نعمة التفكير والتحليل اللذين ينبعان من العقل، فبواسطة هذه الجهود المبذولة داخل هذا الجهاز البديع المعقد يصل الإنسان إلى الحقّ والصلاح، قال تعالى: {وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ فَوَربّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إنّه لَحَقّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ}168، والكثير من الآيات القرآنية الكريمة التي خاطبت العقل البشري باعتباره وسيلة الوصول إلى الحقّ ورفض ما سواه، وبذلك قد رفع الله الحجّة عمن يدّعون الإجبار في اختيار طريق الضلال والشرك، كما جاء في قوله عزّ وجلّ: {وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ}169، وقال تعالى أيضا: {إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا}170

فأيّهما يختار العقل بإرادته وقدرته على التمييز:

أيختار الحقّ أم الباطل؟

ومن هنا تفرّق النّاس في سلوكهم أحد الطريقين، فإمّا هُدى الله اتبعوا، وإمّا خطوات الشيطان الذي يطمس ضوء العقل كي لا يُسعف صاحبه للنجاة.

وقد كان أوّل ما وقع الشرك في الأرض كان من قوم نوح عليه الصّلاة والسّلام، ناتجا عن المغالاة في القبور، ثم نفذ الشيطان إلى

168 الذاريات 20: 23.

169 البلد 10.

170 الإنسان 3.

قلوبهم فأثار الخلاف بينهم وأغراهم بترك اتباع الأنبياء، وكادهم بتعظيم موتاهم حتى عكفوا على قبورهم، ثم كادهم بتصوير تماثيل لهم، ومن ثم عبادتها، عندئذٍ انقسم النّاس إلى:

- موحدين ما زالوا على دعوة أبينا آدم عليه الصّلاة والسّلام، لم يوقعهم الشيطان في حبائل مكائده التي توعدهم بها الملعون الرجيم في حضرة ربّ العزة مصداقا لقوله تعالى: {قَالَ ربّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ}171وقوله تعالى: {قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ}172، منتصرين في معركة دارت بين الحقّ والباطل، مدركين بعقولهم الحقّ مختارين له بإرادتهم هداية وخير.

- مشركين ابتعدوا عن الحقّ وحادوا عن الصواب باتباعهم الشيطان فحقّ عليهم غضب الله وعذابه مصداقا لقوله تعالى: {يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا}173.

فكان المشركون في قوم نوح هم أوّل صنف من المشركين وكان شركهم بتعظيم الموتى هو أول شرك بالله طَرَقَ العَالَم.

وبدأ أفول البصيرة وغياب الإدراك والوعي بكلّ ما هو محيط بالبشر من آيات تنطق بوحدانية الله تعالى، والإنسان بدون ذلك لا اعتبار لآدميته بل يصبح كالدواب لا تفكير ولا تحليل ولا إرادة مصداقا لقوله سبحانه وتعالى: {إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا

---

[171] الحجر 39، 40.

[172] ص 82، 83.

[173] - النساء 120، 121.

يَعْقِلُونَ}174، وعندما وصل الإنسان إلى هذا الحال كان مناخا مناسبا لاختراع أنواع مختلفة للشرك كعبادة الأصنام.

فَلَمَّا عُبدت الأصنام والطواغيت، وأطفأ الشيطان نور عقول بعض النّاس التي اختارت الضلال، وعمّت الظلمة حياتهم، وشَرَعَ النّاس في الشرك والكفر؛ بعث الله رحمة بعباده أول رسله إلى أهل الأرض وهو نوح عليه الصّلاة والسّلام أول من بُعِث إلى المشركين، وجاءت الرّسُل من بعده تترى.

هذا ما أخبرنا به الله تعالى في قوله: {ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى كلّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ}175

إذ إنّه مع هذا الشرك الذي ظهر كان لابدّ من الإصلاح العقدي، ومحاولة تفجير ينبوع التفكر العقلاني الصحيح، الذي يعتمد على الحجّة والدليل داخل الإنسان.

فكان إرسال الرّسُل والأنبياء الذين توحدوا في رسالاتهم الداعية جميعها إلى وحدانية الخالق عزّ وجلّ.

قال تعالى: {وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكلّيمًا رُسُلًا مُبَشّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حجّة بَعْدَ الرّسُل وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفي بِاللَّهِ شَهِيدًا}176

---

174 الأنفال 22.

175 المؤمنون 44.

176 النساء 164، 166.

وقد سمّى الله منهم في كتابه الكريم مَنْ سمى، واحتفظ في علم الغيب عنده بمَنْ احتفظ،

وممّن ذكرهم الله تعالى أبو الأنبياء إبراهيم الخليل عليه الصّلاة والسّلام الذي وقع في قومه نوع جديد من الشرك على الأرض تمثل في عبادة الكواكب، وهذا هو الصنف الثاني من الشرك، وهو الشرك السماوي الذي وقع من المشركين بعد مشركي قوم نوح عُبَّاد القبور.

ولذا بعث الله تعالى رسوله إمام الحنفاء، وأبا الأنبياء، وأساس الملة الخالصة، إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام خليل الرّحمن في أرض بابل وهو:

إبراهيم بن آزر وهو تاريخ بن ناحور بن شاروغ بن أرغو بن فالغ بن عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح بن لمك بن متوشلح بن خنوخ وهو إدريس بن يارد بن مهلاييل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم، خليل الرّحمن يكنى أبا الضيفان[177].

الذي أزال الله به تلك الشرور والأباطيل، وأبطل به ذلك الشرك والضلال، فإن الله سبحانه آتاه رشده في صغره، وابتعثه رسولا، واتخذه خليلا في كبره، وجعل النبوّة في ذريته خُلْعَةً سنيةً لا تضاهى؛ تكريما له من ربّ العالمين عزّ وجلّ.

نسبه وحقّيقة أبوة آزر:

قال تعالى في كتابه الكريم: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}.

[177] قصص الأنبياء ج1، ص 197 ، تاريخ دمشق ج 6 ،ص 164.

وللعلماء والمفسرين أقوال كثيرة حول حقّيقة أُبُوَةِ آزر لنبي الله إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام فمنهم من قال: إن أبا إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام هو تارح، ومنهم من ضبطه بالخاء المعجمة

وقيل: آزر هو اسمٌ كان ينادي به إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام أباه، بمعنى يا شيخ أو يا مُخَرِّف، وإن اسم أبي إبراهيم هو تارح.178

ومثل هذا القول لا يخفي علينا عدم صوابه فليس من أخلاق النّاس العقلاء مثل هذا الفعل بأن يلقب الرجل والده بالخَرِف، فما بالك بالأنبياء والرّسُل الذين يصطفيهم الله لتبليغ رسالاته، مصداقا لقوله تعالى: {اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ}179

أيجوز ذلك في حقّهم؟

وهل يجوز ذلك في حقّ أبيهم إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام خصوصا؟

وهو الذي قال عنه ربّه تعالى: {وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ}180 أي بطهارته وكماله وتَرَفُّعِهِ عن النقائص من الأفعال والأقوال.

وقيل أنّ نبي الله إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام ولد يتيما مات أبوه تارح وهو في بطن أمّه، ثم عاش في بيت عمّه آزر وهو المشار إليه في الآية الكريمة السابقة.

ولأنّ عمه آزر قد ربّاه أُطلق عليه إنّه أبوه، وإلاّ فهو عمه، حيث لا يكون المشرك عابد الصنم أبا للنبي.

---

178 المفصل في الرد على شبهات أعداء الإسلام: 6، ص 430 .

179 الأنعام 124.

180 الأنبياء 51.

وهذا ما نرى صوابه، حيث إنّ قاعدة الاصطفاء تقتضي التنزيه.

ومن التنزيه:

1 . أن لا يكون النبي أو الرّسول من الكافرين بالله قبل تكلّيفه النبوّة والرّسالة.

وهذا متحقّق في جميع الأنبياء والرّسُل فكلّهم كانوا على هداية وإيمان، ولم يكونوا يوما ما كافرين، بدليل سيدنا عيسى عليه الصّلاة والسّلام، الذي أنطقه الله تعالى في مرحلة ليس من المألوف أن يحصل فيها النطق من الإنسان، فتكلّم في المهد إيمانا، بما يَنُمُّ عن إيمانه المسبق، مصداقا لقوله تعالى: {فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكلّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آَتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصّلاة وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا والسّلام عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الحقّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ}[181].

وعُرِفَ ذلك منه لأنّ الله تعالى أنطقه فصرح بذلك على رؤوس الأشهاد، ولو أنطق الله تعالى باقي الأنبياء والرّسُل في مهدهم لقالوا إيمانا.

2 . أن لا يكون النبي أو الرّسول من صلب كافر بالله أو مُصِرٍّ على الكفر.

[181] مريم 29- 34.

مصداقا لقوله تعالى: {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ}[182]

ولذا فإنّ نسب رسول الله محمّد عليه الصّلاة والسّلام يتقلب في الساجدين، من آدم عليه الصّلاة والسّلام، وصولا إليه عليه الصّلاة والسّلام.

وهذا ينطبق على إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام، فهو من آباء سيدنا محمّد عليه الصّلاة والسّلام.

وعليه فلا يكون أبو أحد من الأنبياء كافرا؛ وذلك لأن الكفر بالله والإشراك به من عمل الشيطان، ونقيصة ونجس مصداقا لقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا}[183]

وهنا أتساءل:

لماذا هم نجس؟

وهل النجس هنا مادّي أم معنوي؟

وما الفرق بين الذين آمنوا والمشركين؟

وللإجابة على هذه التساؤلات نقول:

هم نجس بكلّ تأكيد لأنّهم يشركون بالله تعالى مالا ينفع ولا يضر من الأصنام والتماثيل والكواكب والإنس والجنّ، وغيرها من الآلهة الزائفة.

---

[182] الشعراء 217 – 219.

[183] التوبة 28.

وعليه فالنجس هنا ليس من النّوع المادّي الذي يزال بالماء والنظافة البدنية، وإلا لكان النهي في الآية الكريمة مقيدا برفع النجس بالاغتسال.

والفرق بين الذين آمنوا والمشركين هو:

أن الذين آمنوا طاهرون مطهرون، طَهَّرَتْ كلّمة التوحيد قلوبهم من أدران الشرك، أما

المشركون باقون على نجسهم لا تطهرهم بحار الأرض.

وبالإجابة على هذه التساؤلات تثبت استحالة أن يكون الأنبياء والرّسُل من أصلاب مشركين بل لابدّ أن يكون آباؤهم مؤمنين موحدين.

فكيف يكون نبي من الذين آمنوا، في حين إنّه من الذين أشركوا (النجس)؟

ولذا فإنّ آزر(النجس) لا يكون أبا حقّيقة لنبي الله إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام الذي اصطفاه الله وطهره، وجعله من الذين آمنوا، إلا على باب المجاز اللغوي الذي اشتهر العربّ به، وتميزت به لغتهم.

وللتأكيد على ما قلنا من عدم كون آزر أبا حقّيقيا لإبراهيم عليه الصّلاة والسّلام نتطرق إلى البحث في موضوع آل إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام.

آل إبراهيم:

قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}[184]

وقال تعالى: {قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إنّه حَمِيدٌ مَجِيدٌ}[185]

فمن خلال هاتين الآيتين الكريمتين يمكن الوقوف على أمرين:

ـ آل إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام مصطفون ومطهرون.

ـ أهل بيت إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام عليهم رحمة الله تعالى وبركاته.

وهنا أتساءل:

أيكون آزر بشركه بالله تعالى من المصطفين المطهرين؟!

أيكون آزر بإصراره على الشرك بالله تعالى من المرحومين المباركين؟!

وعليه:

فهل يعقل أن يكون آزر من الآل الذي يرجع إليه إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام؟

[184] آل عمران 33، 34.

[185] هود 73.

وهل يعقل أن يكون آزر من أهل بيت إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام؟

أم إنّه لا هذا ولا ذاك؟

وللإجابة عن هذه التساؤلات نقول:

لمعرفة كيفية الانتساب إلى الآل والأهل، لابدّ من معرفة الفرق بين كلّمتي: (آل)، (أهل)

فقلنا:

آل: يؤل أولا، وآل الشيء للشيء رجع إليه Revert to.

والآل الأصل الذي يؤل الدم إليه.

ولذا يُنسب الأبناء لآبائهم من حيث ثبات ونقاء الأصل، مصداقا لقوله تعالى: {ادْعُوهُمْ لِآَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آَبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا}186.

وعليه فإنّ:

. "آل الرّجل: كلّ من يشاركه في النسب إلى أقصى أب له في الإسلام"187.

186 الأحزاب 5، 6.

187 معجم لغة الفقهاء، ج 1 ، ص 36.

بدليل قوله تعالى: {ذِكْرُ رَحْمَةِ ربّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا إِذْ نَادَى ربّهُ نِدَاءً خَفِيًّا قَالَ ربّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ ربّ شَقِيًّا وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آَلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ ربّ رَضِيًّا}188.

هذا دعاء مستجاب بإنجاب الولد الذي هو من صلبه ليرثه دما وعلما ونبوة، فكانت الاستجابة وفقا للطلب؛ وهو طلب الذكر وليس الأنثى (وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آَلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ ربّ رَضِيًّا).

وعليه وردت كلّمة (آل) متصلة بالمذكر في القرآن الكريم ثماني مرات ولم ترد ولا مرة واحدة متصلة بالمؤنث.

آل إبراهيم.

آل عمران.

آل يعقوب.

آل لوط.

آل داوود.

آل موسى.

آل هارون.

آل فرعون.

ممّا يدلّ على الاختصاص الذي يدعى به الأبناء لآبائهم.

---

188 مريم 2 . 6.

* الفرق بين الأهل والآل:

. الأهل يكون من حيث العلاقة الاجتماعية والاختصاص، فمن جهة العلاقة الاجتماعية قولك أهل الرجل، ومن جهة الاختصاص قولك أهل البصرة وأهل العلم.

. آل: كلّمة تأصيلية تُمكِّن من العودة إلى الأصل الذي ينسب إليه الشيء، ولذا قال تعالى: (ادْعُوهُمْ لِآَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ).

. آل: تدل على ذوي القربى الذين يعودون إلى صُلب الرجل.

* "الفرق بين الآل والذرية:

آل الرجل: ذو قرابته، وذريته: نسله من الأبناء.

فكلّ ذرية آل، وليس كلّ آل بذرية"[189].

* الفرق بين آل، وأهل، والذريّة:

هو إن الآل تعود بالفرع إلى الأصل من جهة الأب، "آل الرجل: كلّ من يشاركه في الانتساب إلى أقصى أب له في الإسلام"[190].

والأهل تأخذ احتمالين:

الأوّل: الأهل هم ذوو القربى من جانب الأب والأم، ممّا يجعل الأعمام كالأخوال في علاقة نسب ومصاهرة، تقربّ العلاقات بين الأجداد والأحفاد من الجانبين الذين منهما (الأب والأم)، ويمتد مفهوم الأهل ليشمل العشيرة التي منها الأب، وكذلك العشيرة التي منها الأم.

[189] الفروق اللغوية ،ج 1، ص 6.

[190] معجم لغة الفقهاء ، ج 1، ص 33.

الثاني: الأهل اندماج اجتماعي بقرابة الدم وبغيرها ممّا يجعل للمكان المشترك خصوصية تسمح بالانتساب والانتماء إليه.

ولذا يقال: أهل القرية، وأهل الحي، وأهل المدينة.

أما الأولاد: فهم الأبناء مباشرة للأب والأم وهم لا يُدْعَوْنَ إلا لآبائهم.

وعليه:

فالآل أداة ربّط لعلاقات دم تربّط الفروع بالأصول.

والأهل مُسَمَا يُطلق على ذو القربّى الاجتماعية والمكانية.

والأولاد هم الذين لا يفصلهم فاصل عن آبائهم.

وبناءً على ما سبق:

فإن (آل) مكوِّن لغوي من ثلاثة أحرف هي: (ء، ا، ل).

ولذا فكلّمة (آل) لا تتجرد، حتى يُعاد بها إلى أصل غير أصلها، كما يقول البعض: بأن (آل) أصلها (أهل).

وإذا عدنا للفرق بينهما نجد من حيث المفهوم أنَّ:

(أهل) شاملة، وقاضياها جامعة لا مانعة.

أما (آل) فهي خاصة لصلة نسب الدم؛ ولذلك فقضاياها جامعة مانعة؛ أي جامعة لذوي الصلة العرقية، ومانعة لمن لا علاقة لهم بالعرق الانتمائي.

ونحن أيضا لا نتفق مع من يقول أن تصغير (آل) هو (أهيل)؛ فأهيل تصغير لأهل، أمَّا (آل) فتصغيرها (أُوَيْل).

و(آل): لا ترتبط إلا بمعلوم بشري مذكر.

أمَّا(أهل): فترتبط بمعلوم بشري، ومكاني، وموضوعي، وعلى مكانة أو دون منها.

ومن ذلك قولنا: (أهل الجنّة، وأهل النّار) وهذه لا تختص بأي آل.

وهكذا يقال: أهل الإيمان، وأهل العلم، وأهل الخير، والمعروف، والحقّ.

وفي مقابل ذلك يقال: أهل الكفر، والجهل، والمنكر.

و"آل الأمر إلى كذا يؤُول، إذا انتهى إليه، والمآل، المرجع"191.

ولذا فـ(آل): هي دليل تأصيلي أما أهل فهي دليل إثبات علاقات مكتسبة تختلط فيها الدماء مصاهرةً.

قال تعالى: {وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آَلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ ربّكُمْ عَظِيمٌ}192.

من هذه الآية الكريمة يمكننا القول: أن فرقا كبيرا يتضح بين (آل) وبين (أهل)

فآل فرعون: هم الذين ينتسبون إليه من حيث الأصل؛ أي من حيث صلة الدم.

---

191 أسرار البلاغة ،ج 1 ،ص 36.

192 البقرة 49.

وعليه فآل فرعون هم الذين من صلبه؛ أي هم الذين ينتمون إليه.

وفرعون ليس بشخص واحد، بل لقب لحكّام مصر عبر التاريخ، ولهذا فرعون متكرر ولم يكن شخصية فردٍ واحدٍ، فهو الذي من بعده توارث أبناؤه الحكم، وهم الذين يشار إليهم بآل فرعون؛ أي الذين يعودون إلى فرعون الأول وهم الذين يتوارثون الحكم في مصر.

وفرعون في اللغة تعني: "كلّ عاتٍ متمرّدٍ فِرْعَوْنٌ. والعُتاةُ: الفراعِنةُ. وقد تَفَرْعَنَ، وهو ذو فَرْعَنَةٍ، أي دهاءٍ ومكْرٍ"193.

"فرعون لقب ملك مصر في التاريخ القديم وأصله بالمصرية (يرعو) بغير نون"194.

"فرعون تشير إلى وقائع تاريخية محددة وإلى سمات وأنماط بشرية متكررة تنفصل عن سياقها التاريخي لتصبح ذات مدلول أخلاقي عام يصلح لكلّ زمان ومكان"195

أمّا (أهل) كما سبق أن أوضحنا صلة علاقات اجتماعية ومكانية وموضوعية، ولذلك جاء قوله تعالى: (آل فرعون) لخصوصية الدم، ولم يأتِ بأهل المدينة أو القرية أو أهل فرعون، حيث وجود اختلافات عرقية بين الأهل في القرية أو المدينة التي يعيش فيها فرعون معهم، ولهذا جاء الاستثناء للذين ليس هم من آل فرعون مع إنّهم من أهله.

---

193 الصحاح في اللغة، ج 2، ص 41.

194 المعجم الوسيط، ج 2، ص 281.

195 موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، ج 10، ص 55.

* أهل: مكانية وعلائقية وموضوعية:

. مكانية كقولنا: أهل المدينة، وأهل القرية، وأهل مكة، وأهل الدار، وأهل الأرض، وأهل السوق (أهل المكان سكانه أو العاملين فيه وسكان المكان ليس بالضرورة أن يكونوا من آل واحد).

. علائقية كقولنا: أهل محمّد، وأهل جيرة، وأهل نسب وحسب، وأهل بطانته.

ولذلك فالأهل (لا تقتصر على آل فقط بل تتعداهم لتستوعب الآخرين من أصحاب النسب والحسب والبطانة).

. موضوعية: كقولنا أهل عقيدة، وأهل رخاء، وأهل عهد، وأهل كرم، وأهل الإيمان، وأهل الكفر، وأهل العلم، وأهل البادية، وأهل الحقّ، وأهل الحكمة، وأهل اللغة، وأهل الأدب، وأهل المنطق (مواضيع تتعلق بالخصوصية الموضوعية التي لا تقتصر على النوع العرقي المقيد بآل).

* أهل: كلّمة جامعة لمن هم ينتمون لآل، ولمن ينتمون لآل غيرها؛ كأهل الكتاب الذين هم ليسوا بآل في شيء وهم (اليهود والنصارى، أهل التوراة والإنجيل)، فأهل الكتاب منهم بعض العربّ ومنهم آخرين من غير العربّ، ولهذا فهم يتحدون في كلّمة (أهل الموضوع) ولا يتحدون في كلّمة (آل الدم والأصل).

قال تعالى: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا

تَعْلَمُونَ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}196.

أهل الكتاب هم من اليهود والنصارى وهم من مجموع بني إسرائيل (آل يعقوب) وبعضهم من العربّ (آل إسماعيل) وبعضهم الآخر من غيرهم.

ولهذا عندما يلتقون على الموضوع، فلا جامع لهم إلا كلّمة (أهل).

أهل الإنجيل هم النصارى وحدهم، وهم الذين منهم من هو من آل يعربّ، ومنهم من هو من آل إسرائيل، ومنهم من هم من سواهم، فأهل الإنجيل لا يجتمعون بكلّمة آل.

(أهل): مكانية كأهل البيت؛ والكعبة هي البيت الحرام، وبيت إبراهيم الكعبة التي رفع قواعدها قال تعالى: {قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنّه حَمِيدٌ مَجِيدٌ}197.

قالت سارة باستغراب وتعجُّب (أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا) والشيخ البعل هو إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام.

ولذا فهناك قولان بينهما الأمر يتأرجح:

قول يعود على إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام بقوله تعالى: (أهل البيت) وهذا المعنى لا استغراب فيه باعتباره وزوجه هما المخاطبان.

---

[196] آل عمران 65 . 67.

[197] هود 72، 73.

ولأنّ الأمر يتعلق بإبراهيم وزوجه فهو يتعلق بعلاقات اجتماعية وهذه تتطلب استخدام كلّمة (أهل) لا استخدام كلّمة (آل) التي لا تستخدم إلا لأصل يعود على المذكر، أو يعود به إلى مذكر.

ولهذا جاء في القرآن الكريم (آل إبراهيم وآل يعقوب وآل موسى وآل هارون وآل داود، وآل فرعون وآل لوط).

وعلينا أن نتوقف قليلا أمام قوله تعالى: {آَلُ مُوسَى وَآَلُ هَارُونَ}[198] مع أن موسى وهارون، من آل عمران من أبٍ واحد إلا أن آل موسى هم غير آل هارون، فالذين هم من آل موسى يعودون إلى صلبه، والذين هم من آل هارون يعودون إلى صلب هارون. ولذا فالقضية اللغوية تتعلق بخصوصية كلّ أخ عن الآخر، ولهذا لم يكن هارون من آل موسى ولا موسى من آل هارون، بل كلاّهما من آل عمران عليهم الصّلاة والسّلام. وعليه فالعلاقة الاجتماعية تترتب وفقا للآتي:

. من الأبناء (ذكورا وإناثا) لأصولهم العرقية علاقة (آل).

. من الأبناء للآباء علاقة (أبوة) وعلاقة (أمومة) وعلاقة (آل).

. من الآباء إلى الأبناء علاقة (أهل).

. العلاقة بين الأبناء علاقة (أخوة) وعلاقة (أهل).

. العلاقة بين الأقاربّ علاقة (قرابة) وعلاقة (أهل).

. العلاقة بين الأنساب علاقة(نسب) وعلاقة (أهل).

. العلاقة بين الجيران وسكان المدينة والقرية علاقة (أهل).

---

[198] البقرة 248.

ـ العلاقة بين المشتركين في الموضوع الواحد علاقة (أهل).

* وكلّمة (أهل البيت) لم ترد في القرآن الكريم إلا مرتين:

الأولى: في قوله تعالى: {رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ}199.

والثانية: في قوله تعالى: {إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا}200.

ولذا فدخول الزوجين أو الأزواج في المعنى والمفهوم يدل على بيت النسب "المراد من البيت بيت النسب لا بيت الطين والخشب، ودخول سارة رضي الله تعالى عنها حسبما جاء في الآية الكريمة السابقة من سورة هود عليه الصّلاة والسّلام هنا لأنّها بنت عمه، وكأنّهم حملوا البيت على الشرف كما هو في أحد معانيه"201.

إذا (أهل البيت)، تدل على أهل بيت النبوّة (البيت الذي رفع قواعده إبراهيم وابنه إسماعيل) عليهما الصّلاة والسّلام.

وهناك من يعود بقوله تعالى: (رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ) على خاتم الأنبياء والمرسلين محمّد عليه الصّلاة والسّلام ممّا يجعل البيت بمعنيين:

معنى علاقات اجتماعية الرّسول وأزواجه بغض النظر عن الآلات التي تعود إليها كلّ زوج من أزواجه رضي الله عنهنَّ جميعا.

---

[199] هود 72، 73.

[200] الأحزاب 32، 33.

[201] تفسير الألوسي ، ج 8 ، ص 308.

والمعنى الآخر: هو أن أهل البيت الكعبة وهذا المصطلح يجمع كلّ من اتخذ البيت الحرام قبلة له ومصلّى.

قال تعالى: {يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصّلاة وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا}202.

القول في هذه الآيات موجه إلى نساء النبي عليه الصّلاة والسّلام دون استثناء، وهنَّ أمهات المؤمنين بالرّسالة الخاتمة، وهنَّ لا يَعدْنَ إلى آل واحد بل يَعدْنَ إلى أصول عرقية متعددة.

وزواج الرّسول الكريم منهن جعل بينهن وبين الرّسول عليه الصّلاة والسّلام وبين عشائرهن علاقات نسب ومصاهرة ممّا جعل لفظ كلّمة أهل لائقة بهذه المصاهرة والنسب والعلاقات الاجتماعية الطيبة والمرغوبة أو المفضلة والمحببة للأنفس.

ولذلك لا تقتصر العلاقات الاجتماعية بين العناصر المكونة للأنساب علاقة (الآل)، بل تمتد لتجمع العلاقات في كلّمة (الأهل).

ونساء النبي عليه الصّلاة والسّلام ليسوا من آله، فالذين من آله لابدّ أن يكونوا من صلبه، ولأنّهنَّ أزواجه فهنَّ من أهله.

ولذلك نقول: إن أبناء الرّسول محمّد عليه الصّلاة والسّلام هم من آله، ولأنّه لم يُخَلِّفَ من الذكور، من خلَّف ليكون من بعده من هم من آله.

---

202 الأحزاب 32، 33.

لذا لا آل من بعد محمّد، ولكن من بعده أهله.

ففاطمة الزهراء من آل محمّد أمّا أبناؤها فليسوا من آله بل هم من أهله؛ وذلك لأنّهم من آل علي رضي الله عنه، وعلي لم يكن من آل محمّد صلوات الله وسلامه عليه، فهو من آل أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، ولكن محمّد عليه الصّلاة والسّلام وعلى رضي الله عنه هما من آل عبد المطلب.

عليه فالذين يعتقدون أنفسهم إنّهم من آل محمّد عليه الصّلاة والسّلام اعتقادهم ليس في محله، والذين يعتقدون إنّهم من أهله فهم من أهله.

ولذا فالذين ينسبون أنفسهم إلى فاطمة الزهراء هم في حقّيقة الأمر من آل علي رضي الله عنه، وبنسبهم هذا يكونون من آل عبد المطلب وهو آل رسول الله صلوات الله وسلامه عليه.

وعلينا أن لا نغفل عن المعجزة المسيح عيسى عليه الصّلاة والسّلام ابن مريم بنت عمران فهو مع إنّه ابن مريم إلا إنّه من آل عمران.

وقد يتساءل البعض:

ألا يكون في هذا تناقضا مع قولك إنّ الآل تعود إلى مذكر دون مرور بالأنثى؟!

أقول: نعم ولكن عيسى بن مريم لم يكن له أب يختلط بسببه الدم بأسباب المصاهرة، فمريم ابنة عمران عليها الصّلاة والسّلام أنجبت عيسى بدون أب، قال تعالى: {وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ

فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ}[203].

وقال تعالى: {وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ}[204].

ولذا بقي الآل متصلا بعيسى عليه الصّلاة والسّلام.

* استخدامات (آل) و(أهل):

. الآل: تُستخدم من الأبناء إلى الأصول العرقية التي يعودون إليها؛ أي التي ينحدرون منها، وفقا للآية (ادعوهم لآبائهم) ولذا فلا مفر من استخدام كلّمة (آل).

. الأهل: على وجهين:

الأول: يستخدم من الآباء إلى الأبناء باعتبارهم نتاج علاقات النسب والمصاهرة، اللذان يفتحان آفاقا صائبة أمام استخدام كلّمة (أهل)، ولا يفتحانها أمام استخدام كلّمة (آل).

الثاني: تستخدم على مستوى الأبناء مع بعضهم، مصداقا لقوله تعالى: {واجعل لي وزيرا من أهلي هارون أخي أشدد به أزري}[205].

إنّ موسى وهارون عليهما الصّلاة والسّلام هما أخوان من أب وأم فهما على علاقة أخوة وأهل.

أمّا من حيث العودة إلى الأصل الأبوي فإنّ كلّ منهما يعود إلى عمران، وآل إبراهيم عليهم الصّلاة والسّلام.

[203] التحريم 12.
[204] الأنبياء 91.
[205] طه، 29.

ولذا فالعلاقة على مستوى الأخوة هي علاقة (أهل).

والعلاقة مع الآباء والأجداد هي علاقة (آل).

ولهذه العلل قال موسى عليه الصّلاة والسّلام: (واجعل لي وزيرا من أهلي هارون أخي) وهذا القول قول حقّ لأن هارون عليه الصّلاة والسّلام لم يكن من آل موسى.

آل النبوّة:

جميع الأنبياء من بعد إبراهيم عليهم جميعا الصّلاة والسّلام، هم من آله، مصداقا لقوله تعالى: {وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النبوّة وَالْكِتَابَ وَآَتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّه فِي الْآَخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ}206.

إذن جميع الأنبياء من بعد إبراهيم عليهم الصّلاة والسّلام هم من آله، وهم من بعده في أساسهم موهوبون من الله تعالى؛ أي أن امرأة إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام عجوز، فكيف يمكن أن يكون له الولد لو لم يهبه الله إياه؟

ولذا قال تعالى: (وهبنا له إسحاق)؛ للتأكيد على أن أفعال المستحيل بيده، وبإمكانه إظهارها متى ما يشاء، للذين لا تمتد قدراتهم وقواهم خارج دائرة الممكن (المتوقّع وغير المتوقّع).

قال تعالى: {فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ

206 العنكبوت، 27.

قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنّه حَمِيدٌ مَجِيدٌ}207.

ولأنّ الخطاب موجه لزوج إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام، وكما سبق أن بينَّا قال الله تعالى: (أَهْلَ الْبَيْتِ) ولم يقل آل البيت.

وإسحاق الذي وهبه الله تعالى لإبراهيم عليهما الصّلاة والسّلام، وهب له إمكانية الإنجاب فأنجب ولدا له من بعده هو يعقوب عليه الصّلاة والسّلام.

وقوله تعالى: (وجعلنا في ذريته النبوّة والكتاب). تدل هذه الآية الكريمة على أن النبوّة التي سبقت إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام، لم يتم اصطفاؤها من بيت واحد، إلا من بعده حيث أصبحت النبوّة والرسالات في ذريته عليهم الصّلاة والسّلام.

وهذا الأمر هو الذي جعل إسحاقَ نبيا مثلما إبراهيمُ نبيا، وكذلك جعل من يعقوبَ حفيدا لإبراهيم ونبيا.

إذن الفرع الذي من صلب إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام هم الذين خصَّهم الله (بآل الأنبياء)؛ أي باصطفاء الأنبياء منهم، مصداقا لقوله تعالى: {إنَّ الله اصطفي آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران}208.

فآل إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام هم الذين يؤولون إليه من صلبه.

---

[207] هود 72، 73.

[208] آل عمران، 33.

والأهل: هم الذين يعودون إلي البيت الذي رفع قواعده إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام؛ أي هم الذين يدينون بديانة إبراهيم لله الواحد القهار؛ أي إنّهم من دينه.

مصداقا لقوله تعالى: {قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفا}209، وقوله تعالى: {ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما}210.

وهكذا هو الحال مع الذين من بعده من آل بيته وهم:

آل عمران، وآل موسى، وآل هارون، وآل داود، ومحمّد عليه الصّلاة والسّلام.

وعليه لقد ذكر القرآن الكريم آل نوح، وآل إبراهيم، وآل عمران، وآل موسى، وآل هارون، وآل داود عليهم الصّلاة والسّلام.

أمّا في قوله تعالى: {إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا}211، فالمقصود به نساء الرّسول محمّد عليه الصّلاة والسّلام خاتم الأنبياء والمرسلين وهو آخر نبي من آل إبراهيم، وبه انتهى الانتساب بـ(آل) للأنبياء والرّسُل؛ وذلك لأن محمّد عليه الصّلاة والسّلام لم يُخَلِّفَ من بعده ولدا يلد من بعد حفدة لينسبوا إليه، بل خلَّف فاطمة الزهراء (أم الحسن والحسين) عليهما السلام، ومع أنّ فاطمة الزهراء من آل محمّد إلا أن الحسن والحسين من آل على كرَّم الله وجهه.

---

209 آل عمران، 95.

210 آل عمران، 67.

211 الأحزاب، 33.

ولذلك فمن يأتي من خلفهم لا يكون من آل محمّد بل يكون من آل على عليه السلام.

وعليه فإنّ المقصود من آل البيت هم الذين من صلب إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام.

إمّا أهل البيت فهم الذين أسلموا مع إبراهيم لله ربّ العالمين.

وعليه من يريد أن ينسب نفسه إلى آل البيت فهو من الذين يؤولون إلى إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام دما.

والذين هم من أهل إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام، هم الذين يدينون بدين إبراهيم وهو الإسلام حيث أن إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام ما كان يهوديا ولا نصرانيا، ولكن كان حنيفا مسلما.

ولذا فالبيت الذي يجمع المسلمين هو الذي رفع قواعده إبراهيم وإسماعيل عليهما الصّلاة والسّلام مصداقا لقوله تعالى: {وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}212.

والسر من وراء بناء البيت هو طمأنة قلوب المؤمنين، وتأمينهم من كلّ خوف؛ وذلك لأنّه بيت توحيد لا بيت شرك.

ولهذا فالتوحيد يؤدّي إلى الاطمئنان ويحقّق الأمن والأمان، والشرك لا يحقّق إلا الخوف مصداقا لقول عزّ وجلّ: {وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا}213.

---

212 البقرة، 127.

213 البقرة، 125.

ويفهم من هذه الآية الكريمة أنّ البيت هو المكان الذي يتوفر فيه الآمان والطمأنينة، وينعدم فيه الخوف بالمطلق، مصداقا لقوله تعالى: {فَلْيَعْبُدُوا ربّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآَمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ}214.

ولأنّ ما وهبه الله تعالى لإبراهيم عليه الصّلاة والسّلام لا ينقطع، فقد أضاف {وَآَتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإنّه فِي الْآَخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ}215

أي إنّه كسب الدنيا بما عمل دعاءً متصلا مع الأنبياء والصالحين والذين هم يؤمنون بقوله تعالى: {مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}216.

بناء على ما تقدم لم يرد ذكر آل البيت مطلقا في القرآن الكريم؛ وذلك لسبب علمي وهو أن محمّد عليه الصّلاة والسّلام كان آخر آل البيت الذين ينتمون إلى إبراهيم –الذين جعل الله عزّ وجلّ النبوّة فيهم– مصداقا لقوله تعالى: {وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النبوّة وَالْكِتَابَ}217.

ولأنّ محمّد عليه الصّلاة والسّلام خاتم الأنبياء والمرسلين الذين هم من آل إبراهيم (من صلبه) كان خاتما لأمرين اثنين:

الأول: إنّه النبي الخاتم للأنبياء الذين يعودون لآل إبراهيم.

---

[214] قريش، 3، 4.

[215] العنكبوت 27.

[216] آل عمران 67.

[217] العنكبوت 27.

الثاني: إنّه صاحب الرّسالة الخاتمة لكلّ الرسالات السابقة وهي الرّسالة الكافة للعالمين. وبهذا فمحمّد عليه الصّلاة والسّلام، رسول الكافة، وخاتم الأنبياء والمرسلين الذين يؤولون إلى إبراهيم عليهم الصّلاة السلام، النبي الذي جعل الله النبوّة والكتاب في ذريته.

ولذا كان محمّد عليه الصّلاة والسّلام رسولا خاتما، وكان القرآن كتابا خاتما، وأصبحت الكعبة البيت الحرام، هي بيت المسلمين ومن دخله فقد (أمن).

وعليه: فأهل البيت هم المسلمون الذين اتخذوا من مقام إبراهيم مصلّى، مصداقا لقوله تعالى: {وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصلّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ ربّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آَمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آَمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ}[218].

أي كلّ من أسلم وجهه لله ربّ العالمين، واتبع ملة إبراهيم بالرّسالة الخاتمة، والرّسول الخاتم آخر رسول ينسب لآل إبراهيم عليهم الصّلاة والسّلام، قال تعالى: {جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ}[219]

بمعنى جعل الله الكعبة بيت المسلمين محرما على الكافرين، ولذا فأهل البيت (أهل الكعبة) هم جميع المسلمين، "بيت الله الذي يتساوى فيه عباد الله، فلا يملكه أحد منهم، ولا يمتاز فيه أحد منهم"[220]

---

[218] البقرة 125، 126.

[219] المائدة 97.

[220] في ظلال القرآن، ج 5، ص 189.

قال تعالى: {إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ}221.

قال تعالى: (أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ) قال للناس، ولم يقل للمسلمين.

أي لا بيت للناس على الحقّ، إلا بيت الله الحرام، فمن يهتدي فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها، ولا مأمن لهم من الخوف إلا هو تعالى، مصداقا لقوله تعالى: {فَلْيَعْبُدُوا ربّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآَمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ}222.

ولهذا فأوّل بيت وضع ببكة هو بيت النّاس كافة، وبيت النّاس لا يقتصر على أحد، ولا يُحرم أحد منه، إلا إذا ارتضى حرمان نفسه.

ثم قال تعالى: (وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ)؛ أي إنّه مفتوح أمام من يتخذه قبلة ومصلّى.

ولذا فهو لا يقتصر على من أسلم بل هو لكلّ من أسلم ولكلّ من سيسلم عبر الزّمان، وهؤلاء هم الذين يشار إليهم بأهل البيت.

ولذا لا (آل للبيت)، ولكن له أهل؛ وأهله هم المسلمون جميعا.

ولأنّ الدين الإسلامي للكافة؛ كان البيت الحرام قبلة وهدى للعالمين، على المطلق وليس على الخصوص.

وأمّا الذرية فهي تجمع ما بين الأهل والآل، ومن هنا وقع الخلط قصدا أو جهلا؛ ذلك أن أبناء الذكر وبناته هم من آله، وأبناء أبنائه

221 آل عمران 96.

222 قريش 3، 4.

نزولا هم من آله أيضا، وكذلك بناته هم من آله، إلاّ أن أبناء البنات لا يدخلون في آله وإن كانوا من أهله.

فالأهل هي الدائرة الكبرى التي تضم إليها الآل، والدائرة الصغرى التي هي الآل يكون الأهل خارجها، وبما أن الآل تدخل في دائرة الأهل، فعليه تكون الذرية ضمن هذه الدائرة، وقد وردت في القرآن الكريم في عدة مواطن بهذا المعنى، ومن هذه الآيات:

قوله تعالى: {ربّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ربّنَا لِيُقِيمُوا الصّلاة فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النّاس تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ}223

والمقصود بقول سيدنا إبراهيم: (مِنْ ذُرِّيَّتِي) أي بعض أبنائي؛ وهو إسماعيل عليه الصّلاة والسّلام.

وقد جاء الخطاب بعد لفظة (ذرية) بصيغة الجمع مع أن إسماعيل مفرد، على احتمال ما سيكون لما يحمل إسماعيل من ذرية، والتي هي من ذرية إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام.

وقال سبحانه وتعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ ربّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ربّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصّلاة وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ربّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ}224.

(ومن ذريتي) هو دعاء لابدّ إنّه مستجاب لصدوره عن نبي الله إبراهيم.

وجاءت من التبعيضية لعدة احتمالات:

---

[223] إبراهيم 37.

[224] إبراهيم 39، 40.

الأول: من ذريتي، الذين يكون منهم الآل، الذين جُعلت النبوّة في أصلابهم وصولا إلى محمّد عليه الصّلاة والسّلام.

الثاني: دخول الإناث في الذرية وخروج أبنائهم من الآل.

الثالث: بعض الذرية تتبع الهدى (مقيم الصّلاة) فقد جعل إتباع الملة شرطا لآل النبوّة بعد الانحدار من الصلب، وبعضهم الآخر لا يتبع الهدى، فيخرج من الأهل كابن نوح عليه الصّلاة والسّلام.

ولذا: فشرط دخول آل النبوّة، إتباع الملة، والخروج من الملة لا يخرج من الآل، حيث قال تعالى: {وَنَادَى نُوحٌ ربّهُ فَقَالَ ربّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الحقّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ قَالَ يَا نُوحُ إِنّه لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنّه عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ}225

فأخرجه من أهله على الموضوعية؛ لأن نوحا ومن معه هم أهل عقيدة التوحيد.

وابنه ليس كذلك.

فخرج من دائرة الأهل.

فالشرط في الآل والأهل، أن يتبع الدين الحقّ داخل ذرية النبوّة.

ودليل ذلك أنّ الله يصطفي من عباده من يشاء.

قال تعالى أيضا: {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَي آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}226

[225] - هود 45، 46

[226] آل عمران 33، 43.

فقد اصطفي اللهُ تعالى آدم ونوحا ولم يصطفِ من ذريتهما، وإنما جعل اصطفاء الآل في آل إبراهيم وآل عمران. وبالإضافة إلى أنّ آل عمران من آل إبراهيم، فقد ذكر آل عمران؛ ليدلل على المحذوف وهم آل إسماعيل بالمذكور وهم آل إبراهيم تحسبا لما وقع فيه أهل الكتاب بقولهم إن النبوّة في آل عمران، ولا يؤمنون بنبيّ من غير آل عمران.

ومن المعلوم أن إسماعيل وإسحاق ويعقوب وعمران من آل إبراهيم، فدخل إسماعيل في الآل بذكر أبيه عليهما الصّلاة والسّلام.

وقال تعالى أيضا: {هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ ربّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِّمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ}227

دعا زكريا ربّه: وخص صفة الذرية المرجوة من الله، أن تكون طيبة؛ لتكون أهلا لحمل الآل الذي سيرثه ويرث من آل يعقوب.

فكان الجواب أن بشره بيحيى، الذي حمل الآل بعد أبيه؛ لأنّه مهيأ لذلك، فهو سيد وحصور ونبي من الصالحين.

قال الله تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرّحمن خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا}228

227 آل عمران 38، 39.

228 مريم 58.

فهؤلاء الذين أنعم الله عليهم، هم بعض الذرية، بدليل قوله تعالى: (من ذرية) وليسوا جميع الذرية؛ لأن قابيل اعتدى على حياة الإنسان بقتله أخيه، فخرج من البعض الذين أنعم الله عليهم، وكان من البعض الآخر الذين لم ينعم الله عليهم، وكذلك ابن نوح بعصيانه، وبعضا من ذرية إبراهيم، وإسرائيل (يعقوب) الذي هو من آل إبراهيم فلم تكتفِ الآية بذكر يعقوب، وإنما كان مسبوقا بذكر أصل آله وهو إبراهيم.

وذكر إبراهيم قبل يعقوب يدل على الفرع المحذوف إسماعيل وإسحاق، الذي يدل عليه الأصل المذكور إبراهيم عليهم جميعا الصّلاة والسّلام.

ومن خلال استقراء النصوص القرآنية التي ذكرت الآل نستنتج الآتي:

أولا: أن الآل ابتدأ بإبراهيم عليه الصّلاة والسّلام.

وعلى ما تقدم فإن الآل هم الذين ينحدرون من صلب الرجل دون النظر إلى الزوجة سواء أكانت الزوجة من آله أم، من أهله، أم من غير ذلك.

لأن الزوجة على حالات ثلاث:

1 . الزوجة من الآل: مثل سارة زوجة إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام، التي كانت ابنة عمٍ له، فهي وإياه ينحدران من آلٍ واحدٍ؛ ولذا فالعلاقة بينهما علاقة آلٍ بالانتماء إلى الأعلى، وعلاقة أهل ضمن الآل الواحد.

2 . الزوجة من الأهل: مثل خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها، فهي من أهل محمّد عليه الصّلاة والسّلام قبل الزواج، وتلتقي معه في الآل عند خزيمة بن مدركة، وعلى هذا فهي ليست قرشية، لأن (قريشا) هو مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة، فهي تفارق قريشا قبل ثلاثة آباء، وعليه فهي من أهله قبل خزيمة نزولا، ومن آله عند خزيمة صعودا229.

3 . الزوجة من غير الآل والأهل: مثل هاجر زوجة إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام، فقد أصبحت من أهله عندما تزوج بها، فهي خارج الآل، ولم تدخل في الأهل إلاّ بعد الزواج من إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام.

والآل على ما ذكرنا من تعريفه، هو قائم منذ آدم عليه الصّلاة والسّلام، ومستمر في ذريته وهو الآل العام في جميع البشر.

وأما الآل الخاص وهو آل النبوّة فقد بدأ بإبراهيم عليه الصّلاة والسّلام وانتهى بمحمّد عليه الصّلاة والسّلام.

وقد حدد ذلك أمرٌ وتقديرٌ إلهي بعلامات دالة على ابتداء آل النبوّة وانتهائه؛ حيث تحدد ذلك بما لا يدع مجالا للشك في انتهاء آل النبوّة بمحمّد عليه الصّلاة والسّلام بما يلي:

1-آل النبوّة ابتدأ بذبح وفداء: قال تعالى: {فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ

229 - ينظر نهاية الأربّ ج 1، ص 14

لِلْجَبِينِ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ}230.

2- آل النبوّة انتهى بذبح وفداء، وهو نذر عبد المطلب، إن ولد له عشرة من البنين ليذبحنّ أحدهم فداء، فكان الذبيح عبد الله بن عبد المطلب، إلى أن افتُدي بمائة من الإبل231. مع العلم بأن إسماعيل عليه الصّلاة والسّلام نبي، وعبد الله ليس كذلك.

3- الآل لا يكون إلّا من الذَّكَرِ في النبوّة وغيرها.

4- محمّد عليه الصّلاة والسّلام لم يعش له ولد ذكر، ليستمر به الآل.

قال تعالى: {إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ}232.

5 . النبي الخاتم منطقيا لا يخلّف ذكورا من آله بعده؛ لانقطاع الوحي والنبوّة.

قال تعالى: {مَا كَانَ محمّد أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ}233

وإضافة إلى ذلك فيما يؤطّر آل النبوّة ويحدها حصرا أنّ الذّبح والفداء ابتدأ بأوّل الآل وهو إسماعيل عليه الصّلاة والسّلام وانتهى بآخر الآل وهو أبو محمّد عبد الله بن عبد المطلب أي بعد إبراهيم بواحد فقط، وقبل محمّد بواحد فقط.

---

[230] - الصافات 102 -107

[231] - ينظر السيرة لابن كثير ج1 ، ص 174 ، والروض الأنف ج1 ، ص 270.

[232] - الكوثر 1 - 3

[233] - الأحزاب 40

ولو ذُبِحَ عبد الله لما كان محمّد عليه الصّلاة والسّلام، مع علمنا يقينيا إنّه لابدّ أن يولد محمّد ليكون رسول الكافة وخاتم النبيين.

وكذلك فإن العربّ قبل نزول القرآن كانت تتجوز في لفظة الآل فتخرجها من اللفظ إلى عموم الدلالة، وإن جاءت مخصوصة في قول الشاعر:

يا أيها الرّجل المحول رحله... هلا نزلت بآل عبد مناف234

حتى جاء بها القرآن الكريم، وإنما كانت تستخدمها في معنى الرجوع (آل فلان إلى قومه أي رجع إليهم)، وكانت اللفظة التي تستخدمها العربّ قبل نزول القرآن بهذا المعنى هي كلّمة (معشر) فتقول يا معشر قريش، حتى جاء القرآن الكريم وحدد استخدام المصطلح وميز بين الخاص والعام، فكانت لفظة (آل) في الخاص، ولفظة (معشر) في العام:

. الخاصّ في آل كقوله تعالى: {فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا}235

. العام في معشر كقوله تعالى: {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا}236

فقد تحدد كلّ مصطلح بخصوصيته، وحتى أنّ القرآن الكريم لم يذكر الآل قبل إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام، لأن جميع من ذكر في القرآن من آلٍ، هم بعد إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام، ولما رأت العربّ أن لفظة الآل تحدد الهوية أكثر من لفظ معشر، استخدموا اللفظ ولم

---

234 - روح المعاني ج 23، ص 142

235 - النساء 54

236 - الأنعام 130

يتقيدوا بخصوصيته، فنسبوا الآل مجازا حتى تجاوزوا صلة القربى والمصاهرة كأبناء علي رضي الله عنه وهم من آل أبي طالب.

فإذا كانت المصاهرة تُدْخِلُ ذرية البنات في آل آبائهم، فإنّ علي بن أبي العاص بن الرّبيع، وأمه زينب بنت رسول الله، وعبد الله بن عثمان بن عفان، وأمه رقية يتساويان في ذلك مع الحسن والحسين، ابني فاطمة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين؛ لأنّ أيّ قضية إذا وجب الأمر في جزئها، وجب في كلّها، وإذا انتفي عن جزئها انتفي عن كلّها.

والقضية هنا لا تخرج عن احتمالين هما:

* إمّا أنّ الحسن والحسين يُدخلان عليا وعبد الله في آل محمّد عليه الصّلاة والسّلام.

* وإمّا أنّ عليا وعبد الله يُخرجان الحسن والحسين من آل محمّد عليه الصّلاة والسّلام. ولما كان الانتساب من جهة الأنثى، كان الخروج من الآل أولى، والدخول في الأهل أولى، وعليه فجميع هؤلاء من أهل محمّد عليه الصّلاة والسّلام.

إلا أنّ إدخال الحسن والحسين في آل رسول الله عليه الصّلاة والسّلام، دون أبناء بناته الأخريات، فهو من قبيل الخلط والتجاوز في معنى الآل، وذلك جاء من أن جميع بنات رسول الله عليه الصّلاة والسّلام، وأبنائهن توفوا في حياة الرّسول عدى فاطمة وأبنائها.

وعليه فلم يبق للمسلمين من أهل رسول الله عليه الصّلاة والسّلام سوى فاطمة وأبناؤها، ولما كانت فاطمة هي أصغر بناته، وهي الوحيدة التي بقيت له من ذريته، لذلك كان حب رسول الله كلّه لها ولأبنائها، ومن هنا كانت عاطفة المسلمين وحبهم لنبيهم وبرّهم به، هو حبهم لأهله الذين لم يبق منهم بعده إلا ابنته فاطمة وسبطيه الحسن بن

علي والحسين بن علي من آل أبي طالب، فكانت عاطفة المسلمين معبرة عن عاطفة رسول الله في حبّ فاطمة وأبنائها، وكأنّها الوحيدة بعد موت أخواتها وأبنائهن.

الأمر الذي عكس ذلك في مواقف المسلمين من التعبير عن هذا الحبّ كموقف عاطفي أولاً، ثمّ أثبت ذلك في كتاباتهم فيما بعد.

وعليه فالآل يتساوى فيه الذين ينحدرون من الأصلاب، ولذا فهو ليس اختيارا عاطفيا، ولأنّنا نكتب في هذا الموضوع بعقلانية، فلابدّ من توضيح الأمر على وجهه الحقّيقي.

ولما كان الآل مرتبط بمذكر في آل النبي وغيره، لابدّ لنا من العودة إلى الأنساب حتى نوضح لأي آل يرجع كلّ من الحسن والحسين ابني علي بن أبي طالب، وعلي بن أبي العاص بن الرّبيع وعبد الله بن عثمان بن عفان، رضي الله عليهم أجمعين.

ونثبت بداية نسب رسول الله عليه الصّلاة والسّلام: وهو محمّد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلّاب بن مرّة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك (قريش) بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان237، وعلى هذا يكون النسب:

* محمّد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي.

* علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي.

---

[237] - ينظر نهاية الأربّ ج 1 ، ص 9

* عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية الأكبر بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي.

* أبو العاص بن الرّبيع بن عبد العزى بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي.

وبناءً على سلسلة النسب فإن علاقة هؤلاء جميعا بآل محمّد عليه الصّلاة والسّلام، تصاعدية وليست تنازلية.

فكيف يكونون من آله عليه الصّلاة والسّلام؟!

. محمّد عليه الصّلاة والسّلام وعلي يلتقيان في عبد المطلب

. محمّد عليه الصّلاة والسّلام وعلي وعثمان وأبو العاص، يلتقون في عبد مناف بن قصي.

ولذا فليس أحد منهم من آل محمّد عليه الصّلاة والسّلام، وليس أحد منهم من آل عبد الله بن عبد المطلب؛ لأن آل محمّد بن عبد الله بن عبد المطلب هم القاسم والطاهر والطيب من خديجة أمَ المؤمنين وماتوا قبل البعثة[238]، وإبراهيم من ماريا القبطية، ولد ومات بعد البعثة[239].

فالرّسول عليه الصّلاة والسّلام لم يعش له ولد ذكر حتى يكون الآل فيه، مصداقا لقوله تعالى: (مَا كَانَ محمّد أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ).

وعلى هذا فإن آل النبوّة انتهت في محمّد بن عبد الله بن عبد المطلب؛ لذلك نجد أبا الفرج الأصبهاني لم يجاوز الصواب وكان دقيقا في ردّ الفروع إلى أصولها، ولم ينسب أحدا إلى آل بيت النبوّة عندما

238 – ينظر سيرة ابن إسحاق ج 1، ص 22

239 – ينظر سيرة ابن كثير ج 1، ص 264

ألف كتابا بعنوان "مقاتل الطالبيين" الذي ذكر فيه جعفر بن أبي طالب، ومحمّد بن جعفر، وعلي بن أبي طالب، والحسن بن علي، والحسين بن علي وجميعهم يرجعهم إلى آل أبي طالب240.

ولذا نرى إنّه مصيب في هذا العرض وفقا لقاعدة الآل.

* آل موسى وعيسى ابن مريم عليهما الصّلاة والسّلام.

لما كان موسى عليه الصّلاة والسّلام من بني إسرائيل، وله فيهم نسب معروف ينحدر منه، وآل يرجع إليهم، وهم آل عمران، فمن المنطقي أن يتميز خطاب الله تعالى له، عن خطاب عيسى عليه الصّلاة والسّلام الذي خُلِقَ من غير أب، مع العلم أن أمه مريم من آل عمران.

ومع ذلك فلا يمكن أن يكون عيسى عليه الصّلاة والسّلام من آل عمران؛ لاختلال شروط الآل في عيسى، وهو عدم توفر الانحدار من الصلب، ليرجع بآله إليه.

ولكن لما توفر ذلك في موسى عليه الصّلاة والسّلام، كان الأمر مختلفا، إذ نجد الخطاب أو النداء مرتبط بنسب يصل به إلى آل هو ينحدر منهم.

إنّ خطاب موسى عليه الصّلاة والسّلام لقومه، كان مقرونا دائما (يا قوم) ذلك إنّه منهم وله فيهم نسب معروف.

قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ} 241.

---

240 - مقاتل الطالبيين ج 1، ص1 5 12

241 - البقرة 54

وقوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا}242.

ومثله قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي}243.

ففي هذه الآيات نسبه الله تعالى إليهم بقوله: (لقومه)، وموسى عليه الصّلاة والسّلام انتسب لهم بقوله: (يا قوم) دلالة على إنّه منهم، ولو كان غير ذلك لأنكروه.

ولكن هناك آية واحدة لم يقل فيها (يا قوم) وهي.

قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً}244.

والسبب في ذلك أنّ أسلوب الخطاب كان تقدم في السّورة نفسها قبل عشر آيات فلم تعد حاجة للتكرار، وعلى ذلك فهي استمرار الخطاب (يا قوم).

وكذلك كان قومه ينادونه بالاسم المجرد لعدم الاشتباه، لأنّه معروف فيهم، وقد جاءت معرفة موسى وشهرته في قومه بأمر من الله تعالى، ذلك إنّه تربّى في بيت فرعون، علما إنّه من عامة بني إسرائيل وليس من خاصتهم.

---

242 - المائدة 20

243 - الصف 5

244 - البقرة 67

وقد ورد ذلك ثلاثة عشرة مرة في القرآن الكريم منها قوله تعالى: {وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ}245.

وكذلك قوله تعالى: {قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ}246.

وقوله تعالى: {قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ}247.

وعلى ذلك جرى الخطاب له من الله تعالى (يا موسى) فهو من آل عمران الذين هم من آل إبراهيم عليهم الصّلاة والسّلام، ولما كانت الشهرة تغني عن التخصيص وجب النداء بالاسم مجردا، فقد ناداه الله تعالى إحدى عشرة مرة، كقوله تعالى: {قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النّاس بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي}248. وكذلك قوله تعالى: {يَا مُوسَى إنّه أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}249.

والملاحظ أنّ النداء لعيسى عليه الصّلاة والسّلام من الله تعالى، ومن أصحابه الحواريين كان مختلفا وله خصوصية لخصوصية مولد عيسى عليه الصّلاة والسّلام، حيث إنّه وُلِدَ من دون أبٍ، فنسبه الله تعالى إلى أمه، علما أن أمه من آل عمران ولم يختلط دمه بغيرهم، ومن المعروف في اللغة وفي كلّام العربّ أن ينسب الرجل إلى أبيه الأعلى تفاخرا عندما يكون شريفا من ذوي الحسب والنسب، وليس هناك

245 – البقرة 55

246 – المائدة 22

247 – الأعراف 115

248 – الأعراف 144

249 – النمل 9

أشرف من آل النبوّة، ومع ذلك نسبه الله تعالى إلى أمه لخصوصية مولده، وفي مثل هذا الموقف فقد نسب نبينا عليه الصّلاة والسّلام نفسه إلى جدّه يوم حنين وهو يقول: "أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب"250.

غير أنّ النّسب هنا جاء من جهة الأب وإنّ علا، إلا أنّ عيسى عليه الصّلاة والسّلام ليس له من الوالِدِين إلا الأم، فكان نسبه إلى أمّه دون الآل، قال تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ}251.

فقد ذكر موسى مجردا، وعيسى منسوبا إلى أمه، ولم يذكر عيسى مجردا إلا بعد أن أكد إنّه ابن مريم ثلاث مرات قبلها، حيث ورد في البقرة مرتين، والثالثة في آل عمران على إنّه ابن مريم، والتأكيد في اللغة أكثر من ثلاث مرات يكون عيّا من المتكلّم، واستخفافا بالمخاطب، حتى جاء في الرابعة مجردا في آل عمران أيضا قوله تعالى: {فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ}252.

وبعد التأكيد جرى الخطاب من الله تعالى لعيسى عليه الصّلاة والسّلام أو ذكره إمّا مجردا وإمّا منسوبا لأمه:

فمن الخطاب المجرد قوله تعالى: {إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا}253.

---

250 – صحيح مسلم ج 5، ص 168

251 – البقرة 87

252 – آل عمران 52

253 – آل عمران 55

ومن ذكره المجرد قوله تعالى: {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آَدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}254.

ومن الخطاب المنسوب فيه لأمه قوله تعالى: {إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ}255.

ومن ذكره المنسوب فيه لأمه، قوله تعالى: {ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الحقّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ}256.

وعلى هذا كان نداء أصحابه من الحواريين له، قال تعالى: {إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ ربّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ}257.

ولهذا لم يخاطب عيسى عليه الصّلاة والسّلام، من أرسل إليهم كما كان يخاطبهم موسى عليه الصّلاة والسّلام بقوله: (يا قوم) علما أنّ مريم عليها السلام منهم، وهي من آل عمران، وهو ابن مريم، فلم ينتسب إليهم لانتفاء الآل من الذكر، وإنما كان خطابه لهم بما ينتمون إليه:

قال تعالى: {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ ربّي وَربّكُمْ إنّه مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الجنّة وَمَأْوَاهُ النّار}258.

---

254 – آل عمران 59

255 – المائدة 110

256 – مريم 34

257 – المائدة 112

258 – المائدة 72

وكذلك قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ}259.

لقد ذُكر عيسى عليه الصّلاة والسّلام منسوبا لأمه، لثلاثة أسباب هي:

1 . إظهار قدرة الله تعالى في عيسى المعجزة، ولادةً، وطفولةً، ورجولةً، ونبوةً.

2 . تنبيه على إنّه ليس له أب فلا ينتمي إلى آل.

3 . إبعاد الشبهة عن مريم عليها السلام ممّا رماها به اليهود.

وعليه فعيسى ابن مريم، نبي مرسل معصوم من أولي العزم من الرّسُل، وأمّه صديقة في الدرجة الثانية بعد الأنبياء، وفي الدرجة الأولى التي ترقى إليها مكانة امرأة عند الله، وتنحدر من أشرف بيت لبني البشر وهم آل النبوّة، ومع ذلك لم يرد في كتاب الله تعالى، ولا فيما ذكره المفسرون والفقهاء، من نسبة عيسى عليه الصّلاة والسّلام إلى آل بيت النبوّة، لأنّه ينتسب إلى أنثى، فكيف ينتسب من كان دونه.

* العلاقة بين الآل والإلّ:

بقي في هذا الجانب مسألة واحدة وهي قوله تعالى: {لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً}

فهل هناك علاقة بين الآل والإلّ من حيث المبنى أو المعنى؟

259 - الصف 6

فأمّا من خلال المبنى فإن الجذر الثلاثي لكلّمة (آل) على ما سبق وبيناه من خلال المعاجم هو(ء،ا،ل) همزة مفتوحة وألف ساكنة بعدها لام.

وأمّا (إلّ) فجذرها الثلاثي هو: (إ،ل،ل) همزة مكسورة ولام ساكنة بعدها لام.

فالجذر اللغوي لكلّا اللفظين مختلف، واختلاف الجذر اللغوي هو اختلاف في المعنى ضرورة، إذ من المعروف إنّه ليس هناك كلّمتين في اللغة العربيّة تعطي معنىً واحدا مطلقا، ولكن تشتمل إحداهما على صفة أو أكثر من صفات الأخرى ولا تطابقها البتة، وهذا ما يعرف بالترادف اللغوي، ولو كانت مطابقة لها لانتفت الحاجة إلى إحداهما.

وأمّا من حيث المعنى، فإن (الآل) بمعنى الرجوع، وآل الرجل ما انحدر من صلبه لأنّه يرجع في أصله إليه.

والإلُّ ليست كذلك، وإن كانتا تدل على صلة القرابة، غير أن القرابة درجات، ومعنى درجات إنّها معانٍ غير متطابقة، وعلى هذا الأساس قامت أنصبة المواريث، إذ لو كانت كلّ القرابات بدرجة واحدة لاستوى الجميع فيها وتساوت أنصبة الوارثين، ولَمَا أنزل الله آيات المواريث في الذكر الحكيم.

ولذا فاختلاف درجات القربى من الصلب أو الرحم أدى إلى اختلاف المعنى، وإن اشتملت إحداهما على صفة أو أكثر من صفات الأخرى.

"والإلّ قُربَى الرَّحِم قال:

لَعَمْرُك إن إِلَّكَ في قُرِيش... كإلّ السَّقْب من رَأْل النَّعام"260

واضح من البيت الشعري إنّه يريد القرابة، إذ أن السقب هو ابن الناقة الذكر أول ولادته، والرأل فرخ النعام، فهذا من الأنعام وذاك من الطيور ولا قرابة بينهما، فإن كانت قرابة بين السقب والرأل، فهي مثل قرابة المخاطب بالبيت الشعري من قريش.

وجاء في مجاز القرآن: " الإلّ: العهد والعقد واليمين"261.

وكذلك: "الإل: القرابة والذمة والعهد"262.

ومعظم ما جاء في معنى الإل لم يقتصر على معنى واحدٍ، وإنّما يجمع بين معنيين أو أكثر، وعليه لا يمكن الأخذ بأيٍّ منها لاختلافها وتعددها.

إلا أن أوضح معنى منفرد لها والذي نرجحه، ما جاء عند الأصفهاني: " الإل: كلّ حالة ظاهرة من عهد حلف وقرابة تئل تلمع فلا يمكن إنكاره"263. وعليه فالإلّ صفة معنى معروف مسبقا للمخاطب، وصلة لموضوع، وهو على ذلك لفظ يضاف إليه أربّع كلّمات وهي:

1 . إلُّ عهدٍ.

2 . إلُّ عقدٍ.

3 . إلُّ حلفٍ.

---

260 – كتاب العين ج 8، ص 361

261 – مجاز القرآن ج 1، ص 45

262 – معاني القرآن ج 3، ص 186

263 – غريب القرآن ج 1 ، ص 20

4 . إلُّ قرابة.

ولذا فإنّنا نرى أن الإلُّ هو الشيء ظهوره وبيانه، وعليه يكون المعنى: بينك وبين فلان إلّا أنا أعرفه، سواءً أكان عهدا أو عقدا أو حلفا أو قرابة، فهو يلمع لي، وهو ظاهر لي.

وعليه فالآل هي صلة معينة تربّط بين شيئين في موضوع ما، يخرج عن خصوصية الآل وعن خصوصية الأهل، وعندما تعطي معنى صلة علاقة الدم تكون في الدرجة الرابعة، لأنّها قرابة على العموم وليس على الخصوص، لأن درجات القرابة هي:

1 . الآل: قرابة خصوص الخصوص.

2 . الأهل: قرابة الخصوص.

3 . الإلّ: قرابة العموم من إحدى معانيها.

ولذا فلا تطابق بين الإلّ والآل لا من حيث المبنى اللغوي، ولا من حيث المعنى الدلالي.

وبعد هذا نقول:

إن نسبة إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام، لآزر كأب لا يصح من عدة وجوه:

. إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام ليس من آل آزر؛ لأنّه عمه، وإن كان يشترك معه في نفس الآل صعودا.

. آزر مشرك بالله تعالى، فلا يكون أبا لنبي الله إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام، فآباء الأنبياء وأمهاتهم لابدّ أن يكونوا موحدين لله تعالى.

والدليل على ذلك أن النبي محمّد عليه الصّلاة والسّلام انتسب إلى عبد المطلب في غزوة حنين في مقولته الشهيرة "أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب" فلو كان عبد المطلب كافرا ما انتسب إليه.

والنماذج للأنبياء التي وردت في القرآن الكريم تدل على أن آبائهم مؤمنين، فلماذا يمكن أن يكون أبو إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام كافرا؟

والعربّ تسمي العم (أبا) كما في قوله تعالى في قصة يعقوب عليه الصّلاة والسّلام: {أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ}[264].

وممّا لا ريب فيه أنّ إسماعيل كان عما ليعقوب لا والدا له، فيعقوب هو ابن إسحاق، وإسحاق هو أخو إسماعيل.

ومع ذلك سمّى أولادُ يعقوب (إسماعيل) الّذي كان عمَّهم (أبا).

وعليه فإنّه يدخل في معنى (الأب) بدليل هذه الآية كلّا من:

الآباء، (إِسْحَاقَ)

الأعمام، (إِسْمَاعِيلَ)

الأجداد، (إِبْرَاهِيمَ)

[264] البقرة 133.

ومع وجود هذه الاستعمالات للفظة (أبٌ) في الوالد تارة، وفي العم أخرى، وفي الجد تارة ثالثة، فإن احتمال كون المراد بالأب في الآيات المرتبطة بهداية (آزر) كالآتي:

آزر أبيه.

آزر عمه.

آزر جده.

وعليه فالسبب في تسمية النبي إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام (آزر) بالأب، هو إنّه كان كافلا له ردحا من الزمن.

ولذا كان إبراهيم ينظر له على إنّه أب، ويُنَزِّلَهُ منزلة الوالد.

ويمكن أيضا أن نستدل على نفي أبوّة (آزر) لإبراهيم عليه الصّلاة والسّلام من خلال تحليل آيات من القرآن الكريم، وحتى نتعرف على الرأي القرآني في مسألة العلاقة بين (آزر) ونبي الله إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام، نبدأ بتحليل هاتين الآيتين الكريمتين:

. أوّلا قوله تعالى: {وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ إنّه عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ}265

وهذه الآية تحمل في طياتها تعليلا يبين سبب استغفار إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام لأبيه (آزر) قال تعالى: {قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ ربِّي إنّه كَانَ بِي حَفِيًّا}266 الذي كان عن موعدة منه،

[265] التوبة 114.

[266] مريم 47.

بعد رفض (آزر) تلبية دعوة إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام بالإيمان بالله الواحد الأحد، وترك عبادة الأوثان.

قال تعالى: {قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آَلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا}267 وكان هذا الوعد بعد عدة محاولات ومجادلات تُبَيِّنُ ما يحمله إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام لآزر والذي هو في مكانة الأب، سنتحدث عنها في معرض بيان مجادلات إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام إن شاء الله تعالى.

وهذا التعليل جاء ردا على من طلب من رسول الله محمّد عليه الصّلاة والسّلام أن يستغفر لآبائهم المشركين، كما فعل إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام مع أبيه (آزر) فنهاهم الله تعالى عن ذلك مصداقا لقوله تعالى: {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آَمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ}268

وهنا نقول: إنّ الوعد بالشيء يدل على أن الموعود به لم يكن واجبا لازما على من قطع على نفسه الوعد، فلو كان كذلك لما أعطى لذلك وعدا؛ لأنّه لزام عليه أن يؤدّيهُ لمن وعده فهو حقّ له لا مِنَّة عليه.

ودعاء الولد لوالده فرض واجب عليه مصداقا لقوله تعالى: {وَقَضَى ربّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا

---

267 مريم 46.

268 التوبة 113.

كَرِيمًا وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرّحمة وَقُلْ ربّ ارْحَمْهُمَا كَمَا ربّيَانِي صَغِيرًا}269

فكلّ ولد مأمور بالإحسان لوالديه ومن الإحسان لهما الدعاء لهما في حياتهما وبعد مماتهما، وجاء الأمر بالدعاء صريحا واضحا في قوله تعالى:(وَقُلْ ربّ ارْحَمْهُمَا كَمَا ربّيَانِي صَغِيرًا)

ولذا يدل هذا الوعد من إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام بالدعاء أن (آزر) لا يستحقّ هذا الدعاء على وجه الإلزام والوجوب، لأنّه لم يكن أبا لإبراهيم عليه الصّلاة والسّلام حقّيقة، وذلك على ما تقدم من أدلة.

إنَّ ثمة قرائن كثيرة تدل على أنّ محادثة النبيّ إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام، وحواره مع (آزر) ووعده بطلب المغفرة له من الله سبحانه قد انتهى إلى قطع العلاقات، والتبرّي منه في عهد فتوّة إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام وشبابه، أي عندما كان لا يزال في مسقط رأسه (أور) ولم يتوجه بعد إلى فلسطين ومصر وأرض الحجاز.

قال تعالى: {قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ ربّي إنّه كَانَ بِي حَفِيًّا وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو ربّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ ربّي شَقِيًّا}270

ويمكن أن نستدل من هذه الآية أن إبراهيم كان قد قطع علاقته مع (آزر) في شبابه، وبعد ما رأى من إصرار (آزر) على الكفر والوثنية، ولم يعد يذكره إلى آخر حياته مصداقا لقوله تعالى: (وَأَعْتَزِلُكُمْ).

---

[269] الإسراء 23، 24.

[270] مريم 47، 48.

ثانيا قوله تعالى: {رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ}271

لقد دعا إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام بعد إسكان ذريته في أرض مكة القاحلة، (بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ) دعا بكلّ إخلاص لجماعة منهم والداه، وطلب من الله إجابة دعائه، إذ قال في حين الدعاء: (ربّنا اغْفِرْ لِيْ ولوالدي ولِلمؤمِنينْ يَوْمَ يَقُومُ الحِساب).

إنّ هذه الآية تفيد بصراحة أن الدعاء المذكور كان بعد اعتزال إبراهيم لقومه وقطع علاقته بآزر، والاعتزال يحتمل أن يكون:

الهجرة.

القطيعة.

الفراق المؤقت.

والاعتزال يكون عن الأقربّ، وعن المشارك لا عن الأبعد.

وإبراهيم عليه الصّلاة والسّلام كان مشارك لقومه مكانيا، وغير مشارك لهم عقائديا.

ولذا فاعتزاله لهم كان بانتقاله من مكان إقامتهم الأصلي، وتركهم وما يدعون من دون الله، وعليه كانت هذه أول هجرة في سبيل الله في تاريخ البشرية.

ونقول: إنّ هذا الاعتزال مؤقت مرهون بزوال أسبابه؛ وذلك إذا ترك قومه ما يعبدون من دون الله تعالى، واتبعوا ما يدعوهم إليه إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام.

---

[271] إبراهيم 41.

فلو كان مقصودُه من الوالد في الدعاء المذكور (آزر) وهو المطلوب له المغفرة الإلهية، لكان ذلك يعني أن:

إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام لا يزل على صلة مع (آزر) حتّى إنّه كان يستغفر له، في حين أن الآية التي نزلت ردا على طلب المشركين أوضحت أنّ إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام كان قد اعتزل (آزر) في بداية دعوته، وتبرّأ منه، ولا ينسجم الاستغفار مع قطع العلاقات.

إنّ الرّبط بين هاتين الآيتين يوضح أنّ الّذي تبرّأ منه إبراهيم في بداية دعوته، وقطع علاقاته معه، واتخذوه عدوا؛ بسبب عداوته لله عزّ وجلّ، بإصراره على الكفر، وعبادة الأوثان مصداقا لقوله تعالى: {فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ إنّه عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ}272 هو غير الشخص الّذي بقي يذكره، ويستغفر له إلى أخريات حياته.

ويبدأ بنا السياق القرآني مخبرا عن سيرة خليل الله إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام، الذي آتاه ربّه الرشد من قبل، مصداقا لقوله تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ}273.

وهنا أتساءل:

لماذا آتاه رشده؟

ما دلالات كلّمة الرشد الذي أعطاه الله له؟

ألا يكون الرشد يعني التهيؤ لما يكلّفه الله به لاحقّا؟

فما هو التهيؤ عند سيدنا إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام؟

---

[272] التوبة 114.

[273] الأنبياء 51.

تهيؤ إبراهيم:

ولمعرفة التهيؤ نقول: للتهيؤ معاني لغوية منها.

هيأ الهَيْئَةُ والهِيئةُ، حالُ الشيءِ وكَيْفِيَّتُه، ورجل هَيِّئٌ حَسَنُ الهَيْئة، وهاءَ للأَمر يَهَاءُ يَهِيءُ وتَهَيَّأَ أَخَذَ له هَيْأَتَه، وهَيَّأَ الأَمرَ تَهْيِئةً وتَهْيِيئا أَصْلَحه فهو مُهَيَّأٌ[274].

وفي الحديثَ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ عليه الصّلاة والسّلام قَالَ: "أَقِيلُوا ذَوِي الْهَيْئَاتِ عَثَرَاتِهِمْ إِلَّا الْحُدُودَ"[275].

التهيؤ هو تحفُّز لإظهار ما هو متهيئ للظهور، والتهيؤ هو الحالة التي يبدوا عليها المخلوق في حالة امتداد تجاه الآخر، في دائرة الممكن الموجب والسالب.

ولذا فالتهيؤ نضج، كنضج الثمار لأن تُجنى أو تقطف، والبلوغ عند الإنسان الذي به يتهيأ للزواج.

والتهيؤ صورة لتحفز القوى الكامنة في الأشياء قبل الاستعداد لفعل مخصوص.

فهو حركة بعد سكون.

يقظة بعد غفلة.

وهذا التحفز ما هو إلا تجاذب بين المتوافقات والمتباينات في آن واحد، فتصبح المتوافقات في أشد حالات التلازم، وتكون المتباينات في أقصى درجات الافتراق، وما بين التلازم والافتراق تصبح القوى الكامنة في حالة تحفز قصوى فيكتمل التهيؤ مرحلةً قبل الاستعداد.

---

[274] لسان العربّ ج 1، ص 188.

[275] السنن الكبرى للنسائي ج 4، ص 310.

وللتهيؤ صورتان هما:

1- التهيؤ القبلي: تهيؤ الابدّاع، شيء لم يسبق وجوده فاكتشف بأسباب الحاجة بعد تَمكُّن وغوص وبحث وتقصي مُعمَّق.

والتهيؤ القبلي يسبق الصورة، أي إنّه المؤسِّسُ لها، فالصورة أو الشكلّ الذي نحن عليه كان متهيئا لدى الخالق قبل أن نخلق، وهكذا كلّ ما خُلق، كان التهيؤ سابقا لما خُلق.

ولأنّ الأمر كذلك فكلّ متهيئ بالأمر كن يكون صورة بإصدار أمر الكينونة التي يكون عليها متهيئا.

وعلى المستوى البشري نحن لا نخلق (لا نصنع) شيئا، إلا بعد تهيؤ صورته لنا قبل أن يكون صورة ماثلة.

فالسكين على سبيل المثال: لو لم تتهيأ لنا صورته ما كانت له صورة، وبذلك في عقولنا يتهيأ السكين من حيث كونه صلب ومتين، وحاد أحد الطرفين، وله مقبض يُمسك به وذلك من أجل وظيفة.

وهكذا المقعد والطائرة وكلّ ما صنعنا ونصنع.

وعليه التهيؤ سابق على القول والفعل، وبدونه لا يكون القول ولا الفعل.

وبذلك محدث التهيؤ هو محدث الفعل.

2. التهيؤ البَعْدِي: وهو يلاحقّ الصورة (تهيؤ استدعاء)؛ أي أن المعرفة سبق تلقيها وبالتالي يمكن أن يتم استدعاء صورة ما تعرفنا عليه سابقا.

والبحث في مفهوم التهيؤ لا يُعد من علم ما وراء الطبيعة وإن كان يدخل فيه شيء من ذلك، إلا إنّه بحث في التجريد وإن كانت مرتكزاته واقعية، وطالما إنّه تجريدي فإنّه يحتل المكانة الوسطى بين الواقعي والميتافيزيقي.

إنّ حدود معرفة التهيؤ تتوقف على مستوى ملكات العقل، وبما أنّ الملكات العقلية متفاوتة من شخص لآخر من حيث القدرات، ومتباينة من حيث الأفكار والمعلومات، التي تعتبر أساس البحث في مفهوم التهيؤ؛ لذلك يكون الاختلاف في التصورات لدى الناظرين فيه وفق ما يحمل هذا الناظر أو ذاك من أفكار تنجلي له تصورات التهيؤ في نفس المتهيئ لمن يريد أن يقف على التهيؤ، وهذا لا يغير من نفس التهيؤ في نفسه شيئا، بمعنى أن تصورك لحقّيقة ما، لا يغير من حقّيقتها وإن أوقفتني على حقّيقة ما تعتقد من حقّيقة تلك الحقّيقة.

ففي قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ}276، يظهر موسى عليه الصّلاة والسّلام متهيئا لتلقي الأمر من ربّه، ومتهيئا للطريقة التي يتم بها كشف الجريمة؛ لذلك كان جوابه (أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين) بينما قومه الذين لم يصلوا إلى مرحلة التهيؤ بهذه الطريقة في إحياء الموتى (قالوا أتتخذنا هزوا) ثم بعد ذلك طلبوا توضيحا يبين لهم معلومة تأهلهم للتهيؤ: {قَالُوا ادْعُ لَنَا ربّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ}277.

---

[276] البقرة 67.

[277] البقرة 68.

فلما لم يصلوا إلى تلك المرحلة استزادوا: {قَالُوا ادْعُ لَنَا ربّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا}278 فلم يزل يزدهم إلى أن وصلوا إلى حالة التهيؤ.

أمّا تهيؤ موسى عليه الصّلاة والسّلام فهو ثابت على حقّيقته قبل تهيؤ قومه وبعد تهيئهم.

إنّ الوقوف على حقّيقة التهيؤ وهيئته التي يقوم عليها، تتوقف على معرفة المصادر المغذية

له، والفلك الذي يدور فيه، فمدار فلكه يكمن بين العقل والقلب والروح والنفس.

ومصادر تغذيته هي الأفكار والعواطف والانفعالات والغرائز بصرف النظر عن سلبها

وإيجابها.

فكلّما توفرت الأفكار والحجج اتجاه القضية الخارجية، كانت استجابة التهيؤ للحدث أسرع، وإذا تضاءلت الأفكار أو انعدمت، كانت عملية التهيؤ متباطئة لحين استجماع الأفكار عن الحدث الخارجي الذي نقف عليه من خلال قوله تعالى: {وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبٌ أُخْرَى قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى}279.

لقد كان التهيؤ من موسى عليه الصّلاة والسّلام للإجابة عن منافع العصا وفوائدها! إلّا أنّ تحولها المفاجئ إلى أفعى دفع عاطفة

---

[278] البقرة 69

[279] طه 18- 21.

الخوف للسيطرة على العقل، عند ذلك تسمح الإرادة بالوصول إلى غريزة الفرار، غير أنّ قوله تعالى (خذها ولا تخف) ولّد تهيؤ آخر لتحوّل الأفعى إلى عصا مرة أخرى. فهذه العصا ليست كبقية العصيّ، وإنما قد هيّأها الله تعالى لموسى عليه الصّلاة والسّلام لإظهار المعجزات من آيات الله تعالى، ومن جانب آخر هو تهيئة لموسى عليه الصّلاة والسّلام لأن هذه العصا سوف يكون لها شأن كبير بما هي مهيّأة له، ذلك أن الموقف مع سحر فرعون يحتاج إلى هذا النوع من التهيؤ، قال تعالى: {قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آَمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى}[280] لقد كان موسى عليه الصّلاة والسّلام مهيّأ للحدث وإن كان لا يعلم ماهيته قبل حدوثه، فعندما خيروه بَيْن أن يبدأ فيلقى عصاه، أو أن يكونوا البادئين، وطلب منهم أن يكونوا أول من يلقي الحبال والعصي دليل على التهيؤ لهم، وهو لم يحس الخوف من العصي والحبال التي انقلبت إلى ثعابين، ولكن من احتمال أن يتلبس السحر على النّاس بالمعجزة، فألقى موسى عصاه، فإذا بها تنقلب بقدرة الله حية كبيرة مخيفة لأنّها مهيّأة لهذا الانقلاب، وهو أيضا مهيأ لتحولات العصا، وليس كالمرة الأولى(خذها ولا تخف) وإنّما الآن أصبح لديه تهيؤ كامل، وابتلعت كلّ ما أعدّوه، فلما رأى السحرة تلك المعجزة بادروا إلى السجود موقنين بصدق موسى عليه الصّلاة والسّلام.

---

[280] - طه 65- 70

ولم تكن العصا مهيّأة لأن تنقلب أفعى فقط، وإنما كان لها تهيؤات مختلفة أوجدها بها المهيئ عزّ وجلّ حيث قال تعالى: {وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كلّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ}281 فأيّ عصا تضربّ حجرا حتى ينفجر من اثنتا عشرة عينا لو لم تكن مهيّأة لهذا الأمر، ذلك أن قوم موسى أشرفوا على الهلاك من العطش وهم في صحراء سيناء، ولما لم يجدوا ماء وشكوا ذلك إلى موسى، أمرَه الله أن يضربّ الحجر بعصاه فانفجر لهم الماء.

وأعظم من هذا هو تهيؤ هذه العصا لفلق البحر وفرقه حتى ينجو بقومه عندما اتبعهم فرعون وجنوده، حيث قال تعالى: {فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ قَالَ كلّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كلّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ}282 فعندما ضربّ البحر بعصاه، انفلق البحر إلى اثني عشر طريقا بعدد طوائف بني إسرائيل، وكان كلّ طريق من هذه الطرق حاجزا من الماء كالجبل العظيم الثابت الذي لا يطغي واحد منها على الآخر، فهذا تهيؤ عصا موسى عليه الصّلاة والسّلام.

التهيؤ لدى الإنسان:

هو مزيج من الوعي والمعلومات والأفكار وأشياء فطرية، وما لها من علاقة وطيدة مع العواطف والأحاسيس، فالتهيؤ في نفس العاقل هو حالة من انعكاس الإدراك على الشعور الداخلي (الوجدان) من قضية خارجية. فالإنسان يمتلك مزيجا من القوى العقلية والجسمانية والروحية معا وفي آن واحد هي حالاته في لحظة التهيؤ المطلق قبل

[281] - البقرة 60

[282] - الشعراء 61- 63

الاستعداد لأي فعل من خلال التوتر المتناسق لقوى العقل والجسد والروح معا فتكون على هيأة قادرة على بدء الاستعداد متى شاءت وأين شاءت.

كما يكمن التهيؤ لدى الإنسان في العواطف التي لها صلة وثيقة بالغرائز، فالعاطفة هي التي تنشط الغريزة، وتجعل الإنسان في وضع التهيؤ، أما تجاوز التهيؤ إلى الاستعداد وخروج الاستعداد إلى الفعل فهذا أمر تتحكم به الإرادة نتيجة الاستنتاج.

إذن نستطيع أن نحدد لحظة التهيؤ من خلال العلاقة القائمة بين العقل والعواطف، إذ أن التهيؤ لدى الإنسان يكمن في المساحة الحرة بين العقل والعاطفة وذلك عندما تستثار الغريزة بدفع من العاطفة وهنا يكون الإنسان في وضع التهيؤ، والذي يحجب التهيؤ عن الاستعداد وصولا إلى الفعل هي الإرادة التي تتحكم به لحين اتخاذ القرار.

وأما مصدر التهيؤ بالنسبة للعاقل فهي الأفكار المكتسبة المكونة للعقل، إذ أن العقل هو الاتزان في سلسلة الأفكار السالبة والموجبة، كما أن الإرادة هي سلسة الأفعال الممّاثلة سلبا وإيجابا.

إنّ الأفكار هي التي تغذي العواطف، وكلّما تكاثرت الأفكار في قضية ما، اشتدت العاطفة ودفعت الغريزة إلى ممّارسة نشاطها، وممّارسة نشاط الغريزة بدفع من العاطفة انطلاقا من الفكرة يؤدّي إلى التهيؤ. لذلك نقول المتهيئات كامنة في العواطف بتعدد الأفكار، فعندما يكون العقل في أوج نشاطه يسيطر على عواطفه ويجعلها في حالة سبات بحيث لا نشعر بوجودها، وأما إذا اشتدت العواطف فإنّها تستدعي معظم أفكار عقلها الخاصة بالحدث بمؤثرات خارجية عن

طرق الإدراك الذي ينعكس شعورا داخليا يؤجج العاطفة بحيث تصبح أكثر نشاطا من العقل.

فنشاط العواطف يُضعف من نشاط العقل قدرا يناسب قوّة العواطف، وكذلك العقل يُضعف من نشاط العواطف درجة تناسب قوّته ونشاطه، وعند صرف النظر عن الفكرة المنشطة للعاطفة تتلاشى في العقل وتهدأ العاطفة فيزول التأثير على الغريزة التي دفعت التهيؤ للظهور إلى حين ظهور المؤثر الخارجي مرة أخرى أو استدعاء الفكرة من الحافظة عن طريق الذاكرة.

إنّ السبب في قوة العقل وسيطرته على عواطفه هو ذوبانها فيه، وذلك عندما يمتص قوى تلك العواطف الفكرية، كما أن سيطرة العواطف على العقل وتغلبها عليه، هو ذوبانه فيها بامتصاصها أغلب أفكاره المقيدة للإرادة، ولحظة الصراع الناتجة عن الأفكار بين العقل من جهة والغريزة بدفع من العاطفة من جهة ثانية إنما هي لحظة التهيؤ الذي يواجه حاجز الإرادة التي هي مرحلة بعد التهيؤ، فلا تهيئ إلا بإرادة، ولا إرادة إلا بتهيؤ، ولكن يظل لكلّ مصطلح خصوصية في المعنى والدلالة حتى وإن اشترك مع غيره أو اتحد، فالإرادة قرار والتهيؤ تحفُّز للقول أو الفعل الذي بشأنه يتخذ القرار، ولذا فالتهيؤ دائما يسبق حتى يدفع لاتخاذ القرار الذي بدوره طبيعيا لا يتخذ إلا بإرادة. فالتهيؤ للقول يؤدّي إلى الاستعداد لأن يقال بإرادة. والتهيؤ للفعل يؤدّي إلى الاستعداد لأن يفعل. ولكن ليس دائما الاستعداد وإن سبقه تهيؤ يؤدّي إلى القول أو الفعل، وذلك بأسباب حدوث الاستجابة قبل القول والفعل، كأن ينتقل الخصم الذي بسببه كان التهيؤ والاستعداد للانتقال تفاديا لتوتر المواقف التي لا تحمد عقباها، أو لحدوث غير المتوقّع في الزمان والمكان المفاجئ وأن يتم التسامح في دائرة الاعتراف

بالذنب ووجوب المغفرة والتسامح، أو أن يحدث الله أمرا {وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ}283.

وهذا ما يفسر لنا قوة العقل بعد تسلطه على العاطفة وفرض سيطرته عليها، وكذلك العواطف أقوى ما تكون عندما تكبح جماح العقل وتحجّمه وتخضعه لسيطرتها، فينفسح المجال أمام الغريزة، وفي هذه اللحظة أعظم ما يكون التهيؤ على أشده عندما يصطدم بالإرادة التي هي باب الأفعال في الكبح أو السماح، ولولا فرض العقل سيطرته على العواطف لما كان له النشاط المعهود من الحدة والانتباه بعد تسكين العواطف واختفائها مؤقتا.

وعندما يأخذ من نشاطها تزداد ضعفا ويزداد هو قوة وانتباها.

هذا التبادل العكسي بين العقل والعاطفة إنما جاء نتيجة المادة المشتركة التي تغذي كلّا منهما على حدٍّ سواء، ألا وهي الأفكار.

ويتجلى ذلك في اتحاد العقل والعاطفة أو موافقة العقل للعاطفة كالحب والرّحمة مثلا لأن المنطق يفرض التطابق الإيجابي ولذلك يكون الإنسان سريع الاستجابة في مثل هذه المواقف لتطابق العاطفة والعقل في حال الاستنتاج الإيجابي، فتسمح الإرادة للتهيؤ إلى أن يخرج إلى الفعل على وجه السرعة، على العكس من المواقف التي يكون الاستنتاج فيها سلبي أو ضرر يعود على الإنسان، لذلك يتأخر اتخاذ قرار الإرادة بسبب التردد لأن العقل يستغرق في الاستنتاج للوقوف على إيجابية النتائج، وفي هذا الموقف يكون التهيؤ في أطول أعماره إذا قسنا ذلك بالزمن، قبل أن تخمد العاطفة أو تسمح الإرادة بخروج التهيؤ إلى الاستعداد تلبية لنداء الغريزة.

---

[283] الشورى 17.

التهيؤ بين العقل والعاطفة والغريزة:

فالجوع مثلا يؤدّي إلى سيل اللعاب وارتخاء المعدة وهو تهيؤ ناتج عن الجوع، وعاطفة الحزن عند اشتدادها تدفع غريزة البكاء للتهيؤ، وكذلك عاطفة الفرح والسرور تهيؤ غريزة الانشراح والابتسامة والضحك. ولكن العاطفة تدفع الغرائز إلى التهيؤ وهنا يتدخل جزء من العقل وهو الإرادة في السماح أو عدمه بالخروج لهذا التهيؤ إلى وضع الاستعداد ثم الفعل.

فالإرادة تقف حاجزا أمام التهيؤ ثم تبدأ ملكات العقل بالتذكر واستدعاء المعلومات من الذاكرة، وتبدأ عملية مقارنة بين مخزونات العقل مع وضع التهيؤ ومن ثم تعرض هذا التهيؤ على تلك المعلومات التي استدعتها الذاكرة من الحافظة عن طريق التذكر، وتبدأ عملية البحث عن القيم.

حلال.

حرام.

مكروه.

مباح.

مرفوض...إلى آخر ما هنالك.

وهنا يتكون الاستنتاج الذي تصل فيه الإرادة إلى قرار إمّا بالسماح لهذا التهيؤ بالخروج لوضع الاستعداد ومن ثم مباشرة الفعل أو كبح جماح العاطفة الذي يؤدّي إلى تهدئة الغريزة ويتم العدول عن القرار بسبب الاستنتاج وبهذا يزول التهيؤ المتكون لفعل قد أريد.

والتهيؤ في حد ذاته معجزة من المعجزات الدالة على قدرة الخالق القادر، فبالتأمل في كلّ ما حولنا نرى إنّه مهيأٌ من قبل الواحد الأحد لاستقبالنا نحن البشر ومهيأ كذلك ليكون مسخرا ومذللا لإرادتنا فلو لم يكن ذلك التهيؤ من الله تعالى هل كان بإمكان شيءٍ الاستقرار على سطح الأرض؟

وهل كان لنا نحن البشر من قهر هذه الأرض بالحفريات وشق الطرق وبناءٍ وتعمير وزراعةٍ وغيرها من عمليات الإعمار والتعمير؟ وما نحن بالنسبة للأرض إلا كذرة صغيرة من ذراتها وما قدرتنا وقوتنا بالمقارنة مع قوى الطبيعة إلا كقوة طفل صغير مع قوة جمل ضخم، فما الذي جعل الأرض تلين لنا وتستجيب لإرادتنا لولا تهيئها من الله لنا؟

وهذا ما يتضح من قوله تعالى للملائكة {وَإِذْ قَالَ ربّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}[284].

وهذا يعني أن الله عزّ وجلّ خلق كلّ شيء في هذا الكون مهيئا لما أراد الله تعالى أن يكون عليه، أو لأداء المهمة التي أرادها الله من خلقه قبل أن يخلقه.

فلقد خلق الله تعالى الأرض وجعلها مسكنا ومستقرا للإنسان فترة معينة، وذلك بعلمه المطلق وقدرته التي لا حد لها فجعلها مهيأة لذلك كي يعيش عليها وهيأ الإنسان نفسه لهذه الحياة، فالأرض مهيأة لاستقبال الإنسان وسائر الكائنات الحية الأخرى وذلك بالتالي:

---

[284] البقرة 30.

1- نظام الجاذبية الذي تسير عليه الأرض فلولا هذه الجاذبية لما استقر شيء على وجه الأرض ولما استطاع الإنسان أن يسير على وجهها ويتحرك بكلّ بساطة وسهولة في التنقل.

2- مهّد الخالق لنا هذه الأرض فلم يجعلها جبالا متصلة ببعضها البعض فيعجز الإنسان عن المسير والحركة، وكذلك جعل فيها زوجين من كلّ شيء لكي يهيئ الله تعالى الإنسان لفكرة الزواج والتكاثر، قال تعالى: {أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا}285.

3- هيأ الخالق الأرض لتهيئة الإنسان لإعمارها والصلاح فيها، والمحافظة على ينابيعها ونباتها وشجرها وجوها فهي مهيأة في طبيعة خلقها بكلّ مقومات الحياة التي أراد المهيئ المطلق أن تنشأ عليها ففيها من المياه التي منه يكون كلّ شيء حيا قال تعالى: {أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كلّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ}286وفيها الأكسجين الذي يتنفسه كلّ الأحياء على وجهها وفيها من الأملاح والمعادن ما يحيا به النبات باختلاف أنواعه الذي يحيا عليه الإنسان والحيوان، وجعل فيها الجبال رواسي حتى لا تميل تحتهم وتبقى ثابتة مستقرة وجعل لهم فيها سبلا وطرقا ممهدة ليتمكنوا من السير عليها بيسر وسهولة.

فالأرض مهيأة من الله تعالى المهيئ المطلق للحياة ولكنها ليست مستعدة للزراعة، فيأتي بعد ذلك الإنسان المستخلف فيها والمكلّف بإعمارها من أجل أن يعدّها هو للزراعة فيعمل على حفر

285 النبأ 6: 8.

286 الأنبياء 30 ،31.

الآبار، كما يعمل على تسويتها وحراثتها وتسميدها ثم يزرع فيها ما أراد من البذور، ثم يتوافق تهيؤ الأرض للحياة مع تهيؤ البذرة أيضا للنمو والاستفادة من الأرض فتخرج بذلك النباتات بأشكالها وأنواعها، وعليه فالتهيؤ هو تحفز لإظهار ما هو متهيئ للظهور.

4- هيأ الشمس للقيام بالوظائف التي أرادها منها وهي إعطاء الضوء المناسب للحياة على هذه الأرض، وكذلك الحرارة المناسبة لاستمرارها فهي ليست بالمحرقة ولا المجمدة لبعدها، وكذلك تقوم بقتل الكثير من الميكروبات والبكتيريا التي لا ترى بالعين، وقد تسبب الأمراض للإنسان والحيوان وهذا في حد ذاته تهيئ للأرض لاستقبال الخليفة الذي جعله الله تعالى عليها.

5- كذلك تتابع الليل والنهار بانتظام هيأ للإنسان نظام حياة مريح يستطيع من خلاله تهيئة نفسه للعمل والراحة كما جاء في قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ}[287]، وكذلك قوله تعالى: {وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا}[288].

والتهيؤ من حيث الثبات المطلق والنسبي يرتبط ارتباطا كبيرا بالمهيئ نفسه فعندما يكون المهيئ هو المهيئ المطلق الله عزّ وجلّ فلابدّ وأن يكون التهيؤ تهيئا ثابتا لا يتغير بتغير الزمن والظروف لأنه تعالى هو العالم المطلق والخالق المطلق الذي لا يمكن أن يغفل عن شيء ثم يصححه بعد ذلك، وهو الذي لا يمكن أن يختلف شيء عما أراده بسبب تغير الظروف والزمن المحيطين بذلك الشيء الذي هيأه الله لما أراد أن يكون عليه أو منه {تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كلّ

[287] يونس 67.

[288] النبأ 10، 11.

شَيْءٍ قَدِيرٌ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرّحمن مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ}289.

وعندما يكون المهيئ هو المهيئ بالإضافة فبكلّ تأكيد سيكون التهيؤ ثباته نسبي وذلك بسبب قصور علمه وتفكيره وقدراته ومحدوديتها فيكون من الممكن أن يختلف الشيء عما هيأه له المهيئ بالإضافة المستخلف في الأرض.

فليس هناك إنسان يخلو من التهيؤ لأي فعل من حيث الوعي أو عدمه، وهذا التهيؤ لا نقول إنّه ملازم للإرادة، وإن كان يأتي قبلها من حيث الرتبة، وتكون العلاقة بين التهيؤ والإرادة متوالية إلى درجة، بحيث إن أي قرار للإرادة هو مبني على التهيؤ والإنسان كونه مريدا بالصفة النسبة. فهو متهيئ لما يريد، والعلاقة بين التهيؤ والإرادة هي علاقة طردية متنامية بصرف النظر عن نتائج قرار الإرادة وذلك لتباين المؤثرات النفسية والعقلية من إنسان إلى آخر، وذلك بسبب تباين مفاهيم القيم.

ولتقريب مفاهيم اختلاف التهيؤ من إنسان لآخر، ومن مجتمع لآخر نقول أن هذا الأمر قائم على اختلاف المؤثرات من القيم والأخلاق والعادات والتقاليد والقوانين الشرعية والوضعية وما ينعكس في النفس الإنسانية من مؤثرات البيئة التي تعيش فيها، بحيث يظهر أثر هذه المؤثرات على الجوانب النفسية والعقلية في تشكلّ التهيؤ لدى الأفراد في مجتمع معين، أو التباين بين مجتمعين نتيجة تلك المؤثرات.

---

289 الملك 1_3.

ولتوضيح التباين بين مجتمعين في تشكلّ التهيؤ نقول مثلا: إن موضوع الرّبا الذي ابتدع له اسم (الفائدة) إنما هو من أجل تغيير قناعات مجتمع هو مهيّأ سلبا اتجاه هذا الموضوع. فاستبدال المصطلح إنما الغرض منه إعادة تهيؤ المجتمع الرافض للموضوع من السلب إلى الإيجاب باستبدال المصطلح لدفع الإنسان إليه بإرادته وممّارسته، فإن هذا الأمر بالذات دخيل على المجتمع المسلم، وإن كان أهل الغربّ لا يرون فيه إلا نوعا من أنواع ممّارسة الإعمال كأي مهنة أخرى، لذلك فالمجتمع الغربّي مهيأ لهذا النوع من ممّارسة الفعل بقرار الإرادة.

إلا أن تهيؤ المجتمع المسلم يختلف في هذا الموقف ويصطدم معه لتباين التهيؤ بين المجتمعين فهو يأبى هذا النوع من الفعل لأنّه مهيأ من خلال الدين والعقيدة والشرع برفضه حيث قال تعالى: {الَّذِينَ يَأْكلّونَ الرّبا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بأنّهم قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرّبا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرّبا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ ربّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النّار هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ يَمْحق اللَّهُ الرّبا وَيُرِبّي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كلّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصّلاة وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ ربّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرّبا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَربٍّ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كلّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ}[290].

[290] – البقرة 275 – 281

وفي الحديث أن رسول الله عليه الصّلاة والسّلام قال: "درهم ربّا يأكلّه الرجل وهو يعلم أشد من ستة وثلاثين زنية "[291]. فالمجتمع المسلم لديه تهيؤ عقائدي ونفسي وذهني وعضوي بأن تتخذ الإرادة قرارها وفق هذا التهيؤ إذا ما وضع أمامها الموضوع.

إذن هذا التهيؤ في المجتمع المسلم هو إحدى خصائص الخليفة التي يستمدها من صفات أسماء الله الحسنى.

وعليه أتساءل:

مكونات التهيؤ ما هي؟

ومن أين يستمد التهيؤ؟

وما عناصر التهيؤ؟

إن التهيؤ لدى الإنسان يعتمد على سلسلة العلاقات المترابطة بين أشياء مادية وقضايا عقلية وانفعالات عاطفية ومسائل روحانية، وبتلاقح بعض منها مع البعض الآخر يتولد نوع معين من التهيؤ في اتجاه معين قابل للخروج إلى مرحلة الاستعداد لممّارسة الفعل، ولذا لا يمكن أن يكون أحادي المصدر، إذ أن التهيؤ الإنساني لا يتكون إلا من عنصرين على الأقل ممّا ذكرنا، حيث أن مكونات التهيؤ هي:

1- مادية وهي الأداة.

2- عقلية وهي سلسلة الأفكار.

3- نفسية وهي انفعالات العواطف.

4- روحية وهي يقينيات الإيمان القلبية.

---

[291] - مسند أحمد ج 48، ص 44

ولا يمكن أن تستكمل متممّات التهيؤ للإنسان إلا بوجود التهيؤ المادي، ذلك إنّه الأداة المنفذة لقرار الإرادة، وبتآلف التهيؤ المادي مع تهيؤ آخر ممّا ذكرنا يكون الإنسان وصل إلى حالة التهيؤ التام في اتجاه معين، وعلى هذا تكون مراتب المتهيئات هي أربّعة وفقا لعناصرها على النحو الآتي:

1- تهيؤ مادي عقلي:

إن التهيؤ المادي العضوي هو تهيؤ فطري، والمقصود به ما يتمتع به الإنسان من أعضاء يستطيع أن يمارس بها أفعالا معينه فنجد هذه الأعضاء مهيأة لذلك قبل مباشرة الفعل كالحواس جميعها، فالعين مهيأة للنظر والأذن مهيأة للسمع، وكذلك الرجل مهيأة للمشي واليد مهيأة لاستعمالات كثيرة، وكذلك العقل مهيأ لتقبل العلوم والتمييز والاستنتاج، وباجتماع إحدى ملكات العقل مع إحدى هذه الأعضاء يتولد تهيؤ ثنائي جديد بين الأداة المادية والجانب الذهني، فإذا تمّ توجيه سؤال لغيرك عن كيفية الوضوء، فأنت مهيأ للإجابة لامتلاكك المعلومة وأداة النطق، غير أنّ الإرادة لم تتخذ قرارها بسبب عدم توجيه السؤال إليك.

وهذا النوع من التهيؤ وهو تهيؤ العلم بالأشياء على ما هي عليه والعمل بمقتضاه إن كان متعلقا بكيفية العمل "واعلم أن الحكمة نوعان: أحدهما الحكمة المنطوق بها وهي علم الشريعة والطريقة. والثاني الحكمة المسكوت عنها وهي أسرار الحقّيقة التي لا يطلع عليها عوام العلماء على ما ينبغي فيضرهم أو يهلكهم كما روى أن رسول الله صلّى الله وسلّم كان يجتاز في بعض سكك المدينة مع أصحابه، فأقسمت عليه امرأة أن يدخلوا منزلها فدخلوا فرأوا نارا موقدة وأولاد المرأة يلعبون حولها فقالت يا نبي الله، الله أرحم بعباده أم أنا بأولادي فقال عليه

السلام: (بل الله أرحم، فإنّه أرحم الراحمين) فقالت يا رسول الله: أتراني أحب أن ألقي ولدي في النّار قال (لا) فقالت فكيف يلقى الله عبيده فيها وهو أرحم بهم قال الراوي فبكى رسول الله عليه السلام فقال: (هكذا أوحي إلي) وفصل الخطاب، لبيان تلك الحكمة على الوجه المفهم فيكون بمعنى الخطاب الفاصل أي المميّز والمبين أو الخطاب المفصول أي الكلّام الملخص الذي ينبه المخاطب على المرام من غير التباس"[292].

فالحكمة وفصل الخطاب، عند من يمتلكهما، هما تهيؤ من أجل الإفصاح بحقّيقة الأمر وقطع القضايا والأحكام باليقين من غير التباس ولا شك ولا توقف، فهو عليه الصّلاة والسّلام مهيّأ للفصل بين الخصوم بتمييز الحقّ من الباطل، فالفصل على حقّيقته هو قرار الإرادة بعد التهيؤ، ذلك إنّه استكمل متممّات التهيؤ في القضاء الذي يتم به الفصل بين المتخاصمين عن طريق معرفة الحقّ وإقامة العدل وأداة النطق بالحكم، والحكمة هي أنواع المعارف من المواهب وفصل الخطاب بيان تلك المعارف، فهذا تهيؤ عقلي ذهني من طريق العلم، وتهيؤ مادي عن طريق الأداة المادية وهو أعضاء النطق من اللسان والشفتين وما يشترك معهما.

2- تهيؤ مادّي نفسي:

وهو اشتراك الأعضاء المادية مع الجانب النفسي من انفعالات تدخل في تشكلّ هذا التهيؤ، فإذا شاهدت أفعى مثلا فسوف ينتابك شعور معين لا نستطيع أن نحكم عليه، وهذا الشعور يجعلك في احتمالات منها:

---

[292] - تفسير حقّي ج 12، ص 133

أ- أن تكون خائفا فتفكر في الفرار فأنت في حالة تهيؤ.

ب- أن تكون حذرا فأنت مهيّأ لتركها وشأنها.

ج- أن تكون لديك جرأة الثبات فأنت مهيّأ إما للإمساك بها أو قتلها.

فهنا أنت مهيّأ نفسيا من خلال الشعور، ومهيّأ ماديا من خلال الأدوات المهيّأة للفعل بعد أن تأخذ الإرادة قرارها وتجعلك في وضع الاستعداد لممّارسة الفعل الذي يغلب عليه التهيؤ.

إنّ التهيؤ العضوي النفسي له صور كثيرة منها ما جاء في قوله تعالى: {فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ}293 فلو لم يكن مهيّأ نفسيا من حدّة الانفعالات الغاضبة ما أقدم على فعلته، فهو لم يكن مهيّأ عقليا من تجربّة سابقة مارسها أو رآها، وإنما أصبحت شدّة الغضب تسيطر على حكمة العقل فتهيأ لهذا فسوّلت له نفسه وسهلت عليه الأمر وشجعته وصوّرت له أن قتل أخيه طوع سهل. "فصورت له نفسه أن قتل أخيه طوع له سهل عليه ومتسع له لا ضيق فيه ولا حرج، فإن قتل النفس بغير حقّ لا سيما قتل الأخ إذا تصوره الإنسان يجده شيئا عاصيا نافرا كلّ النفرة عن دائرة الشرع والعقل بعيدا عن الإطاعة والانقياد البتة، ثم إنّ النفس الأمارة إذا استعملت القوّة السبعية الغضبية صار ذلك الفعل أسهل عليها فكأن النفس صيرته كالمطيع لها بعد أن كان كالعاصي المتمرد عليها"294.

3- تهيؤ مادّي نفسي عقلي:

293 - المائدة 30

294 - تفسير حقّي ج3، ص 237

وهذا النوع من التهيؤ أعلى من التهيؤين السابقين، حيث تشترك فيه الأداة المادية والانفعال النفسي الذي مصدره الشعور والجانب العقلي القائم على المعلومات وسلسلة الأفكار ذات العلاقة بموضوع التهيؤ. وعلى سبيل المثال نجد الإمام الغزالي قبل أن يؤلف كتابه تهافت الفلاسفة، إنّه كان يعرف القراءة والكتابة بداية، ثم اطلع على مقالات الفلاسفة في موضوعات شتى من علم الإلهيات، وما خالف فيه هؤلاء الفلاسفة بعض الثوابت الإلهية، الأمر الذي ولدّ لديه تهيؤ آخر وهو التهيؤ النفسي، وبذلك اجتمع لديه التهيؤ المادي والنفسي والعقلي، فكان قرار الإرادة بتأليف كتابه تهافت الفلاسفة بعد أن كان مهيّأ لذلك.

وهذا النوع من التهيؤ نقف عليه في قوله تعالى: {وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}295.

فالتهيؤ الثلاثي الأبعاد الذي نحن بصدده هنا، متوفر قبل وقوع الحدث لدى كلّ من الوالدات، والمولد له، ولدى الوارث أيضا، فالتهيؤ المادي سواء أكان ناتجا عن الأداة في الرعاية والكفالة أم النفقة، والتهيؤ النفسي المتصل بصلة القربّى والرحم، والتهيؤ العقلي الذي يمتلك المعلومة بأن المولود ابن لهم ويجب رعايته، فهذا التهيؤ قائم وحاضر لدى الجميع ممن شملهم النص القرآني، ومن التهيؤ المستقر في أنفس هؤلاء جميعا أن

[295] - البقرة 233

تغذية الطفل بلبن الأم أصلح له من سائر الألبان، وأن شفقة الأم وعطفها وحنانها عليه أتم له من شفقة غيرها، وهذا تهيؤ مادي نفسي عقلي.

فإذا انتفي واحد من هذه المتهيئات الثلاثة، أو تغير اتجاه واحد منها تراجعت رتبة هذا التهيؤ إلى مستوى أقل من المتوقّع، لذلك نحتاج هنا إلى باعث يعيد التهيؤ إلى مستواه المطلوب، ففي قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ}296، فقد كان لديهم التهيؤ المادي والنفسي والعقلي من أجل القتال، فقد أُخرجوا هم وأبناؤهم من ديارهم، فهم مهيّؤون نفسيا من هذا الجانب بأن يتملّك عليهم ملك يقودهم، ومهيّؤون ماديا بالأسلحة والأداة التي سوف تستخدم تلك الأسلحة، ومهيّؤون عقليا بفنون القتال وما تجرّ الحروب من نتائج في النصر أو الهزيمة. إلا أن هذا التهيؤ كان في دائرة الممكن غير المتوقّع عندما أجابهم نبيهم عليه الصّلاة والسّلام إلى طلبهم مخالفا تهيؤهم النفسي بقوله: {إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحق بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}297، فالتهيؤ الذي كان قائما لديهم من الجانب النفسي يرتكز على مقاييس مادية ترفض أن يكون طالوت ملكا عليهم لأنّه من الفقراء، وهم الأغنياء

[296] – البقرة 246

[297] – البقرة 247

الذين يمتلكون الذهب والفضة والأموال، غير أن نبيهم عليه الصّلاة والسّلام، يعالج الأمر من منظور الخلافة، وهو خليفة الله في الأرض، وهنا يتضح لنا جانب مهم، وهو أن الخليفة الذي يتصف بالصفات النسبية للأسماء الحسنى يترفع عن القيم المادية إلى قيم روحية، بحيث يستطيع تغيير وجهة التهيؤ أو إعادة تشكلّه بحيث يكون الهدف منه إعمار الأرض وإصلاح ما أفسده المفسدون.

وهنا يبرز دور الخليفة في إعادة تشكلّ التهيؤ وتوجيهه الوجهة الصحيحة من أجل بلوغ الغاية، لأن الخليفة في أعلى مراتب التهيؤ، وهو التهيؤ الروحي الذي يصدر عن يقينيات الإيمان، لذلك أعلمهم أن هذا الأمر ليس وفق تهيؤهم، بل يجب أن يتبدل هذا التهيؤ لتقبل الأمر، فالملك الذي يكون أحد جنوده نبيا من أنبياء الله، لابدّ أن له آية معجزة، وعلامة دالة عليه، وسمة يعرف بها قال تعالى: {وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آَيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آَلُ مُوسَى وَآَلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}298، فالخليفة عنده علم اليقين الصادر عن التهيؤ الروحي، ومن خلال تهيؤ الخليفة الروحي أعاد تشكلّ تهيؤ الآخرين وتوجيهه إلى الوجهة التي فيها صلاحهم، حيث إنّهم عندما وقفوا على الآية المعجزة لم يعد لديهم القدرة على تشكلّ تهيؤ آخر في عدم قبول تمليك هذا الملك عليهم إن أرادوا أن يخرجوا من الاستعداد إلى الفعل الذي تهيّؤوا من أجله.

4- تهيؤ مادي نفسي عقلي روحي:

[298] - البقرة 248

وهو أعلى مستويات التهيؤ لدى الإنسان، ذلك إنّه يدخل فيه الجانب الروحي القائم على يقينيات الإيمان الكامنة في القلب فضلا عن عناصر التهيؤ الأخرى المادية والنفسية والعقلية، وإن كان هذا التهيؤ مصدره العلم، إلا إنّه علم يختلف عن العلم الظاهر الذي يأخذه المتعلم عن العالم، فهو إما وحي يوحى أو وهب يوهب يكون الإنسان مهيّأ لتقبله قبل أن يصبح مهيّأ به، وبما إنّه روحي مكمنه القلب، فهذا يعني تطهير القلب من كلّ دنس، وغل، وحسد، وخلق ذميم، وسوء عقيدة، فإنّها من خبايات القلب، قال الله تعالى: {إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كلّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا}299، فبذلك يحصل التهيؤ لقبول العلم وحفظه والاطلاع على دقائقه وغوامض حقّائقه300، فهذا التهيؤ هو نوع مخصوص لأُناس مخصوصين مهيئين لتقبل هذا التهيؤ دون تعلمه من الآخرين، وإنما يُرشدون به هؤلاء الآخرون للوصول إلى الحقّائق مثل ما جرى بين إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام وبين أبيه حيث قال تعالى: {إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرّحمن فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا}301 فالعلم الذي جاءه عليه الصّلاة والسّلام لم يكن عن طريق التعلم والدراسة، وإنما كان مهيّأ لأن يوحى له، فهو وحي إلهي ليس أي إنسان مهيّأ لذلك العلم الذي يأتي من الله تعالى عن طريق رسله من الملائكة، فالله تعالى هيّأه لأن يمنحه هذا العلم، وهو يعلم إنّه مهيّأ دون غيره، لذلك قال اتبعني إلى ما أدعوك إليه، أرشدك إلى الطريق السوي

---

[299] - الإسراء 36

[300] - آداب العلماء ج 1، ص 26

[301] - مريم 42- 45

الذي لا تضلُّ فيه، ولم يقل أعلمك، وفي هذا النوع من التهيؤ أيضا هناك قضية أخرى، وهي أن السن والعمر ليس له أثر في ذلك، لأن هذا التهيؤ اصطفاء من الله تعالى يهيئ له من يشاء من عباده، فإبراهيم عليه الصّلاة والسّلام كونه مهيّأ فقد اطلع على شيء من علم الله تعالى لم يطّلع عليه أباه ولم يعلمه وإن كان أكبر منه سنا، ولعلم إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام أن أباه غير مهيّأ، فقد قال له اتبعني فيما أدعوك إليه كي أهديك إلى طريق الرّشد، ومع ذلك حتى في حال وجود التهيؤ الروحي لدى المتحاورين فإن مستويات التهيؤ تكون متفاوتة لأن كلّ إنسان مهيّأ لما كلّف به.

وعلى هذا نرى موسى عليه الصّلاة والسّلام وهو نبي الله تعالى يقول للعبد الصالح: {هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا}302 ولعلم العبد الصالح أن موسى عليه الصّلاة والسّلام غير مهيّأ لما مهيّأ له العبد الصالح: {قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا}303

ومن صور هذه الرتبة من التهيؤ أن نوحا عليه الصّلاة والسّلام أَوحي إليه بصنع السفينة التي تكون منجاة له ولمن آمن معه، قال تعالى: {وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ إنّه لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ}304 إن ما

---

[302] - الكهف 66

[303] - الكهف 67- 68

[304] - هود 36- 39

يعلمه نوح عليه الصّلاة والسّلام، لم يدركه عن طريق المتهيئات المادية الناتجة عن الحس، أي ليس تهيؤه لها عن طريق الحواس.

فالإدراك الحسي وإن اطلع الإنسان على ماهية الأشياء، فإن هذا الإدراك لا يوصله إلى معرفة طبائعها، أي على ما سوف تكون عليه بعد خروجها من التهيؤ إلى الاستعداد، ذلك أن إدراك الكلّيات المادية من جهة الإحساس بجزئياتها، لا يوقفنا على ما ستؤول إليه فيما بعد.

بمعنى أن الأرض ندركها من خلال كونها كلّية من حيث هي كوكب عن طريق الحواس، وندرك كوكب الأرض أيضا عن طريق الحواس من خلال جزئياته من الجبال والسهول والأشجار والأنهار وما فيه من كائنات، لكننا لا نستطيع أن نقف على جميع تهيؤاتها، وإن وقفنا على بعضها من خلال الحس، أو بما نملك من تهيؤ عن هذا البعض.

فإذا أردنا أن نعلم طبائع هذه الجزئيات (تهيؤاتها)، فإن التهيؤ الحسي الذي نملكه من مصادر المادة والنفس والعقل، لا يمكن أن يفي بالغرض الذي يمنحنا تهيؤ يهيئنا للوقوف على تهيؤاتها، ونحن نعلم إنّه: {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنّه كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا}[305] فنحن لا نفقه تسبيحهم لأننا غير مهيّئين للوقوف على طبائع تهيؤ الأشياء.

[305] – الإسراء 44

والذي يستطيع أن يقف على تهيئها يجب أن يتمتع بالتهيؤ الروحي، وهي إدراكات ما وراء الحس، أي هو التهيؤ المخصوص لأُناس مخصوصين سلبا أم إيجابا، وهذا من التهيؤ الموجب.

أما التهيؤ السلبي، وإن كان موجبا بالنتيجة، ولكنه تهيؤ سالب للاستعداد والفعل وهذا ما سنقف عليه من خلال قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كلّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}306. إنّ الله تعالى الذي هيّأ عيسى عليه الصّلاة والسّلام للنبوّة يعلم إنّه لم يقل ذلك للناس، ولكنه ذكره على سبيل التوبيخ للذين افتروا على الله ورسوله كذبا.

إنّ التهيؤ الروحي لدى عيسى عليه الصّلاة والسّلام، هو سلبي اتجاه الاستعداد للفعل، وإيجابي النتيجة، لذلك لم يكن جوابه بالنفي (أي أنّي ما قلت لهم هذا). ولكن كان جوابه إنّه ما يكون له أن يقول ما ليس له بحقّ، إذن هو مهيأ لقول الحقّ، والذي قيل في حقّ مريم وعيسى عليهما الصّلاة والسّلام ليس من الحقّ في شيء، والحقّ الذي هو مهيّأ له أن يقول لهم: اعبدوا الله ربّي وربّكم، وهذا منطلق التهيؤ الروحي الذي لا يمكن أن يُتوصل إليه إلا عن طريق القلب الذي يدرك اليقينيات، إذ إنّه من إدراكات ما وراء الحس، وهذا يعني إنّه خارج عقولنا، ولكن ليس مثل اللون والامتداد والحركة، مع إنّها خارج عقولنا إلا أنّنا نستطيع أن نقف عليها من خلال وسائل المساعدة، ولا هي

[306] - المائدة 116- 117

من الروائح أو الحرارة أو البرودة التي لها أسبابها الكيميائية أو الفيزيائية، وإنما هي اعتقاد يقيني وليس فكرة، علما أن الفكرة الصحيحة ما طابقت واقعا موجودا مستقلا عنها، والفكرة الخاطئة ما ليس لها واقع موجود يطابقها.

وما نريد أن نقوله: إن التهيؤ الروحي اليقيني الكامن في القلب لأناس مخصوصين، لا هو فكرة صحيحة في العقل لها ما يماثلها في الواقع، ولا هو فكرة خاطئة في العقل انتفي مثلها في الواقع، وإنما هو من إدراكات ما وراء الحس الذي يقف عليه اليقين.

أركان التهيؤ:

للتهيؤ أركان هي:

أولا- مهيئ: وهو الذي يقوم بتهيئة الأشياء للقيام بما أراد لها أن تقوم به أو لما أراد أن يفعل هو بها فالله سبحانه وتعالى هو المهيئ المطلق لكلّ ما في الكون من مخلوقات من أجل ما أراد أن يكون كما أراد هو؛ فالملائكة مهيأة لأن تكون على طاعة الله وتقوم بكلّ ما أمرها به من توزيع أرزاق وحفظةٍ وكتبةٍ وحملة عرش وغيرها من الأعمال التي يريدها عزّ وجلّ منها، والذي هي من الطبيعة التي هيأت عليها، وليست مهيأة للمعاصي وعدم الطاعة {وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ}307.

- المهَيَّأ: وهو من يقع عليه فعل التهيؤ من المهيئ من أجل فعل الفعل أو الغرض الذي يُراد منه.

307 الانفطار 10، 11.

3- مُهَيَّأ له: وهو الفعل الذي حصل من أجله التهيؤ؛ فالخليفة مهيأ لأن يصلح الأرض ويعمّرها بعبادة الله وطاعته واجتناب نواهيه وهكذا، وهي مهيأة كذلك لأن تستجيب لكلّ رغباته، وتكون مستقرا له ومستقرة كذلك فلا تثور علبه إلا عندما يريد منها المهيئ المطلق ذلك.

4- مُهَيأ به: وهو ما يتمّ به تهييئ الشيء لاستقبال المهيئ له أو للقيام بالشيء المهيأ له، فمثلا:

- المهيئ المطلق الله تعالى.

- فالمهيأ هو الخليفة، وهو مهيئ بالإضافة.

- والمهيأ له هو الاستخلاف في الأرض.

- والمهيأ به هو ما منحه الله من عقلٍ وقدرةٍ وإرادةٍ وخلقٍ في أحسن تقويم قال تعالى: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}[308] وهذا يعني بالضرورة أن يكون الإنسان في أحسن تهيؤ للمهمة التي أُنيطت به مع العلم أن الإنسان مهيأ لأن يفعل الطاعات ومهيأ أيضا لأن يفعل المعاصي؛ فكما هو مهيأ أن يحيي نفسا فهو مهيأ أيضا لأن يقتل نفسا، ولكن من يقتل النفس بغير حقّ لا يمكن أن يكون مهيئا لأن يكون من الخلفاء الذين عناهم الله بقوله: {إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً}[309]، أما الخليفة فهو مهيأ من الداخل بأن يقاوم وسوسة الشيطان وغضب النفس فلا يقتل النفس بغير حقّ ويعمل دائما على التسامح دون هوان، والمغفرة دون مذلة، والصفح دون ضعف.

[308] التين 4.

[309] البقرة 30.

كما أنّ الإنسان الذي خلقه الله تعالى هو أيضا مهيأ لأن يكون خليفة في الأرض فقد هيأه المهيئ المطلق للأفعال التي يريدها من بعدة أشياء منها:

. العقل، الذي بواسطته يستطيع الإنسان أن يصل إلى حقّائق الأمور ويدركها هي كما هي وبه يفرق بين الصواب والخطأ، وعن طريقه يتخذ القرار بترك الأخطاء وما فيه ضرر له، ويغضب الله تعالى الذي استخلفه، وفعل ما هو صواب وفيه له منه فائدة، ورضا للخالق عزّ وجلّ.

. الإرادة، والتي بها يفعل كلّ ما يريد وكلّ ما اتخذه من قرارات عن طريق العقل سواء كانت سلبية أو إيجابية، فيكون بذلك جزاءه عليها عادلا لا ظلم فيه، فهو قد استحقّه بأفعاله التي اقترفها بمحض إرادته.

. القدرة والقوّة، والتي بدونهما لا يتسنى له أن يفعل ما قرره عقله وانعقدت عليه إرادته.

. الضمير، الذي هو بمثابة الرقيب على الإنسان والمحاسب له والرادع عن كلّ ما من شأنه الإضرار به، وإغضاب الله عزّ وجلّ.

. حسن التقويم، قال تعالى: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}[310] وهو المتمثل في هذه الهيئة التي عليها الإنسان من قامة منتصبة وما عليها من عقل وعيون جلد وخلايا ودماء وشرايين وغيرها ممّا لا يحصى من النعم التي تعينه على أداء رسالته التي كلّفها الله تعالى بها، قال تعالى: {أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمْ مَنْ يَمْشِي

[310] التين 4.

سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ}[311].

مستويات التهيؤ:

1- تهيؤ بمستوى الحدث حيث قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ ربّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كلّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}[312] إن إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام موقن بقدرة الله تعالى لعلمه أن الذي يخلق ويُميت قادر على أن يحي الموتى، وهذه القناعة إنما هي تهيؤ للوقوف على الحدث لعلمه بأن الله قادر على إحياء الموتى، ولكنه طلب من أجل الاطمئنان "أي بصرني كيفية إحيائك للموتى بأن تحييها وأنا أنظر إليها، إنما سأل ذلك ليصير علمه عيانا، وقد شرفه الله بعين اليقين بل بحقّ اليقين الذي هو أعلى المقامات. والفرق أن علم اليقين هو المستفاد من الإخبار. وعين اليقين هو المعاينة لا مرية فيه"[313] فالتهيؤ للفعل الخارق للعادة موجود وقائم في نفسه عليه الصّلاة والسّلام، ولولا هذا التهيؤ لما طلب من الله تعالى مشاهدة عملية إحياء الموتى.

إذن هذا تهيؤ عن طريق اليقين المتولد عن الإخبار الذي مكمنه القلب وليس العقل، والسبب في ذلك أنك لا تستطيع أن تجمع بين صورة الموت والحياة في وقت واحد، إذ ليس لملكات العقل أفكار عن هذه الصورة مكتسبة من الخارج، وليس له القدرة على تشكيلها في الداخل، أي لا في الذهن ولا في الواقع، لذلك هذا النوع من التهيؤ

---

[311] الملك 22، 23.

[312] البقرة 260.

[313] تفسير حقّي 2، 92.

يقيني عن طريق القلب من جهة الإدراك فقد قال تعالى: {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ}314.

وذكر الصدور جاء تأكيدا على أن القلب هو الذي يدرك اليقينيات وليس العقل، فقد قال عليه الصّلاة والسّلام:" ما من عبد إلا وفي وجهه عينان يبصر بهما أمر الدنيا، وعينان في قلبه يبصر بهما أمر الآخرة، فإذا أراد الله بعبد خيرًا فتح عينيه اللتين في قلبه، فأبصر بهما ما وعده بالغيب فآمن بالغيب على المغيب، وإذا أراد به غير ذلك تركه على ما فيه "315، ثم قرأ (أم على قلوب أقفالها).

ومثل ذلك أيضا في التهيؤ بمستوى الحدث قوله تعالى: {إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ ربّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكلّ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ ربّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ}316 عندما سأل الحواريون عيسى عليه الصّلاة والسّلام هذا السؤال، فما كان منه إلا أن قال اتقوا الله، وهذا دليل التهيؤ واليقين، فهو متهيء لمثل هذا الفعل، وموقن بأن الله تعالى قادر ومستطيع على أن ينزل عليهم مائدة من السماء، وأكثر من المائدة، فجوابه لهم عليه الصّلاة والسّلام، ولّد لديهم تهيؤ للحدث، بدليل إنّهم أجابوا مباشرة بقولهم(نريد أن نأكلّ منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا) فالتهيؤ الذي تولّد في

314 الحج 46.

315 جامع الأحاديث 19، 195.

316 المائدة 112. 114.

نفوسهم كان تمهيدا لعذر وبيان الأمر الذي دعاهم إلى السؤال، وبهذا التهيؤ أزالوا الشبه في قدرة الله تعالى على تنزيل المائدة، أو في صحة نبوة عيسى عليه الصّلاة والسّلام، حتى لا يقدح ذلك في الإيمان والتقوى.

2- تهيؤ أعلى من الحدث ومثال ذلك قوله تعالى: {وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النّاس عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كلّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ ربّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ}317 فالتهيؤ عند نبي الله سليمان عليه الصّلاة والسّلام، أعلى من مستوى الحدث، لأنّه عندما سمعها تبسم ضاحكا، وهذا التبسم المباشر دون استغراب هو دليل التهيؤ المسبق ضمن دائرة الممكن المتوقّع، لأنه مهيأ لمعرفة ما هو أبعد من منطق النملة، فقد أوتي من الله ملكا ما ينبغي لأحد من بعده، وذلك لما علمه الله تعالى من منطق الطير وحشر له الجنود من الجن والإنس وآتاه من كلّ شيء ما لم يؤته لأحد من خلقه، لذلك كان التهيؤ عنده أعلى من الحدث في سماعه ما تقوله النملة لبني جنسها، لأنّه مهيأ لأكثر من هذا وأكبر منه بما آتاه الله من فضله.

وهذا النّوع من التهيؤ نقف عليه لدى رسول الله عليه الصّلاة والسّلام في غزوة بدر في تثبيت المؤمنين وحثهم على القتال وتبشيرهم بالنصر حيث قال تعالى: {إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ ربّكُمْ بِثَلَاثَةِ آَلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ

---

[317] النمل 16. 19.

مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آَلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ}318 فالرّسول عليه الصّلاة والسّلام مهيّأ من ربّه لما في يقينه من قدرة الله تعالى من الإمداد من أجل النصر، وهو عليه الصّلاة والسّلام يريد أن يصل بأصحابه إلى أعلى درجات التهيؤ للنصر الذي وعده به ربّه عزّ وجلّ، ولذلك أخذ يهيئهم لاستقبال الملائكة الذين يكونون لهم مدد من أجل النصر الموعود.

3- تهيؤ أدنى من الحدث في قوله تعالى: {وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ ربّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مكانه فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ}319 إنّ موسى عليه الصّلاة والسّلام كان مهيأ لأن يكلّمه الله تعالى بما هيأه به، علما أن الله تعالى لم يكلّم بشرا إلا وحيا أو من وراء حجاب: {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إنّه عَلِيٌّ حَكِيمٌ}320 فلما كلّمه من وراء حجاب اشتاق موسى لرؤية ربّه تعالى وطلب منه ذلك.

غير أنّ التهيؤ لسماع الكلّام غير التهيؤ لرؤية الحقّ عزّ وجلّ، فقد سبق القول من الله تعالى إنّه لا أحد من خلقه يستطيع أن يراه في الحياة الدنيا، فهو عليه الصّلاة والسّلام قد هيأه الله

بقدرات يستطيع أن يسمع كلّام الله تعالى، ولكن هذه القدرات من التهيؤ لا تقوم لرؤية الحقّ

[318] آل عمران 124، 125.

[319] الأعراف 143.

[320] الشورى 51.

عزّ وجلّ، فلما تجلى الحقّ عزّ وجلّ للجبل وليس لموسى جعله دكا، علما أنّ التجلي غير الظهور وهو أقل درجة منه، واختيار الله تعالى للجبل، لأنّه مهيأ أكثر من موسى عليه الصّلاة والسّلام، من حيث الحجم والشدة وقوّة التحمل. وإنّ الجبال هي الأوتاد التي تثبت الأرض، وعَرْض الأمانة عليها إنما هو من قبيل هذه الصفات التي تحملها: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ}[321] علما أن الجبال من جنس الأرض، وذكرها جاء على التخصيص، لأنّها أشد من الأرض، وهي التي تثبتها، ومع ذلك فهي لم تثبت للتجلي فكيف تثبت للظهور؟ فموسى عليه الصّلاة والسّلام كان تهيؤه أقل من مستوى الحدث.

وهذه المراحل الثلاث توضح الاختلاف في مستو التهيؤ عند الإنسان، مع وجود ثوابت تدعم التهيؤ للحقّ وبما يجعل الإنسان المستخلف بمستوى الحدث نذكر منها:

أولا: كثرة المفاسد تهيئة للخروج من المفاسد، حيث إنّه مع كثرة انتشار المفاسد يصبح الكلّ متهيئ للإصلاح متطلع له فيكون هناك تهيؤ لاستقبال الرّسُل والمبشرين الذين يأخذون النّاس من الضلال إلى النور ومن الفساد إلى الصلاح.

ثانيا: إرسال الرّسُل مبشرين بالجنّة ومنذرين من النّار لقوله عزّ وجلّ: {وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى

---

[321] الأحزاب 72.

وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ}322، فقبل أن يهيئ الله تعالى الجنّة والنّار لاستقبال كلّ ما خلق فقد هيأ المخلوقين لذلك بأن أوضح لهم الحقّ والباطل وترك لهم سلك الطريق الذي يختارونه فمنهم من يتبع الحقّ ومنهم من يتبع الشيطان.

وقد كان لنا في رسول الله – عليه الصّلاة والسّلام- أسوة حسنة فقد كان أعظم مهيئ للمسلمين لأن يكونوا صلّاحا أقوياء بعد أن هيأه الله تعالى لذلك وذلك كما جاء في قوله تعالى: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآَخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا}323 فبمجرد الاقتداء بأخلاق الرّسول الكريم عليه الصّلاة والسّلام يتهيأ الإنسان للصلاح والخير، فسيرة رسولنا الكريم – عليه الصّلاة والسّلام-للباحث المتعمق فيها يجدها تعمل على تهييئ جيل صالح يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وينشر الفضيلة على وجه الأرض فيكون خليفة كما أرادنا المولى عزّ وجلّ.

ثانيا: بالعلم الذي حث الخليفة للسعي ورائه لأنّه أصل الوصول إلى الحقّ والهداية، فالمولى عزّ وجلّ هو العليم المطلق وجعل من أبرز صفات الإنسان التي من شأنها أن تهيأه لأن يكون خليفة هو سعيه الدءوب وراء العلم النافع والمعرفة الحقّ، قال تعالى: {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ}324، فمن الآية الكريمة السابقة يتضح ما للعلم من أهمية ودرجة كبيرة في تهيئة البشر للتعرف على الخالق العظيم والوصول إلى مرضاته، وكذلك يجب على المتصف بالعلم

[322] الأنعام 58. 60.

[323] الأحزاب 21.

[324] فاطر 28.

أن يسعى بين البشر به لكي يكون مهيئا لهم بتعليمهم تغذية عقولهم بما يجعلهم مدركين لكلّ ما يدور حولهم وتبصيرهم بما ينفع ويضر.

حتى أنّنا نجد أن العلم بالشيء يرفع عن صاحبه الحجّة على عكس الجهل به لقوله تعالى: {إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا}325.

ثالثا: بتوضيح العلاقة الصحيحة التي لابدّ أن يكون عليها البشر، فمنذ بدء الخلق تهيأت النفس البشرية لأن تقبل الحقّ أو الباطل وهذا ما تؤكده قصة قابيل وهابيل كما جاء في قوله عزّ وجلّ: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالحقّ إِذْ قَرّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ ربّ الْعَالَمِينَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النّار وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ}326 نستطيع من الآيات الكريمة السابقة أن نستنتج قانون الحياة الذي يجعلنا مهيئين للخلافة في الأرض وذلك من قول الأول (لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ ربّ الْعَالَمِينَ) وهو الخوف من المولى عزّ وجلّ والسعي وراء السلم والخير.

325 النساء 17.

326 المائدة 27. 31.

ففي هذه القصة تهيئة للبشر بتعليمهم أن الفوز ليس بالقوّة والعنف وأن الخليفة يجب أن يكون مهيئا للسلام ومهيئا له.

التهيؤ للحدث الخارجي:

وهو إمّا أن يكون موافقا مطابقا له، وإمّا أن يكون مخالفا:

1 – التهيؤ المطابق في قوله تعالى: {اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ}[327] لقد وافق يوسف أباه يعقوب عليهما الصّلاة والسّلام في تهيؤ كلّ منهما للآخر، ذلك أن يعقوب لم يصدق إخوة يوسف فيما ادعوه من أن الذئب قد أكلّه، فما زاد أن قال: (فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون). لذلك عندما فصلت العير قال: (إني لأجد ريح يوسف) فهو مهيّأ لأن يجد ابنه رغم ما قيل له، وبالتالي فإن يوسف عليه الصّلاة والسّلام كان يوافق أباه في تهيؤه، لذلك قال: (اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيرا) ونحن لا نقول إنّ هذا من توارد الخواطر كما اصطلح عليه نقاد الأدب عندما تتوافق الفكرة لدى أديبين، وإنما هو نتيجة الأفكار المشتركة التي تتولد منها قناعات معينة، الذي أطلقنا عليه الاستنتاج المؤدي إلى التهيؤ.

2 – التهيؤ المخالف في قوله تعالى: {وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إنّه ربّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إنّه لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى

---

[327] يوسف 93. 96.

بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّه مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ}328 إن تهيؤ يوسف عليه الصّلاة والسّلام عندما دعته امرأة العزيز، كان نابعا من أفكار كان قد اختزنها ممّا أسداه إليه العزيز من معروف في كفالته وتربّيته ورعايته، وجل اهتمامه كان ينصب في هذا النوع من التهيؤ الذي يريد أن يجازي الإحسان بالإحسان، وأما امرأة العزيز فإن الأفكار التي اختزنها عن يوسف عليه الصّلاة والسّلام كانت قد سخرتها في قضية أخرى وحولتها في اتجاه معين ممّا أجج العاطفة التي استثارت الغريزة، بحيث أن شدة العاطفة امتصت قدرات العقل ممّا سمح للإرادة باتخاذ القرار في إنّها غلقت الأبواب وقالت هيت لك، قال معاذ الله، فإرادته عليه الصّلاة والسّلام اتخذت قرارها وفق ما كان مهيأ له، وإرادتها اتخذت قرارها وفق ما كانت مهيأة له أيضا، لذلك وقع التنافر بين التهيؤين لعدم تطابقهما، فكانت النتيجة أن قدّت قميصه من دبر.

تهيؤ الأشياء:

هو انعكاس شعورنا الداخلي على الواقع الخارجي لإدراك تهيؤ تلك الأشياء بما نمتلك عنها من أفكار، لأن إدراك تهيؤاتها خاضع لإدراك ما وراء الحس، ذلك أن حقّيقة هذه الأشياء أعمق من ظواهرها التي تبدو لحواسنا. لهذا وجب على العقل أن يركّب أشتات ما يبدو له من أعماقها ليقف على تهيؤاتها، وهذا واضح تماما في قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ}329 إذ

---

[328] يوسف 23. 25.

[329] النور 43.

أنّ الماء عندما يتحلل إلى عناصره الأولية في حالته الغازية من الأوكسجين والهيدروجين يكون في حالة تهيؤ ليتحول إما إلى حالة سائلة وهو الماء أو حالة صلبة وهو البرد أو حالة ليّنة وهو الثلج عندما يتساقط، فعدم رؤيتنا للأوكسجين والهدروجين هي من إدراكات ما وراء الحس، ولكن لامتلاكنا أفكارا عنها نستطيع أن نقف على تهيؤاتها التي لا تبدو لحواسنا.

وكذلك فإنّ للحي غير العاقل تهيؤه، وهذا التهيؤ يختلف عن تهيؤ العقلاء والأشياء، لأن مادة التهيؤ لنوع الحيوان غير الناطق قائمة على الأعضاء والغريزة حيث نجد التهيؤ لدى الطير بجميع أنواعه يعتمد هذين العنصرين، فإذا وقعت عينك على غراب ستجده يبحث في الأرض بمنقاره ورجليه، لذلك لم يهتدِ قابيل لما اهتدى إليه الغراب لأنّه غير مهيأ لمثل هذا الفعل، قال تعالى: {فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ}[330] فهو مهيّأ لدفن غراب آخر.

ولأنّ الطير مهيأ بخواص معينة فقد اختاره سليمان عليه الصّلاة والسّلام كي يوصل كتابه إلى ملكة سبأ لأنّه مهيأ لمثل هذه المهمة حيث قال تعالى: {اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ}[331] فالهدهد له جناحان تؤهله للطيران، أما اختياره دون غيره من الطير، لأنّه مهيأ لهذه المهمة بالذات، علما أن هناك من الطيور من هو أقوى منه في البنية وأشد سرعة كالنسر والصقر والعقاب، وسبب اختياره أيضا لأنّه هو الذي أتى بالنبأ في قوله تعالى:

---

[330] المائدة 31.

[331] النمل 28.

{فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ}332 فهو مهيّأ من هذا الجانب كونه رأى المكان والملكة وقومها وسمعهم يتحدثون وكذلك شكلّ الهدهد وجماله وكونه طائرا وديعا، فهذا يعني إنّه يتمتع بمواصفات تهيؤه لأن يقوم بمهمة إيصال الرّسالة، فاختار سليمان عليه الصّلاة والسّلام من وجد فيه التهيؤ لأن يكون رسولا.

وكذلك بقية الحيوانات من الوحوش وغيرها مهيأة لما خلقت له، ومصدر تهيئها هو الأعضاء والغريزة، فالسباع والحيوانات المفترسة مهيأة لأكلّ اللحوم، وتهيؤها لهذا العمل معلوم لدينا بما نمتلك عنها من أفكار، لذلك قال يعقوب عليه الصّلاة والسّلام: {قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ}333 فهو لعلمه تهيؤ الذئب للافتراس وأكلّ اللحم خشي على يوسف منه، لذلك وجدنا إخوته عندما جاؤوا أباهم عشاء يبكون كان جوابهم له ضمن دائرة التهيؤ: {قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ}334.

ومن ناحية ثانية أن السباع لديها تهيؤ للافتراس وأكلّ اللحم، وتهيؤها مصدره الغريزة والأعضاء، إلا إنّها لا تأكلّ أولادها، فهو تهيؤ ضمن التهيؤ بأن لا تأكلّ أولادها، مع أن ذلك قاعدة استثناء، لأن هناك من الحيوانات التي تأكلّ أولادها.

إنّ تهيؤ الإنسان هو نتاج العاطفة التي تدفع الغريزة لإشباع الحاجة، كما أن صيادا يتهيأ لصيد الطريدة، أي مرحلة ما قبل الاستعداد للرمي، فإذا وصل إلى مرحلة الاستعداد، خضع لقرار الإرادة،

---

[332] النمل 22.

[333] يوسف 13.

[334] يوسف 17.

وبالتالي فإن الطريدة تتهيأ من خلال استعداده لأنّها تشعر بالخوف عن طريق الغريزة، وهذا الخوف هو تهيؤ من أجل الاستعداد للفرار، ومعنى هذا أن جنس الحيوان يستمد تهيؤه من غرائزه.

أمّا الانتقال من التهيؤ إلى الاستعداد ثم مباشرة الفعل فهو مرتبط بالعقل لدى الإنسان بما تكون عليه النتائج وفق الأخلاق التي يحملها، وأما بالنسبة للحيوان فذلك مرتبط بالغريزة وردة الفعل للانتقال إلى الاستعداد والتصرف.

فالتهيؤ لا يقتصر فقط على البشر بل يتعداه لجميع الكائنات والمخلوقات الأخرى، فمثلا الحشرات تتهيأ لاستقبال الشتاء والبرد بتخزين الطعام لعدم قدرتها على التحرك خارجا في البرد، فتهيئ نفسها على ذلك كالنمل مثلا، وكذلك النحل فهو يتهيأ لإنتاج العسل وصنع الخلايا، واتخاذ الجبال بيوتا لقوله تعالى: {وَأَوْحَى ربّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ثُمَّ كلّي مِنْ كلّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ ربّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ ألوانه فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}335 وكذلك العنكبوت الذي يصنع بيته من خيوط واهية ليهيئ نفسه للصيد والكثير من الحشرات التي تتهيأ للحياة والاستمرار فيها والدفاع عن نفسها بقدرة الله تعالى، وكذلك الأمر بالنسبة للحيوان الذي يتهيأ للدفاع عن حياته وحياة صغاره، وكذلك الأشجار والثمار التي تتهيأ للتلقيح ومن بعد ذلك تتهيأ للقطف سواء كان ذلك للعلاج أو الزينة أو غيرها من الاستخدامات، والطيور كذلك التي تتهيأ لبناء أعشاشها من القش واحدة تلو الأخرى وغير ذلك من الكائنات الحية التي تتمثل فيها صور التهيؤ لاستقبال الحياة وسبل العيش فيها.

[335] النحل 68، 69.

والتهيؤ شعور يسبق أي ردة فعل أو انفعال أو تصرف يصدر عن المخلوقات بصفة عامة وعن الإنسان بصفة خاصة، لأن من شأن التهيؤ إذا كان في الاتجاه الصحيح أن يجعل من الإنسان قويا وحكيما لا يضعف ولا يفاجأ في الحياة فلا يحسن التصرف في معالجة الأمور، ولهذا كان لابدّ من التهيؤ حتى في أدق أمورنا وفي تفاصيل حياتنا اليومية كأن يتهيأ الرجل حتى في دخوله بيته لتتهيأ زوجته بالتالي لاستقباله، وكذلك الأب وأبنائه وربّ العمل وجميع فئات المجتمع الإنساني.

التهيؤ المطلق:

إنّ الله سبحانه وتعالى هيّأ كلّ شيء في هذا الكون وفق مشيئته بما أراده سبحانه وتعالى، فالمهيئ المطلق هو الذي يتصف بكمال الفعل ومطلق الصفة (الله)، وعلى هذا يكون التهيؤ المطلق على نوعين:

1- تهيؤ كلّي يخضع له كلّ ما في الكون بما هيّأه الله تعالى، وآيات تهيئة الكون أكثر من أن تحصى، ففي قوله تعالى: {وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ}336، فالناظر إلى الأرض قبل أن تسقى الماء، يراها هامدة ميتة، ولكن كونها مهيأة لإنبات الزرع والأشجار ودبيب الحياة فيها، فعندما تسقى الماء تنبت من كلّ زوج بهيج، وذكر الزوج لأن كلّ شيء في هذا الكون قائم على التزاوج من الإنسان والحيزان والنبات وما نطلق عليه الجمادات، وفي ذلك حكمة إلهية تدل على أن الله هو المتفرد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤا أحد، وكذلك قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالحقّ يُفَصِّلُ الْآَيَاتِ لِقَوْمٍ

[336] الحج 5.

يَعْلَمُونَ}337، فالشمس مهيأة لأن تكون ضياءً، والقمر مهيأ لأن يكون نورا، بدليل أن الذين نزلوا على القمر لم يقولوا أن للأرض نورا ينعكس على القمر مثلما ينعكس نور القمر على الأرض، علما أن ضياء الشمس يسطع عليهما جميعا، ذلك أن الأرض مهيأة للحياة، وأن القمر مهيأ لأن يكون نورا لهذه الحياة.

وكذلك تهيؤ كلّي لجنس الإنسان في انتشار البشر من نفس واحدة الذي يكمن في تهيئة آدم عليه الصّلاة والسّلام وخلق حواء منه ثم خلق البشر منهما، فقد قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النّاس اتَّقُوا ربّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا}338 فالنّاس كلّهم من نفس واحدة، فكيف اختلفت أشكالهم وألوانهم وألسنتهم لولا إنّهم مهيؤون لذلك، وهذا يدخل ضمن التهيؤ الكلّي للنفس الأولى التي خلقوا منها.

2- تهيؤ جزئي على مستوى أفراد الأشياء من إنسان وحيوان ونبات وجماد، وكلّ واحد من هذه الموجودات لها تهيؤها المناسب لخلقها وطباعها وما جبلت عليه، فالإنسان بخلقه وطبعه وعقله مهيأ لأشياء كثيرة من أجل إعمار دنياه وآخرته فقد قال تعالى: {أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ}339 فكلّ ذلك هو تهيؤ لما بعده، ومن عجائب التهيؤ في العين إنّها مهيّأة لترى جميع الأشياء كبيرها وصغيرها، وجليلها ودقيقها، بحجمها الطبيعي وبعدها الحقّيقي، عن طريق سائل تحت الغشاء المحيط بها، فإذا زادت نسبة هذا السائل أو

---

[337] يونس 5.

[338] النساء 1.

[339] البلد 8، 10.

نقصت أصبحت العين مريضة وتحتاج إلى هذه المكبرات التي نطلق عليها نظارات، فهذه النظارات منها للتكبير ومنها للتصغير، ومنها للبعد ومنها للقربّ، وكلّ نوع من النظر يحتاج إلى عدسة من نوع يختلف عن غيرها، فهذا السائل المائي مهيأ لأن يقوم بكلّ هذه العمليات من الرؤيا والإبصار، إضافة إلى ذلك فإن حدقة العين مهيأة للتقلص والتمدد، ففي حال اشتداد الضياء تتقلص الحدقة بحيث تأخذ من الضياء ما يكفيها للرؤيا والإبصار ولا تسمح بدخول ضوء أكثر من حاجة العين، وفي هذه المرحلة تتقلص العدسة العينية بما يناسب شدة الضوء، وأمّا في الظلام وقلة الضوء فإن الحدقة تتوسع ممّا يؤدّي إلى توسع العدسة لتجمع من الضوء ما تحتاجه للرؤيا، فهذا التناسب العكسي بين العين من جهة والضياء والظلام من جهة ثانية، إنما يدل على تهيئة المهيأ عزّ وجلّ للخلق من أجل شؤونهم، ومن ناحية أخرى فإن لكلّ إنسان عينان ما لم يطرأ عليهما طارئ من عمى أو عور أو إصابة لعلة ما، فإذا نظر هذا الإنسان بعينيه إلى وردة مثلا، فإنّه يرى وردة واحدة، فإذا أطبق اليسرى ونظر باليمنى يرى الوردة نفسها بحجمها وشكلّها وطولها ولونها، وإذا أطبق اليمنى ونظر باليسرى، فسوف يقف على المنظر نفسه، فإذا فقد إحدى عينيه ونظر بالتي بقيت فلن يتغير عليه المنظر، أليس هذا من عجائب التهيؤ الذي أودعه الله تعالى في الإنسان لكون مهيأ لما هو مكلّف به ممّا فرضه الله تعالى على عباده.

وكذلك اللسان والشفتان إذا دقق العقل فيهما، ولولا أهميتها وتهيؤهما لأشياء لما خصهما الله تعالى بالذكر، فاللسان مهيأ لأن يكون مترجما عما يجول في العقل وما يكنه القلب، إضافة إلى ذلك فهو مهيأ أيضا لأن يتذوق الطعوم على اختلاف أنواعها من الحلو والحامض

والمالح والمز والمر، وما تداخل من ألوانها، وهذا غيض من فيض عن تهيؤ الإنسان.

وأمّا الشفتين فإنّهما مهيأتان للفتح والإطباق فلا يمكن الكلّام إلا بفتحهما وإطباقهما ليستعين الإنسان بإطباق شفتيه على بعض الحروف وفتحهما في البعض الآخر، فهما مهيأتان للضم والانبساط للنطق والأكلّ والشربّ والنفخ والصفير، وأما تهيؤ الإنسان في تكوينه بشكلّ عام فسوف نتناوله ما استطعنا في ذلك من التفصيل.

لقد أودع الله في الإنسان فطرة التمييز بين الخير والشر، وجعل له عقلا يرشده إلى ما في الخير من جمال وحسن، وإلى ما في الشر من قبح وسوء، وقد جعل الله طريقي الخير والشر كأنهما مكانان مرتفعان واضحان يراهما كلّ واحد أينما كان، ففي طبيعته هذه تهيؤ مزدوج لسلوك أيّ النجدين، وبوجود العقل المميز يستكمل الإنسان أصول التعلم والتعليم الذي يقود إلى الهدى، فإن الإنسان خلق مهيّأ للمعرفة محبا للتعريف فبمشاعر الإدراك، يكتسب من المشاهدات أصول المعلومات اليقينية، وبالنطق يفيد ما يعلمه لغيره، وبالهدي إلى الخير والشر يميز بين معلوماته ويمحصها ويدققها كونه مهيّأ، واستعير النجدان للخير والشر، وجعلا نجدين لصعوبة إتباع أحدهما وهو الخير وترك الآخر وهو الشر، فالخير فيه من الصبر والمشقة والمكابدة ما يدفع الكثير من المهيّئين لإتباعه إلى تركه، وكذلك الشر فيه من المغريات من المباهج والمحاسن التي تغري شهوة النفس إلى إتباعها وترك نجد الخير علما إنّه مهيأ له، ولأنّ كلّ واحد صعب باعتبار مغاير، فالأول من حيث السلوك والثاني من حيث النتائج كان التهيؤ موجودا في النفس الإنسانية لإتباع أحدهما ويكون التمييز بقرار الإرادة بعد التهيؤ، فطريق

الخير صعوبته في سلوكه، وطريق الشر صعوبته في عواقبه، ولذلك عبر عنه بعد هذا بالعقبة.

إذا نظرنا إلى خلق الإنسان فسوف نجد أن كلّ مرحلة من هذه المراحل تهيؤ لما بعدها، فقد قال تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ}[340] إن خلق الإنسان من سلالة من طين دليل تهيؤ، ذلك أن الأرض ينبت فيها الطيب والخبيث، ومنها السهل اللين ومنها الوعر القاسي، ومنها الشديد الصلب، ومنها الرخو الطيّع، وهو تهيئة لما سيكون عليه الإنسان، منهم الغليظ الفج ومنهم الدمث الأخلاق، والمؤمن والكافر والطائع والعاصي، والعاق والمرضي هذا بداية، ثم بعد ذلك جعل الله تعالى الإنسان في ذرية آدم عليه الصّلاة والسّلام وهيأه على شكلّ نطفة، وهيّأ لهذه النطفة قرارا تستقر فيه محفوظة من الريح والفساد وفق جوّ يلائمها ودرجة حرارة تناسبها، وفي هذه التهيئة، تهيؤ لمرحلة قادمة، وهذا التهيؤ يستغرق أربّعين يوما لكي تنتقل إلى علقة من دم أحمر، وتدخل في تهيؤ جديد أربّعين يوما لكي تنتقل إلى مرحلة المضغة، ثم تدخل المضغة مرحلة تهيؤ أربّعين يوما حتى يتسنى لها أن تصبح عظاما، ثم يكسوها لحما، وفي هذه المرحلة يكون هذا الخلق مهيّأ لتقبل الروح والتكوين الإنساني، وهنا يدخل مرحلة تهيؤ مادي عضوي لتقبل الحياة الجديدة المقبل عليها، من أخذ شكلّ الإنسان في تكوين الأطراف الخارجية والأجهزة الداخلية التي تهيؤه للحياة، فيتكون الجهاز الهضمي والجهاز العصبي والجهاز التنفسي

[340] المؤمنون 12. 16.

والدورة الدموية، فكلّ هذه الأجهزة والأدوات والأعضاء، إنما هي في طور التهيئة، ولا يتم استعمالها إلا عندما ينتقل من عالمه الداخلي إلى العالم الخارجي.

فالله سبحانه وتعالى عندما أراد بمشيئته أن يكون الإنسان خليفة في الأرض، هيّأه وهيّأ له الأسباب التي يكون بها خليفة بحقّ فيما أراده الله تعالى له، وأول هذا التهيؤ في خلقه وتكوينه فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرِبّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ}[341] فقد سوّاه وجعل الأعضاء سليمة سوية معدة لمنافعها وعدلها بعضها ببعض بحيث اعتدلت ولم تتفاوت وصرفها على هذه الخلقة الملائمة لهذا الشكلّ وهيّأها لما أعدت له، ثم ركبها بالصورة التي شاءها بحيث تصلح للعبادة والخلافة في الأرض من أجل إعمارها.

فالتسوية تهيؤ بحيث جعل أعضاء الإنسان سوية سليمة معدة لمنافعها، بحيث يترتب على كلّ عضو تهيئته للمنفعة التي خلق ذلك العضو لأجلها، كالبطش لليد والمشي للرجل والتكلّم للسان والإبصار للبصر، والسمع للأذن واللسان للفظ والذوق، والشعر للوقاية من الحر والبرد إلى غير ذلك من تهيئة بقية الأعضاء، وتعدل بعض تلك الأعضاء بالبعض الآخر بحيث اعتدلت ولم تتفاوت مثل أن تكون إحدى اليدين أو الرجلين أو الإذنين أطول من الأخرى، أو تكون إحدى العينين أوسع من الأخرى أو بعض الأعضاء أبيض وبعضها أسود أو بعض الشعر فاحما وبعضه أشقر، فالله سبحانه وتعالى عندما أراد الإنسان أن يكون خليفة في الأرض ركبه وعدله وسوّاه وهيّأه في أحسن تقويم، فمثلا ننظر إلى جانبي جثة الإنسان هي على التساوي

[341] الانفطار 8.6.

حتى إنّه لا تفاوت بين نصفيه لا في الأطراف الخارجية ولا في التركيب الداخلي، ولا في العظام ولا في أشكالها ولا في الأوردة والشرايين والأعصاب النافذة فيها والخارجة منها، فكلّ ما في أحد الجانبين مساوٍ لما في الجانب الآخر.

إذن الإنسان عندما خلقه الله تعالى هيأه لما هو مكلّف به، وأول هذه التكاليف هي العبادات المفروضة.

هنا نسأل سؤالا مفاده، هل الإنسان مهيأ للعبادات؟

قبل أن نقف على حقّيقة التهيؤ للعبادات من قبل الإنسان، لابدّ لنا أن نعلم هذه العبادات المفروضة، علما إنّه لا تقبل عبادة إلا بشهادة الحقّ التي كانت أول ما دعا به رسول الله عليه الصّلاة والسّلام في أول الدعوة عندما كان يطوف على النّاس بالأسواق فيقول:" يا أيها النّاس، قولوا لا إله إلا الله تفلحوا"342 والعبادات التي نتكلّم عنها هي العبادات المفروضة غير التطوع والنوافل، فبعد شهادة الحقّ تقبل العبادات من الصوم والصّلاة والحج والزكاة، وسيكون تركيز التهيؤ على الصّلاة لأنّها عماد الدين من جهة، ولأنّ العبادات الأخرى قد تتوفر شروطها التي توجب إقامتها وقد لا تتوفر، أما شروط الصّلاة فلا تزول, ومعنى ذلك أنّ الإنسان خلق مهيأ للصلاة، ولولا إنّه مهيأ لما أمره الله تعالى بذلك حيث قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصّلاة فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ

[342] مستدرك الحاكم 1، 496.

لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}343 وقد يظن البعض ما ورد في هذه الآية الكريمة من أوامر الوضوء وكيفيته، أو الغسل والطهارة والاستنجاء، أو التيمم، يعتقد البعض أن هذه الأعمال هي التهيؤ للصلاة، ولكننا نقول: أن هذه الأوامر وفعل هذه الأعمال إنما هي استعداد للصلاة، ولكن التهيؤ شيء غير هذا يدخل في ثلاث مراحل هي:

1- تهيؤ عضوي مادّي: إنّ الإنسان في خلقه من هذه المادة التي تتوزع ما بين عظم لحم ودم وأعصاب، وبصرف النظر عن الجانب العلمي لمهمة هذه الأجزاء، فنحن في موضوع التهيؤ نركز على الجانب العملي لهذه الأعضاء، فالعظم هو عماد اللحم الذي يقوم عليه، واللحم هو كساء لهذا العظم، وتقوم الأعصاب والأوردة والشرايين بعملية الرّبط بين الأجزاء في المفاصل المهيأة للحركة، إضافة إلى دورها الآخر في التغذية والتنبه وما إلى ذلك، وبهذه المفاصل المتحركة في اتجاهات مختلفة، وما يستطيع الإنسان القيام به من قيام وقعود، وجلوس وبروك والتفات وحركة أعضاء، جاءت وضعية الصّلاة في أدائها مطابقة لما مهيأة له هذه الأعضاء من الحركات في القيام والركوع والسجود والجلوس والتسليم، ولهذا لم يكن الركوع مثلا إلى جهة اليمين أو جهة اليسار، ولا التسليم إلى الخلف، وذلك لعدم التهيؤ لهذا النوع من الفعل، وإنما جاء الصّلاة مطابقة لما مهيأ له الإنسان عضويا.

2- تهيؤ نفسي داخلي: ويكون هذا النوع من التهيؤ هو من محببات القيام بالفعل والرغبة فيه، وهو أنّ الصّلاة فرض واجب على المسلم أن يؤدّيه، إضافة إلى القناعة وإنّها تعين على الصبر {وَاسْتَعِينُوا

343 المائدة 6.

بِالصَّبْرِ وَالصّلاة وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ}344 فالخشوع صفة من صفات المتقين الذين وعدهم الله بأن يدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا، وأعد العاصين بالعذاب في نار جهنم، وكذلك فإن الصّلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر والبغي، فهذه قمة مكارم الأخلاق التي تألفها النفس الإنسانية، فالمحفزات من الثواب لمن أقامها، والروادع والزواجر من العقاب لمن تركها، تولد تهيؤا نفسيا يؤدّي إلى الاستعداد للفعل.

3- تهيؤ ذهني عقلي: إن المصلي بطبيعة الحال هو متهيئ ذهنيا وعقليا، ونقصد بذلك إنّه يعلم النداء والإقامة وكيفية الدخول في الصّلاة، والتكبير والحمد والتسبيح وسورة الفاتحة وشيئا من القرآن والصلوات الإبراهيمية وكيفية الخروج من الصّلاة بالتسليم، ودليل التهيؤ الذهني وعدمه أنك عندما تصلي في البيت مثلا، وفيه طفل لم يبلغ مرحلة التمييز، فعندما تركع، يركع معك ثم يتركك ويبتعد عنك لأمر خطر في ذهنه من لعب أو طعام، فيمضي لحاجته، ثم يأتيك وأنت ساجد فيسجد معك ثم يتركك ويمضي لشانه وأنت ساجد، وتفسير هذا الأمر، أن هذا الطفل مهيأ للصلاة عضويا فقط، وينقصه التهيؤ النفسي والتهيؤ العقلي الذي يعبر عن المعلومة، بمعنى إنّه لا يدري ما الذي تقوله أنت في صلاتك، ولو كان يعلم ما تقوله في صلاتك لاستمر، أو لاستمر بقدر ما هو مهيأ من الجانب العقلي.

---

[344] البقرة 45.

أنواع التهيؤ

التهيؤ نوعان:

1-كامن؛ وهو المبني على علم سابق بفعل لاحقّ، انظر إلى سيدنا إبراهيم وفعله بأوثان قومه، يقول المولى عزّ وجلّ: {وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالحقّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ قَالَ بَلْ رَبّكُمْ ربّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إنّه لَمِنَ الظَّالِمِينَ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النّاس لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ}[345]، فالتهيؤ للحقّ مكتمن في نفوسهم أظهره منطق إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام الذي هو بدوره متهيئ لإظهار الحقّ بمنطقه.

والتهيؤ الكامن يرتكز على الإرادة والقوّة معا، كتهيؤ سيلمان عليه الصّلاة والسّلام، يقول الحقّ سبحانه مخبرا عن تهيؤ سليمان للفعل المخصوص: {قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي

[345] الأنبياء 51. 63.

مُسْلِمِينَ قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ}346، عليه فالتهيؤ كان موجودا تاما عند الذي عنده علم من الكتاب، أما عند غيره فلم يكن للتهيؤ حضورا أو اكتمالا يمكن أن يمكنهم من بدء الاستعداد للفعل المخصوص.

فالتهيؤ الكامن هو صورة مكتملة في الباطن تمثل بداية مكتملة يتبعها الاستعداد ثم الفعل مع وضوح الاختلاف في الامتداد الزماني، فالعفريت احتاج إلى زمن أطول من الذي عنده علم بالكتاب للقيام بالمراحل الثلاث، لنسبية الاستعداد عند العفريت، بينما استغرق الذي عنده علم من الكتاب زمنا أقل بقوة الاستعداد (علم من الكتاب).

والتهيؤ الكامن لا يظهر إلا بإرادة، يقول الحقّ سبحانه: {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ}347، فهؤلاء تهيئوا للحقّ لكنهم أبو إظهاره واظهروا غيره، فالكامن عندهم غير الظاهر.

2- ظاهر؛ وهو التهيؤ الذي يرتكز على القوّة الكامنة بالإرادة حينا ومن دونها حينا آخر، ويتمثل في صور متعددة، فالبلوغ عند الشاب أو الفتاة هو تهيؤ ظاهر استعدادا لفعل الزواج، والثمر في الشجر هو تهيؤ ظاهر استعدادا لفعل القطف، وهذا كلّه من التهيؤ الفطري، أما أدوات العلم في الإنسان فإنّها تدل على التهيؤ الظاهر

---

346 النمل 38. 40.

347 النمل 14.

الإرادي لقبول العلم، فوجود الحواس إلى جانب العقل دلائل على التهيؤ الظاهر في الإنسان للاستعداد لقبول العلم، يقول سبحانه وتعالى: {إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كلّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا}348، فقوله الله تعالى: (إن السمع والبصر والفؤاد كلّ أولئك كان عنه مسئولا) يعني أن بذلك يحصل التهيؤ لقبول العلم وحفظه والاطلاع على دقائقه وغوامض حقّائقه349.

وقد يكون التهيؤ الظاهر في غير المسار الحقّ فيظهر على غير صورته الحقّيقية، فالإنسان يجب عليه أن يجعل إيمانه بالله عزّ وجلّ مطلقا وفي تصريف شؤونه مطلقا كذلك، وهو بذلك يُظهر التهيؤ لأي أمر شاءه الله سبحانه وتعالى، ولكن الكثير من النّاس من ينسى سلطان ربّه فيُظهر غير ما يجب وعن هؤلاء يقول المولى عزّ وجلّ: {لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ}350، أي: يقع في ذهنه إنّه لا يتهيأ له بعد هذا خير351، فهذا اليئوس القنوط تهيأ لانقطاع الخير عنه باليأس من رحمة الله.

لقد منَّ الله على الإنسان بأن أعطاه ما يمكنه أن تتهيأ له الأشياء في العقل قبل وجودها في الحيز فمكننا من بلوغ ما يكون قبل أن يكون، فتأمل لو أنك أردت بناء بيت ألا تتهيأ لك صورته في عقلك قبل أن تظهر صورته في الوجود!

وعلى ذلك زد في تأملك واسأل نفسك كيف تفسر النجاح في الابتكارات والمنجزات العلمية والإنسانية؟ أليس التهيؤ من أهم أسباب

---

[348] الإسراء 36.

[349] أدب العلماء والمتعلمين، الحسن بن منصور اليمني 1، 26.

[350] فصلت 49.

[351] تفسير ابن كثير 7، 186.

هذا النجاح، هنا نقول أن اختيار الإنسان للاستخلاف لم يكن إلا لكونه متهيئ للقيام بأمر الخلافة على أحسن وجه وبأجمل صورة، ولابدّ من القول أن التهيؤ خصيصة في الكينونة عند المخلوقات جمعيها إراديا أو فطريا، لكن الإنسان مخصوص بميزة التهيؤ النابع من العقل ليتسنى له ويتيسر في الوقت ذاته إعمار الأرض التي استخلفه الله عليها.

والتهيؤ حالة كاملة من حالات المخلوق، ولو لم تكن كاملة لغاب العلم به والجزاء عليه، فالله سبحانه وتعالى يقول: {وَربّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ}352، واختار الله لفظة علم لمناسبتها للكلّية، فالعلم كلّي والمعرفة جزئية، فما تكن صدورهم متكامل في ذواقم متهيئ في الكامن فهو حالة واضحة الملامح مترابطة الأجزاء أعلنوها أم لم يعلنوها.

زمن التهيؤ:

ذكرنا فيما سبق أن التهيؤ حركة بعد سكون، وما من حركة إلا باستغراق زمني، لذلك وجب أن نفهم زمن التهيؤ.

إنّ استغراق الأشياء في السكون ما هو إلا مرحلة سابقة للتهيؤ، بينما الاستعداد مرحلة لاحقّة له، والمسافة ما بين السكون والاستعداد هي حيز التهيؤ وهو فيها في ديمومة حركية مستغرقة للزمن. فالا سكون يجعل من التهيؤ صورة دائمة، انظر إلى النّار لتجد إنّها في حالة تهيؤ دائم في حركة موحية لكنها لم تصل مرحلة الاستعداد، يقول عنها الحقّ سبحانه: {وَاتَّقُوا النّار الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ}353، فمتى تصل درجة الاستعداد عندما يسعرها الله سبحانه وتعالى: {وَإِذَا الْجَحِيمُ

352 القصص 69.

353 آل عمران 131.

سُعِّرَتْ}354، كذلك الجنّة فهي في حالة تهيؤ وتصل الاستعداد عندما يأمرها الله سبحانه لتستعد لاحتضان المؤمنين بالله وملائكته وكتبة ورسله، {وَإِذَا الجنّة أُزْلِفَتْ}355.

التهيؤ بين الأنا والآخر:

لا شك أن تهيؤ الأنا مرتبط بالآخر، عاقلا أم غير عاقل، فهو حركة إلى الخارج وليس إلى الداخل ويبنى على عدة أمور هي:

1-الاستشراف، ومعناه التطلع إلى الشيء356، وهو عملية تقوم بها الأنا فيكون على هيئة مخصوصة وفق ما عند الآخر من حال أو ميل أو اتجاه للموجب والسالب على حد سواء، وآية الاستشراف ما أخبر عنه الخبير جلّ وعلا في محكم كتابه عن عبد ذي القرنين فقال: {حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ ربّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا}357. لقد استشرف ذو القرنين واقع الحال فتطلع إلى مانع يمنع هؤلاء المعتدين من الوصول إلى النّاس فتهيأ له السد الحديدي ثم بدأ الاستعداد بجمع الحديد ثم فعل ما تهيئ له فكان التهيؤ إبداء قبل الإظهار، وأصبح للسد هيأة قبل أن يكون.

[354] التكوير 12.

[355] التكوير 13.

[356] در الغواص في أوهام الخواص 1، 45.

[357] الكهف 93. 97.

2- الاستشعار، هو عبارة عن تجميع المعلومات عن الآخر دون تماس أو تداخل معه، وهي من وسائل الأنا للتهيؤ للآخر، ويمكن لنا أن نتمثل بقصة سيدنا عيسى عليه الصّلاة والسّلام التي أخبر عنها مولانا الحقّ سبحانه فقال: {وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكلّونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ}358، والإحساس: العلم بالشيء، والمراد بالإحساس هنا: الإدراك القويّ الجاري مجرى المشاهدة359، هنا استشعر عيسى عليه الصّلاة والسّلام كفرهم بأن جمع المعلومات عن بعد فكان أن تهيئ لهذا الكفر بدعوة أنصاره إلى طريق الحقّ فكان الحواريون أصحابه.

وقال الله تعالى: {وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ}360، الإحساس هنا مطلق الإدراك361، وقد تأتي لهم من خلال الاستشعار بآيات العذاب فكانوا على هيأة مخصوصة وصفها الله سبحانه بالركض دلالة على الهربّ بعد الاستشعار.

[358] آل عمران 49. 52.

[359] فتح القدير للشوكاني 1. 470.

[360] الأنبياء 11. 13.

[361] تفسير الألوسي 12. 336.

3- الإيقان، الإيقان بالشيء هو العلم بحقّيقته بعد النظر والاستدلال362، والتهيؤ الحاصل بعد الإيقان هو من موجبات الإيمان ومن دلائله، وما من مثال آكد في تفسير ذلك من قصة سيدنا إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام الذي أراد له الله أن يكون من الموقنين فقال مخبرا عنه، {وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ}363، فقد أمعن إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام النظر في الأشياء ثم أستدل بها على الحقّ فأيقن وحصل التهيؤ للإيمان والتسليم لله ربّ العالمين.

كذلك قصة سيدنا موسى عليه الصّلاة والسّلام مع العبد الصالح، فقد أمر الله موسى بالبحث عن العبد الصالح للتعلم منه، ولأنّ العبد صالح فقد تهيئ موسى عليه الصّلاة والسّلام للعلم والعمل الصالح، {فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا}364، أما العبد الصالح فقد تهيئ لاستيعاب استغراب موسى وتعجبه فقال له كما يخبرنا العليم سبحانه وتعالى: {قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا}365، وتهيؤ

---

[362] التعريفات للجرجاني 1، 12.

[363] الأنعام 75. 79.

[364] الكهف 65، 66.

[365] الكهف 67، 68.

العبد الصالح كان أقربّ إلى صورته الحقّيقة وذلك عندما اظهر موسى عليه الصّلاة والسّلام الاستغراب والتعجب بالفعل، {فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا}366، أما تهيؤ موسى فكان متغيرا لأنّه في مرحلة طلب العلم بينما العبد الصالح أتم هذه المرحلة وتهيئ لمرحلة أخرى هي تعليم موسى عليه الصّلاة والسّلام.

4-التوسّم، هو التفرس بالأشياء وذلك بالاستدلال بالظاهر على الباطن367، وهو ما أشار العليم الخبير إليه في آياته مُذّكرا عباده فقال: {فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ}368، التوسّم من الطرق التي تؤدي إلى التهيؤ الحقّ وللحقّ، وهو طريق لمعرفة الآخر والتهيؤ له.

ومن الظاهر الدال على الباطن العلامة وهي سمة مميزة في الأشياء تدل على بواطنها، يقول الحقّ سبحانه: {سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ}369، هنا السيمياء هي علامة السجود لله سبحانه إيمانا به وطاعة له فهي صورة، أما في قوله تعالى: {لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النّاس إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ}370، فالسيمياء هنا أخلاقهم ومعاملتهم مع النّاس، أما في قوله تعالى: {وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ

366 الكهف 71.

367 الفراسة عند العربّ ليوسف مراد 94.

368 الحجر 73. 75.

369 الفتح 29.

370 البقرة 273.

وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ}371، فالسيمياء هنا للكلّم.

ومن معرفة السيمياء يمكن أن يحصل التهيؤ الدقيق للأخر من خلال صورته أو معاملته أو كلّمه.

أسباب التهيؤ:

يرتبط التهيؤ ارتباطا شرطيا بالمتغير فهو حالة من حالاته، أما الباقي سبحانه فأمره كن فيكون، وإنما هو الذي وهب الأشياء خصيصة التهيؤ ومكنها منه بما جعل فيها من أسباب التهيؤ وهي:

1- المشيئة، مشيئة الله موجودة في كلّ مخلوقاته، "فمعلوم إنّه ليس في المخلوقات شيء هو وحده علة تامة وسبب تام للحوادث بمعنى أن وجوده مستلزم لوجود الحوادث، بل ليس هذا إلا مشيئة الله تعالى خاصة فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن"372، فمشيئة هي التي جعلت الإنسان مهيأ لإعمار الأرض، ومشيئة الله هي التي وهبت الجبل التهيؤ ليكون من رواسي الأرض، {قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ ربّ الْعَالَمِينَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا}373.

وبالمشيئة كان الجمل مهيئا ليسير في الصحراء سالكا لمسالكها ومجالدا قساوة أنوائها، {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ}374.

[371] محمّد 30.

[372] جامع الرسائل لابن تيمية 1، 370.

[373] فصلت 9، 10.

[374] الغاشية 17.

2- العقل، وهو ما امتاز به الإنسان فقد أكرمه الله به، وهو عند الإنسان من أهم لوازم التهيؤ لأنّه بمثابة الرحم الذي يحتضن المهيأ لحين اكتماله كلّا كاملا قبل الظهور.

3- الغريزة، وهي عامل مشترك بين المخلوقات الحية، فقد جعلها الله في هذه المخلوقات لتمتلك القدرة على التهيؤ لما هو مقدر لها في الحياة الدنيا، فالإنسان مُهيأ للتزاوج بفعل الغريزة، والحيوانات مهيأة للأكلّ والتكاثر بالغريزة لا بالإرادة، والنباتات مهيأة للإثمار بالغريزة وكذلك يتخل البعض مع البعض في الغرائز.

التهيؤ لمعرفة الخالق:

الإنسان يقينا هو موجود، وهذا لا لبس فيه، ولكن الذي يجب أن يعلمه يقينا أيضا، هو أن يعلم واجده، وأسباب وجوده والغاية التي وجد من أجلها.

لقد أسلفنا الذكر في تهيؤ الإنسان العضوي والنفسي والعقلي، وهذه المتهيئات إضافة إلى ما ذكرناه من خواصها ومهامها، فهي أيضا توصل إلى واجده، وكشف أسباب وجوده والغاية التي وجد من أجلها، فممّا لاشك إنّه ليس شيء في هذا الكون وجد بنفسه أو وجد مصادفة أو وجد لا إلى غاية، ونحن هنا لا نتكلّم في الواجد، لأن ذلك من نافلة القول وأن الله هو الخالق البارئ المصور، ولكننا نتكلّم في الموجود وأسبابه وغايته كي نصل إلى الواجد من خلال آيات الوجود فقد قال تعالى: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ}[375]، ولئن سألت من خلق السموات والأرض وهذا الكون، وسخر الشمس والقمر، وبثّ في

[375] العنكبوت 61.

الأرض أسباب الحياة، ليقولن الله، وهي مسخرة لمصالح الخلق، حيث أن الشمس والقمر يجريان على الدوام، والتسخير جعل الشيء منقادا للآخر، وسوقه إلى الغرض المختص به قهرا، وهذا لا سبيل إلى إنكاره لما تقرر في العقول من وجوب انتهاء الممكنات إلى واحد واجب الوجود، وكذلك قوله تعالى: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ}376 فلو سألت الخلق من أوجدهم وأخرجهم إلى الوجود فسيقولون الله، لتعذر الإنكار لغاية ظهوره لأن الإنسان خلق للمعرفة وطبع عليها وبها أكرمه الله تعالى فهو متهيئ لهذا النوع من المعرفة بما أوتي من أدواتها المهيئة لهذا الأمر، فالسمع والبصر والعقل والأعضاء، مضاف إليها حاسة الذوق والشّم كلّ ذلك هو أدوات تهيؤ لمعرفة الخالق، ونقول للذين لا يقرون باليقينيات، ولا بالدليل السمعي القطعي المنقول بالتواتر، بمنطق علمي بسيط أقره العلماء، واقتنع به الجهلاء، وقد اعتمده أهل الطبيعيات وأهل النظريات هو الاستدلال بالأثر على المؤثر، فهم قد عرفوا الكواكب البعيدة بآثارها لا بذاتها، وعلى هذا النهج نفسه درس العلماء الطبيعيون الذرة، واستخدموا قوانين الكتلة والطاقة، مع إنّهم لم يروا الذرة حتى الآن، وكلّ ما انتهوا إليه بوسائلهم الإلكترونية الجبارة إنّهم استطاعوا أن يروا ظلها أو خيالها بعد تكبيره وتضخيمه، فكيف يسلمون بهذا المنطق – منطق الاستدلال بالآثار على المؤثر – ويستخدمونه في علوم الطبيعة والفلك ثم ينكرونه في معرفة الخالق؟.

أمّا التهيؤ الفطري واليقيني في هذا الجانب فأمثلته أكثر من أن تحصى، لأن تدبر آيات الخلق من الأرض والسماء، وما فيهما من عجائب، يوصل الإنسان إلى يقين الاعتقاد بما هو مهيأ له من الوصول

---

[376] الزخرف 87.

إلى حقّائق الإلهيات، فالمسموع والمبصَر، إنما يصبح معلومة وفكرة في العقل يدخل في مجال التهيؤ استعدادا لمعرفة الأشياء ومعرفة مبدع الأشياء:{إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ}377، فمن متممّات التهيؤ للإنسان في معرفة خالقه، هي هذه الآيات البينات، لقد خلق الله السموات وجعل فيها الشمس والقمر والنجوم والكواكب والمجرات، وخلق الأرض وبثّ فيها الجبال والبحار والأشجار والوحوش والطيور، واختلاف الليل والنهار، بمعنى ذهاب الليل ومجيء النهار في اختلاف لونيهما، وفي تفاوتهما بازدياد الليل في بانتقاص النهار، وانتقاص النهار بازدياد الليل وذلك باختلاف حال الشمس بالنسبة إلينا قربًا وبعدا بحسب الأزمنة، فهذه آيات لأولي الألباب فيها من العبر الكثيرة لذوي العقل الخالص من شوائب الأوهام والخيالات، قد هيّأها الله تعالى للدلالة عليه جلّ شانه، فهذا بيان ما يجول فيه فكر المتفكرين في خلق الله تعالى، وليس فيها فكر في ذات الله تعالى ولكن يستفاد من التفكر في الخلق لا محالة معرفة الخالق وعظمته وجلاله وقدرته، وكلّما استكثر العقل المهيأ للتفكر في معرفة عجيب صنع الله تعالى كانت معرفته بجلاله وعظمته أتم وأشمل.

وأمّا تهيؤ الإنسان اليقيني لمعرفة الخالق من خلال القلب والروح فلا سبيل إلى إنكاره، والإجابة على هذا اليقين هو من باب البديهيات التي وضعتها الفلسفة نفسها في واجب الوجود، وأسباب الإيجاد والغاية من الإيجاد، ونحن نقول أنّ القرآن الكريم قد أجاب على هذه الأسئلة كلّها، فواجب الوجود هو الذي خلق الكون وأوجده بما فيه: {هُوَ اللَّهُ

---

[377] آل عمران 190.

الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ}378 وأما سبب الإيجاد فقوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً}379 وغاية الإيجاد هي العبادة: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}380 وكذلك قوله تعالى: {يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ}381 وأما الهدف فقوله تعالى: {لِيَجْزِيَ اللَّهُ كلّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ}382 وبعد ذلك فإنّ لهذا الإيجاد استقراره فقد قال تعالى: {وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الجنّة وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ}383

لقد حاولت بعض الاتجاهات الفلسفية أن تملأ أدوات التهيؤ بتصورات معرفية مختلفة عن الكون والغيب والوجود والإنسان: لماذا جاء وإلى أين يذهب، ولكنها عجزت تماما.

والسبب في ذلك إنّها عمدت إلى استعمال أسلوب العلم التجريبي على افتراض أن الإنسان مادة، وحاكمته على هذا الأساس. وبذلك نسفت المشاعر والأحاسيس التي هي من متعلقات تهيؤ القلب والروح في الوصول إلى ما لا يدركه العقل، لذلك فشلت لأنّها ظنت أن العقل البشري قادر على إدراك حقّائق الأشياء خارج نطاق وظيفته الخاصة ونطاقه المحدود.

---

[378] الحشر 24.

[379] البقرة 30.

[380] الذاريات 56.

[381] الجمعة 1.

[382] إبراهيم 51.

[383] الشورى 7.

لقد كان لطغيان هذا المفهوم المادي أثره البعيد في هذه الاتجاهات الفلسفية التي حاولت أن تلغي كلّ ما وراء الطبيعة ولا تعترف به لأنّها اعتمدت العلم التجريبي للوصول إلى نتائج ميتافيزيقية، فاعتماد الوسائل الخاطئة في عملية البحث أدى إلى نتائج سلبية، غير أن العلم اليوم أصبح يعترف بأن هناك عالما آخر، وأن أمام العلماء من الدلائل ما يؤكد ذلك، فكيف تنكر هذه الفلسفة هذا العالم، إنّها اعتمدت على العقل والحواس وهما قاصران، والعلم نفسه يعترف بأن العقل البشري لا يستطيع أن يدرك شيئا إلا عن طريق الحواس، ولذلك فإن كلّ ما يقع وراء الحس والعقل لا يمكن للعلم أن يبحث فيه أو أن يعرف عنه شيئا. ولقد تبين أن هناك مسائل عديدة لا يستطيع العلم أن يجد لها حلا ولا يصل إلى فهمها، واعتماد الفلسفة والعقل والحس لا يؤدّي إلى شيء، إذن فهناك علم آخر مكمل لهذه العلوم: هو ذلك العلم الذي أرسل الله به الرّسُل وجاء به الوحي، وقرره كلّ كتاب سماوي.

وإذا عجز العلم، وطاشت الفلسفة، فإن في أيدينا نحن المسلمين ما يسد الفراغ، ولقد أعطانا الدين الحقّ صورة كاملة لهذه الجوانب التي يعجز العقل والعلم عن الكشف عنها، حتى لا تكون في متاهة البحث الشاق بتغير أدوات البحث الذي لا يصل إلى شيء، ولقد جاءت رسالات الأنبياء لتمنح الإنسان ذلك الأفق الواسع الرحب من الفهم، ليعرف أبعاد وجوده وكيانه وحياته ومصدره ومآله، ويعرف ما بعد الموت، وما بعد الطبيعة جميعا حتى تكون رؤيته للأشياء وتقديره سليما وحتى تكون إرادته الخاصة ومسئولياته الفردية قائمة على أساس من الفهم والعدل.

إنّ وراء العقل، الروح والمتهيئات النفسية، ووراء البصر، البصيرة والمتهيئات القلبية. والعقل هاد يستمد ضياءه من الروح وكلاّهما: العقل والبصر لا يدرك ما فوق مرتبته ولكنه يستطيع أن يعلم، فإن رأيت حجرا يرتفع في الهواء، وهذا مخالف لقوانين الطبيعة، عندئذٍ سوف تحكم أنّ راميا رمى به، فعلمك أنّ راميا رمى به ليس من قبل البصر، بل هو من قبل التهيؤ للعقل، لأن العقل هو الذي يميز ويعلم أن الحجر لا يذهب في العلوّ من تلقاء نفسه، وهذا يدل على أن البصر وقف عند حده فلم يتجاوزه، وإنّما تدخلت وسيلة أخرى للكشف عن حقّائق الأشياء، وكذلك يقف العقل عند حده من معرفة الخالق تبارك وتعالى فلا يعدوه.

إذن هناك التهيؤ اليقيني الذي مصدره الروح والقلب، لمعرفة الخالق باليقين عن طريق السمع ممّا جاءنا من الخبر المتواتر.

فعدم العلم بوجود الشيء لا يعني عدم وجوده، وعدم القدرة على الإحاطة بوجود الشيء لا يعني انتفاؤه، خاصة إذا كان الأداة المستعملة في الكشف عنه (وهو العقل) أقل وأصغر من الموجود نفسه.

وهنا نقف على محدودية العقل ومحدودية مهمة العلم وعجز هذا النوع من الفلسفات عن طريق العقل في الوصول إلى كُنه الأشياء وحقّائق الوجود، والله تبارك وتعالى لا تدركه الأبصار، ولكنها تعرفه في خلقه ونظام كونه: {وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ}384.

أمّا النّوع الآخر من الفلسفات التي تسعى إلى النتائج بأدوات من جنس النتائج المرجوة، فقد أثبتت تهيؤ الإنسان الفطري إلى معرفة

---

384 الذاريات 20، 21.

الخالق عزّ وجلّ، حيث أن قصة حي بن يقظان التي كتبها الفيلسوف الإسلامي ابن طفيل وهو أستاذ ابن رشد، وقد عبر عن أفكاره وآراءه القائلة بعدم التعارض بين العقل والشريعة أو بين الفلسفة والدين، وتهيؤ الإنسان إلى معرفة الخالق بالتهيؤ الفطري:

"نشأ بطل القصة حيٌّ بن يقظان في جزيرة معزولة، وكان قد ألقي فيها طفلا، أو إنّه نشأ بشكلّ طبيعي من مادتها وترابها. وبعد أن نما وترعرع، تأمل الكون الذي حوله فوصل إلى حقّيقة التوحيد بالفطرة، وينتقل إلى جزيرة أخرى فيلتقي بشخصين هما سلامان وأبسال. يعلِّم الأول منهما أهل الجزيرة . الذين يتدينون تدينًا سطحيًا . الحقّائق الإلهية والوجودية عن طريق ضربّ الأمثال، بينما يميل الثاني إلى التأمل والنظر العقلي وفيه نزعة صوفية.

ويدرك حيٌّ بعد أن يتفاهم مع أبسال أن ما توصل إليه من إدراك لحقّائق الوجود والكون بالفطرة، وما ورثه أبسال عن طريق النبوّة إن هو إلا وجهان لحقّيقة واحدة، فالكون واحد والخالق واحد، وهو ربّ السماوات والأرض وصانع الموجودات، قد نصل إليه عن طريق التأمل الذاتي كأفراد، لكن الجماعات بحاجة إلى طريقة أبسال في ضربّ الأمثال الحسية لمعرفة ذلك، لأنّه لا قدرة للعامة على إدراك الحقّيقة المجردة التي قد يصل إليها أصحاب التأمل الذاتي والنظر العقلي.

والنبوّة حقّ، ولابدّ منها، والخليقة بحاجة إليها للوصول إلى معرفة الخالق، إلا أن حَيًا لا يكاشف أهل الجزيرة بالحقّيقة كلّها، ويعود مع أبسال إلى الجزيرة الأخرى ليعبد الله عبادة روحية خالصة حتى يأتيهما اليقين"[385].

---

[385] الفلسفة الإسلامية 182.

لقد حدد ثلاثة مستويات من التهيؤ لفهم الحقّائق الإلهية والشريعة والدين، وهي ليست بعيدة عن جوهر ما ذهبنا إليه في مستويات التهيؤ لمعرفة الخالق لدى البشر، فهناك تهيؤ العامة للدين، وتهيؤ الخاصة، وتهيؤ خاصة الخاصّة، وإن كان للدين جوهر واحد لا يتغير. وقصة حي بن يقظان وضعت أيدينا على تباين المستويات لهذا الفهم، بشكلّ روائي قصصي يطرح قضية فلسفية.

فإذا عرفنا وجب أن نتهيأ لطاعة الخالق بإتباع أمرنا به واجتناب ما نهانا عنه كيف نتهيأ للعبادات؟ واليك بعض من صور هذا التهيؤ:

أوّلا: التهيؤ للصلاة

نتهيأ لاستقبال يوم جديد بالتهيؤ لصلاة الفجر الذي تهيئ المسلم للاستمرار طوال اليوم في العمل على طاعة المولى عزّ وجلّ، والصلوات الخمس من شأنها أن تجعل من المسلم متهيئا لعمل الخير.

ثانيا: التهيؤ للصوم

شهر رمضان هذا الشهر المبارك الذي يهل علينا في السنة مرة على المسلمين كافة وقد هيأه الله تعالى لأن يكون شهر المغفرة والتوبة والإكثار من الحسنات بأن جعل فيه من المكرمات الكثير كما جاء في قوله تعالى: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}386، وبالتالي كان هذا الشهر مهيئا للمسلمين لنيل الخيرات والحسنات،

---

[386] البقرة 185.

ويبدأ التهيؤ لشهر رمضان بالتهيؤ لتوديع شهر شعبان أولا، فنتهيأ لهذا الشهر بالتالي:

ترقب ظهور هلال شهر رمضان.

نتهيأ في السحور للإمساك عن الطعام.

نتهيأ في هذا الشهر بالذات لكبح الشهوات.

وهناك تهيؤ لليلة القدر.

ثالثا: التهيؤ للزكاة

يتهيأ الإنسان للزكاة بحصره لما يملك.

رابعا: التهيؤ للحج

إذا نوى الإنسان المسلم أداء فريضة الحج فإنّه يكون قد تهيأ لهذه الفريضة بالأمور التالية:

1- يقوم هذا الإنسان بطلب السماح ممن أساء إليهم.

2- أن يقوم برد أي أمانة لصاحبها.

3- أن يتهيأ لتهيئة المرافق والحاجات المادية الأخرى التي تلزمه لأداء هذه الفريضة.

والتهيؤ بحد ذاته يدفع بالنفس لإشباع حاجاتها المتعددة والمتباينة، فالنفس مثلا بحاجة للهدوء أحيانا والطمأنينة والأمل وغيرها وكلّ ذلك لابدّ من التهيؤ له قبل الحصول عليه، ولكن كيف ذلك؟

أولا نتهيأ للطمأنينة بعد أن نحتاج إليها من تملك شعور الخوف أو عدم الأمان في النفس، ويتأتى ذلك باللجوء إلى المولى عزّ وجلّ

بالذكر والدوام على العبادات والإكثار من النوافل وقراءة القرآن الكريم لقوله تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ}[387].

ونحن في عصرنا الحديث وبعد دخول الآلة وظهور الحاسب الآلي فقد أصبح لدى البشر وقت فراغ كبير جدا حتى للعامل منهم، لذلك لابدّ من أن يكون وقت فراغنا مهيا للنفع لا للضرر، فإذا لم يُحسَن استغلال أوقات الفراغ فإنّها تتحول إلى وسيلة تدمير لطاقات الإنسان كأن يلجأ الشباب إلى تعاطي المخدرات وتناول المسكرات والشعور بالقلق والملل والتوتر والانحراف الأخلاقي ممّا يجعل الإنسان دون قيمة أو منفعة، فلابدّ أن نهيئ أوقات الفراغ للاستفادة منها سواء بكثرة الاطلاع وأعمال الخير.

التهيؤ للخلافة:

لقد هيأ الله تعالى الإنسان على العقل الذي به يميز بين المشاهد والملاحظ ويدرك ما يجب وما لا يجب، ويستبصر بعد معرفة وتبيّن واختيار ويستنبط ويستقرى ما يدل به وما يدل إليه. والاستعداد لذلك بما يؤدّي إلى الإصلاح والفلاح ويجنب الخراب وسفك الدماء فيها بغير حقّ. ولذا كان آدم بعلمه للأسماء (الأسرار) خليفة في الأرض.

فخلق الله الإنسان وأراد بمشيئته أن يكون خليفة في الأرض، فقال تعالى: {وَإِذْ قَالَ ربّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً}[388] وقد هيّأه الله تعالى لهذه الخلافة في إعمار الأرض

---

[387] الرعد 28.

[388] البقرة 30.

وإصلاحها ودفع المفاسد عنها، فكان أول هذا التهيؤ كما قال تعالى: {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ}389 وبصرف النظر عمّا قاله العلماء في معنى هذه الأسماء، من إنّها صفات الأشياء ونعوتها وخواصها، أو إنّها أسماء ما كان وما يكون إلى يوم القيامة، أو إنّها أسماؤه تعالى، أو إنّها اللغة كما ذهب بعض العلماء، حتى وإن كانت أسماء مفردة، فمن تلاقي اسمين تتكون الجملة، ومن الجمل تتشكلّ العبارة، ومن العبارات، تكون الفقرة وهكذا حتى تصبح سلسلة من الأفكار تساوي تلك الأسماء وعلاقة التركيب فيما بينها وما يتولد عنها من معان، وما أودع الله تعالى فيه الإرادة، لأن الإرادة ليست مكتسبة عن طريق الأفكار، بدليل أن الطفل حديث الولادة سرعان ما يلتقط ثدي أمه ويأخذ بالرضاعة دون أن يكون له أدنى فكرة عن هذا الأمر، وبهذا علم الإنسان الخير والشر والإصلاح والإفساد، وما يضر وما ينفع، والحلال والحرام، وهو يملك الإرادة، فأصبح بذلك مهيّأ للخلافة بما يعمر أمر دنياه وآخرته.

التهيؤ بالعلم وصولا إلى الخلافة:

العلم هو الذي يتم به حصول المراد من خلافة الله تعالى في أرضه، ونقصد بالعلم، هو علم التوحيد المتعلق بمعرفة الله بأسمائه وصفاته وأفعاله وحقّه على عباده، والذي يتحصل عليه المسلم ممّا ورد في القرآن الكريم وأحاديث النبي عليه الصّلاة والسّلام، وفق منهج عماده العقل

---

389 البقرة 31ـ 33.

ومادته اليقين، بعيدا عن الشطط الذي جاء على ألسنة بعض المتكلّمين والفلاسفة والغلاة.

وبالرجوع إلى القرآن العظيم، وسنة النبي عليه الصّلاة والسّلام وواقع دعوته، نجد إنّها تولي أهمية بالغة وعناية خاصة بإزالة ما علق في قلوب النّاس من مفاهيم وعقائد وظنون خاطئة، وذلك بالتركيز على تجلية أسماء الله وصفاته وأفعاله، وحكمته وقدره وحقّه على عباده، والرد على من أثبت خلاف الحقّ في ذلك، وبهذه التجلية والبيان الواضح والرد الحاسم ينفك المسلم عن الطاغوت وكلّ ما يمت إليه بصلة، ويستمسك بالإيمان وكلّ ما يتصل به، فإذا وصل إلى هذه الدرجة من الإيمان يكون قد تخلق بصفات أسماء الله تعالى التي تهيئه لأن يكون خليفة في الأرض، فقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}[390] هو دعوة للتهيؤ للخلافة، فخليفة الله تعالى هو عادل محسن غير ظالم، وهذه من الشروط التي يجب أن تتوفر في الخليفة، والخلل في الاتصاف النسبي بصفات الخالق تبارك وتعالى، أو حكمته وقدره، أو حقّه على عباده وواجبات عباده له، يُوجِد سوء ظن بالله بقدر يتناسب مع هذا الخلل في الاتصاف بتلك الصفات، سواء كان بجهل تلك الأسماء وما تدل عليه من الصفات، أو جهل بعض تفاصيل القدر وتوحيد الألوهية، أو كان بفهمها فهما يخالف الحقّ الذي دل عليه الكتاب والسنة.

بل إن التفكير السديد يدل على هذه الصفات متناسقة مع واقع الإنسان وما فُضل به من العقل والخلق، ويتجلى ذلك في ظهور

[390] النحل 90.

التكريم للإنسان وتفضيله وتكلّيفه، ومؤاخذته في تفاصيل هذه المطالب، فالحكمة ظاهرة خلق التهيؤ والتكلّيف بالخلافة.

فالعقل يدرك أنّ ما حصل من تكريم الله للإنسان من خلقه له بيده، وإسجاد الملائكة له، إنّه يتناسب مع مكانة الإنسان ووظيفته التي كلّفه بالقيام بها من الخلافة في الأرض وتحقّيق العبودية. كما أن العقل يقرر أن عبودية المخلوق لخالقه، والمتفضل عليه والذي يملكه ويدبره هي الحقّ المتعين عليه، والخلافة في الأرض على منهجه هو الغرض والغاية، كما يحكم بأن الإنسان بما أعطي من عقل وقدرات نفسية وبدنية هو المهيأ وحده للقيام بهذه الوظيفة على الأرض.

والعقل يرى أنّ العدل يبعث النّاس للحساب، فيقتص للمظلوم من الظالم، ويجازى المحسن بالإحسان، والمسيء بالعقاب والحرمان.

فالفطرة السليمة تدرك أنّ هذا الخالق الحكيم لابدّ أن يكون وراء تنظيمه لهذا الكون، ووضع الإنسان فيه غاية وحكمة، وتعالت حكمته أن يكون خلق هذا كلّه عبثا حيث قال تعالى: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالحقّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}391 وهذا الحقّ الذي به خلقت السموات والأرض هو ما يستشفه العقل وتحس به الفطرة _ وإن يكن إحساسا داخليا غامضا_ أن لهذا الإنسان في الوجود رسالة وأن وراء هذه الحياة _حياة الابتلاء والفناء_ حياة أخرى، هي الغاية وإليها المنتهى يُجزى فيها المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، حتى لا يستوي الخبيث والطيب، والبر والفاجر، وهذا ما تقتضيه الحكمة.

[391] الدخان 38، 39.

لقد اهتدى الإنسان بتهيئه إلى سرّ وجوده ووجود العالم كلّه، لقد عرف الله فعرف به كلّ شيء، وحلّ به كلّ لغز، واهتدى به إلى كلّ خير، فالعالم مملكة الله، وكلّ ما فيه من آثار رحمته تعالى، والإنسان خليفة الله، خلق لعبادة الله، وتحمل أمانة الله، والحياة هبة من الله، والموت قدر من الله، والدنيا مزرعة لطاعة الله، والآخرة موعد الحصاد، والجزاء من الله، والسعيد من اهتدى بهدى الله، والشقي من أعرض عن ذكر الله.

وحيث إنّ خلق الإنسان ليس للإنسان أثر فيه، وبما أنّ المصير والمنتهى ثمرة ونتيجة لسعي الإنسان في الدنيا متوقف على مدى تحقّيقه للغاية التي من أجلها خلق، فلذلك كانت معرفة الغاية والحكمة من خلق الإنسان مطلبا أساسيا في سلوكه واستقراره النفسي.

والإسلام يجعل غاية الإنسان وهدفه الأساسي هو حسن الصلة بالله تبارك وتعالى، والحصول على مرضاته بالقيام بالعبودية الخالصة التي تؤدي إلى الخلافة، فهذه غايته ومنتهى سعيه وأمله: {يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى ربّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ}392 والكدح المجدي الذي ينتهي بصاحبه نهاية سعيدة في الدنيا كونه مهيأ للخلافة، والخلافة تهيّئه للجنة من قيامه بحقّ الله، وهو عبادته وحده لا يشرك به شيئا.

لقد هيأ الله تعالى الإنسان للخلافة بما وهبه من قدرات أعلاها العقل الذي هو مدعاة العلم، وكذلك طبيعته الفريدة التي تتميز بكونه قبضة من طين الأرض ونفخة من روح الله، حيث قال تعالى: {إِذْ قَالَ ربّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ}393 فالشهوات كلّها أو الدوافع الفطرية أو

392 الانشقاق 6.

393 سورة ص 71، 72.

الغرائز الإنسانية أو القوّة الحيوية هي نشاط فطري، ولكنها فطرة مهيّأة للكبح والضبط بالعقل والإدراك، ومهيّأة للسمو الروحي بالإيمان بالله والمثل العليا والعمل على تحقّيقها إيجابيا في واقع الحياة.

ونقف على هذا التهيؤ في النفس الإنسانية منذ أن وجدت من قوله تعالى: {قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ}394 فهو كشف عن فضل آدم وتهيؤه، وإنّه قادر على مالا تقدر عليه الملائكة، من إحداث هذا التغيير في وجه الأرض، بما أدخله عليها من إضافات في صورها وأشكالها، وذلك ما لا تستطيعه الملائكة من ذات أنفسها، ولهذا أمر الله الملائكة بالسجود لآدم، سجود إجلال وتعظيم لقدرة الخالق سبحانه، الذي أخرج من تراب الأرض كائنا يعلم الملائكة ما لم يكونوا يعلمون.

وقد غير آدم الأرض فأخرج المخبوء من أسرارها، وسخرها لخدمته، فعمر جيبها، وأحيا مواتها، واستأنس متوحشها، وألان حديدها، حتى أقام تلك المدنيات وهذه الحضارات، فركب البحار وسبح في الفضاء، ووصل إلى الكواكب والأقمار، حيث نزل على سطح القمر، واستكشف المريخ المركبات التي تحمل المختبرات للبحث والكشف والتنقيب.

ثم إن الإنسان لا يقف عند هذا الذي أخرجه من معطيات مدركاته وما هو مهيأ له، فإن أمام الإنسان مجالا فسيحا للبحث في أسرار هذا الكون الذي أودع به الخالق سبحانه مالا ينفذ من آيات علمه، وحكمته وقدرته، فإذا عجز جيل من أجيال النّاس عن اكتشاف

---

[394] البقرة 33.

سر من أسرار الكون جاء الجيل الذي بعده، فحاول أن يكشف عن مكنون هذا السر، وهكذا تتوالى أجيال الإنسانية، كلّ جيل يبني على ما أقامه الجيل السابق حتى يعلو صرح البناء، وينمو نموا مطردا، وهذا بفضل ما هيأه الله تعالى في الذات الإنسانية، وأجلّ ما في الإنسان من التهيؤ هو تهيؤه للعلم والمعرفة من خلال اتصافه النسبي بأسماء الله الحسنى.

فالعلم المعرفة من أهم خصائص الإنسان، حيث قال تعالى: {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كلّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}[395] والإنسان خليفة الله الخالق المبدع المسيطر على كلّ قوى الكون، وهو مخلوق تحتفل به السماوات والأرض، ويتولى الله سبحانه وتعالى إعلان مقدمه على الملأ الأعلى.

فالخلافة عن الله فيها معاني الإنشاء والابتكار والتعمير والتغيير والتبديل، وكلّها معان دقيقة نابعة من التهيؤ.

وعليه فالخليفة الذي يتصف بصفات الله وأسمائه الحسان هو أيضا يجب أن يكون مهيئا لنفسه أوّلا لفعل الخيرات والإكثار منها وترك المعاصي والآثام واجتنابها، ولغيره ثانيا ممن له احتكاك بهم كالأبناء والجيران والأصدقاء وغيرهم على أن يكونوا مطيعين لله مستجيبين لأوامره ومنهيين عن نواهيه، وكذلك يكون مهيئا للأرض من أجل الإعمار والإصلاح الذي أراده الله منه فيها عند استخلافه، فيعمل على تمهيدها واستخراج خيراتها ومعادنها والعمل على زراعتها من أجل إعمارها وإصلاحها وإصلاح حال العباد عليها بالتعاون والرّحمة والمحبة وعدم الإفساد فيها وعدم سفك الدماء بغير حقّ وعدم أكلّ أموال

---

[395] البقرة 31.

النّاس بالباطل وعدم ظلم الآخرين، وغير ذلك من الأعمال التي تؤدي إلى جوهر الخليفة الحقّيقي والهدف الأساس من وجوده في الأرض وهو عبادة الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لا شريك له لقوله تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}396.

والتهيؤ من الخليفة منه ما هو إيجابي ومنه ما هو سلبي، ومن أمثلة التهيؤ الإيجابي:

أ- تهيئة الطبيب مريضه لإدراك خطورة مرضه وتهيئته بالتالي للتعامل معه والصبر عليه،

فلابدّ أن يكون الطبيب مهيأ أولا لأن يكون إنسانا يخشى الله وعلى قدرٍ كبير من الدراية والخبرة في التعامل مع نفس المريض قبل جسده فيهيئ نفس المريض للتعامل مع المرض قبل تهيئة جسده، فالنفس البشرية قد تكون مهيأة للمرض والصحة ويدخل في ذلك الكثير من العوامل ومن ذلك.

إيمانه وعلاقته بالمولى عزّ وجلّ. فعلى الطبيب المستخلف في الأرض أن يهتم بتقوية الجانب العقدي في نفوس المرضى من أجل أن يهيئهم للرضا بقضاء الله وقدره.

صبره وقوة تحمله. من أهم العوامل التي تخفف الآلام عن المريض الجانب الروحي الذي ينمي فيه الصبر وقوة التحمل باعتبار أن ما ألم به من مرض هو من عند الله إما لاختبار إيمانه وصبره أو لابتلائه فيصبر على مرضه طمعا في ثواب الله ومغفرته.

---

[396] الذاريات 56.

- إرادته. على الطبيب أن يهيئ مريضه بأن يقوي إرادته وأمله في رحمة الرّحيم الكريم عزّ وجلّ من حيث إنّه تعالى هو الشافي وكلّ شيء بيده تعالى.

ب- التهيؤ للتوبة من الذنوب

لقوله تعالى: {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأنهار خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ}[397]، من هذه الآية الكريمة السابقة يتضح كيف يتهيأ من فعل المعاصي للتوبة وذلك بأن يتذكر الله إزاء ارتكاب الفاحشة ثم يستغفره من فعلته وهو موقن بأنّه لا يغفر الذّنوب إلا هو عزّ وجلّ، ثم بعد ذلك لم يعد لفعل ما ندم عليه من الفواحش ولم يصر على فعله، وهو يعلم تمام العلم إنّه لا ملجأ إليه إلا الله التواب الغفور. ويتضح كذلك أن هناك فريقين من النّاس أوّلهما من يرتكب الذنوب والمعاصي بعلمٍ ودراية بنتائجها ويستمرون عليها دون أن يتوبوا، وثانيها من يعمل السيئات والذنوب دون علمٍ كاملٍ ووعي بنتائجها ولا يصرون على الاستمرار فيها بعد علمهم بها، والله جعل من البشر مهيئين للتوبة والعودة عن المعاصي فتأتي إرادة الإنسان التي تختلف بين النّاس وتولد موانع للشر وموانع للخير، فمن موانع الشر ما يلي:

. مخافة الله تعالى

---

[397] آل عمران 135، 136.

مخافة الله تعالى تهيئ الإنسان لفعل الخيرات، وإن حصل أن ضعُف مرة أو قصّر فإنّه يكون دائما متهيئا للعودة لله بالتوبة، فخشية الخالق تهيئ النفس لردع الفساد والشر.

. التربّية السليمة

التربّية تهيئ الإنسان لأن يكون فردا صالحا في المجتمع، بداية من اختيار الأب والأم إلى التربّية الدنية والنفسية داخل هذه النواة الصغيرة التي تساهم في تشكيل المجتمع الصحيح.

. العلم النافع

من الأساسيات التي تدّعم التهيئة السليمة والصحيحة هو تحصيل العلوم النافعة باختلافها، فيتهيأ المرء لأن يأخذ مكانه في المجتمع كعضو فعّال ومفيد.

. القدوة الحسنة

كلّ فضيلة أو خلق حميد يكون إثر مثلٍ عالي أو قدوة حسنة تهيؤه لأن يسير على هذه الخطى، وأحيانا تكون هذه القدوة لجماعات وأمة وليست لمجرد فرد وأفضل مثال لهذا أن رسولنا الكريم محمّد –صلّى الله عليه وسلّم- كان وسيظل أفضل قدوة للأمة الإسلامية التي بسيرها على خطاه تكون مهيأة لأن تتحدى الصعاب وتقهر الجهل والضعف.

ومن موانع الخير:

. إتباع الشيطان

قالت تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنّه يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ}[398]، فاتباع الشيطان يهيئ الإنسان لأن يكون فاسدا لا يبدر منه إلا كلّ سوءٍ وفاحشة، لأن في سيطرة الشيطان عليه تهيؤ لقبول كلّ الرذائل والفواحش.

فالإنسان حين يكون اتجاه تفكيره ومداركه للشر فبالطبع يكون متهيئا لكلّ ما هو شرير وسيء.

. سوء التربّية

التربّية السليمة لها الدور الفعّال في تهيئة المرء لأن يكون المسلم الحقّيقي الذي يتحمل عبء أمانة استخلاف الأرض، أمّا انهيار المجتمع ومتهيئاته لأن يكون على شفا حفرة هو ناتج من سوء التربّية داخل الأسرة نتيجة إهمال الوالدين أو الجهل في طريقة التعامل المادي والنفسي.

وسوء التربّية لا يقتصر على فترة زمنية محددة بل إنّها تشمل حياة الإنسان منذ طفولته ليمتد أثرها إلى آخر عمره، لأن الأساس يكون مهيأ للانهيار والضياع الناتج عن سوء التربّية.

. القدوة السيئة

قد يلجأ الشخص إلى الاقتداء بمثلٍ أو شخصية تنال إعجابنا ولكن المشكلّة تبقى في ميولنا تجاه اختيارنا لهذا المثل، فنجد مثلا من يأخذ من شخصية فاسدة أو عدوانية مثلا له فيتهيأ نفسيا لأن يكون مثله في العدوانية والفساد والشر.

---

[398] النور 21.

. الجهل

من أخطر الأمراض على التهيئة السليمة هو الجهل، فلا يمكن أن نكون متهيئين للأفضل ونحن على جهل وغفلة ممّا هو مفيد وما هو ضار.

جـ- تهيئة المعلم لطلابه

فالذي يُلقي العلم على مدارك الطلبة لابدّ أن يكون مهيئا لذلك لكي يستطيع أن يهيئ الطلبة للمستقبل الجميل الذي لابدّ أن يكونوا موجودين فيه، فلا يمكن أن تكون الأمة بخير بدون تهيئة أبنائها بالعلم والمعرفة.

فتهيئة المعلم لطلابه تبدأ ببداية إدراك المعلم للفروق العقلية والنفسية والجسدية لدى الطلاب لذلك فإنّه يجب على المعلم أن يراعي هذه الفروق في كلّ ما يقوم به أو يفعله ضمن العملية التعليمية، فتكون تهيئته لطلابه تسير بشكلّ منظم وسليم، فينتفعون من عملية التعليم والفهم وتكون الفائدة كما يلي:

أ- عندما يتهيأ الطلبة لموضوع ما فإن الأفكار تكون مرتبة لديهم لتسير عملية الفهم بشكلّ سريع وصحيح فتكون النتيجة هي الاستفادة الكاملة والوصول للهدف من الموضوع المطروح.

ب- بناء مساحة واسعة وخصبة من التفكير تظل تتسع لدى الطالب لتستوعب كلّ جوانب الفهم والإدراك السليم الواعي فتكون بذلك مكونة لشخصية هذا الطالب ضمن عوامل أخرى.

جـ- القدرة على ربّط المعلومات بعضها ببعض، فعندما يتهيأ الطالب للدرس قبل المباشرة فيه فإنّه يستطيع الاستمرار في عملية ربّط

المعلومات بعضها ببعض ممّا يجعله مهيا لأن يستطيع الإلمام بجميع جوانب الموضوع وتكوين رأي مستقل وسليم.

د- تهيئة الوالدين للأبناء

مسؤولية الوالدين عظيمة جدا، فالله تعالى هيأ الإنسان لأن يكون مسئولا بأن زرع فيه المسؤولية وهيأه لذلك، ففي داخل كلّ إنسان تهيؤ فطري لأن يكون أبا أو أما حسب جنسه، وهذه الرغبة الكامنة فينا تجعل منا مهيئين لذلك، فبعد أن هيأنا الله تعالى لذلك لزم علينا أن نكون على قدر هذه المسؤولية، فلابدّ للوالدين أن يكونوا مهيئين للأبناء لأن يكونوا صالحين يتقون الله ويخشونه ويحبونه، فمثلا نلاحظ إنّه منذ بداية الإدراك عند الطفل يسأل عن الحياة والموت وعن الله فلابدّ هنا أن يكون من واجب الوالدين تهيئة الإجابات الواعية التي تهيئ الطفل للتعرف على خالقه بالشكلّ السليم فينشأ الحب له تعالى في قلبه والخوف منه تعالى أيضا، ويدرك مكانه في الحياة فيكون بذلك مهيئا للصلاح والخير.

وقد بيّن الله تعالى وهو الودود الرّحيم أن أساس التعامل بين الأبناء والآباء هي الرّحمة في قوله تعالى: {وَقَضَى ربّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرّحمة وَقُلْ ربّ ارْحَمْهُمَا كَمَا ربّيَانِي صَغِيرًا}399، فبذلك قد هيأ الرّحيم المطلق العلاقة بينهما على هذا الأساس ووضح المنهاج الذي يجب أن تقوم عليه هذه العلاقة.

وعليه أتساءل:

---

[399] الإسراء 23، 24.

ألا يكون الرشد هنا هو العقل الذي به يتهيأ الإنسان للتوصل للحقّ؟

أيكون من لا يتوصل للحقّ والإيمان به، ويبقي على الضلال رشيدا؟

وللمفسرين في الرشد الذي آتاه الله تعالى لإبراهيم عليه الصّلاة والسّلام أقوال:

الأوّل: إنّه النبوّة واحتجوا عليه بقوله تعالى: (وَكُنَّا بِهِ عالمين) لأنّه تعالى إنما يخص بالنبوّة من يعلم من حاله إنّه في المستقبل يقوم بحقّها، ويجتنب ما لا يليق بها ويحترز عما يُنَفِّرُ قومه من القبول.

ولمناقشة هذا القول وفق قاعدة الاصطفاء، نتطرق لموضوع الاصطفاء:

اصطفاء إبراهيم:

فنقول: إنّ هذا القول يفضي إلى أنّ النبوّة مُحْدَثة؛ أي أنّ النبي لا يكون نبيا إلا بعد أن يصل إلى مرحلة معينة من عمره، يكون عندها نبيا.

وهذا يقتضي أن يقع قبل إبلاغه بالنبوّة فيما يقع فيه غيره من النّاس من:

الكفر بالله

الشرك به

عبادة الأوثان

ارتكاب المعاصي

ونحن نقول:

إنّ هذا يتعارض مع اصطفاء الله تعالى لرسله وأنبيائه الذي أخبر الله تعالى عنه، في أكثر من آية من كتابه الكريم، منها قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ}400

وقوله تعالى: {وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ}401

وكذلك قوله تعالى: {وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّه فِي الْآَخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ}402

والخبر عن مكانة نبي الله تعالى في الدارين في هذه الآية الكريمة، جاء في جملتين مؤكدتين بأدوات التوكيد.

الأولى (وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا) مؤكدة باللام وقد.

والثانية (وَإِنَّه فِي الْآَخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ) مؤكدة بأداتي توكيد، إن، واللام.

وذلك لأنّ الإخبار عن اصطفاء الله له في الدنيا أمر غير معلوم لمن عاصروه من البشر، وكذلك كونه في الآخرة من الصالحين، فهو أمر مغيب عنهم يحتاج فيه إلى إخبار من الله تعالى، فأخبر الله به مُؤَكدا بأداة التوكيد.

---

[400] آل عمران 33.

[401] ص 45- 47.

[402] البقرة 130.

ويمكننا القول بأنّ الاصطفاء أمر مرتبط بالحياة الدنيا، فالله تعالى اصطفي الكثير من عباده للقيام بالعديد من المهام منها:

. مهمة التبشير بثواب الله والإنذار من عقابه والتبليغ بأوامره تعالى بالنبوّة والرّسالة من أجل هداية النّاس إلى الطريق الحقّ، وإخراجهم من الظلمات إلى النور.{وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ}403

. مهمة حفظ كتاب الله (القرآن الكريم) حتى يتحقّق حفظ الله تعالى له مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}404

مهمة الإصلاح والدّعوة للمعروف والنهي عن النكر قال تعالى: {وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}405

أمّا الحياة الباقية فإنّه ارتبط بها العمل الصالح الذي به ينال العامل مكانته في الجنّة {إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فإنّه يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا

---

403 الأنعام 48.

404 الحجر 9.

405 آل عمران 104.

لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا}406

وعليه فالصالحين في الآخرة هم المصلحين في الدنيا، ولذا فالاصطفاء من الله وليس اختيارا من المصطفي، بل هو من الله لأسباب التمييز التي هيأه الله بها.

وقوله تعالى: (ولقد اصطفيناه في الدنيا) تأكيد على اصطفاء الله تعالى لإبراهيم عليه الصّلاة والسّلام، أي جعله الله صافيا من الأدناس، وكلّ ما يتنافى مع كونه مصطفي من فعل أو قول، أو عمل أو سلوك.

وهنا نتساءل:

بماذا كان اصطفاء إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام؟

ألا يكون تطهيره اصطفاء؟

ألا يكون تكلّيفه بالرّسالة اصطفاء؟

ألا يكون إيتائه الرشد من قبل اصطفاء؟

{وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ}407

ألا يكون اتخاذه خليلا اصطفاء؟

{وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا}408

ألا يكون ابتلاءه بالكلّمات التي وفّاها اصطفاء؟

---

[406] الفرقان 70. 75.

[407] الأنبياء 51.

[408] النساء 125.

{وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِّمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ}409

ألا يكون اختياره لبناء البيت اصطفاء؟

{وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}410

ألا يكون جعله للناس إماما اصطفاء؟

{قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا}411

ألا يكون الأمر باتخاذ مقامه مصلّى اصطفاء؟

{وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصلّى}412

ألا يكون أمر الله تعالى له بتطهير البيت اصطفاء؟

{وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ}413

ألا يكون إنجائه من النّار اصطفاء؟

{قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ}414

ألا يكون إعطاءه الحجّة لدحض الذي حاجه في ربّه اصطفاء؟

---

409 البقرة 124.

410 البقرة 127.

411 البقرة 124.

412 البقرة 125.

413 البقرة 125.

414 الأنبياء 69.

{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}415

ألا يكون أمر الله تعالى له بالأذان للحج اصطفاء؟

{وَأَذِّنْ فِي النّاس بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كلّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كلّ فَجٍّ عَمِيقٍ}416

ألا يكون إراءته مناسكه اصطفاء؟

{ربّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرّحيم}417

ألا يكون جعل النبوّة في ذريته اصطفاء؟

{وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النبوّة وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنّه فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ}418

وغير ذلك ممّا ذكر في كتاب الله تعالى من خصائصه ووجوه اصطفائه.

هذا عن اصطفاء الله تعالى لإبراهيم عليه الصّلاة والسّلام في الدنيا، واستمر الإخبار من ربّ العزَّة عن مكانة خليله وصفيه إبراهيم

---

415 البقرة 258.

416 الحج 27.

417 البقرة 128.

418 العنكبوت 27.

عليه الصّلاة والسّلام في الآخرة بقوله تعالى: {وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإنّه فِي الْآَخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ}419

من الصالحين الذين أخبر الله تعالى إنّه:

. يتولاهم.

قال تعالى: {إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِين}420

. يدخلهم الله تعالى في رحمته.

قال تعالى: {وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إنّه مِنَ الصَّالِحِينَ}421

وقال تعالى أيضا: {وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ}422

إذا القاعدة تقول:

(إن الصالحين من العباد يتولاهم الله تعالى ويدخلهم في رحمته)

وهنا لنا أن نتساءل:

ما الصفات التي تدخل العباد في الصالحين؟

وبالإجابة عن هذا التساؤل نجد:

أن منها صفات مجملة في قوله تعالى: {لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آَيَاتِ اللَّهِ آَنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ يُؤْمِنُونَ

---

[419] النحل 122.

[420] الأعراف 196.

[421] الأنبياء 75.

[422] الأنبياء 86.

بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ}423

وعليه فالصالحون هم الذين:

يؤمنون بالله تعالى: {يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ}424

يؤمنون برسل الله تعالى ويصدقونهم ولا يفرقون بينهم: {آَمَنَ الرّسول بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ ربّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كلّ آَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ ربّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ}425

يؤمنون باليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب: {إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ ربّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}426

يتعبدون لربّهم بالقيام، والتلاوة والصّلاة. {قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آَمَنُوا يُقِيمُوا الصّلاة وَيُنْفِقُوا مِمّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ}427

---

423 آل عمران 113_ 115.

424 آل عمران 114.

425 البقرة 285.

426 البقرة 62.

427 إبراهيم 31.

يأمرون بالمعروف ويعملونه. {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصّلاة وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}[428]

ينهون عن المنكر ويجتنبونه. {يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ}[429]

يسارعون في الخيرات. {وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ}[430]

يعمرون الأرض بإصلاحه. {إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}[431]

لا يفسدون في الأرض. {الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ}[432]

لا يسفكون الدماء بغير حقّ. {قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْربّوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ

[428] التوبة 71.

[429] آل عمران 114.

[430] المؤمنون 60، 61.

[431] النور 5.

[432] البقرة 27.

وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالحقّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُون}433

وعليه فذكر الله تعالى لكرامة خليله إبراهيم في الدارين، بأن كان في الدنيا من صفوته، وفي الآخرة من المشهود له بالاستقامة في الخير، يقتضي على كلّ عاقل ألا يعدل عن ملته، مصداقا لقوله تعالى: (وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ).

واصطفاء الأنبياء يكون من نفخ الروح فيهم، بدليل قوله تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ}434

و(من قبل) هنا حسب اعتقادنا إنّها تعني من بداية خلقه وذلك وفقا لتحليلنا أن الرشد الذي آتاه الله تعالى لإبراهيم عليه الصّلاة والسّلام هو التهيؤ العقلي والنفسي والعقدي لحمل ما سيكلّفه الله تعالى به من النبوّة والرّسالة والذي به تحقّقت له العصمة من الوقوع فيما يقع فيه غيره من أخطاء وآثام وفق قاعدة الاصطفاء.

النبوّة اصطفاء:

النبوّة والرّسالة محض فضل من الله يختص به من شاء من عباده، وهو سبحانه أعلم بمواقع فضله، ومحال رضاه، وأعلم بمن يصلح لهذا الشأن، فهو سبحانه صاحب الخلق والتدبير، والاختيار والاصطفاء، مصداقا لقوله تعالى: {وَربّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}435، ولقوله تعالى: {وَإِذَا

[433] الأنعام 151.

[434] الأنبياء 51.

[435] القصص 68.

جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ}436.

فالله تعالى يختار للنبوّة مع إنّها هبة إلهية يهبها لمن يشاء وفقا لقاعدة الاصطفاء لعباد خصهم وميزهم بخصائص ومميزات ليست موجودة في سائر البشر.

فالأنبياء والرّسُل:

أكمل البشر خَلْقًا وخُلُقًا

وأرجحهم عقلا

وأوفرهم ذكاء

وأكثرهم إيمانا

طاعة

صفاء

نقاء

صبرا

وهذا هو شأن الأنبياء والرّسُل أجمعين.

ورسول الله إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام اصطفاه الله لمهمة النبوّة والرّسالة، وخصّه بخصائص ليست موجودة في غيره، وهيأه تهيئة خاصّة لتناسب هذه المهمة الجليلة.

---

[436] الأنعام 124.

مظاهر اصطفاء إبراهيم:

نرى من مظاهر اصطفاء الله له ما يأتي:

1 – طهارة نسبه:

فلا يكون من صلب كافر أو مُصِرٍ على كفر شأنه شأن جميع الأنبياء.

2– تعهد الله بحمايته ورعايته وحفظه:

وذلك بأن أنجاه الله من القوم الظالمين، وجعل النّار بردا وسلاما عليه، مصداقا لقوله تعالى: {قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ}437.

3– عصمة الله تعالى له في الدنيا:

وعصمة إبراهيم كانت من وجوه كثيرة منها:

. عصمته من عبادة ما دون الله تعالى من الكواكب والنجوم وغيرها.

. عصمته من تسلط أعدائه عليه بالقتل أو منعه من تبليغ رسالة ربّه.

. عصمته من كلّ ما يقدح في نبوته، أو ينفر النّاس من دعوته، وتنزيهه عن كلّ ما يعيب أو يشين البشر في سلوكهم.

. ومع أنّ الكمال لله وحده إلا إنّه كانت للأنبياء عصمة في رسائلهم فكانت عصمة إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام عن الوقوع في

[437] الأنبياء 68. 70.

الخطأ والنسيان، أو الكذب والكتمان فيما يبلغه عن ربّه، شأن جميع الأنبياء والرّسُل.

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الرّسول بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ ربّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ}.

4- تشريفه بالوحي وهذا لجميع الرّسُل:

5- كونه أبو الأنبياء والرّسُل:

6- إتمام الله له المحاسن خلقا وخلقا:

فقبل اصطفاء الرّسول واختياره للتبليغ يصنعه الله، ويهيئه تهيئة خاصة، يكفل له فيها التنشئة السليمة، والخِلْقَة القويمة، والخلق الكريم؛ حتى يكون أهلا للرسالة والتبليغ.

واصطفاء الله تعالى للرسل يتم على مرحلتين:

مرحلة تهيئة.

مرحلة تكلّيف وإبلاغ.

والقول الثاني من أقوال المفسرين في الرشد: إنّه الاهتداء لوجوه الصلاح في الدين والدنيا قال تعالى: {فَإِنْ آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم}438.

الثالث: هو أن تدخل النبوّة والاهتداء تحت الرشد إذ لا يجوز أن يُبعث نبي إلا وقد دلَّه الله تعالى على ذاته وصفاته، ودلَّه أيضا على مصالح نفسه ومصالح قومه، وكلّ ذلك من الرشد.439

---

[438] النساء 6.

[439] تفسير الرازي ج11، ص 29.

والقاعدة (أن إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام أتاه الله تعالى رشده من قبل)

وقد ذكرنا أن (القبل) الذي ذكر في الآية الكريمة يكون منذ نفخ الروح فيه، بدليل ما كان من أمر ابنه عيسى بن مريم عليه الصّلاة والسّلام، وكلّامه في المهد بالإيمان.

ولو أنّ الله تعالى أنطق إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام في مهده لما نطق إلا بالإيمان وبما ينم عن الإيمان، وذلك شأن جميع الأنبياء والرّسُل عليهم صلوات الله وسلامه.

ونقول: إنّ الرّشد هو كمال العقل والذي هو ممّا يحصل به التهيؤ، وسداد الفعل، وحسن التصرف المؤدي للوصول إلى الرشاد الذي هو نقيض الغي والضلال؛ ذلك لأن الله تعالى بشّره بالنبوّة بعد أن وفيما ابتلاه ربّه به مصداقا لقوله تعالى: {وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ}440

فالرُّشْدُ والرَّشَدُ والرَّشاد نقيض الغي، وإنسان رشيد هو عكس الضال؛ لأنّه أصاب وجه الأمر والطريق.441

وفرَّق صاحب الفروق اللغوية بين الرُّشد والرَّشد فقال:

"الفرق بين الرُّشد والرَّشد قال أبو عمرو بن العلاء: الرشد الصلاح، قال الله تعالى: {فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم

[440] البقرة 124.

[441] لسان العربّ ج 3، ص 175.

أموالهم} والرشد الاستقامة في الدين ومنه قوله تعالى: {أن تعلمن ممّا علمت رشدا}442."443

ونرى أن التفريق بين الكلّمتين من حيث المعنى ليس بصائب فكلّاهما بمعنى واحد فالاستقامة تؤدي إلى الصلاح، والصلاح يؤدّي إلى الاستقامة بدليل قوله تعالى في قصة أصحاب الكهف {إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا ربّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا}444

فالفتية هنا كانوا على استقامة في الدين بدليل توجههم إليه تعالى بالدعاء دون غيره ممّا كان يُعْبَدُ في الأرض باطلا آنذاك، طالبين منه تعالى تهيئة صلاح حالهم.

ومن متممّات الرشد الذي هو الهداية، تمام العقل فهو سبيل النجاة بالهداية التي توصلوا إليها.

وعليه فالرشد بلوغ مدركات عقلية تمكن من التمييز بين ما يجب وما لا يجب

ولذا:

فالرشد تمام عقل بهداية واستدلال، قال تعالى: {وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وانهارا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ}445

442 الكهف 66.

443 الفروق اللغوية ج 1، ص 256.

444 الكهف 10.

445 النحل 15، 16.

وقوله تعالى واصفا من أسلم من الجن إنّهم تحروا رَشَدَا {وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا}446

أي قصدوا هداية واستقامة في الدين.

وعليه فالرشد يستلزم الآتي:

1. البحث عن الحقّ:

ومجرد فكرة البحث عن الحقّ، هي بحد ذاتها دعوة لرفض الباطل والترفع عنه، فما تكونت الإرادة والرغبة داخل النفس البشرية لهذا البحث إلا وقد وصل به الحال إلى الامتناع الإرادي الكامل الرافض لكلّ ما هو ناقص وعاجز، فالكمال هو الغاية المرجوة من خلال عملية البحث عن الحقّ.

بما أنّ الباطل موجود يصارع الحقّ في نفوس البشر فيتميز هنا الإنسان الرشيد الباحث عن الحقّ وسط تراكمات الشرك والضلال من حوله، فلا يكون تأثير هذا الشرك سالبا عليه، بل يكون دافعا له للبحث عن الحقّ بتصميم واعٍ، لا ييأس ولا يتعب، إذ أن الحقّ موجود في كلّ تفاصيل المخلوقات مهما حاول الشيطان الميل بالإنسان عنه.

قال الله تعالى: {قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النّار هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}447

والرشيد لا يرضى إلا بصلاح الحال وذلك لا يتم إلا بالبحث عن الحقّ الذي لا تنصلح أحوالنا إلّا به.

---

[446] الجن 14.

[447] البقرة 38، 39.

ولابدّ أن يكون العقل الرشيد خير زاد يتزود به الباحث عن الحقّ فيكون له خير معين.

2. الإيمان بالحقّ عند الوصول إليه:

لا يمكن أن يكون رشيدا من وجد الحقّ ووصل إليه ثم تركه، فأساس البحث يكون إرادة موجبة تغذي العقل للاستمرار في البحث، والتعلق بالحقّ والإيمان به لأنّه ليس من الرشد في شيء مَن تحرّى وتقصّى وحلّل ووصل ثم قفل راجعا تاركا خلفه ما وصل إليه.

وقد يسّر الله تعالى لمن طلب الحقّ والهدى وسعى في البحث سبل الهداية، تبدأ بالعقل المفكر الرشيد الذي يقنع بذلك وترضى به نفسه وتطمئن، فيؤمن به وتهدأ نفسه.

ويتحقّق ذلك عن طريق:

إمعان النظر.

إعمال العقل.

التحليل العميق.

وهذا كلّه نراه متمثلا في شخصية إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام المرْشَد قبل تبشير الله تعالى له بالنبوّة بعدما ابتلاه بالكلّمات.

فالسياق القرآني يوضح لنا هذه الصفات من شخصية إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام مبتدئا من مرحلة التشكيك لرفض ما وجد عليه أباه وقومه من ضلال بعبادتهم الأوثان والأصنام والتي هي من بقايا شرك قوم نوح عليه الصّلاة والسّلام وهذا ما يدل على:

رشده

رجاحة عقله

إيمانه بالله تعالى

قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}448

هذا قولُ مُتيقِّنٍ ممّا يقول، جازمٍ بصحته، والذي يوضح ذلك ويبينه لفظة (أَرَاكَ) الدالة على اليقين لا الظن؛ فهو لم يقل: (أظن) على الترجيح، والواقعة بعد استفهام استنكاري (أَتَتَّخِذُ).

وهذا لسان حال سيدنا إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام الداعي إلى الحقّ، فهو في هذه اللحظة يستنكر ويرفض ما عليه قومه من عبادة ما لا ينفع ولا يضر من الأصنام.

فيبدأ بعد ذلك بالبحث عن دين آخر لا يعبد الإله الحقّ لإبطاله بالحجّة والبرهان العقليين، فتأمل بعقله الراجح فيما ظهر أيضا في قومه من الشرك المتمثل في عباد الكواكب والأجرام السماوية، على اعتبار إنّها موكلّ لها أمر الخلق والتصرف فيه.

فانتقل إلى إمعان النظر في ملكوت السماوات وملك الأرض من أجل الوصول بقومه إلى اليقين والإيمان به، وليكون من الموقنين.

مصداقا لقوله تعالى: {وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ}449

---

448 الأنعام 74.

449 الأنعام 75

وتبدأ مرحلة البحث والتفكر من الليل حيث يكون العبد أشد حاجة إلى إله يحميه، ويؤنس وحشته، ويُؤَمِّنَهُ من طوارق الليل، وما استجن تحت جنته.

وهذا دليل على استمرار دعوة إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام من الليل إلى النهار إلى الليل من جديد، وهذا يوضح مدى دأبه في دعوة قومه، ومبلغ صبره عليهم أملا منه في هدايتهم لإنقاذهم من عذاب الله تعالى وإدخالهم في مغفرته ورحمته ونعيمه.

ولهذا قال تعالى: {فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا ربّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآَفِلِينَ}450

وفي هذه الآية الكريمة يبين لنا السياق القرآني حال سيدنا إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام، الباحث لقومه عن الإله الحقّ، حين رأى الكوكب الذي يظهر أول الليل فاتخذ قراره باختبار صلاحيته ربّا يعبد، فكانت نتيجة الاختبار بالنفي؛ وذلك عن طريق استمرار النظر والتأمل في ملكوت السماوات والأرض، حيث ظهرت أمامه في الإله المختبر حالة يرفضها العقل فيمن يصح أن يكون إلها (فَلَمَّا أَفَلَ).

والأفول الغياب451 وهو دال على:

- التغير
- التبديل
- عدم الاستقرار
- عدم الإحاطة الكاملة

450 الأنعام 76.

451 لسان العربّ ج 11، ص 18.

- نقصان العلم بما غاب عنه
- محدودية المقدرة
- محدودية القوّة
- الدخول في حيز التحديد الزماني والمكاني
- الدخول في دائرة البداية والنهاية

وهذه كلّها صفات لا يمكن أن تكون في إله يُسَيِّرُ الكون على وفق النظام البديع الذي أدرك إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام من خلال التأمل والتحليل العقلي والمنطقي، استحالة أن يكون المتحكم في ثبات النظام ودقته، متغير في حاله وذاته.

وهذه هي النتيجة التي يريد إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام أن يصل بقومه لها عن طريق محاججتهم بالمعقول.

فما كان من سيدنا إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام إلا أنّ رفض عبادة الكواكب والنجوم، مبينا لقومه فساد ما هم عليه من عقيدة وعبادة، حيث رفض أن يكون هذا المتغير والمتبدل في حاله بما يعتري المخلوقين من أحوال إلها فقال: (لَا أُحِبُّ الْآَفِلِين)

ونحن نعتقد أن كلّ ذلك كان على سبيل المحاجة وليس على سبيل الحيرة والتوهان.

وهنا يمكن أن نتساءل:

لماذا هذا الرفض لصفة الأفول فيمن يكون إلها؟

أكان هذا الرفض ناتجا عن ثقافة موروثة أم عن تحليل عقلي سليم؟

ألا يدل هذا الرفض على رشد ورجاحة عقل؟

من هذا الموقف لسيدنا إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام يتضح مدى ما تمتع به من رجاحة عقل وقدرة على التحليل، فكأنّه قام بعملية تحليل عقلي سريع على طريقة الفلاسفة والمتكلّمين بأن يورد قرينة من القرائن لاستنتاج المطلوب:

فالقرينة هي: (الكوكب آفل)

والقاعدة (ربّي ليس بآفل)

والاستنتاج (الكوكب ليس ربّي)

وذلك لأنّ الإله الحقّ لا يتغير ولا يتبدل بدليل ثبات نظام خلقه في السماوات والأرض مصداقا لقوله تعالى: {مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرّحمن مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ}452.

وبهذا التحليل والاستنتاج فقد أثبت سيدنا إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام لقومه من خلال التدبر والتأمل العميق في آيات الكون إلى عظمة خالقه، والذي يريد أن يتخذه ربّا، وأن صفته الثبات والبقاء.

وعليه يمكن أن نقول أن أصول علم الكلّام والمناظرة وقواعد التحليل المنطقي موجودة من قَبْلِ مَنْ تُنْسَبُ إليهم من الإغريق واليونان.

وما زال السياق القرآني يتنقل بنا بين تدرجات رحلة سيدنا إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام لإثبات الحقّيقة.

---

452 الملك 3.

فقال تعالى: {فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ}[453]

مازال الزمن مستغرقا في ظلمات الليل فهاهو يظهر أمام ناظري الباحث عن حقّيقة الإله المعبود بحقّ كوكب آخر أكبر من سابقه الذي أفل، وأشد لمعانا فيقول على عجل:

(هَذَا رَبِّي) ولا يلبث هذا القرار أن يكون مصيره الرفض لنفس العلة السابقة (الأفول).

وعندها توجه إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه بخالص الدعاء إلى ربّه الذي يدرك بعقله الراجح الرشيد إنّه موجود يُسَيِّرُ هذا الكون البديع المنظم وفق مشيئته وإرادته، طالبا منه أن يهديه إلى السبيل السوي الموصل إلى معرفته من أجل عبادته وطاعته،

ويوضح هذا الغرض قوله: (لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ) أي من الضالين الذين يعبدون هذه الكواكب من غير هُدى، أو الذين لم يهتدوا إلى معرفة الطريق الحقّ والصائب، وهذا ليبين لقومه أن عبادة غير الله تعالى ضلال، وعبادة الله هداية، وهو بهذا يعلمهم أن يهتدوا إلى الحقّ عن طريق الحجّة والبرهان.

وتستمر رحلة البحث عن الحقّيقة طوال الليل في التأمل والتدبر إلى أن أشرق عليه نهار اليوم التالي وأشرق معه أمل جديد للوصول إلى الحقّيقة المنشودة، تَمَثَّلَ في الشمس حين رآها بازغة أكبر من سابقيها

---

[453] الأنعام 77، 78.

فقال على فوره (هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ) ولكنه وجد فيه نفس العلة السابقة في الكوكبين الذين رفض صلاح كونهما ربّا (الأفول).

ولذا لا يمكن أن تكون الشمس ربّا.

عندها أظهر لهم الحقّيقة التي بها تبرأ صراحة من كلّ ما يُعبد من دون الله مصداقا لقوله تعالى: (قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ) ولم يكتفِ بهذا بل صرح أيضا بما توصل إليه مِنْ أن خالق السماوات والأرض هو الرّب المستحقّ للعبادة وحده دون سواه، فجاء في قوله تعالى على لسان خليله لقومه: {إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ}454

وهذه الحقّيقة تتمثل في:

- ضرورة وجود خالق لكلّ المخلوقات على الأرض وفي السماء، هو الله المستحقّ للعبادة وحده.

- إن صفات هذا الخالق ثابتة ومطلقة فهو فيها:

مطلق القوّة {إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو القوّة الْمَتِينُ}455

وقوله تعالى: {وَمِنَ النّاس مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ القوّة لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ}456

---

[454] الأنعام 79.

[455] الذاريات 58.

[456] البقرة 165.

مطلق القدرة {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا}457

مطلق الإحاطة {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكلّ شَيْءٍ عِلْمًا}458

مطلق المشيئة {خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ ربّكَ إِنَّ ربّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ}459

مطلق الرّحمة {الْحَمْدُ لِلَّهِ ربّ الْعَالَمِينَ الرّحمن الرّحيم}460

مطلق العذاب {فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ}461

وغيرها من الصفات التي لا يمكن أن تُعَدُّ ولا تحصى

- بطلان كلّ العبادات الموجودة في قومه والتي هي من قبيل الشرك.

ثم انتقل بنا السياق القرآني إلى أن وصف لنا حال قوم سيدنا إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام بعد أن تبرأ من آلهتهم، وتصريحه لهم بتوجهه لفاطر السماوات والأرض بالعبادة، قال تعالى: {وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ

---

457 الإسراء 99.

458 الطلاق 12.

459 هود 107.

460 الفاتحة 2، 3.

461 الفجر 25، 26.

رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كلّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحقّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ}[462]

فهم استغربّوا مقالته واستنكروها ولهذا جادلوه؛ ليثنوه عن قراره المنبئ بكفره عليه الصّلاة والسّلام بآلهتهم، وليردوه مؤمنا معهم وفق منظورهم الضال.

واستعمل قومه معه في محاجتهم له التهديد والوعيد والتخويف من حلول غضب الآلهة وسخطها عليه؛ بسبب كفره بها، بدليل قوله لهم: (وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ)، ولم يستعملوا معه لغة المنطق وحوار العقل التي بها توصل إلى ما هو عليه من الحقّ، وذلك من أجل إرهابه.

وهنا نتطرق إلى قضية الإرهاب.

قضية الإرهاب:

في كلّ القضايا التي تكون محط جدل لابدّ أن يكون فيها طرفان:

الطّرف الأوّل وهو مع.

الطّرف الآخر وهو ضد.

فكيف إذا كانت هذه القضية تخص المعتقدات الدينية؟

وما طبيعة العلاقة بين الطرفين؟

هل هي علاقة تفهم وقبول؟

أم هي علاقة قهر وإرهاب؟

---

[462] الأنعام 80، 81.

هذا ما نحاول معالجته من خلال قصة أبي الأنبياء إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام، وما حدث معه عندما أثار قضية محرَّمة في نظر الآخر (قومه)، مخالفا مفاهيمهم ومعتقداتهم الراسخة على الباطل لا الحقّ.

فكانت دعوته تمثّل انقلابا في طريقة تفكيرهم فهو في نظرهم ارتكب خطيئة، وتجاوز كلّ الحدود.

فكيف كانت ردة فعل (الآخر) عليه؟

وكيف تعامل إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام مع ردة فعلهم؟

ومن أي طرف بدأ الحوار والجدال؟

وما مقدار احتواء الطرف الآخر لما جاء به إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام؟

كلّ تلك التساؤلات يمكننا الإجابة عنها من خلال السياق القرآني الذي صور لنا الله تعالى فيه أحداث تلك القصة بما يزيل عنها الغموض والجهالة.

قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّه كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرّحمن فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ ربّي إنّه كَانَ بِي حَفِيًّا وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ

دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا} 463

والسياق القرآني في هذه الآيات، يلخص الحوار الدائر بين الابن البار، المطيع المؤمن بالله تعالى، المحب لأبيه ولقومه الخير.

مع عمّه المنزَّل منزلة الأب، المشرك العاصي، المصرِّ على شركه، ويتجلى الحوار فيما يأتي:

* مخاطبة إبراهيم لآزر: وابتدأها بلفظة (يَا أَبَتِ) كلّمة تعبق بالحنان واللين، والمحبة والطاعة، مع إنّه ليس أباه، إلا إنّه لم يناده باسمه؛ لما في ذلك من الجفوة والوحشة وعدم الاحترام عندما يكون الخطاب من الابن إلى الأب.

* لم يقدم إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام دعوته لمن هو في مكانة أبيه على صورة الآمر، بل كان في مقام الناصح موضحا له سبب اعتراضه على عبادته لغير الله تعالى بقوله: (لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا).

هذا دليل عقلي يقبله كلّ عاقل، وحجّة تدحض كلّ عبادة لغير الله تعالى، ما لا ينفع ولا يضر، ولا يملك حتى أن يرد الضرر عن نفسه.

* حوار سيدنا إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام مع آزر، يُظْهِرُ صفة من صفات كلّ الأنبياء والمستخلفين في الأرض ألا هي التواضع مع الغير.

---

[463] مريم 41 - 49.

ويتجلى ذلك من قول إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام (يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا) وفيها يظهر أدب رفيع من الابن مع من هو في مقام الوالد.

فلم يقل له: أنا أعلمَ منك.

ولم يقل له إنّك جاهل.

بل قال له: جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ.

وهذا القول يحمل في طياته ضمنا صفة العلم لآزر، ولكن شتان بين علمه، وما جاء إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام من العلم، بدليل قوله: (فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا).

فعلم آزر لم يهده إلى الصراط المستقيم، فهو علم لا يستند إلى حقّ ولا يؤدّي إليه.

وعلم إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام يهدي إلى الصراط المستقيم؛ لأنّه من علم العليم المطلق مصداقا لقوله تعالى: {لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكلّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}[464].

* تصريح إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام بالنهي لآزر عن عبادة الشيطان، المتمثلة في عبادة ما دون الله تعالى لم يكن خاليا من مصاحبة الأسباب والدوافع لهذا النهي، والتي تتمحور في دائرة المحبة، والخوف عليه من أن يحل به غضب الله تعالى.

[464] المائدة 97.

ويتضح ذلك من قوله عليه الصّلاة والسّلام: (يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرّحمن فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا).

فأي تودد في هذا الحوار، وأي حب مشبع بلفيف من المشاعر، والرأفة والخوف عليه من الأذى، الذي يؤدّي إليه الطريق الذي يسير فيه آزر وقومه.

فماذا كان مقابل هذه الدعوة من الطرف الآخر؟

هل كان هناك تقبل منه لدعوة الطرف الأوّل؟

هل وجد عنده الاحترام لرأي ودعوة الطرف الأوّل؟

أكان من آزر احترام لحرية الرأي والفعل لدى الطرف الآخر؟

نقول:

كلّ ذلك يتضح من خلال التأمل في رد آزر على دعوة إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام

الموضح في ثنايا السياق القرآني.

صور الله تعالى ردة فعل آزر على دعوة إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام بقوله تعالى: {قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آَلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا}465

قول يحمل في ثناياه:

الاستنكار.

---

[465] مريم 46.

التخويف.

التهديد.

الإرهاب.

بدليل إنّه ناداه باسمه (يَا إِبْرَاهِيمُ) ولم يقابل الحب والتودد في كلّمة (يَا أَبَتِ) بكلّمة تحمل نفس المشاعر من الحب والألفة (يا بُنَيَّ)

وهذا في نظرنا دليل آخر ينفي أبوة آزر لنبي الله إبراهيم علي الصّلاة والسّلام.

فالآباء مفطورون على محبة أبنائهم الذين من أصلابهم، والتسامح معهم وإن خالفوهم الرأي، أو أخطأوا في حقّهم على العكس بالنسبة للأبناء.

ولذا كانت توصية الأبناء بآبائهم ولم تكن هناك توصية للآباء بأبنائهم، مصداقا لقوله تعالى: {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}[466].

وقوله تعالى: {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ}[467].

ورد آزر على إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام: (لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا) يحمل في طياته معاني التهديد والإرهاب.

---

[466] العنكبوت 8.

[467] لقمان 14.

فالرجم والهجر من آزر كانا في مقابل التودد واللين والحب من إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام.

وهنا قد يتساءل متسائل:

كيف قابل إبراهيم هذا الظلم وهذه القسوة؟

هل قابل أفعاله بمثلها؟

العنف بالعنف.

القسوة بالقسوة.

الإرهاب بالإرهاب.

جاء السياق القرآني مجيبا على هذه التساؤلات بشكلّ واضح وجلي، بالاستغفار له!

مصداقا لقوله تعالى: {قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ ربّي إنّه كَانَ بِي حَفِيًّا وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو ربّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ ربّي شَقِيًّا}468

فكان السلام والاستغفار، مواجها للقسوة والعناد.

وهنا أتساءل:

من الذي لجأ إلى إرهاب الأخر؟

ممن كان الإرهاب؟

أكان الإرهاب ممن يدعو إلى عبادة الله تعالى ويؤمن به، أم من الآخر؟

---

468 مريم 47، 48.

فبالرجوع إلى السياق القرآني ندرك أن مجرد نطق آزر بهذه الكلّمات التي تمثل نوعا من:

الإرهاب الجسدي (لأرجمنك)

الإرهاب الوجداني (واهجرني)

وعليه فإن أسلوب آزر في الحوار هو الذي بدأ باستخدام الإرهاب

اللفظي.

النفسي.

الوجداني.

الجسدي.

وهذا يمثل أسلوب الحوار الذي كان يعتمد عليه الطرف الآخر عموما والمتمثل في قوم إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام مصداقا لقوله تعالى: {قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آَلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ}469

وعليه لم يكن إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام إرهابيا في حواره مع آزر وقومه.

وذلك لما يأتي:

. لم يكن إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام مجبرا آزر على ترك ما يعبد، بل كان وكأنّه معلم يشرح لمن استعصى عليه الفهم.

---

[469] الأنبياء 68.

. ساق الأدلة والبراهين: {إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا}470

. استخدم أسلوب التأكيد: {يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا}471

. توضيح سبب التأكيد: {يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرّحمن فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا}472

وعليه:

فإن إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام بدأهم بالتي هي أحسن.

وهم قابلوه بالتي هي أقبح.

كان فعل إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام معهم فعلا استئناسيا.

وكان فعلهم معه فعلا إرهابيا فيه كره وإكراه، وبعد واستبعاد.

ولذا كان الأول يلتحف بثوب الطمأنينة والإيمان.

وكان الثاني يلتحف بثوب الإرهاب.

لماذا بدأ إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام في دعوته بالأقربّ إليه وهو أبيه آزر؟

وماذا يدل هذا الاختيار؟

---

470 مريم 42.

471 مريم 43.

472 مريم 44، 45.

يدل ذلك على:

إنّ إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام بالرغم من تيقنه من بطلان ما كان عليه آزر وقومه، وما يمكن أن يواجهونه به من تكذيب وإرهاب، إلا إنّه توجه إليهم بقلب الابن المحب، ولسان الأخ المتودد الصادق، المحب لهم الخير والصلاح انطلاقا من قاعدة:

(الأقربّون أولى بالمعروف).

خاطبهم بلغة المنطق والعقل فقدّم لآزر وقومه البرهان على بطلان ما يعبدون من دون الله تعالى، ولم يستخدم القوّة والإجبار في ذلك.

مثابرته وإصراره في دعوتهم وعدم يأسه منهم سريعا، والمتمثل في تكرار ندائه (يا أبت) الذي يوحي بكثرة مرات الحوار والدعوة ويُظهر ما لهذا (الطرف) من محبة ومكانة في قلب إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام.

خوفه وشفقته على آزر وقومه من العصيان وسوء المصير.

فقوبل كلّ ذلك بأمرين:

إمّا الإلزام بالطاعة لهم، بترك ما يدعوهم إليه من خير، والانضمام معهم فيما هم فيه من ضلال وشرك.

أو الرّجم والتعذيب والهجران.

ومجرد التفكير بالإلزام القهري هو تفكير إرهابي يقود للوصول لأبشع الأفعال في سبيل فرض رأيه على من يعارضه في الرأي، وتمثل

ذلك جليا مع آزر مصداقا لقوله تعالى: (قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آَلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا)

فكانت رحمة إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام وحنانه وشفقته تقابلها قسوة آزر، وعناده وإرهابه.

قال تعالى: {فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِين وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كلّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُون وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحقّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ}[473]

فما كان الإرهاب يأتي دائما إلا من الطرف الآخر (المشرك بالله تعالى)؛ لأنّ من شأن توحيد الله وعبادته، أن تغرس في الصدور الرّحمة والمودة، التي هي من صفات الله الرّحمن الرّحيم الودود.

وعليه ينعكس ذلك على أسلوب التعامل مع الذات ومع الغير.

وهذا نجده في جميع الرسالات السماوية، فكلّها تنحو للرحمة واللين والود، ولا عجب لهذا التوحد فيها إذ إنّها من إله واحد لا يتعدد.

ولذا أتساءل:

أتكون الدعوة للخير إرهابا؟

[473] الأنعام 78-81.

ولا شك أنّ العقائد السماوية التي نزلت على رسل الله وأنبيائه واحدة، كما أن المبادئ العامة للشرائع وأصول الأخلاق واحدة، مع فوارق في التشريعات والجزئيات المفصلة لأصولها العامة حتى تكون مناسبة لحال الأمم باختلاف الأزمان والأحوال.

قال تعالى: {شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ}474.

فكلّ الأنبياء والرّسُل على مبدأ وخُلُقٍ واحد.

ولذا فإنّ وصَف الله تعالى لإبراهيم عليه الصّلاة والسّلام بال(صدّيق) في قوله: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إنّه كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا}475

يدل على أن موسى وعيسى ومحمّد صلّى الله عليهم جميعا وسلّم تسليما، وباقي الرّسُل والأنبياء على هذا الوصف.

وإنّ وُصِف سيدنا محمّد عليه الصّلاة والسّلام بالرّحمة واللين في قوله تعالى: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكّلِينَ}476 فذلك الوصف ينطبق على باقي الأنبياء والرّسُل لتوحدهم في المبادئ والأخلاق.

---

[474] الشورى 13.

[475] مريم 41.

[476] آل عمران 159.

فكيف نقول عمن وصفه الله تعالى باللين والرّحمة، إنّه متصف بالإرهاب والقمع؟

وقد وضّح الله تعالى متطلبات الدعوة لكلّ الرسالات السماوية وهي:

الرّحمة.

اللين.

العفو.

التسامح.

الإقناع بالحجّة.

فكيف تكون الدعوة إلى السلام والأمن إرهابا؟!

إذا هناك صفات مخصوصة تشترك فيها جميع الرسالات السماوية منها:

أوّلا: الدّعوة إلى التوحيد

كلّ الرّسالات السماوية قامت على أساس الدّعوة إلى توحيد الله تعالى وعبادته وحده لا شريك له، ونبذ ما سواه من عبادات متباينة.

مصداقا لقوله تعالى: {قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي ربِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَممّاتِي لِلَّهِ ربّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي ربّا وَهُوَ ربّ كلّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ

كلّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى ربّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ} [477]

فالإسلام قديما وحديثا هو نفسه، لم يتغير بتغير الرّسُل والأنبياء، ولن يتغير بانتهاء عهد الأنبياء والرّسُل بخاتمهم سيد بني آدم محمّد عليه الصّلاة والسّلام، بل المتغير هم أتباع الدين بابتعادهم عن شرعته ومنهاجه القويم، ولو اتبعوا التعاليم الدينية ما اختلفوا.

وعليه فلا يكون من يرهب النّاس ويروع أمنهم من أتباع الإسلام.

فالإسلام هو الخضوع لله تعالى، والاستسلام برضا وامتثال لأوامره تعالى والتي منها نبذ الإرهاب.

ثانيا: السمو بالإنسانية عن رذائل الكفر والشّرك

من شأن الإسلام أن يرقى بالإنسان لأن يستحقّ خلافة الأرض بما فيه من دعوة للتحلي بالأخلاق النبيلة ونبذ كلّ ما هو فاسد، عكس ما تدعو إليه أيّ عبادة أخرى بعيدة عن توحيد الله تعالى والتي تبيح ما يذهب بالعقل البشري إلى الهاوية والضياع، وما قد ينشر بين النّاس الظلم والحقّد والكذب.

ثالثا: العقاب والثواب:

بما أنّ الرسالات السماوية اجتمعت على الدعوة لتوحيد الله، وترك ما غيرها من عبادات فقد كان لزاما أن تكون أيضا مشتركة في التبشير بالجنّة والنعيم، لمن أسلم وآمن بالواحد القهار، والتحذير من نار جهنم التي أعدت لمن كفر وأشرك بالله تعالى، مصداقا لقوله تعالى:

---

[477] الأنعام 161- 165.

{وَمَنْ يُشَاقِقِ الرّسول مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا}478، وقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}479.

رابعا: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

الخير بعمومه هو ما تنشره الرسالات السماوية ظاهرا كان أم باطنا، ونبذ المنكر وما يؤدّي إليه، فلا يمكن أن يجتمع الخير والمنكر معا.

مصداقا لقوله تعالى: {وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}480.

خامسا: الدّعوة إلى السلام والعدل والمحبّة والأمن

---

[478] النساء 115، 116.

[479] الأعراف 40 -43.

[480] آل عمران 140.

لا اعتداء ولا ظلم ولا كراهية ولا خوف، ولا قوي يستضعف من هو أضعف منه، لا تخلو رسالة سماوية من هذه الفضائل التي لو إنّها تسود المجتمع البشري، لما ظهر ظلم ولا إرهاب في العالم.

سادسا: احترام العقل البشري

كرّم الله تعالى الإنسان وميّزه بالعقل المدرك الذي يجعل من الإنسان مفكرا متأملا، فيكون قادرا على التمييز بين الخير والشر، والضلال والحقّ، والعقاب والثواب، والحب والكره، ويكون هذا الإنسان قادرا على الوصول للحقّ والهداية.

فإذا غاب هذا العقل غاب الحقّ وعم الظلام حياة الإنسان فيصبح متخبطا لا يكاد يرى أمامه، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النّاس كلّوا ممّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إنّه لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ}481، وغياب العقل يكون لسببين:

أولهما: غياب جبري يكون بمرض أو جنون.

ثانيهما: غياب اختياري يكون باتباع خطوات الشيطان فينحرف عن كلّ ما هو حقّ، فلا يرى إلا الفساد ولا يستلذ إلا بالرذائل.

[481] البقرة 168- 172.

ومن هؤلاء كان الذين يجادلون الرّسُل والأنبياء بغية إبعادهم عما يدعون إليه، فيسلكون السلوك العدواني لإرهاب الرّسُل فلا يمكن للجهل الذي يتخبطون فيه إلا أن يقودهم لرفض الحقّ والبحث عن بديل للحب والخير والمعروف فلا يجدون إلا العداوة والحقّد.

سابعا: الحفاظ على كرامة الإنسان

الإنسان مخلوق كرّمه الخالق عزّ وجلّ عن باقي الكائنات، مصداقا لقوله تعالى: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا}482

ومن تكريم الإنسان أن بعث الله تعالى الرّسُل والأنبياء لهدايته إلى الطريق الصحيح، فمنهم من آمن وأطاع ومنهم من كفر وعصى.

فهل الدعوة للخير والحب تتساوى مع الدعوة للعداوة والبغض؟

وعليه فلا إكراه ولا جبر في الدعوة إلى الله، بل مخاطبة القلوب والعقول بالحجّة والمنطق مصداقا لقوله تعالى: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}483. وعليه فالإكراه يأتي من الآخر، حيث يغيب العقل، وتنتفي جميع الوسائل الوُدِّية، فيحل محلها الحقّد والظلم وهذه هي التربّة التي تغذي السلوك الإرهابي فينتعش في ظل هذه الظروف.

[482] الإسراء 70.

[483] البقرة 256.

فالسلوك الإرهابي يجعل من صاحبه محبا للعنف، فيفرّغ فيه طاقته الشريرة ويوجهها ضد فرد أو جماعة دون الالتفات لما يسببه من خسائر نفسية أو جسدية.

فهل يعقل أن تكون الشرائع السماوية وخصوصا الإسلام الذي هو دين جميع الأنبياء والرّسُل، موصفا بوصف الإرهاب الذي هو نقيض دعواه؟

قال تعالى: {إِنَّ هَذَا الْقُرْآَنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا}484

ولو سأل سائل ما مقصود الإرهاب في قوله تعالى: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَّاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآَخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكلّ عَلَى اللَّهِ إِنّه هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}485

نقول: إن الإرهاب في المفهوم القرآني هو لأجل منع الظلم، ومن أجل إحقّاق الحقّ، ورد الحقّوق لأصحابها، وليس بالمفهوم الذي ألصقوه به.

فالإرهاب في المفهوم القرآني يتمركز على المظهر؛ بإعداد القوّة واستعراضها أمام الخصم، حتى تُهابَ منه فيمتنع عنك أذاه وظلمه.

وليس في معناه الإقدام على فعل الاعتداء والهجوم لترهبه، وتسلب حقّه، وتقتل وتنهب وتسفك الدماء بغير حقّ.

---

484 الإسراء 9.

485 الأنفال 60، 61.

فالآية الكريمة تشير إلى معنى بعيد عن مفهوم العنف والإرهاب السائد حاليا، إذ المقصود منها إعداد القوّة، ما يسمى اليوم بالردع.

أي اتخاذ أسباب القوّة التي تمنع العدو من التفكير في الاعتداء على المسلمين.

وليس المقصود منها قيام مجموعة من النّاس بعمليات عنف وإرهاب بين الآمنين والمسالمين بل والمسلمين كذلك.

وعليه فالإرهاب المأمور به من قبل المشرع تعالى، هو إعداد القوّة والعدّة باختلاف أنواعها، وامتلاك الوسيلة والاستعراض بها أمام الخصم ليكون على بينة من أنك لست ضعيفا، إذا فكر بالاعتداء عليك، وإذا اعتدى لا يلوم إلا نفسه.

ومن أنواع القوّة التي يجب إعدادها:

أولا القوّة المعنوية

قوة العقيدة

قوة الصمود

الحرص على الشهادة

قوة الإيمان

ثانيا: القوّة المادية

إعداد السلاح على اختلاف أنواعه

تدريب المقاتلين على استخدام الأسلحة بأنواعها.

وعليه فالإرهاب الواجب هو الإعداد في كافة المجالات:

الزراعة

الصناعة

العلم

الطب

التجارة

الاقتصاد

والإرهاب الواجب هو استواء في كلّ من الأصعدة الآتية:

النفسي.

العلمي.

العقلي.

البدني.

المهني.

التقني.

وبهذا تكون على استعداد لدخول المعركة إذا فرضت عليك، والهدف من هذا الإعداد هو:

نيل الاعتراف من الآخر.

نيل التقدير من الآخر.

نيل الاحترام من الآخر.

نيل الاعتبار من الآخر.

ولهذا قال تعالى: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَّاطِ الْخَيْلِ} فلا تتأخر عن إعداد ما يلزم لتنال به:

العزة.

البقاء.

الاستقلال.

الحياة.

الاحترام.

التمييز بين الإرهاب والتخويف والإذلال:

ولم يكتفِ سيدنا إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام بنفي الخوف عن نفسه من آلهتهم، بل قدم لهم حقّيقةً تَنُمُّ عن قوة إيمان ورساخة اعتقاد بما أدرك من الحقّ، وتقفل أمامهم باب أن يقولوا: حل به غضب الآلهة، إذا وقع به ما يقع لكلّ المخلوقين من تغير حال.

فقال: (إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كلّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ)

فثبات الحال ليس من صفات المخلوقين فالمخلوق يتغير، والخالق لا يتغير، مصداقا لقوله تعالى: {كلّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ ربّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ}486

ثم يتوجه إليهم بسؤال يحمل في طياته نفس التهديد والتخويف ولكن هذه المرة من الإله الحقّ الذي عرَّفه إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام

486 الرّحمن 26، 27.

لهم، فقال لهم: (وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا).

ثم تقدم إليهم بتساؤل يثير فيهم ملكة التفكير وإعمال العقل، ويفتح أمامهم فسحة لمراجعة أنفسهم بعقلانية ومنطقية (فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحقّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ).

– من يؤمن بالإله الحقّ الواحد الأحد الذي لا يغيب عن علمه شيء في الأرض ولا السماء مصداقا لقوله تعالى: {لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}487، والذي هو كفيل بحماية عباده المؤمنين ونصرتهم على القوم الظالمين مصداقا لقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ}488

– أم من يؤمن بآلهة متعددة باطلة لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا مصداقا لقوله تعالى: {وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا}489.

فهل يمكن أن تحميهم آلهتهم الباطلة من عذاب الله الحقّ إن أراد بهم سوءا؟

قال تعالى: {أَمْ مَنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرّحمن إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ}490

---

[487] سبأ 3.

[488] محمّد 7.

[489] الفرقان 3.

[490] الملك 20.

من كلّ هذه المشاهد القرآنية الرائعة تتضح بعض صفات شخصية إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام قبل النبوّة والتي منها:

ـ العقلية:

فالعقل مركز التفكير والموازنة وهو وسيلة اتصال مع كلّ الأحداث التي تحيط بالإنسان، وكلّما كان الاتصال قويا ومستمرا بالحقّيقة كانت النتيجة ناجحة، فسيدنا إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام رفض بعقله عبادة الأصنام واتخذ القرار بإبطال عبادتها عن وعي وإصرار، {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا ربِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآَفِلِينَ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا ربِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي ربِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا ربِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ ممّا تُشْرِكُونَ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ}[491]، فمن الآيات السابقة نستطيع أن نلمح عدة قرارات اتخذها إبراهيم عليه السلام مبنية على الإيمان والاقتناع والثقة منها:

أ- القرار الأول: أن يتكلّم مع أبيه في موضوع مقدّس لدى والده، فبحث مثل هذا الموضوع بين الابن والأب ليس بالأمر الهين الذي يستطيعه أيّ أحد: (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً).

[491] الأنعام 74: 79.

ب–القرار الثاني: إبداء رأيه بدين أبيه على مسمع منه، وهذا دليل على اقتناعه وإيمانه بما هو عليه من الحقّ، وثقته بخطأ من حوله في هذه العبادة: (إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ).

ج– القرار الثالث فَصْلُ نفسه عنه أبيه وقومه فيما يعبدون: (إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)، فبمجرد أن رفض عقله ما يدين به قومه أخذ مسؤولية هذا الفصل وصرّح به لوالده.

د– القرار الرابع: البحث المستمر عن الحقّ الذي أراد لقومه الوصول إليه، فقد ترتّب على مجموع قراراته السابقة التي أعمل فيها العقل والتركيز الوصول إلى نتيجة سليمة، ورضي بها عقله وكيانه الذي لولاه ما فكّر إبراهيم عليه السلام في خلقه وفيما حوله، الذي رفض الاقتناع بما هو نقص.

(فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآَفِلِينَ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ).

فالحوار هذا برهان على اتساع دائرة التفكير والتحليل في شخص إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام.

وإلا فلماذا لم يقتنع بكلّ من الكوكب والقمر والشمس؟

بالنسبة للكوكب: فقد مثّل لإبراهيم عليه الصّلاة والسّلام في درجة الحوار بعدا في المسافة وغموضا واستقرارا في السماء، ولكن أحجم عن الاقتناع به لنقصه الذي تمثّل في الأفول (فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآَفِلِينَ) وهذا الأفول (النقص) أعطى له الدافع للاستمرار في البحث.

فهو انتقل بهم إلى التأمل في الأفضل من الأول الذي علق به النقص.

بالنسبة للقمر: فقد رفض عقله عليه الصّلاة والسّلام استبدال الكوكب بما هو أقل منه لأن فرصة الاختيار تكون لما هو أفضل وأكمل ممّا رفض العقل كونه إلها.

فالقاعدة تقول: (الخالق أكمل وأعظم من المخلوق)

وكأن سيدنا إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام يريدهم أن يدركوا ما أدركه بعقله الراجح أن الرّب الذي يستحقّ العبادة لابدّ أن يكون له مطلق الكمال، ومنزه عن كلّ نقص.

لذا استبدله بالقمر الذي تميز عن الكوكب بكبر حجمه ووضوحه وقوة إنارته، ولكن يتدخل العقل ثانية رافضا ما به من نقص، تمثل في النقص نفسه الذي كان سببا لرفض صلاحية الكوكب لأن يعبد من دون الله تعالى، (فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ)، وبديهي أن يستمر الرفض لما هو قاصر عن إقناعه معطيا له دافعا لاستمرار البحث عن الحقّ.

بالنسبة للشمس: فقد تميز كوكب الشمس بكبر حجمه عن سابقيه واختلاف وقت ظهوره وحرارته وشدة إضاءته، ولكن لم يتميز عنهما في النقص ذاته (فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ).

فلغة العقل هنا في هذا الحوار وهذه الاستنتاجات المبنية على التحليل واضحة لا تخفي على أحد، فالعقل الذي رفض الأصنام لم

يستبدلها بما يشترك معها في النقص والعجز، لذا لم يرضَ إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام إلا بما يريح عقله ويُشبع حاجته من الاقتناع.

بالتالي لم يكن تفكيره عليه الصّلاة والسّلام إلا جدولا رقراقا يسير بهدوء وروية معطيا الفرصة للتمعن والتفكير، ويتضح ذلك من خلال التدرج في التفكير والتحليل، وهذا من فضل الخالق على عباده الذين خلقهم في أحسن تقويم، قال تعالى: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}492 أي لقد خلقنا الإنسان في أعدل قامة، وأجمل صورة، وأحسن هيئة، ومنحناه بعد ذلك ما لم نمنحه لغيره، من بيان فصيح، ومن عقل راجح، ومن علم واسع، ومن إرادة وقدرة على تحقّيق ما يبتغيه في هذه الحياة بإذننا ومشيئتنا493.

"والاستفهام في قوله: (أَتَتَّخِذُ أَصْنَاما آلِهَةً) للإنكار، والتعبير بقوله: (أَتَتَّخِذُ) الذي هو افتعال من الأخذ، فيه إشارة بأن عبادته هو وقومه لها شيء مصطنع، والأصنام ليست أهلا للألوهية، وفي ذلك ما فيه من التعريض بسخافة عقولهم، وسوء تفكيرهم"494.

ـ الإرادية

الإرادة هي: تصميم واعٍ، يُمكّن الفرد من اتخاذ القرار، فبالإرادة تُحدَد الأهداف وتُرسَم الخطط ويتم الإقدام على تنفيذها بكلّ حرية.

ولهذا كانت الإرادة، حرية اختيار الخير، أو الشر وبالتالي لا حرية بدون إرادة ولا إرادة بدون حرية.

---

[492] التين 4.

[493] الوسيط لسيد طنطاوي ج 1، ص 4536.

[494] الوسيط لسيد طنطاوي ج 1 ص 1484.

والإرادة ذات خصوصية وذلك لتعلقها بالإنسان وعلاقاته بما يَقدَّم إليه من اختيارات متنوعة، وبما يرغب وما لا يرغب495.

وعليه فقد كان لسيدنا إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام إرادة واعية، وتصميم صلب جعله يتخذ القرار في أصعب الأوقات إذ كانت عبادة الأصنام تعم قومه، ويُدَعِّمُ هذه الإرادة الصلبة لدى إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام المعرفة التامة بانتفاء فائدة هذه الأصنام التي يتقربّون إليها.

إذا فإن قوّة وصلابة وصلاح إرادته عليه الصّلاة والسّلام هي التي واجهت الضلال الذي كان فيه قومه، وجعلت منه باحثا معهم عن الكمال الذي لم يتمثل له في رحلة بحثه عن ربّ يتجه إليه باقتناع وسكينة لعبادته والتقربّ إليه بالطاعات لينال حفظه ورعايته.

ولذا فالإرادة قوة جعلت من إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام يتخذ قراراته السابقة، ويتحمل المسؤولية وما يترتب عليه من ضيق وعناء، وقد جعلت منه قادرا على تنفيذ ما قرّر ممتنعا عن الاستسلام والتراجع، ومحصّنا ضد الضعف والخوف من العواقب، متخذا خطوة جريئة وفريدة بين قومه بتفرده بنبذ آلهتهم المتمثلة في الأصنام.

وعليه فإرادته الموجبة الخيّرة كانت تطبيقا عمليا لتنفيذ إرادة المولى على الأرض حتى من قبل أن يأتيه الوحي ويصطفيه ربّ العالمين رسولا رشيدا، إذ أن الله تعالى خلق العباد ووهب لهم العقل والتفكير ليختاروا بإرادتهم طريق الصلاح أو الضلال.

---

[495] الموسوعة القيمية لبرمجية الخدمة الاجتماعية أ.د. عقيل حسين عقيل.

وببحث إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام عن الحقّ والخير طالبا الوصول إليه، حقّق ما عليه من مسؤولية كونه بشرا عاقلا يملك الإرادة والوعي الكاملين للوصول إلى الهدى.

وتتضح قوة الإرادة في شخص سيدنا إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام في قوله: (إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ)، فقراره النابع عن تصميم وإرادة، ومثل هذا القرار لا يستطيعه إنسان ليس على قدر من الوعي والإدراك والتفكير والإرادة، فقد شكلّ بهذا فاصلا وحدا بينه وبين من هم حوله.

ـ الحجية:

أدرك إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام بعقله الرشيد إنّه لابدّ من تقديم برهان مادي ملموس لقومه فلم يُكثر الحديث معهم بل أسبق الفعل عن القول، فبدأهم بفعل التوحيد قولا والمتمثل في القسم (تالله) مصداقا لقوله تعالى: {وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ جَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآَلِهَتِنَا إنّه لَمِنَ الظَّالِمِينَ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ قالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النّاس لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآَلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ}496

وهذه الآيات الكريمة توضّح نهج وأسلوب سيدنا إبراهيم عليه السلام في عرض فكره وتقدير ما عليه الآخرون.

---

[496] الأنبياء 57: 67.

فقد حمل أسلوب الإقناع بالحجّة لديه عليه الصّلاة والسّلام ما يلي:

تقديم البرهان المادّي

والذي تمثّل في تكسير الآلهة العاجزة عن دفع الضرر عن نفسها، فأثبت الحجّة بالدليل القاطع والبرهان الساطع.

مخاطبة العقل الإنساني المحتاج إلى الأمن، حيث أدرك إبراهيم عليه الصّلاة السلام أنّ الإنسان محتاج إلى إله قوي يستشعر الأمن بالتقربّ له، والالتجاء إليه في الشدائد؛ لذا عمل على إظهار ضعف ما يعبدون مزعزعا بذلك الثقة بتلك الأصنام التي تفقد القدرة حتى على أن تدافع عن نفسها، وتوفير الأمن لنفسها.

ونعتقد أنّ هذا هو الكلّمات التي ابتلى بها إبراهيمَ ربّه في قوله تعالى: {وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ ربّهُ بِكلّمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِين}497

الابتلاء:

ومعنى الابتلاء الاختبار والامتحان والأمر، وابتلاء الله العباد ليس ليعلم أحوالهم بالابتلاء، لأنّه عالم بهم، ولكن ليعلمَ العبادُ أحوالهم حتى يعرفَ بعضُهم بعضا.498

وهنا أتساءل:

لماذا ابتلى الله تعالى إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام؟

[497] البقرة 124.

[498] تفسير البغوي ج 1، ص 145.

وبماذا ابتلاه؟

وما نتيجة الابتلاء؟

ألا يكون الابتلاء خير؟

"والابتلاء هو استخراج ما عند المبتلي وتعرف حاله في الطاعة والمعصية بتحميله المشقة وليس هو من التكلّيف في شيء"[499]

والابتلاء يتخذ أشكالا ودرجات متباينة، ومن أشكال الابتلاء ما يلي:

أولا: ابتلاء ظاهره موجب وباطنه سالب:

فقد يكون الابتلاء والاختبار بلون من ألوان النعم كمنح الله تعالى هذا الإنسان الرزق الوفير والجاه وأسباب القوّة، فيُحدث هذا الابتلاء ردة فعل سالبة في نفس هذا الإنسان تتمثل في تباهيه وتفاخره واستحقّاقه لهذه النعم وثقته باستحالة زوالها، قال تعالى: {فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ ربّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ ربّي أَكْرَمَنِ}[500]

فظاهر هذا الابتلاء موجب أما تأثيره على نفس المبتلى فهو سالب، كما جاء أيضا في قوله تعالى: {وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا وَدَخَلَ جَنَّتَهُ

---

[499] الفروق اللغوية ج 1، ص 139.

[500] الفجر 15.

وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا}[501].

فنتيجة الابتلاء تحددها درجة الإيمان لدى الإنسان، والتي قد تتناسب طرديا مع شدة الابتلاء.

ثانيا: ابتلاء ظاهره سالب وباطنه سالب:

قال تعالى: {وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ}[502]، فهنا يقف الإنسان من فقره (الابتلاء السالب) موقفا سالبا يتمثل في التضجر والتأفف وعدم الرضا بقضاء الله تعالى، وهذا دليل واضح على قصور نظر المبتلى وانطماس بصيرته وضعف إيمانه.

ثالثا: ابتلاء ظاهره سالب وباطنه موجب

كابتلاء الإنسان بمرضٍ أو نقص في الرزق بأنواعه، كما جاء في قوله سبحانه وتعالى: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ}[503].

رابعا: ابتلاء ظاهره موجب وباطنه موجب:

كأن يكون الابتلاء بوهب النعم المختلفة من مال وأولاد وقوة وجاه وحُسن خَلق وغيرها فيزداد تواضعا وخشية من الله تعالى الواهب لهذه النعم، وثقة بأنّها زائلة لا محالة.

---

[501] الكهف 32، 36.

[502] الكهف 16.

[503] البقرة 155، 157.

وعليه فالابتلاء من الله تعالى لإبراهيم عليه الصّلاة السلام أي الاختبار والامتحان لا لأنّه تعالى لا يعلم الشيء إلا بعد حدوثه، ولكن ليقربّ إلى العقل البشري المخلوق القاصر عن إدراك الغيبيات، والمقتصر على فهم الماديات، سبب تشريفه لسيدنا إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام، وتخصيصه بهذه النعمة العظيمة عن غيره، وليعرف النّاس حقّيقة مقياس التفاضل بينهم؛ ألا وهو الطاعة والانصياع لله تعالى الذي يشرفهم ويختصهم بنعمه.

والاختبار منا لظهور ما لم نعلم، ومن الله لإظهار ما قد علم، وعاقبة الابتلاء ظهور الأمر الخفي في الشاهد والغائب جميعا فلذا تجوز إضافته إلى الله تعالى.504

قضية الابتلاء:

وهنا نعرض لقضية الابتلاء التي وقعت لكلّ الأنبياء والرّسُل الذين منهم سيدنا إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام.

وقد وقع اختلاف بين المفسرين في الكلّمات التي ابتلى الله تعالى بها إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام، فقال عكرمة وابن عباس رضي الله عنهما: هي ثلاثون سماهن شرائع الإسلام،

وقال طاووس عن ابن عباس رضي الله عنهما: ابتلاه الله بعشرة أشياء وهي: الفطرة خمس في الرأس، وخمس في الجسد، وقال الرّبيع وقتادة: مناسك الحج، وقال الحسن: ابتلاه الله بسبعة أشياء.505

ونقول:

---

[504] تفسير النسفي ج1، ص 37.

[505] تفسير البغوي ج1، ص 145.

إن ابتلاءات إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام حسب اعتقادنا كثيرة متعددة، يظهر كلّ ابتلاء منها من الصفات التي يجب على من يؤمن بالله تعالى أن يقتدي به فيها.

ومن ابتلاءات إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام الآتي:

. ابتلائه في أبيه (آزر) المصر على الشرك بالله، الرافض لاتباع الحقّ فشكلّ ذلك عبئا على إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام نتيجة ما يكنه له من حب فاستمر معه محاولا لإقناعه بترك عباد ما لا ينفع إلى عبادة الواحد الأحد {إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرّحمن فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا}506

. ابتلائه في قومه الذين كفروا فكان عليه:

إرشادهم:

{قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالحق أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ قَالَ بَلْ ربّكُمْ ربّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ}507

محاججتهم:

{وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا ربِّي فَلَمَّا

---

[506] مريم 42. 45.

[507] الأنبياء 55، 56.

أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآَفِلِينَ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ}508

كيد معتقداتهم الباطلة:

{وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ}509

. ابتلاه في نفسه بالرمي في النّار: وهذا يحوي عدة ابتلاءات منها

إرهاب قومه له وتهديدهم، ابتلاء.

جمع الحطب وإشعال النّار أمامه ابتلاء.

رؤية إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام النّار ملتهبة، ابتلاء.

إلقائه عليه الصّلاة والسّلام داخل النّار، ابتلاء.

وفي كلّ ذلك ظهر عنده الصبر والثبات على المبدأ، وقوة إيمان بالله تعالى.

. ابتلاه بالهجرة والتغريب عن بلده

. ابتلاه في أهله بإبعادهم وابتعاده عنهم

.ابتلاه بعدم الذرية مبكرا

. ابتلاه بوهب الذرية في الكبر

---

[508] الأنعام 74 . 78.

[509] الأنبياء 57.

ـابتلاه بذبح ابنه

وعليه نقول:

إن الابتلاء وإن كان في ظاهره سالب إلا إنّه لابدّ أن يكون فيه الخير، وهو يستوجب الطاعة والتسليم بالأمر من المبتلى لم بيده أمر الابتلاء.

ومهما يكن من أمر الكلّمات التي ابتلى بها الله إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام وماهية كينونتها إلا أن هناك أشياءً يمكن أن نقرأها من بين سطور هذه الآية الكريمة وهي:

*التشريف من الله لا يكون بدون تكلّيف يستحقّ عليه العبد هذا التشريف.

فمنصب الإمامة والقدوة والاستخلاف تشريف من الله لا يكون إلا لمن أطاعه في أوامره ونواهيه والتي هي تكاليف من الله تعالى لكلّ إنسان بلغ سن التكلّيف.

فهل يمكن أن يكون خليفة لله ولا يعمل على تنفيذ أوامره تعالى في هذه الأرض بإعمارها وعدم الإفساد فيها ؟

*الطاعة من المخلوق لأوامر الخالق توصل إلى الرفعة والمكانة الرفيعة في الدنيا والآخرة

عندما أطاع إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام فيما أمره به من كلّمات، اجتاز الامتحان بنجاح ممّا جعله مستحقًّا لتكريم الله تعالى له بأن جعله إماما نبيا وقدوة يقتدي به المؤمنون الذين يصدقونه ويهتدون بهديه قال تعالى: {وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ

وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا}510 وأعلى درجات التشريف أن اتخذه الله خليلا.

*حب سيدنا إبراهيم عليه السلام الخير لغيره من النّاس من ذريته.

عندما بشر الله تعالى إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام بتكريمه وتفضيله له بأن اختاره ليكون إماما ونبيا وقدوةً للناس، (قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا).

ولكن ما أثر ذلك على نفسية إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام؟

هل كان تأثير هذا التشريف على نفسيته إنّه تكبر على النّاس؟ أم جعله أنانيا يحب الخير لنفسه وطلب من ربّه ألا ينال هذا الفضل أحدٌ غيره؟

من خلال الآية الكريمة نرى أن سيدنا إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام لم يغيره المنصب الذي ولّاه الله تعالى له ولا يصح ذلك في حقّه، لأنّه قدوة لمن حوله من النّاس ولمن بعده.

وإلا كيف يمكن أن يكون قدوة إن كان على عكس ذلك؟

فما كان منه إلا أن أحب هذا الخير لغيره من ذريته (قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي) وهذا يوضح جانبا من شخصية إبراهيم عليه السلام القدوة، وهو حب الخير للغير كما يحبه لنفسه.

وبلغ هذا الحب في نفس سيدنا إبراهيم ذروته عندما توجّه إلى الله تعالى بالدعاء وهو يُنفِّذ ما أمره الله تعالى من رفع قواعد البيت هو

---

510 النساء 125.

وابنه إسماعيل بأن يتقبل الله منهما العمل خالصا له تعالى، كما أخبرنا الله تعالى في قوله: {وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ ربّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}511.

ثم دعا لنفسه وولده بان يجعلهما مسلمَيْن، ثم بعد ذلك دعا لذريتهما بان تكون منهم أمة مسلمة، {ربّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرّحيم}512.

ولشدة حبه ورحمته للناس من ذريته الذين لا يدركونه دعا لهم الله تعالى أن يبعث فيهم منهم رسولا يهتدون بهديه ويعلمهم أوامر الله تعالى ونواهيه ويطهرهم من العبودية لغير الله {ربّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}513

*عهد الله وفضله بالاستخلاف لا يناله الظالمون.

قال تعالى (لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ) إخبار من الله تعالى وردٌ على طلب سيدنا إبراهيم بأنّه سيكون من ذريته من لا يستحقّ هذا التكريم والفضل الذي طلبه لذريته من بعده،

بسبب ظلمه لنفسه أولا؛ بابتعاده عن الاقتداء بالقدوة الحسنة الذي اختاره الله تعالى لهم، وبسبب ظلمه لغيره من النّاس بأفعاله وأقواله وسعيه في الأرض بالإفساد فيها.

---

[511] البقرة 127.

[512] البقرة 128.

[513] البقرة 129.

الملّة: (ملة إبراهيم)

قال الله تعالى آمرا نبيه محمّد عليه الصّلاة والسّلام، بالرد على المشركين وعبدة الأوثان بقوله: {قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}514

من الآية الكريمة السابقة نرى أنّ هذا الردّ يتضمّن ثلاثة محاور توضح بعضها بعضا هي:

أولا: (هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) وقد يتبادر سؤال إلى الذهن عن ماهية هذا الصراط المستقيم، فجاء المحور الثاني لتوضيحه.

ثانيا: (دِينًا قِيَمًا) وهذه إجابة بأن الصراط المستقيم هو الدين القيم، والعكس صحيح.

وهنا قد يتساءل متسائل عن طبيعة هذا الدين القيم، فكان التوضيح بالمحور الثالث

ثالثا: (مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

وهنا نتساءل:

ما الفرق بين الدين والملة؟

قيل:

إنَّ الملة اسم لجملة الشريعة، والدين اسم لما عليه كلّ واحد من أهلها.

514 الأنعام 161.

ولذا فإنّه يقال: فلان حسن الدين، ولا يقال حسن الملة، وإنما يقال: هو من أهل الملة. ويقال لخلاف الذمي الملي نسبة إلى جملة الشريعة.

والدين ما يتبعه الإنسان، معتقدا إنّه يقربّه إلى الله، وإن لم يكن فيه شرائع مثل دين أهل الشرك، وكلّ ملة دين وليس كلّ دين ملة، فاليهودية ملة؛ لأن فيها شرائع، وليس الشرك كذلك.515

ونقول:

إنّ في هذا التعريف خلط حيث إنّ:

. الدّين هو الذي يحوي جملة الشرائع من الأوامر والنواهي، والعبادات والأحكام، التي أوحى بها الله تعالى لأنبيائه من أجل العمل بها، وتبليغها للناس، وتحريضهم على العمل بها، مصداقا لقوله تعالى: {شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ}516

. أما الملة فهي المنهاج الذي يتبعه النبي، وطريقته في تبليغ ما أُمِرَ بتبليغه من الشرائع.

كما إننا لا نسلم بالقول: (كلّ ملة دين وليس كلّ دين ملة) وذلك بدليل قوله تعالى: {قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانه إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا

515 الفروق اللغوية 1، 509.

516 الشورى 13.

بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآَخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ}517

فمن خلال قوله تعالى: (مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ) ندرك أن:

الذين لا يؤمنون بالله يمكن أن يكونوا مؤمنين بغيره، وإن كان ذلك الغير وثنا أو نجما أو كوكبا أو غير ذلك.

كما يمكن أن يكونوا كافرين لا يؤمنون بالله تعالى، مع عدم إيمانهم بغيره، (اللا دينين).

ومع هذا وصفهم الله تعالى بأنّهم على ملة، (مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ).

وعليه نقول:

إن كلّ دين ملة لأتباعه، وليست كلّ ملة دينا؛ لخلوها من الشرائع.

ولذا:

فاليهودية دين وهي ملة

والنصرانية دين وهي ملة

والإسلام دين وهو ملة

والشرك ليس دينا وهو ملة

والكفر ليس دينا وهو ملة

وذلك لأن القاعدة تقول:

---

[517] يوسف 37.

(لا يكون الدين إلا من الله عزّ وجلّ)

ولذا يُنسب الدين لله، مصداقا لقوله تعالى: {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النّاس يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا فَسَبِّحْ بِحَمْدِ ربّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إنّه كَانَ تَوَّابًا}518

وقوله تعالى: {أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ}519

وقوله تعالى: {الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كلّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}520

وتنسب الملة للنبي مصداقا لقوله تعالى: {وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آَبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النّاس وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النّاس لَا يَشْكُرُونَ}521

وقوله تعالى: {وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنّه فِي الْآَخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ}522

ولنا أن نتساءل:

ما المقصود بالملة بالعموم؟

نقول:

518 النصر 1- 3.

519 آل عمران 83.

520 النور 2.

521 يوسف 38.

522 البقرة 130.

أصل الملة في العربيّة (الملل) وسميت الملة ملة؛ لاستمرار أهلها عليها، وقيل أصلها التكرار من قولك: طريق مليل إذا تكرر سلوكه حتى توطأ، ومنه الملل وهو تكرار الشيء على النفس حتى تضجر.

وأصل الدين الطاعة، ودان النّاس مالكهم أي أطاعوه، ويجوز أن يكون أصله العادة ثم قيل للطاعة دين لأنّها تعتاد وتوطن النفس عليها.523

وفي هذا دليل آخر على ما ذهبنا إليه من أن الدين هو مجموع الشرائع المخصوصة الثابتة عن النبي عليه الصّلاة والسّلام.

فالدين لابدّ أن يطاع بالامتثال ممن يتبعونه حتى يكونوا على دين.

والاستمرار على هذا النهج من الامتثال والانصياع لشرع الله ودينه، وتكراره لتطبيق ما جاء به الشرع من أوامر، ونواهي، وعبادات، ومعاملات، وأحكام هو الملة.

فالصّلاة في الدين الإسلامي مثلا تؤدى بطريقة مخصوصة، وبحركات معينة من

ركوع وسجود، وقيام، وسلام، وتلاوة قرآن، تختلف عن الصّلاة في الدين اليهودي والدين المسيحي.

وبمجرد رؤية شخص يصلّى بطريقة ما، يمكن تحديد دينه فنعرف إنّه:

مسلم، أو يهودي، أو نصراني.

---

[523] الفروق اللغوية 1، 510.

وذلك لأنّه أطاع ما أمر به في أداء الصّلاة التي شرعت له، بالكيفية التي شرعت عليها

ولكن لا يمكن معرفة ما إذا كان من أهل الملة أم لا!

بمعنى:

هل يلتزم بالمنهج الذي اتبعه النبي في تبليغ دينه؟

وهل يلتزم بتكرار الطاعة في كلّ ما شرع له في الدين الذي منه ملته؟

حيث إن الملة هي المنهاج الذي يتبعه النبي لتبليغ مجموع الشرائع التي أُرْسِلَ لإبلاغها للناس، وهو منهاج عقلي، والمنهاج العقلي لا يختلف عن استخدام الدين.

وعليه فالطريقة هي مولود المنهج، المتكونة من مجموع الخطوات المنتظمة المتناسقة في ممّارسة الفعل، وَتُتَّبَعُ من قِبَلِ الذين يُلِمُّون بها ويُجِيْدُون تكرارها، وضبط عناصرها وتَتَبُّع خطواتها.

وهي التي تُرَتَّب وفقا للأولويات في خطة منهجية في ضوء القدرات والاستعدادات والإمكانات المتاحة من أجل إنجاز أهداف واضحة ومحددة.

واتباع الطريقة يُمَكِّنُ من تقصي الأثر الذي تتركه الكلّمة، والأثر الذي يتركه الفعل والسلوك.

وعليه فالطريقة هي التي بها يتم سبر أغوار المعلومة وتَتَبُّع مكامنها، وآثارها التي تتركها على:

الكلّمة

الفعل

السلوك

وهي التي يتم بها التعرف على ما هو كائن، وبها يتم التطلع لما ينبغي أن يكون.

ولذا فالمنهج يحلل المعلومة ويفككها ويركبها، ويؤسس قواعد.

أما الطريقة فلها خطوات تُتَّبع وفقا لتوجهات المنهج الذي يستمد من الموضوع.

والمنهاج: هو الحجج التي تحوي الشرائع ويدخل فيها:

الطاعة

المنهج

الأسلوب

والملة الحقّ تؤدي بمُتَّبِعِها في الدنيا إلى:

الرقي،

السعادة

والاطمئنان

القناعة

المحبة

الصفاء

هدوء النفس

التخلص من الأمراض

التخلص من الهواجس

التخلص من الوسواس

وفي الآخرة تؤدي إلى:

النجاة من الهلاك والعذاب

الفوز بالرضوان والنعيم

وكلّ مولود مفطور على الملة الحقّ التي يرضاها الله تعالى لعباده، لا يقبلها أو يرفضها إلا بإرادته هو دون إكراه من المولى عزّ وجلّ.

وجاء في الحديث الشريف قوله: "مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُولَدُ إِلاَّ وَهُوَ عَلَى الْمِلَّةِ".

وفي رواية: "إِلاَّ عَلَى هَذِهِ الْمِلَّةِ حَتَّى يُبَيِّنَ عَنْهُ لِسَانه"524.

ونتساءل:

هل يكون المولود على دين أم على طريقة؟

كما جاء في الحديث الشريف عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ –عليه الصّلاة والسّلام–: "مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلاَّ يُولد عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانه وَيُنَصِّرَانه وَيُشَرِّكَانه".525

---

524 صحصح مسلم 53،8.

525 صحيح مسلم 8، 53.

ومصداقا لقوله تعالى: {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النّاس عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النّاس لَا يَعْلَمُونَ}526

وقد يتساءل متسائل:

ما جوهر الملة التي فطر الله عليها الإنسان وكان عليها إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام وأُمِرَ النّاس باتباعها؟

نقول:

إنّ التوحيد المتمثل في (لا إله إلا الله) هي أصل الدين وجوهر الملة، وهي الرّسالة التي بدأ بها الرّسُل عليهم الصّلاة والسّلام أقوامهم.

فكانوا مبشرين بها ومنذرين من الابتعاد عن اتباعها، مصداقا لقوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ إنّه لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ}527

فقضية التوحيد واضحة في كلّ الرسالات من أولها إلى خاتمها، فجميع الرّسُل وبدون استثناء جاؤوا بكلّمة: (لا إله إلا الله)

وعليه فقضية التوحيد قضية مشتركة بين جميع رسالات السماء.

ولهذا فإنّ القاعدة: (لا معبود بحقّ إلا الواحد)

قال تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}528

[526] الروم 30.

[527] الأنبياء 25.

[528] الذاريات 56.

ولذا فإن قوله تعالى في الآية الكريمة: (مِن رَّسُولٍ) تفيد عموم الرّسُل، حيث إن (منْ) في هذه الآية تفيد الشمول والتعميم بين الرّسُل وعدم اختصاص واحد منهم.

وذلك يعني أن كلّ رسول يكون على نفس الملة التي فطر الله عليها عباده فيكون:

مُكلّفًا باتباعها بنفسه.

وآمرا غيره بذلك، مصداقا لقوله تعالى: {وَالَّذِينَ آَتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآَبِ} 529

فيقول لقومه: اعْبُدُوا اللَّهَ الذي لا إله لكم سواه.

وبالتزام ذلك يتكون داخل العقل البشري والنفس البشرية أساس الدين والملة.

ولابدّ أن يعرف قائل هذه الكلّمة معناها، فهي تعني إنّه لا معبود بحقّ إلا الله.

ولاعتبار المرء على الملة الصحيحة لابدّ من:

1- العلم والإدراك المتكامل والاختياري بمعناها.

فإن (لا إله إلا الله) ليست مجرد كلّمة تنطق باللسان، فالمولى عزّ وجلّ كرّم الإنسان بالعقل الذي هو أداة ووسيلة للوصول للملة الحقّ التي عليها كلّ شيء في هذا الكون بالفطرة، مصداقا لقوله تعالى:

---

[529] الرعد 36.

{تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنّه كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا}530

إنّه علم يرشد إلى طاعة الله تعالى فتعبد الله تعالى وحده مخلصًا له الدين كما قال تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}531

فإذا عرفت أنّ الله خلقك لعبادته، فلابدّ أن تعلم أنّ العبادة لا تسمّى عبادة إلا مع التوحيد.

2- اليقين من إنّه لا يستحقّ كلّمة التوحيد إلا الله تعالى مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصّلاة لِذِكْرِي}532

3- الإخلاص لله في العبادة، مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالحقّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ}533

وقوله تعالى: {قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رِبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِ}534

4- الانقياد لله، وتوحيده

530 الإسراء 44.

531 الذاريات 56.

532 طه 14.

533 الزمر 2.

534 الزمر 11- 14.

5- نبذ الشرك، بالإنكار الكامل لوجود شريك لله تعالى، فلا يمكن أن يلتقي في قلب إنسان واحد، التوحيد لله تعالى، والشرك به، مصداقا لقوله تعالى: {لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا}535

فهذه الشروط التي لابدّ من توافرها فيمن يقول (لا إله إلا الله) حتى يكون على الملة الصحيحة ملة إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام.

مصداقا لقوله تعالى: {وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}536

ولنا أن نتساءل:

لماذا خص الله تعالى إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام بالملة دون الأنبياء؟

ألهذا التخصيص علاقة بكونه إماما؟

وما دلالة هذا التخصيص؟

وما معنى ملة إبراهيم؟

نقول بالإضافة إلى ما سبق:

إن معنى ملّة إبراهيم يمكن توضيحها من خلال الآيات الكريمة الآتية قال تعالى:

{وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا}537

---

[535] الكهف 38.

[536] البقرة 135.

[537] النساء 125.

فنرى إنّها:

دين

تسليم

إحسان

اتباع

استقامة

امتثال

طاعة

عقل

إدراك

يقين

ثقة بالله

ومن لا يتبع ملة إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام يكون قد أخرج نفسه من زمرة العقلاء

وأدخلها مع السفهاء، مصداقا لقوله تعالى: {وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنّه فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ}538

وعليه فملة إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام هي:

---

538 البقرة 130.

عبادة الله وحده لا شريك له.

إخلاص في العبادة، قولا وفعلا.

اتباع للتكاليف وتوفية لها، {وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى}539

صبر في الابتلاء.

توكلّ على الله.

فإبراهيم وَفي كلّ ما كلّفه به الله وزاد عليه محبةً في الله تعالى.

وقابل الابتلاء بالطاعة والصبر، فعندما ابتلاه الله بذبح ابنه الوحيد لم يتردد، مصداقا لقوله تعالى: {فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إنّه مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ}540

وكان يؤدّي التكاليف بامتثال ويحاول أن يستبقي المنهج السليم في ذريته، مصداقا لقوله تعالى: {وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ ربّهُ بِكَلّمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ}541

---

539 النجم 37.

540 الصافات 101- 111.

541 البقرة 124.

ونعتقد أن الله تعالى اختص إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام بالملة لأنّه كان أمة مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}542

كان أمة في:

طاعته

حبه لله

إيمانه

صبره

إحساسه

ويدل تخصيص الملة بإبراهيم عليه الصّلاة والسّلام على بطلان الملل الأخرى التي لا تتفق وملة إبراهيم عليه السلام

ملّة إبراهيم طريق الهداية:

قال تعالى: {وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}543

فاليهودية يدعي أتباعها إنّها طريق الهداية، وأرادوا أن يكون أتباع محمّد هودا. والنصرانية التي ادعى أتباعها نفس الادعاء وسعوا نفس السعي.

والمشركون الذين خالفوا المؤمنين في عقيدتهم.

---

[542] النحل 120.

[543] البقرة 135.

ولكن رسول الله عليه الصّلاة والسّلام أجابهم من عند الله بأنّه لا يتبع إلا الحقّ، المتحقّق في ملة إبراهيم الحنيف، والتي هي طريق الهداية الصحيح. مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّ أَوْلَى النّاس بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ}[544]

ولذا:

فإنّه كان في زمن بعثة النبي محمّد خاتم الأنبياء والمرسلين عليه الصّلاة والسّلام وفقا للآية ثلاث ملل غير صحيحة هي:

1. اليهودية (هودا)

2. نصارى

3. والتي لم تذكر في الآية (الشرك)

والملة الرابعة وهي الصحيحة والموجودة في الآية ذكرا هي ملة إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام، والتي نحن بصدد البحث فيها، وعليها خاتم الأنبياء، وهو نبي الكافة.

والكافة تعني هنا:

إبطال سائر الملل الفاسدة، والإبقاء على ملة واحدة وهي الصحيحة ملة إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام حنيفا والتي عليها سيدنا محمّد عليه الصّلاة والسّلام، داعيا لكافة الأنس والجن لاتباعها.

وعليه فإن إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام لم يكن على ملة اليهود، ولا على ملة النصارى، ولم يكن مشركا، بل كان على ملة الحقّ التي عليها كلّ الأنبياء والمرسلين، مصداقا لقوله تعالى: {مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ

---

[544] آل عمران 68.

يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}545

وقال تعالى أيضا: {قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}546 ففي الآية الكريمة أمر من المولى عزّ وجلّ باتباع ملة إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام،

فنتساءل:

ما سبب هذا الأمر بالرّغم من اتباع محمّد عليه الصّلاة والسّلام لها؟

ألا يدلّ ذلك على أنّ ملة إبراهيم هي الملّة المنجية لمتبعيها؟

ومن المعروف أن ملة إبراهيم هي التي سمّت كلّ المؤمنين بالله المسلمين، مصداقا لقوله تعالى: {وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حقّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرّسول شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النّاس فَأَقِيمُوا الصّلاة وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ}547

والدّعوة إلى الإيمان بملة إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام، إيضاح لأن جوهر الإيمان لا يحتمل الخلاف، فموكب الإيمان والرّسُل والأنبياء موكب واحد، وكلّمة (اتبعوا) تعني أن هناك متبوعا كما أن هناك تابعا.

المتبوع هو الملة الحقّ، الهادية، المنجية، الموضحة للدين الحقّ.

---

[545] آل عمران 67.

[546] آل عمران 95.

[547] الحج 78.

والتابع هو كلّ من أراد أن يكون مهديا ناجيا من عذاب الله تعالى، مصداقا لقوله تعالى: {وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا}548

لذا يكون الدين الذي وضحته ملة إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام هو الدين الحقّ مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ}549

فالدين يشمل:

المعتقدات

التشريعات العامة

والشريعة تشمل الأحكام

والملة تكون لبيان العقائد، وطريقة الاتباع والتسليم.

وفي قوله تعالى: (وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا)، نفي لأن يكون هناك دين أفضل من دين التوحيد الذي جاء به كلّ الأنبياء والرّسُل، ولا ملة أفضل من الملة التي هم عليها كذلك (ملة إبراهيم) مصداقا لقوله تعالى: {قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ

---

[548] النساء 125.

[549] آل عمران 19، 20.

وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآَخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ}550

اللهم أحينا على ملة إبراهيم، وأمتنا عليها، واختم لنا بالإسلام يا الله.

وقد يسأل سائل، لماذا إذن ملة إبراهيم؟

نقول:

لأنّ إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام كما في قوله جل وتعالى: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتا لِلَّهِ حَنِيفا}551

ومعنى كونه (أُمَّةً) إنّه الجامع لكلّ خصال الخير، وكلّ الصفات الحميدة، التي لا يمكن أن تتجمع في إنسان واحد، بل تجدها مفرقة على أمة بأكملها، وأيضا حظ إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام من الصفة الواحدة يعدل حظ الأمة منها.

وهكذا فإن الصفات النبيلة لا يمكن اجتماعها في فرد واحد إلا إذا كان أمة.

وقال تعالى في ملة إبراهيم أيضا: {قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي ربّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَممّاتِي لِلَّهِ ربّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ}552

---

550 آل عمران 84، 85.

551 النحل 120.

552 الأنعام 161: 164.

ومن هذه الآيات الكريمة يمكن أن نتعرف على صفات أتباع ملة إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام فنقول:

إنّ من صفات أهل الملّة:

توحيد لله.

قوة في دين.

حزم في عزم.

حرص على العلم.

قناعة في فقر.

عطاء في حقّ.

بر في استقامة.

فقه في يقين.

كسب في حلال.

ونلاحظ أنّ هذه التأكيد على توضيح ملة إبراهيم الحنيف، جاء لدحض ما كان عليه اليهود والنصارى والكفار، من ادعاءات وافتراءات بأنّهم أتباع إبراهيم خليل الله.

ولو كانوا أتباعه بحقّ:

ما عبدوا إلا الله.

ما أشركوا به شيئا.

ما قالوا إن الله ثالث ثلاثة.

ما قتلوا أنبياء الله.

ما قتلوا النفس التي حرم الله.

ما ظلموا.

ما أفسدوا في الأرض.

ما كفروا برسالة محمّد عليه الصّلاة والسّلام؛ لأنّه على ملة أبيه إبراهيم، مصداقا لقوله تعالى: {قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ ربّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ}553

وفي قوله تعالى: {ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}554 خاطب الله محمّدا عليه الصّلاة والسّلام ذاكرا صفات الخليل عليه الصّلاة والسّلام بأنّه كان:

موحدا.

حنيفا.

ليس مشركا.

إذن كلّ مسلم بالضرورة هو على ملة إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام، وبالتالي فُهم يتوحدون ضمن هذه الملة، فيصدق عليهم القول إنّهم من أبٍ واحد أظلّهم بملةٍ واحدة وهي الحنيفية المسلمة، فهم بذلك

[553] الأنعام 161- 163.

[554] النحل 123.

كالأخوة المولودون بدمٍ واحد، فامتزجت دماؤهم وموادهم الجسمانية؛ ذلك بأنّهم:

حيوا بروح الإيمان.

وتغذوا بكلّام الله.

سقوا من ماء الطاعة لله.

اكتسوا وتزينوا بأثواب الفرائض المقدسة.

تقووا بالأذان المحمّدي.

استناروا بالأخلاق السامية.

تربّوا وشبوا على الفضائل.

فهؤلاء لا تكون أخوتهم نفاقا أو اصطناعا بل هي صحيحة وحقّيقة.

فالمسلمون المرتبطون بعضهم ببعض بالروابط الدينية يمثلون الأمة المسلمة في كلّ حال من الأحوال، روحا، ومعنى، وجسما، ومادة، دون أهمية لأرض تجمعهم أو عرق أو لون، وأي لغة تحدثوا بها.

ولذا فإن ملة إبراهيم هي الرحم التي آخت بين المسلمين وجمعتهم!

وهنا نتساءل:

كيف يكون الإنسان خارجا من الملة التي شرعها الله؟

نقول:

يكون الإنسان خارجا عن الملة الحقّ بـ:

الحياد عن الحقّ بعد وضوحه.

اتباع الباطل.

اتباع الأهواء.

تزييف الحقّائق.

فيكون بذلك جاحدا لما يُفْتَرض الإيمان به، بعد قيام الحجّة عليه.

الملة والإسلام:

قال الله تعالى: {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ}[555]

وقال أيضا: {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ}[556]

وقال أيضا: {مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}[557]

ومن خلال النظر والتمعن في هذه الآيات الكريمة نرى أن هناك ربّطا بين دين الإسلام وملة إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام

[555] آل عمران 19.

[556] آل عمران 85.

[557] آل عمران 67.

ممّا يؤدّي إلى التطابق بين ملة إبراهيم والإسلام، فالمعنى بينهما واحد؛ لأن الإسلام ملة كلّ الرّسُل من أولهم، إلى آخرهم محمّد عليه الصّلاة والسّلام، فالتسليم لله بالقلب واللسان والاقتناع بالحقّ هو بحد ذاته استسلام وخضوع للخالق عزّ وجلّ.

إذن فملة الرّسُل والأنبياء التي كانوا عليها واحدة هي:

توحيد الله تعالى.

إفراده بالعبادة.

التزام بالطاعة له وحده.

امتثال لأوامره.

اجتناب لنواهيه.

دعوة إليه بالتي هي أحسن.

ثبات على الحقّ.

توكلّ عليه في كلّ الأمور.

لا يلتجئون إلا إليه.

ولكن ما سبب تخصيص إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام بالملة؟

نقول:

علاوة على كونه أمة، فهناك أسباب لذلك:

أولها: أن الله تعالى جعل في ذريته النبوّة والكتاب قال تعالى: {مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ}558

ومصداقا لقوله تعالى: {وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النبوّة وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنّه فِي الْآَخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ}559

فهو بذلك أبو الأنبياء من بعده، وأب لكلّ المسلمين، ومع أنّ هناك من هم داخل أمة الإسلام من ليسوا من ذرية إبراهيم، إلا إنّه باعتباره أبا لرسول الله محمّد عليه الصّلاة والسّلام، فهو بدوره أب لكلّ من آمن به وسلّم برسالته واتبعه، فلا يكون من كفر به ولم يتبعه في دعوته من أهله وإن كان من ذريته.

لأن أبوة الرّسول لا تكون بالنسل فقط بل تكون بالاتباع والعمل، مصداقا لقوله تعالى: {وَنَادَى نُوحٌ ربّهُ فَقَالَ ربّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الحقّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ قَالَ يَا نُوحُ إنّه لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إنّه عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ}560.

ولهذا كان النبي عليه الصّلاة والسّلام أبا لكلّ مَنْ آمن به، وسَمَّى الله زوجاته أمهات للمؤمنين، مصداقا لقوله تعالى: {النبي أولى بالمؤمنين مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ}561

---

558 الحج 78.

559 العنكبوت 27.

560 هود 45: 46.

561 الأحزاب من الآية 6.

وما دامت الأزواج أمهات، فالزوج أب، وبناءً على هذه الصلة يكون إبراهيم عليه السلام أبا لأمة الإسلام، وإنْ كان فيهم مَنْ ليس من سلالته.

ثانيها: إن إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام قد واجه في تحقّيق التوحيد وإقناع قومه بالملة الحقّيقية التي يجب اتباعها، وتحطيم الشرك أمرًا عظيمًا، فابتلاه الله تعالى بعدة ابتلاءات فصبر وثبت.

ثالثها: إبطال مزاعم اليهود، والنصارى وكفار قريش في دعواهم إنّهم على ملة إبراهيم فكذبهم الله تعالى في قوله: {أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ}562.

بل وقد رد الله عليهم محاجتهم في ذلك بقوله: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}563

فقريش كانت تقول إنا على ملة إبراهيم وإنّهم أولى النّاس به، واليهود والنصارى يدعون ذلك أيضا، فجاء البيان لتحديد ما ملة إبراهيم، ومن أولى النّاس به، مصداقا لقوله تعالى: {مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِنَّ

[562] البقرة 140.
[563] 65: 67.

أَوْلَى النّاس بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ}564

رابعها: استجابة للدعوة التي دعاها إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام {ربّنَا واجعلنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ}565.

وكلّمة (ملة) في قوله تعالى: {مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ} جاءت بالنصب، لأنّها مفعول به لفعل تقديره (الزموا) مِلة أبيكم إبراهيم؛ لأنكم دعوته.

ومن دعوة إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام: {ربّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آَيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}566

وعليه:

تكون ملة إبراهيم هي ملة محمّد عليهما الصّلاة والسّلام وملة، باقي الرّسُل والأنبياء لا نفرق بين أحد منهم مصداقا لقوله تعالى: {آَمَنَ الرّسول بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ ربّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كلّ آَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ ربّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ}567

ومن ذلك نستطيع القول إن:

564 آل عمران 67- 68.

565 البقرة 128.

566 البقرة 129.

567 البقرة 285.

* إبراهيم لم يكن على ملة اليهود والنصارى أو على غير ملة الإسلام حنيفا.

* أولى النّاس بإبراهيم هم من اتبعوه واتبعوا كلّ الأنبياء من بعده دون تحريف، مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّ أَوْلَى النّاس بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِين}[568]

ونتساءل: ما الفرق بين التعبير بـ (الإسلام) وبـ (ملة إبراهيم)؟

نقول:

إن التعبير بلفظ الإسلام له معنى عام، يتناول إسلام واتباع كلّ قوم لنبي من أنبياء الله الذي بُعِث فيهم، فيكونون مسلمين.

فهل ستخرج بذلك أي أمة عن ملة إبراهيم الحنيف؟

فأهل التوراة قبل النسخ والتبديل، مسلمون حنفاء على ملة إبراهيم، فهم على دين الإسلام.

ولما بعث الله نبيه عيسى عليه الصّلاة والسّلام، فمن آمن به من أهل التوراة، واتبعه فيما جاء به فهو مسلم حنيف على ملة إبراهيم، ومن كذب فهو كافر لا يوصف بالإسلام

ثم لما بعث الله محمّدا عليه الصّلاة والسّلام خاتم الأنبياء والرّسُل، وشريعته خاتمة الشرائع، ورسالته خاتمة الرسالات، عامة لأهل الأرض وجب على أهل الكتاب، وغيرهم اتباع شريعته فمن لم يتبعه فهو كافر خارج عن ملّة الإسلام أو ملّة إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام، لا يوصف بالإسلام والحنيفية، ولا إنّه على ملّة إبراهيم.

---

[568] آل عمران 68.

فبقي اسم الإسلام مختصا بمن يتبع محمّد عليه الصّلاة والسّلام لا غير حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

ولا يمكن إطلاق لفظ مسلم أو متبع لملة إبراهيم على أي دين دخل دائرة التحريف والتبديل على أيدي متبعيه، فكان من شروط قبول الملة عند الله تعالى أن تكون على ملة إبراهيم عليه السلام لأسباب هي:

1 – إنّ الله تعالى لا يقبل من كان متبعا لملة محرفة منسوخة بأيدي البشر، كما دخل التوراة والإنجيل

2- إنّ كلّ عبد مأمور من الله تعالى بأن يتبع الدين النّاسخ لما قبله، وهو بعد مبعث محمّد عليه الصّلاة والسّلام دين الإسلام الذي جاء بعبادة الله وحده لا شريك له، فمن كان كذلك كان عبدا حنيفا مسلما، على ملة إبراهيم.

وعليه تكون ملة إبراهيم التي اتبعها محمّد صلّى الله عليهما وسلّم هي الملة التي لم ولن تتغير باختتام الرسالات السماوية.

ولذا فإنّ من يرغب عن ملة إبراهيم يكن سفيها، مصداقا لقوله تعالى: {وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ}[569]

وملة إبراهيم عليه السلام حددها بقوله: (إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)[570]

هذه ملّة إبراهيم التي أمرنا الله باتباعها فقد كان حنيفا ولم يك من المشركين، شاكرا لأنعمه، اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم وآتاه في

[569] البقرة 130.

[570] الأنعام 69.

الدنيا حسنة وإنّه في الآخرة لمن الصالحين، مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنّه فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}571

وهذه هي الملة التي كان عليها آدم ونوح والنبيون من بعده إلى محمّد حيث كان الاعتقاد واحدا وإن تباينت الشرائع في الأحكام الفرعية، وكان عليه كذلك كلّ من اتبع الأنبياء منذ مولد البشرية.

وكلّ من له حس سليم وعقل يميز به، فعقل الإنسان خلقه الله كي يستوعب الحقّ، وينكر الباطل وليس العكس.

لذا كان الإنسان كالدواب دون الوصول للحقّ مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ}572.

وقد قال تعالى: {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النّاس عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النّاس لا يَعْلَمُونَ}573 فدين الإسلام هذا دين الفطرة، وملة إبراهيم هي الملة التي فطر الله عليها البشر.

إذا فملة إبراهيم وهي ملة الأَنْبِيَاء جميعا، هي التوحيد الذي هو دين الفطرة والذي لا تغيير له أبدا، ولكن الشرائع وطرق أداء العبادة تختلف من دين إِلَى دين، مصداقا لقوله تعالى: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالحقّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا

[571] النحل 120- 123.

[572] الأنفال 55.

[573] الروم 30.

أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الحقّ لِكلّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ}[574]

فما الذي سيرجعون إليه من بعد إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام؟

إنّها الكلّمة التي جاء بها محمّد عليه الصّلاة والسّلام، وهي كلّمة التوحيد لا إله إلا الله؛ لأن التوحيد هو ملة إبراهيم، (لا إله إلا الله) اللهم اجعلنا من أهلها.. آمين.

قال تعالى مخبرا عن نبيه إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام {وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ ربّهُ بِكلّمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ}[575]

فما الإمامة؟

وكيف كان إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام إماما؟

ولماذا كان إماما؟

ولمن هو إمام؟

للإجابة على هذه التساؤلات نقف على بعض المعاجم اللغوية التي تناولت مفهوم الإمام بشيء من الإيضاح

---

[574] المائدة 48.

[575] البقرة 124.

قيل: الأمُّ بالفتح القَصْد، أَمَّهُ يَؤُمُّه أَمّا إِذا قَصَدَه، والأَمُّ: العَلَم الذي يَتْبَعُه الجَيْش، والإِمَّة والأُمَّة: السُّنَّةُ، وتَأَمَّم به وأْتَمَّ: جعله أَمَّةً، وأَمَّ القومَ وأَمَّ بهم: تقدَّمهم، وهي الإِمامةُ.

والإِمامُ كلّ من ائتَمَّ به قومٌ سواء كانوا على الصراط المستقيم، أَو كانوا ضالّين. مصداقا لقوله عزّ وجلّ: {يَوْمَ نَدْعُو كلّ أُناسٍ بإِمامِهْم} قالت طائفة: بكتابهم، وقال آخرون: بنَبيّهم وشَرْعهم، وقيل: بكتابه الذي أَحصى فيه عَمَله.576

ومن ذلك نقول:

إن الإمامة تقدُّم واتباع:

تقدم وتميُّز لمنْ كان إماما فيما اتُّبِعَ فيه من أفعال وأقوال وأعمال.

واتباع ممن سار على خطوات الإمام مقلدا له فيما تمييز به عنهم من أفعال وأقوال وأعمال.

فلا يكون الإمام إماما إن لم يتبعه جمع، فيما تفرد متقدما به عنهم، ولا يكون المأموم مأموما إن لم يكن مُتَّبِعا لمن هو متقدم عنه فيما اتبعه فيه.

وعليه فالإمامة على وجوه منها:

. إمامة في الهدى مصداقا لقوله تعالى: {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآَيَاتِنَا يُوقِنُونَ}577

---

576 لسان العربّ 12، 22.

577 السجدة 24.

وقوله تعالى: {وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصّلاة وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ}578

ولذا كان سيدُنا محمّد رسولُ الله عليه الصّلاة والسّلام إمامُ أُمَّتِه، وعليهم جميعا الائتمامُ بسُنَّته التي مَضى عليها، وكذلك كلّ نبي لأمته.

. إمامة في الضلال (إمامة الباطل) مصداقا لقوله تعالى: {وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النّار وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ}579

وقوله تعالى: {وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ}580

وعليه:

فالإمامُ هو ما ائْتُمَّ به، والجمع أَئِمَّة، وإمامُ كلّ شيء: قَيِّمُهُ والمصْلِح له.581

فالقرآنُ إمامُ للمُسلمين؛ مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكلّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ}582؛ لأنّه يُقَوِّمُ أخلاقهم، ويُصْلِحُ أحوالهم، وسَيدُنا محمّد عليه الصّلاة والسّلام إمام الأَئِمَّة، والخليفة إمام باستخلافه في الأرض.

ومن معاني الإِمامُ أيضا:

---

578 الأنبياء 73.

579 القصص 41.

580 التوبة 12.

581 لسان العربّ 12، 22.

582 يس 12.

الطريقُ وذلك مصداقا لقوله عزّ وجلّ: {فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ}583.

أي بطريق واضح والإمام اسم ما يؤتم به، قال الفراء والزجاج: إنما جعل الطريق إماما لأنّه يؤم ويتبع.584

إذن فإبراهيم عليه الصّلاة والسّلام كان إماما بالحقّ جعله الله تعالى كذلك مصداقا لقوله تعالى: {وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ}585

ويمكن أن نقرأ من هذه الآية الكريمة عدة أشياء منها:

أولا: الإمامة مكتسبة وليست فطرية.

وذلك بدليل قوله تعالى: (جَاعِلُكَ) التي تفيد الوضع والحداثة، كمثل قوله تعالى: {الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ}586

ولم يقل (كنت) التي تفيد الاستمرار في الماضي والمستقبل كمثل قوله تعالى: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ}587

---

583 الحجر 79.

584 تفسير الرازي 9، 328.

585 البقرة 124.

586 البقرة 22.

587 آل عمران 110.

وعليه فإمامة إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام جعل من الله تعالى كرَّمه بها بعد أن وفيما أمره الله تعالى به، مصداقا لقوله تعالى: (إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ).

ثانيا: الإمامة لا تُوْرَثُ ولا تُوَرَّثُ.

فعندما طلب إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام من الله تعالى بعد أن بشره بجعله إماما، أن تكون هذه المنة من بعده لبعض من ذريته (قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي) فكان قوله تعالى: (قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ) إجابة على طلب إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام.

فيتضح من السياق القرآني أن المانع من نيل درجة الإمامة هو الظلم.

والظلم أقسام منه:

. الظلم للنفس:

وذلك بالكفر بالله أو الشرك به مصداقا لقوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ}588

. الظلم للغير:

أ- بالاعتداء عليهم بغير حقّ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ}589

---

[588] لقمان 13.

[589] المائدة 87.

ب- بأكلّ أموالهم بالباطل: {وَلَا تَأْكلّوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكلّوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النّاس بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ}590

ج- بسفك الدماء بغير الحقّ: {وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالحقّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إنّه كَانَ مَنْصُورًا}591

ثالثا: الإمامة مترتبة على عمل.

وهذا ما يتضح من خلال السياق القرآني (وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ ربّهُ بِكلّمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ) حيث إنّها كانت تشريفا من الله تعالى لإبراهيم عليه الصّلاة والسّلام بعد أن أتم ما ابتلاه الله به من كلّمات، فأتمهن بالعمل، وهذا المعنى يستفاد من الفاء في(فَأَتَمَّهُنَّ) التي تفيد الترتيب مع التعقيب فيكون الترتيب كالتالي:

ابتلاء

أعقبه إتمام وتوفية

ترتب عليه تشريف بالإمامة

وهنا نتساءل:

كيف استحقّ إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام الإمامة؟

نقول:

590 البقرة 188.

591 الإسراء 33.

إنّه استحقّها بعد أن قدم من العمل والطاعة والصبر ما وفي به، فكون إبراهيم أدى جميع التكلّيفات، ووفي كلّ الابتلاءات ممّا ابتلي به وكان الله أعز عليه من أهله، ومن نفسه ومن ولده فكافأه الله بالإمامة، قال تعالى: (قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاما).

أي أن الحقّ تبارك وتعالى جعله إماما للناس، وكان ابتلاءه لإبراهيم عليه الصّلاة والسّلام؛ لنعرف نحن البشر كيف يصطفي الله تعالى عباده المقربّين وكيف يكونون أئمة يتولون قيادة الأمور، وكيف يكون الإمام ذو صفات جديرة بالاقتداء بها منها:

الإيمان

التصديق

الطاعة

الامتثال

الصبر

الرشد

الود

الرّحمة

الرأفة

وكيف استقبل إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام هذه البشرى؟

من السياق القرآني نرى أن إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام استقبل هذه البشرى من الله بروح الإمام المحب للآخر وقال كما يروي لنا القرآن الكريم: (قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي)

من هذا الطلب نجد:

أولا: حب إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام يتجلى في طلب الخير لغيره.

ثانيا: علمه الواسع بوجود من هم ظالمون من خلال تبعيض الذرية (قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي).

فأراد إبراهيم أن تكون الإمامة إلى بعض من ذريته مصداقا لقوله تعالى: {وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِين}[592]،وهنا توافق جواب الله تعالى مع طلب إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام بحرمان الظالمين من الإمامة مصداقا لقوله تعالى: (لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِين)

ورغبة إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام تلك حتى لا يحرم غير الظالمين من ذريته من القيم الإيمانية التي تحرس حياتهم وتؤدي بهم إلى خير لا يزول.

وهنا نتساءل:

كيف رد الله تعالى على إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام؟

وما دلائل هذا الرد؟

نقول:

[592] البقرة 124.

كان رد الله تعالى على طلب إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام بقوله: (لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظالمين)

ونرى هنا أن هذا الرد متضمن للآتي:

نفي الإمامة عن الظالمين من ذريته.

إثبات أن الإمامة ستكون في غير الظالمين منهم.

وفي رد الله سبحانه وتعالى على إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام نلحظ قضية إيمانية واضحة وبيّنة، تمَّ التركيز عليها في كلّ الرسالات السماوية وهي:

(قضية العمل وأهميته وما يترتب عليه)

حيث قال تعالى حاثا على العمل: {وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}593

وقال تعالى أيضا: {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ}594

ففي هذا الرد تقريع للذين عم الفساد والشر بينهم فكانوا أبعد ما يكونون عن استحقّاق هذا الخير الذي تمثله الإمامة.

وكان إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام بأعماله قد وصل إلى الإمامة، والتي لا ينالها إلا عباد الله

الموحدين

---

[593] التوبة 105.

[594] الزلزلة 7، 8.

الحنفاء

الصادقين

الصالحين

العابدين

المسبحين

الطائعين

وقول الله سبحانه: (لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظالمين) يحمل تأكيدا لصفات التابعين لإبراهيم عليه الصّلاة والسّلام، فهم على نقيض ما كان عليه المفسدون في الأرض الفاسقون، وهذا يدل على عظمة العهد الذي بين الله عزّ وجلّ وبين إبراهيم الخليل عليه الصّلاة والسّلام، وفي هذا العهد، تأويلات منها:

ـ النبوّة.

ـ الإمامة.

ـ الإيمان.

ـ الرّحمة.

ـ دين الله.

ـ الجزاء والثواب.

ـ لا عهد عليك لظالم أن تطيعه في ظلمة.

ونقول:

إن من احتمالات معاني العهد أيضا أن يكون بمعنى:

إكرامي.

تشريفي.

فإن قوله تعالى: (لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظالمين) لم يكن ردا لدعوة إبراهيم عليهِ الصّلاة والسّلام، بلْ كان استجابةً خفيةً لها، وعِدَةً إجماليةً منه تعالى بتشريف بعضٍ من ذرية إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام، بنيل عهدِ الإمامةِ الحقّ.

والإمامة مسؤولية مضاعفة، حيث يكون الإمام مسؤولا عن تصرفاته وأفعاله وأقواله؛ لأنّه قدوة لمن يأتم به ممن معه من المأمومين.

وأيضا يكون مسؤولا عن متابعة حال المأمومين، فيعمل على إصلاحهم، وتقويم المخطئ منهم.

ونتساءل:

هل كانت إمامة إبراهيم ابتلاء له، أم تكريما؟

نقول:

بما أن الإمامة تحمل طابع المسئولية، والمسئولية تتطلب المتابعة والوعي والصبر، فإن ممّا كرم به إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام، أن أخبره الله تعالى بأنّه جاعله للناس إماما أي نبيا ورسولا يقتدي به النّاس، لأن كلّ رسول قدوة يؤتم به.

ومن هنا يكون التكريم، بالإمامة قائم على صفات موجودة في المكرم بالإمامة منها:

التوحيد

الطاعة

الامتثال

الإخلاص

الصدق

حب الخير للآخر

الصبر على الأذى

لأن كلّ من تصدى للناس يدعوهم ويأمرهم وينهاهم يبتلى ويؤذى، ممن هو فيهم يدعوهم للهداية والطريق السليم.

وفي سيرة كلّ الأنبياء والرّسُل ما يدل على ذلك، مصداقا لقوله تعالى: {قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ}595

وقوله تعالى: {قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ}596

ونذكر هنا ما وقع لإبراهيم عليه الصّلاة والسّلام من أذى له من أبيه وقومه.

أولا- الأذى الواقع عليه من أبيه:

التهديد بالرجم.

الطرد من الديار.

[595] الشعراء 116.

[596] الشعراء 167.

قال تعالى: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّه كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرّحمن فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا}[597]

ثانيا- الأذى الواقع عليه من قومه:

. التكذيب.

مصداقا لقوله تعالى: {إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالحقّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ}[598]

. الإقدام على إحراقه بالنّار.

قال تعالى: {قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ}[599]

وعليه:

فإمامة إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام، جاءت بشرى له وتكريما له على صبره وتحنفه

---

[597] مريم 41- 46.

[598] الأنبياء 52- 55.

[599] الأنبياء 66- 68.

فقوله تعالى: {إني جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إماما} يدل على أن الرّسول يؤمر بدعوة النّاس، وهي الرّسالة، فيكون رسولا إماما يقتدى به فيجب على الرّسول التبليغ والصبر على البلاء.

من ذلك فإن كلّ رسول إمام، وليس كلّ إمام رسولا.

فالإمامة من لوازم الرّسالة، وليست شيئا منفصلا عنها؛ حيث إن بمجرد كون العبد رسولا، يكون إماما؛ لأن الإمامة من الأوصاف اللازمة للرسالة.

وقد ذكر الله تعالى بعضا من صفات الأنبياء، وذلك في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا}600

فمن الآيتين الكريمتين نجد أن:

كلّا من الصفات الآتية:

الشاهد

المبشر

النذير

الداعي

السراج المنير

ليست بمعزل عن النبوّة، وإنما هي أوصاف لازمة للرسل.

---

600 الأحزاب 45: 46.

فكذلك فإن من قوله تعالى: (إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إماما) كان إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام

إماما في الشهادة على النّاس

إماما في التبشير بالخير

إماما في الإنذار من الشر

إماما في الدعوة إلى الحقّ، والقيادة إليه

وكلّها أوصاف وليست مصطلحات خاصة بمنأى عن النبوّة.

فالنبوّة إنما تكون تكريما، من جهة إنّها معنى يستلزم قيادة النّاس، في الخير والسعي لمرضاة الله تعالى، ودعوتهم للاتجاه إليه تعالى، وهذا هو معنى الإمامة.

ولنا أن نتساءل:

هل الإمامة ثابتة أم إنّها متغيرة؟

إن الإمامة قد تضيق وقد تتسع، فقد يكون الإنسان:

إماما في مسجد من المساجد.

إماما لدولة من الدول.

إماما للأمة.

وهذا لا علاقة له بموضوع بحثنا، ولا يدخل في إمامة إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام، ولم نتطرق إليه بالبحث.

إماما للناس.

كإمامة إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام فهي إمامة القدوة والأسوة للكافة ولهذا جاء من بعده الرّسُل حنفاء مقتدين به إماما.

ولذا:

فإنّ أتباع الديانات السماوية الثلاث يتشرفون بالانتساب إليه، والاقتداء به مأمومين، وهو أبو الأنبياء الذين اختتموا بمحمّد رسولا وإماما والذي أوحى الله تعالى إليه قائلا: {أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إبراهيم حَنِيفًا}601

ولأنّ النبي يُقتدى به، فجاءت القدوة من بعد محمّد عليه الصّلاة والسّلام باتباع رسالة الإسلام ليكون من بينهم أئمة.

وقوله تعالى: {وَالَّذِينَ يَقُولُونَ ربّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا}602

ومن الملاحظ في قوله تعالى: (واجعلنا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاما) أن الدعوة كانت جماعية (واجعلنا) ومع هذا لم يقُلْ أئمة، بل إماما بصيغة المفرد.

لماذا؟

نقول:

جاءت هنا لفظة (إماما) بصيغة المفرد؛ لأن اجتماع أكثر من إمام في الحقّ والخير، لابدّ أن يكونوا كإمام واحد، وذلك لأنّهم:

يدعون إلى الحقّ الواحد

يسعون لهدف واحد

---

601 النحل 123.

602 الفرقان 74.

يستقون من إله واحد

فيكونون بذلك كإمام واحد، فكيف يختلفون إذا كانوا على نفس الصفات ونفس النهج، مثلما كان إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام أمة.

ولنا أن نتساءل:

هل الإمامة في الخير هي التي في الشر؟

ولنتمكن من الإجابة على هذا التساؤل، لابدّ لنا من العود إلى ما ذكرناه سابقا ممّا يتعلق بإمامة الهدى وإمامة الضلال، ونبين ذلك من خلال مقارنات، ومن خلال عرض بعض صفات كلّ منها:

أولا: صفات إمام الهدى.

قال تعالى: {وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاة وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ}[603] ومن هذه الآية نجد صفات أئمة الهداية والخير وهي:

دوام التوحيد لله تعالى

دوام عبادة الله وحده

الالتزام بطاعة أوامر الله تعالى

الحرص على اجتناب نواهيه

المداومة على فعل الخيرات

[603] الأنبياء 72: 73.

صلاح الحال والنفس

ليس المقصود بالإمامة هنا السُّلْطة الزمنية من باطنهم، إنما إمامة القدوة الحسنة بأمر الله (يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا) فهم لا يصدر عنهم شيء إلا عن هُدًى من الله.

ثانيا: صفات إمام الضلال (أئمة الكفر).

قال تعالى: {وَإِنْ نَكَثُوا أيمانهم مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ}[604]

من هذه الآية نجد بعض صفات أئمة الكفر التي منها:

عدم الإيمان بالله تعالى

عدم توحيد الله تعالى والإشراك به

عبادة غير الله تعالى

عدم طاعة أوامر الله تعالى

فعل المعاصي والآثام

نكث الأيمان

الإفساد في الأرض

الطعن في الدين

خروجهم من ملة الإسلام

---

[604] التوبة 12.

وقول الحقّ سبحانه وتعالى: (فقاتلوا أَئِمَّةَ الكفر) يعني أن القتل يكون أولا للذين يدعون إلى الكفر والشرك، والذين يزرعون الفتن والفساد في الأرض، ويأمرون أتباعهم على محاربّة دين الله، وهم الذين يخططون وينفذون ويحرضون.

إمامة الهدى بشرى للطائعين:

قال تعالى: {وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ}605

فالحقّ تبارك وتعالى حينما يمن على الذين استُضعِفوا في الأرض، لا يرفع عنهم الظلم فقط، وإنما أيضا يجعلهم أئمة يقتدي بهم من بعدهم مصداقا لقوله تعالى: (وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً) فكأنّها مكافأة أو بشرى بأن يكونوا:

أئمة في الدين

أئمة في القيم

أئمة في سياسة الأمور

أئمة في الملك

مصداقا لقوله تعالى (وَنَجْعَلَهُمُ الوارثين) أي ينقلب بهم الحال فيرثون مَنْ ظلمهم، ويكونون سادةً عليهم وأئمةً لهم.

اللهم اجعلنا ممن يقتدون بأئمة الحقّ، وممن يكونون أئمة بالحقّ، فلا نَضِلَ ولا نُضِلَ.

[605] القصص 5.

جدل إبراهيم:

امتاز قوم سيدنا إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام بإتقان الجدل والمجادلة وهو القدرة على إثبات ما يدَّعونه من أمور بالحجج العقلية، والأدلة النقلية.

وبرعوا في هذا الفن حتى صار صفة ظاهرة لهم في عصرهم، وكأن العقل دليلهم في التوصل إلى حقّيقة الأشياء وكنهها.

ولذا كانت وسيلة نبي الله إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام ومعجزته إليهم، من جنس ما برعوا فيه، شأنه في ذلك شأن جميع الأنبياء والرّسُل، ومعجزاتهم التي أجراها الله تعالى على أيديهم، وهذا من باب التحدي لأتباعهم.

فرسول الله محمّد بن عبد الله عليه الصّلاة والسّلام، كانت معجزته الكبرى القرآن الكريم الذي تحدى العربّ وفصحاءهم في بلاغته، وتراكيبه، ومعانيه، فأعجزهم وهم أهل الفصاحة.

مصداقا لقوله تعالى: {وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النّار الَّتِي وَقُودُهَا النّاس وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ}606

وهذا سيدنا موسى عليه الصّلاة والسّلام كانت معجزته ممّا برع فيه أهل زمانة (السحر) قال تعالى: {حقّيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الحقّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ ربّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَالَ إِنْ

[606] البقرة 23، 24.

كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ}607

وهنا يمكن أن نتساءل:

ما الجدل؟

وما أنواع الجدل؟

وما الفرق بين المجادلة والمحاجّة؟

وللإجابة عن هذه التساؤلات نبحث في بعض أقوال العلماء للوقوف على معنى صحيح للجدل نخرج به.

ومن أقوالهم:

جادَله أَي خاصمه مُجادلة وجِدالا والاسم الجَدَل، وهو شدَّة الخصومة، والجَدَل مقابلة الحجّة بالحجّة، والمجادلة المناظرة والمخاصمة.608

و (جَادَلَ) (مُجَادَلَةً) و(جِدَالا) إذا خاصم بما يشغل عن ظهور الحقّ ووضوح الصواب هذا أصله، ثم استعمل على لسان حملة الشرع في مقابلة الأدلة لظهور أرجحها وهو محمود إن كان للوقوف على الحقّ وإلا فمذموم609

ولنا أن نتساءل:

هل المخاصمة هي الجدل؟

---

607 الأعراف 105. 108.

608 لسان العربّ 11، 103.

609 المصباح المنير 1،93.

الفرق بين المخاصمة والمجادلة: وهما نظائر، وإن كان بينها فرق فإن:

المجادلة: هي المخاصمة فيما وقع فيه خلاف بين اثنين.

والمخاصمة: منازعة بين اثنين على وجه الغلظة.

والفرق بين المخاصمة والمعاداة:

إن المخاصمة من قبيل القول، والمعاداة من أفعال القلوب، ويجوز أن يخاصم الإنسان غيره من غير أن يعاديه، كما يجوز أن يعاديه ولا يخاصمه.[610]

ونقول أنّ:

المخاصمة تعني المنازعة لا لدرجة الانفصال والعداوة، فعدو المرء خصمه وليس العكس.

فالمخاصمة قد تنشأ بين أخوين على شيء يعتقد كلّ منهما أحقّيته له، فيختصمان لمن يحكم بينهما فيه وهما يضمران الرضا بما يحكم به.

وإن تجاوز الأمر بينهما هذا الحد حتى وصل بهما إلى درجة الحقّد والكراهية والتربّص لبعضهما، مع إضمار كلّا منهما عدم الرضا بالحكم الذي يحكم به من اختصما عنده إن لم يكن في صالحه، انتقلت المخاصمة بينهما إلى عداوة.

والجدل هو القياس المؤلف من المشهورات والمسلمات، والغرض منه إقناع الخصم وإفحام من هو قاصر عن إدراك مقدمات البرهان،

---

[610] الفروق اللغوية 1،488.

ودفع المرء خصمه عن إفساد قوله: بحجّة، أو شبهة، أو يقصد به تصحيح كلّامه، وهو الخصومة في الحقّيقة.611

ونقول: الجدال هو المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة، فكأن المتجادلين يريد أن يثني كلّا منهما الآخر عن رأيه بالحجّة والبرهان.

فإن التحليل العلمي للموضوع أو المضمون يستند على الحجّة بالماصدق؛ لأن الحجّة التي تفتقد إلى ماصدق، حجّة جدباء لافتقارها الحقّائق والبراهين بالماصدق.

ولهذا يتفق المحللون في حالة إقرارهم مبدأ التقبل.

ويختلفون في حالة عدم إقرارهم له؛ لأن القبول يخضع الحجّة للقياس، وعدم قبوله للأحكام المسبقة على الأفكار، والمواضيع، والنّاس.

فالمحاجة جدل وبرهنة تستند إلى المنطق وكشف الحقّائق.

ولذا لا يدحض الحجّة إلا الحجّة.

ونتيجة المحاجة هي بلوغ الأحكام الموضوعية بعد كشف الزيف وتحييده، وإثبات الحقّ والعمل به أو التمسك به.

والفرق بين الجدال والحجاج هو:

أن المطلوب بالحجاج ظهور الحجّة.

والمطلوب بالجدال هو الرجوع عن الفكرة، فإن أصله من الجدل، وهو شدة الفتل.612

---

[611] التعريفات 1،24.

[612] الفروق اللغوية 1،158.

ويدخل تحت الجدل الاشتكاء، والتحاور بدليل قوله تعالى:

{قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ}613

فالله تعالى سمع (قول) متمثل في:

مجادلة.

اشتكاء.

محاورة.

وكما هو معروف من أسباب النزول لهذه الآية أن:

المرأة التي جادلت الرّسول عليه الصّلاة والسّلام في زوجها الذي ظاهرها أي حرمها على نفسه كمثل حرمة ظهر أمه عليه، جادلته من أجل أن يجد لها حلا لما كان من زوجها لا يحرمها عليه؛ وذلك لشدة حبها له وحاجة عيالها له وفقرهم.

فكلّما قال لها رسول الله عليه الصّلاة والسّلام: حرمت عليه، قالت: يا رسول الله، ما ذكر طلاقا، وإنما هو أبو ولدي وأحب النّاس إليّ، فقال: حرمت عليه، (وهذه مجادلة).

فقالت: أشكو إلى الله فاقتي ووجدي، وكلّما قال رسول الله عليه الصّلاة والسّلام: حرمت عليه، هتفت وشكت إلى الله.614 (وهذا اشتكاء).

---

613 المجادلة 1.

614 الكشاف 7، 8.

ومجموع ما دار بين المرأة والرّسول عليه الصّلاة والسّلام (محاورة).

يَتَحاوَران أَي يتراجعان الكلّام، والمحاوَرَةُ مراجعة المنطق والكلّام في المخاطبة615

وقد وردت صيغ جدل في القرآن الكريم بما يوحي بأنواع الجدل.

وعليه فالجدل ينقسم إلى قسمين أساسيين هما:

* الجدل الممدوح:

وهذا النوع من الجدل هو المأمور به مصداقا لقوله تعالى: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ ربّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ ربّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ}616.

فالدعوة إلى المذهب، أو المقالة، أو الفكرة، لابدّ أن تكون مبنية على حجّة وبينة؛ ليكون اتباع النّاس لها عن يقين واقتناع، لا عن قهر وإرغام.

وهذا دليل على أن المعجزة التي يجريها الله تعالى على يدِ نبي من الأنبياء في عصر من العصور تكون صالحة في عصر آخر، ولقوم آخرين، وعلى يد نبي آخر، إن أراد الله ذلك.

فمصدر المعجزات واحد (الله).

والأنبياء كلّهم من واحد (الله).

والعباد كلّهم لواحد (الله).

615 لسان العربّ 4،217.

616 النحل 125.

وهو أعلم بما يُصْلِحُهُم ويَصْلُحُ لهم.

لذا أمر الله تعالى نبيه محمّدا عليه الصّلاة والسّلام، باتباع إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام، وبيَّن الشيء الذي أمره بمتابعته فيه.

مصداقا لقوله تعالى: {ادع إلى سَبِيلِ ربّكَ بالحكمة وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}.

وعليه:

فرسول الله محمّد عليه الصّلاة والسّلام مأمور بما أُمِرَ به أبيه إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام في أن يدعو النّاس بأحد هذه الطرق الثلاث:

. الحكمة.

. الموعظة الحسنة.

. المجادلة بالتي هي أحسن.

وذكر الله تعالى هذا الجدل في آية أخرى فقال:

{وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ}.[617]

وفي هذه الآية جاء الخطاب عاما لكلّ المؤمنين الداعين إلى سبيل الله، مبينا لهم الطريقة التي يجب عليهم اتباعها في دعوة أهل الكتب السماوية الأخرى.

---

[617] العنكبوت 46.

ولذا جاء الفعل مقترنا بواو الجماعة للدلالة على عمومية الخطاب.

ونرى في الآية الكريمة السابقة اجتماع أسلوبين من الأساليب النحوية هما:

أسلوب النهي: (وَلاَ تجادلوا).

وأسلوب الاستثناء: (إلاَّ بالتي هِي أَحْسَنُ).

والاستثناء بعد النهي يفيد الإثبات والحصر.

وعليه:

يكون الجدل المأمور به هو الجدل بالتي هي أحسن.

وفي قوله تعالى: {وَلاَ تجادلوا أَهْلَ الكتاب إلاَّ بالتي هِي أَحْسَنُ} إيحاء بأن هناك طريقة أخرى لمجادلة غير أهل الكتاب الذين لم يهتدوا بالتي هي أحسن، مأمور بها ضمنا وهي المجادلة بالتي هي (أغلظ) مصداقا لقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ}618.

وقوله تعالى: {محمّد رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ}619

حيث أن المشركين جاءوا بالمنكر بإشراكهم مع الله غيره في العبادة، فكان اللائق بهم أن نجادلهم بالأغلظ ونبالغ في استنكار مذهبهم وتوهين شبههم.

[618] التوبة 123.

[619] الفتح 29.

ولذا قال تعالى في حقّهم: {صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ}.620

وقال تعالى: {وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ}621

وقال أيضا: {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ}.622

وأما أهل الكتاب فجاءوا بكلّ حسن إلا الاعتراف بالنبي عليه الصّلاة والسّلام فوحدوا وآمنوا بإنزال الكتب وإرسال الرّسُل والحشر.

فلمقابلة إحسانهم يجادلون أولا بالتي هي أحسن، ولا يستخف بآرائهم، ولا ينسب إلى الضلال آباؤهم، بخلاف المشرك.

وهذا النهج هو ما اتبعه إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام في مجادلته مع المشركين من قومه حيث بدأهم بالتي هي أحسن فأبطل ما هم عليه بالأدلة القاطعة، والحجج الدامغة، وبرهن على صحة دعواه بالبراهين العقلية والحجج المنطقية، التي برعوا هم في الجدل بها.

قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ فَلَمَّا رَأَى

---

[620] البقرة 18.

[621] البقرة 171.

[622] الأعراف 179.

الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كلّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحقّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُون}.623

ولما تبين له إصرارهم على ما هم فيه من ضلال خاطبهم بالتي هي أغلظ، فسفههم وما هم عليه من الباطل مصداقا لقوله تعالى: {قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ}624

وقوله تعالى: (إِلاَّ الذين ظَلَمُواْ) يعود بنا ثانية إلى طريقة جدال المشركين بالتي هي أغلظ.

فهذا استثناء بعض من كلّ، حيث استثنى، الذين ظلموا من جملة أهل الكتاب وهذا الاستثناء مخرج لهم من دائرة المجادلة بالتي هي أحسن.

ولكن من هم الذين ظلموا؟

وظلموا من؟

---

[623] الأنعام 74. 81.

[624] الأنبياء 62. 67.

وبماذا ظلموا؟

وللإجابة نقول:

بكلّ تأكيد أن المراد بالذين ظلموا هم جماعة من أهل الكتاب وذلك وفق القاعدة النحوية:

(أن المستثنى يكون من جنس المستثنى منه).

والظلم الذي وصفوا به هو واقع منهم على أنفسهم، فهم ظالمون لأنفسهم بإخراجها من دائرة المؤمنين الموحدين لله، إلى دائرة المشركين به الكافرين.

وذلك بإثبات الولد لله، والقول بثالث ثلاثة، فإنّهم ضاهوا بذلك القول المنكر المشركين، وهم الظالمون.

وذلك لأن الشرك ظلم عظيم، مصداقا لقوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ}[625].

وعليه فهم يُجَادَلُونَ بالتي هي أغلظ، من تهجين مقالتهم وتبيين جهالتهم، كما أمر الله تعالى.

ولما ذكر الله تعالى هذه الطرق الثلاث، وعطف بعضها على بعض، وجب أن تكون طرقا متغايرة متباينة.

والدعوة إلى المذهب والمقالة، لابدّ أن تكون مبنية على حجّة وبينة.

والمقصود من ذكر الحجّة إما:

---

[625] لقمان 13.

1) تقرير ذلك المذهب في قلوب المستمعين.

2) إلزام الخصم وإفحامه.

والقسم الأول ينقسم أيضا إلى قسمين؛ لأن الحجّة إما أن تكون:

. حجّة حقّيقية يقينية قطعية مبرأة عن احتمال النقيض.

. أو حجّة تفيد الظن الظاهر والإقناع الكامل.

فيظهر بهذا التقسيم انحصار الحجج في أقسام ثلاثة:

أولها: الحجّة القطعية المفيدة للعقائد اليقينية، وهي (الحكمة).

وهي أشرف الدرجات، وأعلى المقامات، وهي الخير الكثير مصداقا لقوله تعالى: {يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ}626.

ثانيها: الأمارات الظنية والدلائل الإقناعية وهي (الموعظة الحسنة).

ثالثها: الدلائل التي يكون المقصود من ذكرها إلزام الخصوم وإفحامهم، وهو (الجدل).

والجدل على قسمين:

القسم الأول: أن يكون دليلا مركبا من مقدمات صحيحة مسلمة في المشهور عند الجمهور، أو عند قائلها، وهذا الجدل هو

---

[626] البقرة 269.

الجدل الواقع على الوجه الأحسن، وذلك هو المراد بقوله تعالى: {وجادلهم بالتي هِيَ أَحْسَنُ}

القسم الثاني: أن يكون ذلك الدليل مركبا من مقدمات باطلة فاسدة، إلا أن قائلها يحاول ترويجها على المستمعين بالسفاهة والشغب، والحيل الباطلة، والطرق الفاسدة، وهذا القسم لا يليق بأهل الفضل إنما اللائق بهم هو القسم الأول.

وعليه فأهل العلم ثلاث طوائف:

القسم الأول: الكاملون الطالبون للمعارف الحقّيقية والعلوم اليقينية، والمخاطبة مع هؤلاء تكون بالدلائل القطعية اليقينية وهي (الحكمة).

والقسم الثاني: الذين تغلب على طباعهم المشاغبة والمخاصمة، لا طلب المعرفة الحقّيقية والعلوم اليقينية، والمخاطبة اللائقة بهؤلاء (المجادلة) التي تفيد الإفحام والإلزام.

وهذان القسمان هما الطرفان:

الأول: هو طرف الكمال.

والثاني: طرف النقصان.

وأما القسم الثالث: وهم الذين ما بلغوا في الكمال إلى حد الحكماء المحقّقين، وفي النقصان والرذالة إلى حد المشاغبين المخاصمين، بل هم أقوام بقوا على الفطرة الأصلية والسّلامة الخلقية، وما بلغوا إلى درجة الاستعداد لفهم الدلائل اليقينية والمعارف الحكمية، والمخاطبة مع هؤلاء لا تكون إلا بالموعظة الحسنة، وأدناها المجادلة،

وأعلى مراتب الخلائق الحكماء المحقّقون، وأوسطهم عامة الخلق وهم أربّاب السلامة، وفيهم الكثرة والغلبة، وأدنى المراتب الذين جبلوا على طبيعة المنازعة والمخاصمة،

قال تعالى: {أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ}627

وقال تعالى: {خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ}628

وقوله تعالى: {ادع إلى سَبِيلِ ربّكَ بِالْحِكْمَةِ} معناه:

ادع الأقوياء الكاملين إلى الدين الحقّ بالحكمة، وهي البراهين القطعية اليقينية.

وادع عوام الخلق بالموعظة الحسنة، وهي الدلائل اليقينية الإقناعية الظنية.

والتكلّم مع المشاغبين بالجدل على الطريق الأحسن الأكمل.629

وقصر الله تعالى الدعوة على الحكمة والموعظة الحسنة في قوله: {ادع إلى سَبِيلِ ربّكَ بالحكمة والموعظة الحسنة}؛ لأن

الدعوة إذا كانت بالدلائل القطعية فهي الحكمة.

وإن كانت بالدلائل الظنية فهي الموعظة الحسنة.

---

627 يس 77.

628 النحل 4.

629 تفسير الرازي 9،489.

أما الجدل فليس من باب الدعوة، بل المقصود منه غرض آخر مغاير للدعوة، وهو الإلزام والإفحام.

ولهذا السبب لم يقل ادع إلى سبيل ربّك بالحكمة والموعظة الحسنة والجدل الأحسن.

بل قطع الجدل عن باب الدعوة تنبيها على إنّه لا تحصل الدعوة به، وإنما الغرض منه شيء آخر.

الجدل المذموم.

وهو الجدل الذي يقصد به الباطل، أو تأييده، أو يفضي إليه، أو كان القصد منه مجرد التعالي على الخصم والغلبة عليه فهذا ممنوع شرعا، ويتأكد تحريمه إذا قلب الحقّ باطلا أو الباطل حقّا.

ولا يجادل بهذا النوع من الجدل إلا كافر مصداقا لقوله تعالى:

{وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الحقّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا}630

{مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كلّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الحقّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ}631

وعليه فجدل إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام جدل الحقّ (الممدوح).

[630] الكهف 56.

[631] غافر 4، 5.

وجدل الآخرين من قومه جدل الباطل(المذموم).

والجدال بنوعيه موجودٌ في جِبلَّة الإنسان مصداقا لقوله تعالى: {وَكَانَ الإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلا}632.

فعلى العاقل أن يتخير لنفسه النوع المحمود منه، وينأي بنفسه عن المذموم.

*مجادلات إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام:

صور لنا السياق القرآني عدة صور من المجادلات التي وقعت من سيدنا إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام، ونرى من الواجب علينا أن نعرج على هذه المجادلات بشيء من التأمل والتفحص لاستنباط العبر والعظات منها، ولنقف على بعض صفاته عليه الصّلاة والسّلام.

ومن هذه المجادلات:

مجادلته مع أبيه آزر.

{وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنّه كَانَ صِدّيقًا نَبِيًّا إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرّحمن فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبّي إِنّه كَانَ بِي حَفِيًّا وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبّي شَقِيًّا}633

---

[632] الكهف 54.

[633] مريم 41 . 48.

بدأ السياق القرآني في ذكر قصة إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام بوصف الله تعالى له بأنّه:

. صِدِّيق، لإظهار مدى صدقه في كلّ ما يقول، بل والمبالغة في وصفه بذلك.

وأيضا لإظهار درجة تصديقه لما يوحى إليه من الله، والعمل على الدعوة له، والجدل لأجله.

. نبيٌّ، وهذا الوصف يبين مكانته العالية، ودرجة قربّه من الله عزّ وجلّ.

ونرى من خلال الآيات أن إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام بدأ جدله مع أبيه آزر بالتي هي أحسن فخاطبه بكلّ أدب ولين وتودد وحب وتواضع، يتضح من تكرار لفظة:

(يَا أَبَتِ)

ثم قدم له من الأسئلة الاستنكارية ما يثير ملكة التفكر وإعمال العقل فيما هو عليه من عبادة باطلة (لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا).

والإجابة متضمنة في نفس السؤال، يدركها كلّ عاقل، فما لا ينفع ولا يضر، ولا يملك من أمره شيء لا يمكن أن يكون معبودا، وهذا دليل عقلي مقبول.

وبعد كلّ هذه الحجج والأدلة شرع في الدعوة إلى المعبود الحقّ (الله) بأسلوب طلبي مقرون بالتعليل الذي يوضح له أن الفائدة من هذا الطلب ليست شخصية، يجني ثمارها الداعي، بل إنّها تعود بالنفع لمن يستجيب لهذه الدعوة.

(يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا).

وقد كانت دعوته عليه الصّلاة والسّلام لأبيه مُغلَّفة بغلاف من الحب والرّحمة والشفقة؛ لبيان الدافع من وراء المجادلة.

(يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرّحمن فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا)

وكانت مقابلة آزر لهذه الدعوة بالإصرار على الكفر، وبالتهديد والوعيد لإبراهيم عليه الصّلاة والسّلام.

وعندها ظهرت صفة أخرى في شخصية سيدنا إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام وهي:

التسامح والعفو مصداقا لقوله تعالى:

(قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ ربّي إنّه كَانَ بِي حَفِيًّا)

وبعد هذه المجادلة بالتي هي أحسن التي قوبلت بالإصرار على الكفر، جادله بالتي هي أغلظ، فوصفه صراحة بالجهالة والضلال، مصداقا لقوله تعالى:

{وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِين}.634

وعليه نقول في صفاته كان:

إبراهيم صِدِّيقا.

إبراهيم نبيا.

[634] الأنعام 74.

إبراهيم مؤدبا.

إبراهيم لين الجانب.

إبراهيم ودودا.

إبراهيم متواضعا.

إبراهيم محبا.

إبراهيم رحيما.

إبراهيم شفوقا.

إبراهيم متسامحا.

إبراهيم صبورا.

إبراهيم محاجا.

إبراهيم مجادلا بالحقّ.

مجادلته مع قومه في الكواكب:

{وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كلّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ وَكَيْفَ

أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحق بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ}635.

وفي مجادلة سيدنا إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام مع قومه تظهر لنا من صفات إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام إنّه كان:

. محاجا جيدا يبطل الحجّة بالحجّة.

حيث أبطل عبادة الكواكب بما رآه من صفات فيها يستحيل قبولها عقلا فيمن يكون معبودا بحقّ (الأفول والغياب)،

مصداقا لقوله تعالى: (فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآَفِلِينَ).

. ثابتا على الحقّ مؤمنا به.

(قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ).

. لا يخاف إلا الله.

(وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحق بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ).

***مجادلته مع أبيه وقومه في الأصنام:**

{وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا ربّ الْعَالَمِينَ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ

---

635 الأنعام 75. 81.

يَشْفِينِ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ربّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالحقْنِي بِالصَّالِحِينَ}[636]

وهنا تظهر رجاحة عقل إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام، وحنكته في المجادلة، واتباعه للمنهج الإلهي في الدعوة.

فبدأ أولا بالتي هي أحسن ولم يصفهم بالضلال ولم يسفه فكرهم من البداية ولكن:

حرص كلّ الحرص على إبطال ما هم عليه من عبادة الأصنام من خلال أسئلة منطقية عقلية إجاباتها تظهر عجز الآلهة الباطلة التي يعبدونها.

هل هذه الأصنام:

تسمعكم؟

تنفعكم؟

تضركم؟

فماذا كانت إجاباتهم على كلّ هذه الأسئلة؟

كانت بقولهم: (بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ)

ولماذا قالوا هذا؟

لأنّهم أدركوا بعقلهم أن الإجابة لابدّ وأن تكون بالنفي.

والنفي يستوجب عدم صلاحيتها للعبادة.

---

[636] الشعراء 69 . 83.

فأرادوا أن يجدوا لأنفسهم سببا آخر يبرر تمسكهم بعبادة ما لا يسمع ولا ينفع ولا يضر.

وهنا في لحظة الضعف الفكري، والنشاط العقلي الذي سببته أسئلة إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام قدم لهم البديل لما هم عليه من ضلال وهو:

عبادة الله ربّ العالمين الذي:

يخلق.

يهدي.

يطعم.

يسقي.

يشفي.

يميت.

يحيي.

ويغفر.

وبكلّ هذا يكون الله تعالى وحده هو المعبود الحقّ، وما سواه باطل لا يستحقّ العبادة.

ثم توجه إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام إلى الله بالدعاء والطلب، وهذا دليل عملي يؤكد أن الله تعالى هو المتصرف في كلّ أمورنا، ويعكس مدى إيمان إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام بما يدعو إليه.

وهذا من باب الرشد الذي آتاه الله لإبراهيم عليه الصّلاة والسّلام، قال تعالى:

{وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ}637.

ولما وجد من إصرارا على عبادة ما لا ينفع ولا يضر، بعدما قدم لهم الأدلة والبراهين على بطلان عبادتها وعدم استحقّاقها للعبادة، خاطبهم بالتي هي أغلظ فوصفهم بالضلال، ثم قرن الفعل مع القول في دحض ما يعتقدون هم صوابه مصداقا لقوله تعالى:

{إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالحقّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ قَالَ بَلْ ربّكُمْ ربّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إنّه لَمِنَ الظَّالِمِينَ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النّاس لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ}638.

ومن هذه المجادلة يتبين لنا صفة أخرى في شخصية إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام وهي:

---

[637] الأنبياء 51.

[638] الأنبياء 67.52.

. رجاحة العقل والقدرة على استجلاب الدلائل والبراهين لإثبات دعواه.

. اقتران العمل بالقول عنده في الدعوة.

مصداقا لقوله تعالى: (وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ).

***مجادلته مع الذي حاجّه في ربّه:**

{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}[639].

ومن هذه المجادلة نستشف أن إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام كان:

. سريع البديهة.

. قوي الحجّة.

. قادرا على إفحام الذي كفر.

حيث ادعى الذي كفر إنّه إله واستدل على قوله بأنّه يحي ويميت، حين قال له إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام: (ربِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ) يعني بذلك: إنّه الذي بيده الحياة والموت، يحيي من يشاء ويميت من أراد بعد الإحياء.

[639] البقرة 258.

فقال الذي كفر: أنا أفعل ذلك، فأحيي وأميت، أستحيي من أردت قتله فلا أقتله، فيكون ذلك مني إحياء له، وذلك عند العربّ يسمى(إحياء)، مصداقا لقوله تعالى: {وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النّاس جَمِيعًا}640، وأقتل آخر فيكون ذلك مني إماتة له.

فقال إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام: فإن الله الذي هو ربّي يأتي بالشمس من مشرقها، فأت بها إن كنت صادقا في ادعائك أنك إله، من مغربّها!

{فبهت الذي كفر} يعني أفحم وبطلت حجته.

***مجادلته مع الملائكة في قوم لوط:**

{فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنّه قَدْ جَاءَ أَمْرُ ربّكَ وَإِنّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ}641

ويتجلى من هذه المجادلة جانب الرّحمة والشفقة في شخصيته عليه الصّلاة والسّلام فهو يجادل الملائكة من أجل أن يرفع عنهم العذاب، أو يخفف عنهم.

ويتجلى كذلك جانب الطاعة التامة لله تعالى بإعراضه عن المجادلة مع الملائكة عندما علم أن ذلك أمر الله تعالى ولا مرد لأمره تعالى، مع إنّه كان أواها يتأوه لحالهم ولما سيحل بهم من العذاب مصداقا لقوله تعالى:

---

640 المائدة 32.

641 هود 76.74.

{وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ إِنّه عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ}642.

أواه حليم:

وهنا نسأل:

ما معنى (أوّاه حليم)؟

وللإجابة نقول:

مع أنّه ورد في لسان العربّ بمعنى التوجع، إلا أنّنا نرى أنّ هناك فرقا في المفهوم بين كلّمتي التوجع والتأوه يتمثل في:

ـ التوجع: إحساس بالألم، وعادة ما يكون الألم العضوي، وهذا لا ينطبق على دلالة اللغة.

ـ والتأوه: تعبير عن الإحساس بما يؤلم أو يؤدّي إلى الحسرة.

ولذا فما كان عند إبراهيم ليس ألما عضويا، بل كان:

روحيا.

قيميا.

فضائليا.

والتأوه يكون لأسباب منها:

أولا: سبب جسدي.

ثانيا: سبب روحي.

642 التوبة 114.

فما سبب تأوه سيدنا إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام؟

هل هو:

- التألم على ما حوله من شرك.

- التحسر على ضياع قومه في الضلال.

مصداقا لقوله تعالى: {يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ}643

- مغالاة قومه في الكفر والعناد.

- إصرار قومه على مخالفة دعوته.

- معرفته بما لا يعرفه قومه ممّا علّمه الله تعالى، مصداقا لقوله تعالى: {يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا}644

- وده لهم.

- رحمة منه وشفقة عليهم.

- خوفه عليهم من الله تعالى، مصداقا لقوله تعالى: {يا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرّحمن فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا}645

- معرفة ما سينزل بهم من عقاب وعذاب لشركهم وكفرهم.

ونتساءل:

643 يس 30.

644 مريم 43.

645 مريم 45.

أيكون الأواه هو المتحسر على الآخر بسبب ما يفعل من أخطاء يدرك خطورتها الأواه؟

ألا يكون تأوهه خوفا عليه وشفقة به لغاية إصلاح الغير؟

وتأوه سيدنا إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام كان لنفسه وعلى غيره:

فكان لنفسه تضرعا لله تعالى.

وكان على غيره تحسُّرا عليهم، ودعاءً لهم.

وعليه أتساءل:

ما دلالة اقتران أوه مع حليم في قوله تعالى: {لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ}؟

لاقتران أواه مع حليم دلالة على رقة إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام، وشفقته ومودته لقومه.

ولذا فإن إبراهيم أواه لأجل قومه، وهو حليم عليهم.

يدعو لهم.

ولا يدعو عليهم.

وإضافة لام التأكيد على الفعل (أواه) في قوله تعالى: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ}646، تأكيد على ارتباط إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام مع قومه، فهو أواه عليهم من الرّحمة بهم، وكذلك ارتباطه مع ربّه في قوله تعالى: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ}647

---

[646] التوبة 114.

[647] هود 75.

فإبراهيم عليه الصّلاة والسّلام مع كونه حليما، فهو:

لأواه

لمنيب

فكأن لام التأكيد عملت في الصفات الثلاث مع اتصالها بالصفة الأولى فقط.

وعليه فإبراهيم عليه الصّلاة والسّلام يريد أن يأخذ قومه بحلمه عليهم وتأوهه عليهم من مجال الشرك إلى مجال الإنابة، فتأوهه كان على قومه ولهم.

ومن الطبيعي أن التوجع يُحْدِثُ في نفس الإنسان ضيقا، وضجرا، هذا على عكس ما أفرزه في نفس إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام من حلم، ورحمة، وشفقة بالأمة.

وهنا نلاحظ نوعين من التوجع في نفس إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام:

توجع من أذاهم له.

توجع من أذاهم لأنفسهم (لأجلهم).

لذا فهو حليم.

وعليه أتساءل:

هل كلّ أواه، حليم؟

وهل بالضرورة كلّ تأوه يصحبه حلم؟

نقول:

إذا عَمُرَ قلب الإنسان بالإيمان صار صاحب هذا القلب رحيما، والرّحمة تستلزم الحب.

وبالتالي نتألم على من نحب عند مصابهم، أو عندما نعلم أن من نحب يسير في طريق نهايته الهلاك والعذاب، وكلّ هذا يستوجب:

الصبر.

والحلم.

صبر على ما نشعر به من ألم تجاه من نحب.

وصبر على محاولات عدة من أجل إرجاع من نحب إلى الطريق الآمن.

وحلم على ردود أفعاله تجاه ما ندعوه إليه فلا نيأس منه إن استعصى اقتناعه به.

إذا فقوله تعالى: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ} تحمل من المعاني والصفات الكثير مثل:

أولا:

إن إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام هو مثال المؤمن الخاشع، المتضرع إلى الله تعالى بالدعاء والاستغفار لنفسه ولقومه، فلا يخشى سوى خالقه ولا يلجأ إلا إليه لبث شكواه وتخفيف ما في نفسه، وكيف لا! ألا يعلم تعالى السر والعلن؟

ثانيا:

إن إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام كان نبيا رحيما بعباد الله، فلو لم يكن كذلك لما كان أواها حليما، مصداقا لقوله تعالى: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إنّه كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا}648.

ثالثا:

إن إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام كان موقنا بغضب الله وسخطه وعقابه للكفرة، وكان موقنا أن هذا فراقٌ بينه وبين أهله في الدنيا والآخرة، بعدما أصر آزر على الكفر، مصداقا لقوله تعالى: {فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ إنّه عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ}649

ولذا كان أواها.

وهنا أتساءل:

ما الأسباب التي أدت بإبراهيم عليه الصّلاة والسّلام إلى التأوه؟

ألا يكون من أسبابه ما يأتي:

فراقه لقومه.

فراقه لأبيه.

فراقه لزوجه.

فراقه لابنه.

ألا يكون أواها لتوجه قومه لغير القبلة.

ألا يكون أواها لترك قبلة الله.

648 مريم 41.

649 التوبة 114.

ألا يكون أواها لقبوله ذبح ابنه.

ألا يكون أواها لاعتقاده التام بالله تعالى، وشك الآخرين به.

ألا يكون أواها لانتشار الشرك بالله.

ألا يكون أواها لانتشار الكفر بالله.

ألا يكون أواها لانتشار الفساد في الأرض.

ألا يكون أواها لاتباع النّاس لخطوات الشيطان.

وعليه فالتأوه من دلائله:

. تأوه عودة وإنابة إلى الله تعالى: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ}650

. تأوه لطلب الرّحمة، مصداقا لقوله تعالى: {وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى ربِّي سَيَهْدِينِ}651

. التأوه استعطافا لله من أجل ابنه، مصداقا لقوله تعالى: {فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ}652

وفي الآية الكريمة يتجلى مدى الطاعة لله تعالى عند كلّ من إبراهيم وابنه عليهما الصّلاة والسّلام.

---

[650] هود 75.

[651] الصافات 99.

[652] الصافات 102.

فإبراهيم عليه الصّلاة والسّلام على يقين من أن هذه الرؤية التي تأتيه في المنام ما هي إلا أمر من الله تعالى فصدقه وعزم على تنفيذه امتثالا للأمر الإلهي فأخبر ابنه بذلك وهنا تتبادر على الذهن تساؤلات منها:

ماذا كان رد الابن على أبيه؟

هل كان الرد بالرفض؟

هل كان الرد بالقبول مرغما؟

أم كان بالطاعة إيمانا؟

وما دلائل هذا الرد؟

ومن خلال الآية السابقة يتضح لنا الرد كان مفعما بالطاعة إيمانا، مصداقا لقوله تعالى: (قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ)

فيكون الرد من شقين:

الشِّق الأوّل: متعلق بأبيه (يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ).

فهو عامل تثبيت لقلب أبيه الشفوق، بإبعاد أي تردد أو تفكير يؤدّي إلى خلاف امتثال الأمر.

وهو دليل إيمان منه بنبوة أبيه وأن رؤيته ما هي إلا أمر من الله تعالى.

الشِّق الثاني: متعلق بحال الابن، وكأنّه يهدئ من روع أبيه، ببيان حاله عند الذبح فيقول: (سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ).

. تأوه المؤمن للكافر شفقة عليه.

. تأوه المصلحين من المفسدين لأجل الإصلاح.

والتأوه بالنسبة لسيدنا إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام ليس مجرد أصوات، وإخراج الكلّمة من الحلق (آه)، بل هو إحساس بالأفعال وردود الأفعال المترتبة عليها.

ولذا فإنّه يحدث في حالة الرضا بما يقال ويعمل ويفعل في مرضاة الله تعالى، وتحسر على غير ذلك.

فبوصف الله تعالى لسيدنا إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام بالتأوه والحلم يكون بذلك:

. قدوة.

. إماما.

. مرشدا للخير.

. وهاديا إليه. مصداقا لقوله تعالى: {قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ}[653].

والإمام يكون متبوعا، وليس تابعا إلا لله تعالى، فهو متبوع في:

الانقياد لأوامر الله.

الاتجاه إلى القبلة.

افتداء العقيدة بـ:

النفس.

---

[653] البقرة 124.

الروح.

المال.

الولد.

. جامعا لخصال الخير.

كما في قوله تعالى: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}654

. صفوحا ومتسامحا.

كما في قوله تعالى: {قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آَلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ ربّي إنّه كَانَ بِي حَفِيًّا}655

. معالجا وحكيما وصبورا.

كما في قوله تعالى: {قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالحقّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ قَالَ بَلْ ربّكُمْ ربّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآَلِهَتِنَا إنّه لَمِنَ الظَّالِمِينَ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النّاس لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآَلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ

---

[654] النحل 120.

[655] مريم 46، 47.

يَنْطِقُونَ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ}656

وفي قول الله تعالى: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ}657

اجتمعت صفة ثالثة مع وصفه عليه الصّلاة السلام بأنّه حليم أواه وهي (منيب).

ولذا فإن الإنابة: هي رجوع إلى الله، وخوف من كلّ ذنب ومعصية، ولو من ذوي القربىّ والمجاورة مثلما حدث مع إبراهيم وقومه.

والإنابة عبادة يتفاوت البشر فيها فالنّاس في إنابتهم على درجات متفاوتة، فمنهم: ـ المنيب إلى الله بالرجوع إليه من المخالفات والمعاصي.

ـ المنيب إليه بالدخول في أنواع العبادات والقربّات.

ـ المنيب إلى الله بالتضرع والدعاء، والافتقار إليه، وسؤال الحاجات كلّها منه.

ـ المنيب إليه بالخوف من التقصير في العبادة التي يتقربّ بها إلى الله تعالى.

والإنابة عبادة عظيمة، بدليل أن الله تعالى أمر عباده بها في قوله: {وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ}.658

656 الأنبياء 55، 67.

657 هود 75.

658 الزمر 54.

و يتضح من قوله تعالى أن الإنابة يقين من موقنات القلوب، يظهرها ويؤكدها أفعال بالجوارح وهذا معنى مستفاد من اقتران لفظتي (وأنيبوا) مع (وأسلموا).

والعبادات كلّها تقترن فيها موقنات القلوب وأفعال الجوارح، وظاهر هذا إنّها عبادة لله تعالى، وإنّه يحبها، قال تعالى: (وَأَنِيبُوا إِلَى ربِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ)

والمنيب هو من يعتبر بآيات الله تعالى مصداقا لقوله تعالى:

{أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كلّ زَوْجٍ بَهِيجٍ تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكلّ عَبْدٍ مُنِيبٍ}[659].

فهو دائم الرجوع لله بنظره وقلبه وجوارحه، فاستحقّ البُشْرَى من الله تعالى كما في قوله عزّ وجلّ: {وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ}[660]

الرّبط بين العبادة والإنابة:

بما أنّ الإنابة موجبة فلا تكون إلا لعبد من العباد أيقن بقلبه وفعل بجوارحه.

والإنابة إلى الله مانعة من عذاب الله، لأنّ الله لن يعذّب اللاجئ إليه، الرّاجع للحقّ، والتائب عن الذنب، مصداقا لما جاء في

[659] ق 6، 8.

[660] الزمر 17.

قوله تعالى في الآية السابقة: {وَأَنِيبُوا إِلَى ربّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ}661.

كما إنّ الجنّة أعدت نزلا للقلب الخاشع المنيب، مصداقا لقوله تعالى:

{وَأُزْلِفَتِ الجنّة لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكلّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ مَنْ خَشِيَ الرّحمن بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ}662

وعليه أتساءل:

ألا يكون فرق كبير بين النبي المنيب والعبد المنيب؟

أقول:

إن العبد المنيب الحفيظ لابدّ أن يكون:

حافظا لعهد الله تعالى.

حافظا لأمانته.

حافظا لجوارحه عن الأذى.

فالحفيظ التزام العبد بما يقول ويفعل.

وعليه فإن الالتزام يكون:

التزام قولي يظهر الإيمان والنية.

التزام فعلي يظهر السلوك والفعل والعمل.

---

661 الزمر 54.

662 ق 31: 35.

وحفيظ معناها إنّه متمسك بشكلّ حيادي بما هو متمسك به لله تعالى، فيكون

حفيظا على أقواله.

حفيظا على سلوكه.

حفيظا على ما أمر الله به.

حفيظا على اجتناب ما نهى الله عنه.

حفيظا على الاستخلاف في الأرض.

حفيظا على كلّ شيء، مصداقا لقوله تعالى: {فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إنّه بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}663 وقوله تعالى: {فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آَمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ ربّنَا وَربّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حجّة بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ}664

ولكن هل هناك ارتباط بين الصفات الثلاثة السابقة؟

هل جدال إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام ناتج عن اجتماع تلك الصفات؟

هل كلّ منيب حليم وأواه؟

ما الجامع بين تلك الصفات الحميدة؟

---

[663] هود 112.

[664] الشورى 15.

وبالإجابة عن هذه التساؤلات نجد أن إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام كان:

. حليما لا يحب المعاجلة بالعقاب، فهو لم يدعُ على:

أبيه

قومه

الذين ألقوه في النّار

الذي ادَّعى إنّه يحيي ويميت

وذلك لفتح باب التوبة لهم.

.كثير التضرع إلى الله والدعاء له.

. آيبا يرجع إلى الله في كلّ الأمور.

. مقبلا على طاعة الخالق عزّ وجلّ.

إذا فسبب جداله إنّه حليم لا يُعجِّل بالعقوبة ويتمنى الرّحمة لقومه.

وهو (أوَّاه) لأن التأوه دليل رقة ورحمة في القلب.

فإن كان سبب التأوه خوفه من الله تعالى، فهذا الخوف يكون طلبا لزيادة الشكر لله تعالى، ولطمأنة قلب إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام.

وهو منيب فهو يرجع إلى الحكم وإلى الحقّ في قضاياه.

إذا فإبراهيم عليه الصّلاة السلام:

لحليمٌ

لأواه

لمنيب

والجامع بين تلك الصفات في نفسه عليه الصّلاة والسّلام:

نبوته

عقله المفكر الرشيد

قلبه المطمئن

لسانه المستغفر لنفسه ولغيره

علمه

إمامته النّاس

وهنا نتساءل:

كيف كافأ الله تعالى إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام؟

نقول:

إن الله تعالى كافأ إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام بأشياء منها:

أولا:

جعل منه إماما يحتذى.

مصداقا لقوله تعالى: {وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِّمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ}665

ولذا وصفه الله تعالى: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}666 أي جامعا للخير.

فقد كلّفه الله بأمور فقام بها خير قيام، فكانت طاعته وقيامه بها حبا

في الله

ولله

وبالله

وجميعها صفات فضائلية لا تجتمع إلا في الأنبياء والصالحين والصديقين.

لذا فَوَصْفُ إنسانٍ بأنّه أمّة يعني اجتماع خصال حميدة خيّرة، تكفي الأمة التي أسلمت لله ربّ العالمين.

وهنا يمكن لسائل أن يتساءل:

كيف يمكن أن يكون الفرد أمة؟

وما المقصود بالأمة التي يمثلها إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام؟

ولإجابة على هذه التساؤلات نقول:

665 البقرة 124.

666 النحل 120.

إنّ إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام، مع كونه فردا إلا إنّه أمة من حيث إنّه:

يحسُّ بأحاسيسها.

يهتم لهمومها.

ويتأوه لأوجاعها

يحمل طموحاتها وأمانيها.

يحزن لحزنها.

يفرح لفرحها.

يتألم لآلامها.

يعرف ما لا تعرفه الأمة من الهموم التي تحيط بها من كفر، وجهل، وشرك.

لذا فهو يتألم لحال أمَّتِه.

ولهذا كان إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام أواها.

فهو لا يتأوه لنفسه، بل يتأوه من أجل الآخرين، الذين كفروا، فيأمل أن يكونوا مثله.

ولذا قال تعالى: (كان أمة) ولم يقل (كانّه أمّة) ولهذا فهو أواه.

وكونه عليه الصّلاة والسّلام أمّة عظيمة، فالتأوه يكون عظيما على قدر الأمّة.

والتأوه لم يكن لأمة بعينها بل لأمّة الإنسان.

وهل يمكن لإنسان واحد أن يحمل مقومات أمّة؟

وهل إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام يحمل مقومات أيّ أمّة؟

وهل كلّ الأمم تحمل نفس الصفات؟

وهنا لنا أن نقول:

إنّ الأمم كثيرة ومتنوعة ومختلفة فمنها:

. أمة الإيمان والإسلام.

مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ}667

وقوله تعالى: {وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ}668

. أمّة الشرك والكفر.

مصداقا لقوله تعالى: {بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آَبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آَثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آَبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آَثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ}669

معاني كلّمة الأمّة:

الأمّة هي المظلة التي يستظل تحتها من هم من صلبها أو من هم في حالة انتماء إليها، ولذلك فكما أن الأم مظلة وذات خصائص

[667] الأنبياء 92.

[668] المؤمنون 52.

[669] الزخرف 22، 23.

بحملها كذلك فلأمة مظلة اجتماعية تطبع أفرادها وجماعاتها بخصائصها.

ولأنّ للغة جذور واشتقاقات واصطلاحات ومفاهيم فما يستخدم في زمنٍ معين ومكان معين قد لا يستخدم كما هو في زمنٍ أو مكان آخر وهو من مظاهر تطور دلالة اللفظة، ولذا جاءت كلّمة (أمة) على عدة أوجه ومعاني منها:

1 . جاءت على معنى (الجماعة الصغيرة) كما في قوله تعالى: {وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النّاس يَسْقُونَ}[670].

2 . جاءت على معنى (فترة زمنية) مصداقا لقوله تعالى: {وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ}[671].

3 . جاءت بمعنى (المفرد) مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ}[672] ولذلك ورد في تفسير الطبري للأمة، هو: "الذي يُعلِّم النّاس الخير"[673].

4 . جاءت على معنى (القوم الذين هم على أصل وانتماء) مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالحقّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ}[674].

5 . جاءت على معنى (دين وملة) مصداقا لقوله تعالى: {بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ}[675].

---

[670] القصص 23.

[671] يوسف 45.

[672] النحل 120.

[673] تفسير الطبري، ج 17، ص 316.

[674] فاطر 24.

6 . جاءت على معنى (شمول النّاس) قال تعالى: {كَانَ النّاس أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالحقّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النّاس فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الحقّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}676.

7 . جاءت على معنى أمة (لأي دابة وأي طير) قال تعالى: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ}677.

8 . جاءت على معنى (أمم الجن والإنس) قال تعالى: {قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النّار}678.

9 . جاءت على معنى (عموم الخلق) كما في قوله تعالى: {وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالحقّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ}679، وقال تعالى: {قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ}680 الله خلق النّاس أمة ثم كانت منهم الأمم وكان الجنّ أمّة والطير أمّة والنحل أمّة والنمل أمّة والجماعة الصغيرة أمّة ولذلك وردت في الآيات السابقة كلّمة (أمّة وأمم) لتفسح مجال الاجتهاد في دائرة العلم والمنطق وإظهار الحقّ من الباطل.

---

675 الزخرف 22.

676 البقرة 213.

677 الأنعام 38.

678 الأعراف 38.

679 الأعراف 181.

680 هود 48.

وعليه فإبراهيم عليه الصّلاة والسّلام يجمع مقومات أمّة فصّلها وبيّنها الله تعالى بـ (القنوت والحنيفية والإسلام له تعالى)

إنّها الأمة القدوة في التوحيد والإخلاص للخالق عزّ وجلّ.

ونتساءل:

ما هي أهم صفات إبراهيم التي مكنته من أن يكون أمة؟

إن إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام كان أمة:

في إخلاصه لله تعالى.

في صبره.

في حبه.

في رحمته.

في سلامة قلبه.

في إيثاره.

في رجاحة عقله.

في جدله.

في تأوهه.

في رجوعه إلى خالقه.

في ابتلائه.

في رشده.

في قوته.

في قنوته.

في شكره.

في أوبته.

في حلمه.

في إنابته.

كان عليه الصّلاة والسّلام:

قانتا في خشوعه وطاعته لله تعالى.

حنيفا مسلما موحدا.

لم يك من المشركين، ولم يلمس أي نوع أو درجة من الشرك قلبه.

قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنّه سَيَهْدِينِ}[681]

ثانيا: اتخذه خليلا.

قال تعالى: {وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا}[682]

ومن هذه الآية الكريمة يتضح معنى الإسلام وفضله من وجهين:

---

[681] الزخرف 26، 27.

[682] النساء 125.

الأول: إنّه الدين المشتمل على إظهار كمال العبودية والخضوع والانقياد لله تعالى.

والثاني: أن الإسلام هو الدين الذي كان عليه إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام.

وكلّ واحد من هذين الوجهين سبب مستقل بالترغيب في دين الإسلام.

أمّا الوجه الأوّل: أنّ دين الإسلام مبني على أمرين:

الاعتقاد.

العمل.

أما الاعتقاد فأشار إليه بقوله:

(أَسْلَمَ وَجْهَهُ) وذلك لأنّ الإسلام هو الانقياد والخضوع الإرادي، والتعشق بالله فالإنسان إذا عرف بقلبه ربّه، وأقرت بربّوبيته، وعبوديته له نفسه، فقد أسلم وجهه لله.

وأمّا العمل فأشار إليه بقوله:

(وَهُوَ مُحْسِنٌ) ومحسن اسم فاعل من الفعل الرّباعي أحسن.

وبما إنّه اسم فاعل فلابدّ من وجود الدلالة على الفعل والذي يدخل فيه:

فعل الحسنات.

ترك السيئات، مصداقا لقوله تعالى: {وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ

بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}683

وأيضا قوله: {أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ} يفيد الحصر، فمعناه إنّه أسلم قصده لله دون غيره وما أسلمه لغيره.

وهذا دليل على أنّ كمال الإيمان لا يحصل إلا عند تفويض جميع الأمور إلى الخالق وإظهار التبري من الحول والقوّة، مصداقا لقوله تعالى: {فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ}684

وفيه أيضا تنبيه على فساد حال من استعان بغير الله، فإن المشركين كانوا يستعينون بالأصنام، ويقولون هم شفعاؤنا عند الله، مصداقا لقوله تعالى: {فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إنّه لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سبحانه وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}685

وأمّا الوجه الثاني في بيان فضيلة الإسلام:

هو أنّ محمّدا عليه الصّلاة والسّلام إنّما دعا الخلق إلى دين إبراهيم عليه السلام، فلقد اشتهر عند كلّ الخلق أن إبراهيم عليه السلام ما كان يدعو إلا إلى الله تعالى، مصداقا لقوله تعالى: {قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالحقّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ قَالَ بَلْ ربّكُمْ ربّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ}686

683 آل عمران 104.

684 غافر 44.

685 يونس 17، 18.

686 الأنبياء 55 ، 56.

كما إنّه تبرأ من عبادة غير الله فما كان يدعو إلى:

عبادة فلك.

طاعة كوكب.

سجود لصنم.

استعانة بطبيعة.

بل كان دينه الدعوة إلى الله والإعراض عن كلّ ما سوى الله مصداقا لقوله تعالى:

{إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آَلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ}[687]

فصبره على البلاء، وطاعته لله تعالى استحقّ بهما أن يكون خليلا وإماما، والإمام فيه من الصفات الأخلاقية ما تجعل منه متقدما عاليا في درجته.

والله سبحانه يعلم وفاء وإخلاص سيدنا إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام، ولكنه ابتلاه لنعرف نحن البشر كيف يصطفي الله تعالى عباده المقربّين، وليعلم النّاس كيف يكونون أئمة يتولون قيادة الأمور وإدارتها.

وهنا نتساءل:

لمن كان إماما عليه الصّلاة والسّلام؟

وللإجابة نقول:

---

[687] هود 54.

كان إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام إماما للنّاس في زمنه، ولمن بعده من الأزمان، وقدوة في الإمامة لغيره؛ وذلك لأنّ الإمام يتبع في عصره، ويحتذى به من بعده.

كيف استقبل إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام هذه النعمة؟

نقول:

إنّه استقبل هذه البشارة والإنعام بقول ينم عن حبه لمن هم من ذريته الذين هم على ملته، {قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي}.

ونتساءل:

لماذا قال: من ذريتي؟

نقول:

إنّ في هذا القول دليل على أنّ إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام، على علم بأنّ من ذريته سيكون المصلح والظالم لنفسه ولغيره.

ولهذا قال: (ومن ذريتي)

ولم يقل: (وذريتي)

فاستعمل من التبعيض لأنّ هكذا أراد الله تعالى، ولا يكون من نبي الله إلا ما يريده الله، فأنطقه الله بما أراد، فكان الجواب من الله تعالى إنّه (لا ينال عهدي الظالمين)

ما الذرية؟

هي النسل الذي يأتي والولد الذي يجئ، وهنا تتجلى إمامته في حب الخير لأولاده وأحفاده، من بعده.

ولذا أراد إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام أن ينقل الإمامة إلى أولاده وأحفاده؛ حتى لا يحرموا من القيم الإيمانية، والدرجات الرفيعة عند الخالق عزّ وجلّ، التي تُؤَمِّن حياتهم وتؤدي بهم إلى نعيم لا يزول.

إلّا أنّ الله تعالى استثنى منهم الكافر والفاسد والظالم لقوله تعالى: {قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ}688

وهذا استجابة من الله تعالى لإبراهيم عليه الصّلاة والسّلام بأنّه لن ينال عهده من ذريته الظالمون.

وأنّ هذا النّوع من الذرية لن ينالوا عهد الله تعالى الذي تمناه إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام لبعض ذريته.

ثالثا:

كان لإبراهيم ملة تُتْبَع.

وقد أُمِرَ نبينا محمّد عليه الصّلاة والسّلام باتباع هذه الملة مصداقا لقوله تعالى: {ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا}689

ومن يَحِدْ عن هذه الملة يُدْخِلْ نفسه في دائرة السفهاء مصداقا لقوله تعالى:

{وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنّه فِي الْآَخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ إِذْ قَالَ لَهُ رَبّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِربّ}690

---

688 البقرة 124.

689 النحل 123.

ما ملة إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام؟

وما الفرق بين الملة والدين؟

إنّها توحيد الله تعالى.

والإخلاص في طاعته وحبه.

والصبر على البلاء.

إذا فملة إبراهيم هي ملة من أراد أن يكون من الصالحين الذين بشرهم المولى عزّ وجلّ بالنعيم الدائم.

كيف استحقّ سيدنا إبراهيم هذه المكانة؟

نقول إنّه استحقّها بكونه:

رشيدا.

عاقلا.

محبا.

طائعا.

صابرا.

إماما.

حنيفا.

خليلا.

حليما.

---

[690] البقرة 130: 131.

أوّابا.

والرُّشْد: هداية العقل بعلم إلى الأكمل في الصلاح والأعلى في الخير، بحيث لا يأتي بعد الصلاح فسادٌ، ولا بعد الخير شر، ولا يُسلمك بعد العُلو إلى الدنو، هذا هو الرُّشْد. مصداقا لقوله تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ}691

أمّا أنْ يجرَّك الصلاح الظاهر إلى فساد، أو يُسلِمَك الخير إلى شر، فليس في ذلك رُشْدٌ.692

وعليه يجب الفصل بين أن يكون الإنسان راشدا في بنيانه الجسدي، وبين أن يكون رشيدا في تفكيره وتحليله، فقد يكون الإنسان رشيدا بجسده ويكون غير ذلك في تفكيره وإدراكه.

هذا الرُّشْد الذي وصفنا رُشْد كلّ عاقل غير الرّسُل، وهو إنّه يهتدي إلى قضايا حياته، ويتصرّف فيها تصرفا سليما،

أما الرّسُل فلهم رُشْد آخر، رُشْد أعلى للدنيا وللآخرة، وهذه هبة من الله للرّسل.

قال تعالى في حقّ إبراهيم عليه السّلام: (وَلَقَدْ آتَيْنَآ إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ)

وكأن رُشْد إبراهيم لا يخضع لهذه القواعد، ولا يرتبط ببلوغ ولا نبوة.

بل هو رُشْد سابق لأوانه مُذْ كان يجادل قومه فيما يعبدون من دون الله: {فَلَمَّا رَأَى القمر بَازِغا قَالَ هذا ربِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ

691 الأنبياء 51.

692 تفسير الشعراوي ج 1، ص 5883.

يَهْدِنِي ربِّي لأَكُونَنَّ مِنَ القوم الضالين فَلَماًّ رَأَى الشمس بَازِغَةً قَالَ هذا ربِّي هاذا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يا قوم إِنِّي برياء ممّا تُشْرِكُونَ}693.

فكان إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام مُؤهّلا للرسالة منذ صِغَره، ولما أُرسل ونبئ ظهرتْ مواهب رُشْده بقدرته على مجادلة قومه ومحاججتهم.

فإبراهيم عليه الصّلاة والسّلام كان رشيدا.694

قال تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالحقّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ قَالَ بَلْ ربّكُمْ ربّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إنّه لَمِنَ الظَّالِمِينَ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النّاس لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ}695.

---

[693] الأنعام 77 ، 78.

[694] تفسير الشعراوي ج 1، ص 5883.

[695] الأنبياء 51، 67.

قضية الخِلَّة:

قال الله تعالى في كتابه الكريم محرضا على اتباع ملة إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام: {وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكلّ شَيْءٍ مُحِيطًا}696

يفتح هذا النص القرآني أمام العقل بابا من التساؤلات منها:

ما سبب اتخاذ الله إبراهيمَ خليلا؟

وهل تنتفي بهذه الخلة عبودية إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام لله تعالى؟

وما الذي يمكن أن نستفيده من هذا الخبر الإلهي؟

قبل الإجابة عن هذه التساؤلات علينا أن نقف على معنى الخليل في اللغة.

قيل:

الخِلُّ: الوُدُّ والصَّدِيق، وقولك: إنّه لكريم الخِلِّ والخِلَّة كلاّهما بالكسر أَي كريم المِصادَقة والمِوادَّة والإِخاءِ697

ولنا هنا أن نسأل:

أيعني ذلك أن الخلة هي الصداقة الناشئة عن الوُد والأخوة؟

جاءت الإجابة عن هذا السؤال في معجم الفروق اللغوية ببيان الفرق بين الصداقة والخلة فقال:

---

[696] النساء 125، 126.

[697] لسان العرب 11، 211.

الصداقة: اتفاق الضمائر على المودة، فإذا أضمر كلّ واحد من الرجلين مودة صاحبه، فصار باطنه فيها كظاهره سُمِّيا صديقين؛ ولهذا لا يقال الله صديق المؤمن في حين إنّه وليه، مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّ أَوْلَى النّاس بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ}698

أما الخلة: فهي الاختصاص بالتكريم؛ ولهذا قيل إبراهيم خليل الله لاختصاص الله إياه بالرّسالة، وفيها تكريم له، ولا يجوز أن يقال: الله خليل إبراهيم لأن إبراهيم لا يجوز أن يخص الله بتكريم.

وقال البعض: إنّه يطلق على المؤمن إنّه خليل الله.

وقال البعض: لا يقال ذلك إلا لنبي؛ لأن الله عزّ وجلّ يختصه بوحيه، ولا يختص به غيره فالأنبياء كلّهم أخلاء الله تعالى.699

ونحن نقول:

إن مفهوم الخلة مع الله تعالى مغاير تماما لمفهومها على المستوى البشري

فالخلة مع الله تعالى تنتفي فيها عدة أشياء منها:

* الحاجة. قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النّاس أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ}700

---

698 آل عمران 68.

699 معجم الفروق اللغوية 1، 214.

700 فاطر 15.

* النِّدِّيَّة. قال تعالى: {فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}701

* التكامل. قال تعالى: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ}702

ونقول أيضا:

إن الخلة مرتبة أعلى من مرتبة الصداقة وهذا على المستوى البشري، فقد يكون للشخص كثير من الأصدقاء وليس بالضرورة أن يكونوا هم أخلّاءه، بل يمكن أن يكون البعض منهم الذين حصل بينهم وبينه التوافق التام والانسجام في:

الطباع

العادات

المعتقدات

القيم

الأخلاق

المبادئ

المستوى الاجتماعي

المستوى العلمي

---

[701] الشورى 11.

[702] سورة الإخلاص.

فتميزهم عن باقي الأصدقاء في كلّ تلك الصفات جعله يختارهم أخلاء له يطلعهم على أفكاره وأسراره.

وعليه يمكننا القول:

إن الخلة مع الله تعالى ما هي إلا مرتبة عليا من مراتب العبادة له وحده سبحانه، تكون تكريما من الله تعالى لعباده الذين صدقوا الله فيما قالوا، وعملوا، وفعلوا، عبادة وطاعة وتعشقا.

وبذلك يمكن أن يكون العبد المؤمن حقّ الإيمان خليلا لله تعالى بالمفهوم الذي يظهر في قول رسول الله الخاتم محمّد عليه الصّلاة والسّلام:" كم من أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره منهم البراء بن مالك"703

وهذا المعنى للخلة يتضح من تحليل قوله تعالى: {وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكلّ شَيْءٍ مُحِيطًا}704

نرى من خلال تحليل الآيات السابقة لهاتين الآيتين الكريمتين أن الله تعالى بعدما شرط حصول النجاة والفوز بالجنّة بكون الإنسان مؤمنا مصداقا لقوله تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأنهار خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حقّا وَمَنْ

703 سنن الترمذي 5، 692.

704 النساء 125، 126.

أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ

اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ

الجنّة وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا}705

شرع في بيان الإيمان وبين فضله من وجهين:

. الأول: إنّه الإيمان بالدين المشتمل على الخضوع والانقياد لله تعالى مع إظهار كمال العبودية له وحده لا شريك له، مصداقا لقوله تعالى: {إِذْ قَالَ لَهُ ربّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِربّ الْعَالَمِينَ}706

. الثاني: هو إنّه الدين الذي كان عليه إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام، مصداقا لقوله تعالى: {مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِنَّ أَوْلَى النّاس بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ}707

وكلّ واحد من هذين الوجهين سبب مستقل بالترغيب في دين الإسلام، ولهذا قال تعالى: (وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا)

ودين الإسلام مبني على أمرين هما:

الاعتقاد.

العمل.

---

[705] النساء 122، 124.

[706] البقرة 131.

[707] آل عمران 67، 68.

أما الاعتقاد فيشير إليه قوله تعالى: (أَسْلَمَ وَجْهَهُ) فالإنسان إذا عرف ربّه بقلبه، وأقر بربّوبيته، وبعبودية نفسه له وحده دون غيره، فقد أسلم وجهه لله معتقدا جازما بذلك.

وأما العمل فأشار إليه بقوله تعالى: (وَهُوَ مُحْسِنٌ)

والإحسان يدخل فيه فعل الحسنات وترك السيئات، أي الطاعة والالتزام بالأوامر واجتناب النواهي.

وقوله (لِلَّهِ) بعد قوله (أَسْلَمَ وَجْهَهُ) يفيد الحصر والتخصيص، على خلاف ما لو كان قبله (لله أسلم وجهه) فيجوز في المعنى عندها أن يكون إسلام الوجه لله ولغيره، ولذا يكون معنى قوله: (أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ) إنّه أسلم نفسه لله تعالى وحده وما أسلمها لغيره أبدا.

ومن ذلك يظهر لنا أمران:

. الأول: أن كمال الإيمان لا يحصل إلا عند تفويض كلّ الأمر للخالق عزّ وجلّ، وإظهار التبري من الحول والقوّة، وتوكيل جميع الأمور لله تعالى، والتوكلّ عليه فيها.

. الثاني: ظهور فساد طرائق من استعان بغير الله تعالى من:

المشركين

اليهود

النصارى

فالمشركون كانوا يعبدون الأصنام مع اعترافهم بالله لتقربّهم إليه سبحانه زلفى قال تعالى: {أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِبّونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفي إِنَّ اللَّهَ

يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ}708

وكانوا يستعينون بها ويقولون: هؤلاء شفعاؤنا عند الله، مصداقا لقوله تعالى: {وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سبحانه وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}709

أما الدهريون والطبيعيون فكانوا يعبدون ويستعينون بالأفلاك والكواكب والنجوم وغيرها، على اعتبار إنّها موكول إليها أمر الكون.

واليهود كانوا يفترون على الله الكذب، ويقولون في دفع عقاب الآخرة عنهم إنّهم أبناء الله وأحباؤه، وهذا ما أبطله الله تعالى بقوله: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ}710

والنصارى كانوا يقولون: الله ثالث ثلاثة، مصداقا لقوله تعالى: {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}711

وكلّ ذلك من أكاذيب وافتراءات لم يكن إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام مقرا لها بل كان متبرئا منها مصداقا لقوله تعالى: {قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ

---

708 الزمر 3.

709 يونس 18.

710 المائدة 18.

711 المائدة 73.

لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آَلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ}712

وقوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ}713 وهذا ما بيناه في قضية الحنيفية.

وقد اشتهر عند كلّ الخلق أن إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام ما كان يدعو إلا إلى الله تعالى مصداقا لقوله تعالى: {يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا}714

وقوله تعالى: {إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ}715

فما كان يدعو إلى عبادة فلك ولا كوكب ولا صنم، بل كان دينه الدعوة إلى الله والإعراض عن كلّ ما سوى الله تعالى.

وهذا ما كانت عليه دعوة خاتم الأنبياء والمرسلين محمّد عليه الصّلاة والسّلام مصداقا لقوله تعالى: {ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}716

فلماذا الابتعاد عما دعا إليه محمّد عليه الصّلاة والسّلام، مع كونه متفقا مع ما دعا إليه إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام؟

---

[712] الأنعام 19.

[713] الزخرف 26، 27.

[714] مريم 43، 44.

[715] الأنعام 79.

[716] النحل 123.

وكلّ من العربّ واليهود والنصارى لا يفتخرون بشيء كافتخارهم بالانتساب إلى إبراهيم، وإذا ثبت هذا لزم أن يكون شرع محمّد مقبولا عند الكلّ.

وهنا نعود للإجابة عن سبب اتخاذ الله تعالى إبراهيم خليلا والذي أخبرنا الله تعالى به في قوله: {وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا}717

نقول:

أول ما يستوقفنا في النص القرآني قول الله تعالى (وَاتَّخَذَ) الذي يوحي بأن هذه المكانة العالية إنما نالها إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام مكافأة له لأسباب منها:

. توحيده لله حنيفا {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}718

. عبادته الله وحده {إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ}719

. صبره وتحمله الأذى في سبيل دعوته الآخرين لعبادة الله وحده {قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ}720 وقوله تعالى: {قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا}721

---

717 النساء 125.

718 النحل 120.

719 الأنعام 79.

720 الأنبياء 68.

721 مريم 46.

. إصراره على مواصلة الدعوة لله تعالى {وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ ربّي شَيْئًا وَسِعَ ربّي كلّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحقّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ}722

. طاعته لله تعالى {إِذْ قَالَ لَهُ ربّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِربّ الْعَالَمِينَ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ}723

. ثقته بنصر الله تعالى له {وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى ربّي سَيَهْدِينِ}724

. حبه للآخر المتمثل في:

1. إصراره على دعوة أبيه، {إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرّحمن فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا}725

---

[722] الأنعام 80، 81.

[723] البقرة 131، 132.

[724] الصافات 99.

[725] مريم 42، 45.

2. إصراره على دعوة قومه إلى الدين الحقّ {وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ ربّي شَيْئًا وَسِعَ ربّي كلّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ}[726]

3. وتوصية أبناءه به {وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ}[727]

4. وتمنيه الخير لذريته {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ ربّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ربّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النّاس فَمَنْ تَبِعَنِي فَإنّه مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}[728]

وعليه:

يكون اتخاذ إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام خليلا على وجهين:

* الأول: أن الله تعالى لما ذكر ملة إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام، ووصفه بكونه حنيفا، ثم قال بعده: (واتخذ الله إبراهيم خَلِيلا) أشعر ذلك بأن اتخاذ الله تعالى لإبراهيم عليه الصّلاة والسّلام خليلا كان لكونه عالما وعاملا بذلك الشرع الذي أُنزل عليه ومؤديا للتكاليف التي كلّفَ بها من الله تعالى، وما يؤكد هذا قوله تعالى: {وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ ربّهُ بِكلّمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ}[729]

وفي هذا دليل على إنّه سبحانه وتعالى إنما جعله إماما للخلق بعد أن أتم تلك الكلّمات.

---

[726] الأنعام 80.

[727] البقرة 132.

[728] إبراهيم 35، 36.

[729] البقرة 124.

مع وضوح الفرق بين الجعل والاتخاذ من حيث المعنى فالجعل يوحي بأن الشيء المجعول له هبة من الله تعالى لحكمة لا يعلمها إلا الله تعالى، أما الاتخاذ يوحي بكون ما اتخذ له كان مكافأة من الله تعالى على أعمال قام بها

ولذا فإن الآية دلت على أن إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام إنما كان بهذه المكانة الرفيعة، وهو كونه خليلا لله تعالى، بسبب إنّه كان عاملا بتلك الشريعة، وداعيا لها بكلّ حب وإخلاص ومثابرة.

ولذا فإن من عمل بهذا الشرع مقتديا بإبراهيم الخليل إماما، لابدّ وأن يفوز بأعظم المناصب في الدين، فيكون خليلا لو أقسم على الله لأبره، وذلك يفيد الترغيب العظيم في هذا الدين.

* الثاني: من خلال ربّط هذه الآية بما قبلها من الآيات، يمكننا القول:

أن الخلة درجة مترتبة على الإخلاص في العبادة، والطاعة لله تعالى، وأن إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام لما بلغ من علو الدرجة في الدين أن اتخذه الله خليلا كان جديرا بأن يُتَّبَع في خُلُقَهُ وملته ومنهجه حتى يمكننا النجاة من النّار ودخول الجنّة.

ولو سأل سائل:

لم لا يجوز إطلاق اسم الابن في حقّ عيسى عليه السلام على سبيل الإعزاز والتشريف، كما جاز إطلاق اسم الخليل على إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام تشريفا وتكريما له؟

نقول:

إن هناك فرقا كبيرا بين نسبة كلّا من الخلة والبنوة لله تعالى.

فالخلة تقتضي الحب بين الله تعالى وعباده دون أن تستوجب المماثلة والمجانسة فقد يكون العبد حبيبا لله، والله حبيبا للعبد، مصداقا لقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}[730]

أما البنوة فهي تقتضي المماثلة والمجانسة لأن الولد لابدّ أن يكون من جنس والده تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، قال تعالى: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ}[731]

والفرق واضح بين قولنا (خليل الله) و(ابن الله) فخليل الله عبارة تنم عن المحبة والطاعة والامتثال لله تعالى من عبد الخليل مع محبة الله تعالى له أيضا، ولا يقتضي ذلك الجنسية، أما ابن الله فإنّه لا يشعر إلا بالجنسية، والمماثلة، وجلّ الله عن مجانسة الممكنات ومشابهة المحدثات، {مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سبحانه إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}[732]

وقد جاء عقب إخبار الله تعالى باتخاذ إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام خليلا قوله تعالى: {وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكلّ شَيْءٍ مُحِيطًا}[733] والذي فيه تأكيد على:

* أن الله تعالى لم يتخذ إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام خليلا، لاحتياجه إليه في أمر من الأمور كما تكون خلة الآدميين.

---

[730] المائدة 54.

[731] سورة الإخلاص.

[732] مريم 35.

[733] النساء 126.

وكيف يعقل ذلك في حقّ من له ملك السماوات والأرض؟!

وكيف يعقل أن يكون الله تعالى الذي له ملك السماوات والأرض محتاجا إلى البشر الضعيف؟!

ولذا فإن اتخاذ الله إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام خليلا كان بمحض الفضل والإحسان والكرم، وتكريما وتشريفا منه تعالى لإبراهيم عليه الصّلاة والسّلام؛ لأنّه كان مخلصا في العبودية.

* إنّه تعالى المتصف بكلّ الصفات الحسان، فهو المحيط بكلّ شيء، وله يخضع كلّ شيء، ومن كان كذلك كان مطاعا ممن هم تحت إحاطته والذين أمرهم بيده، فوجب على كلّ عاقل أن يخضع لتكاليف الله تعالى، وأن ينقاد لأمره ونهيه، مصداقا لقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرّسول وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ} 734

* كمال قدرته تعالى بقوله: (وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ) وكمال علمه بقوله: (وَكَانَ اللَّهُ بِكلّ شَيْءٍ مُحِيطًا)

* عبودية الخليل إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام فالله سبحانه وتعالى لما وصف إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام بأنّه خليله، بين إنّه مع هذه الخلة عبد له، فلا تخرجه الخلة من عبوديته لله تعالى؛ وذلك لأن لله ما في السموات وما في الأرض، ومصداقا لقوله تعالى: إنْ كلّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آَتِي الرّحمن عَبْدًا} 735

734

735 مريم 93.

ومصداقا لقوله تعالى: {لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا}736

فإذا كان كلّ من في السماوات والأرض في ملكه وتسخيره ونفاذ ألوهيته فكيف يعقل أن يقال: إن اتخاذ الله إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام خليلا يخرجه عن عبوديته لله تعالى؟

حنفية إبراهيم:

قال تعالى: {مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِين}737

فلنا أن نتساءل:

ما الحنيفية؟

ما معنى حنيفا؟

لماذا أردف الله تعالى لفظة(حَنِيفًا) بلفظة (مُسْلِمًا)؟

وما علاقة الحنيفية بالإسلام؟

وما دلالات النفي الوارد قبل وبعد قوله تعالى: (وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا)؟

ولماذا قال تعالى (وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِين)؟

وهل كان هذا الخطاب في زمن الرّسول محمّد أم إبراهيم عليهما الصّلاة والسّلام؟

---

736 النساء 172.

737 آل عمران 67.

وهل كان في زمن إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام هودا أو نصارى؟

وللإجابة عن كلّ هذه التساؤلات لابدّ أن نقف على ما قاله العلماءِ الأوائل ليتسنى لنا الوقوف على المفهوم الصحيح لهذه اللفظة.

قيل: الحَنِيفُ هو المائِلُ من خير إلى شرّ، أَو من شرّ إلى خير، ومنه أُخذ الحَنَفُ. وحَنَفَ عن الشيء وتَحَنَّفَ مال.

والحَنِيفُ: هو المسْلِمُ الذي يَتَحَنَّفُ عن الأَدْيانِ أَي يَمِيلُ إلى الحقّ.

وقيل هو المخْلِصُ، وقيل هو من أَسلم في أَمر الله فلم يَلْتَوِ في شيء.

وقيل: الحَنيفُ المسْتَقِيمُ.

تَعَلَّمْ أَنْ سَيَهْدِيكُمْ إِلَيْنا طريقٌ لا يُجُورُ بِكُمْ حَنِيفُ[738]

ونقول بما أنّ من معاني الحنيفية في اللغة:

الميْلُ

الإخلاص

التسليم

الاستقامة

---

[738] لسن العربّ 9، 56.

فإن الحنيفية في الإسلام هي الميْلُ إلى الله تعالى، والاستقامةُ على منهجه، والالتزام بالتسليم لأوامره ونواهيه، والإخلاص في عبادته تعالى وحده لا شريك له.

ولذا فإنّ:

الحنيفية هي الميل عن الباطل إلى الحقّ، مصداقا لقوله تعالى: {إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ}739

وقد وصف الله تعالى خليله إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام الحنيف، بإنّه ذو قلب سليم، مصداقا لقوله تعالى: {وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ}740

وعليه فالحنيفية هي قدرة الوصول إلى الله تعالى من غير نبي أو رسول أو داعية.

وهنا قد يتساءل متسائل:

كيف يمكن التوصل إلى الله تعالى دون نبي أو رسول أو داعية؟

وبماذا يكون التوصل إليه تعالى؟

نقول:

يمكن التوصل إلى الله تعالى من دون نبي أو رسول عن طريق القلب السليم الذي به يتأمل الإنسان فيما حوله من دلائل مادية توصله إلى ذلك مصداقا لقوله تعالى: {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ

---

739 الشعراء 89.

740 الصافات 83، 84.

لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آَذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ}741

وهذا ما أظهره نبي الله إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام في مجادلاته مع قومه، مصداقا لقوله تعالى: {فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا ربّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ ممّا تُشْرِكُونَ إِنّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ}742

فكان إعلان حقّيقة الرّب المعبود بحقّ (الله) من إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام لقومه بعد جولة عقلية في المحيط، الذي هو دلائل مادية وعقلية، توصل المتمعن فيها بقلب سليم إليه تعالى دون نبي أو رسول.

ونقول الحنيفية عبارة عن:

تصديق، وتهيؤ، واستعداد ربّاني للإسلام والتسليم لله تعالى.

والتصديق: هو الإيمان بأن الله واحد، وهذا ما يجعله حنيفا متعشقا لله

ولذا فالتحنّف فعل يسبقه:

تصديق بالآيات والدلائل

تهيؤ

استعداد

741 الحج 46.

742 الأنعام 78، 79.

فيكون الترتيب كالتالي:

أولا: التصديق بأن الله واحد أحد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد.

ثانيا: التهيؤ النفسي بأن المعبود بحقّ، والمالك المطلق، والمدبر المتصرف في كلّ الأمور، هو الله الواحد الأحد، وهذا يحقّق:

الرضا

الطمأنينة

الاستئناس

ثالثا: استعداد لتحمل الأمانة ويتطلب:

الطاعة

العمل

الدعوة

رابعا: التحنّف

وعليه:

فالحنيفية بالنسبة لإبراهيم عليه الصّلاة والسّلام تأسست على الآتي:

اطْلاعٌ من الله تعالى

تصديق بالمطلع عليه

تسليم لله فيما أطلعه

طاعة لله تعالى فيما أمر ونهى

عمل بما صدق وسلّم

أما الحنيفية من بعد إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام متأسّسة على:

تأسي

اتباع

ممّارسة

ومن مظاهر تحنف إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام مجادلاته، وتسليم سيدنا محمّد عليه الصّلاة والسّلام واتباعه لملة إبراهيم حنيفا، مصداقا لقبوله تعالى: {ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}743

وعليه:

فالمعنَى في وصف إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام (حنيفا) هو إنّه حَنَفَ إلى الله، فالتحنّف هو إعلان الطاعة المسبقة لمن بيده الأمر الطلق، وهو اعتراف من النبي بأن الله واحد لا شريك له.

ولذا كان جدال إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام مع قومه من أجل أن يثبت لهم أن الله واحد، ولا مستحقّ للعبادة بحقّ غيره تعالى.

علاقة الحنيفية بالإسلام:

[743] النحل 123.

قال تعالى: {مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}744

ففي هذه الآية نفي الله تعالى عن إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام ثلاثا، واثبت له اثنين.

فنفي عنه:

اليهودية (مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا)

النصرانية (وَلَا نَصْرَانِيًّا)

الشرك (وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

وأثبت له:

الحنيفية (وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا)

الإسلام (مُسْلِمًا)

وهنا نلحظ الترابط والتلاصق الوثيق بين الحنيفية والإسلام من قوله تعالى: (حَنِيفًا مُسْلِمًا) بحيث يمكننا أن نقول:

إن الحنيفية مرحلة سابقة على الإسلام وتؤدي إليه، فكلّ من تحنف على طريقة إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام، بالضرورة أن يكون مسلما، ولا يمكن أن يكون يهوديا ولا نصرانيا ولا مشركا؛ وذلك لأن إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام لم يكن منهم، مصداق لقوله تعالى: {وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}745

744 آل عمران 67.

745 البقرة 135.

فاليهودية والنصرانية لم تكن على علم بالحنيفية، بدليل أن إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام كان أول الحنفاء، واليهودية والنصرانية لم تكن إلا من بعده، مصداقا لقوله تعالى: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِنَّ أَوْلَى النّاس بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ}[746]

ولأنّ إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام كان حنيفا فهو:

مسلم

موحد

طائع

مؤمن

متيقن

طالب للطمأنينة {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ ربّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كلّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (260)}[747]

لا يشك في أن الله واحد

---

[746] آل عمران 65. 68.

[747] البقرة 260.

وتَحَنَّفَ الرجلُ أَي عَمِلَ عَمَلَ الحَنيفيّة، وكلّ من يتحنف يستند في تحنفه إلى إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام، فكانت حنيفيته لكلّ من جاء بعده، مصداقا لقوله تعالى: {إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا}[748] فإبراهيم كان إماما في حنيفيته لكلّ من أراد أن يتحنف، وإماما هنا تعني:

مثالا يُحْتَذى، وأسوة حسنة تُتْبَع ويُؤخذ بها

والحنف يقابله الجنف، الذي هو: المَيْلُ والجَوْرُ جَنِفَ جَنَفا[749].

وهو ميل عن الاستقامة إلى الضلال، قال تعالى في كتابه الحكيم: {فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}[750]

والحنيف جمعه حنفاء، قال عزّ وجلّ:{وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصّلاة وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ}[751]

ولذا فإن:

الحنيفية هي الاستقامة على دين القيمة الذي يتمثل في:

1- الطاعة التامة لله تعالى والمتمثلة في إقامة الصّلاة وإيتاء الزكاة

[748] البقرة 124.
[749] لسان العربّ 9 ، 32.
[750] البقرة 182.
[751] البينة 5.

2- عبادة الله تعالى وحده لا شريك له

3- الإخلاص له تعالى في العبادة

ولهذا فحنفية إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام تحتاج إلى بينة مصداقا لقوله تعالى: {لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ}752

والبينة هي رسول برسالة من الله تعالى مصداقا لقوله تعالى: {رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ}753

وعليه: فالتحنّف اتباع طريق الاستقامة باتباع الرّسُل والأنبياء الذين بعثهم الله تعالى على ملة إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام.

والحنيف هو المقبل على الله المعرض عما سواه، وهو المستقيم المتمسك بالإسلام، فكلّ من كان على دين إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام كان حنيفا مسلما.

ولا يكون المرء حنيفا إلا أن يكون:

موحّدا: لأنّ مقابل التوحيد الشرك، فإذا حاد عن الشرك فلن يكون إلا للتوحيد.

مؤمنا: لأنّ مقابل الإيمان الكفر، فإذا حاد عن الكفر فلن يكون إلا للإيمان.

مسلما: لأن الدين عند الله الإسلام مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ}754

---

752 البينة 1.

753 البينة 2، 3.

وقوله تعالى: {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآَخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ}755

والحنيفية هي ملة إمام الحنفاء إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام، مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}756

كما إنّها ملة جميع المرسلين أيضا مصداقا لقوله تعالى: {ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}757

والحنيفية صفة للملة التي جاء بها إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام وتخصيص لها، وتكذيب لافتراءات اليهود والنصارى والمشركين الذين ادعوا أن إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام كان على ملتهم.

فأين هم من هذه الملة؟!

وأيضا تكذيب لادعاءاتهم بأن إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام كان على ملتهم، وأن الهداية لا تكون إلا باتباعها، مصداقا لقوله تعالى: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ}758

وقوله تعالى: {وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}759

---

[754] آل عمران 19.

[755] آل عمران 85.

[756] النحل 120.

[757] النحل 123.

[758] آل عمران 65.

[759] البقرة 135.

وهذا من دلائل النفي في قوله تعالى: {مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}760

فما هو أساس هذه الملة الحنيفية؟

قال تعالى: {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}761

ومن هذه الآيات الكريمة يتضح لنا أساس ملة إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام، وهو توحيد الله تعالى إيمانا مصداقا لقوله تعالى: (تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ) والذي عندها ينتهي العداء بين من هم على ملة إبراهيم حنيفا، ومن هم على غير ملته، مصداقا لقوله تعالى: (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ)

وعليه فالحنيف هو الذي:

* يوحّد الله تعالى

[760] آل عمران 67.

[761] الممتحنة 4،5.

* يؤمن به، {آَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ}762

* يحبه {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}763

* يطيعه، {قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرّسول فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ}764

* يعبده مخلصا له العبادة {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصّلاة وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ}765

* يدعوه وحده، {فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ}766

* لا يستعين إلا به، {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}767

* يوالي من يحبه، مصداقا لقوله تعالى: {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ

---

762 الحديد 7.

763 المائدة 54.

764 آل عمران 32.

765 البينة 5.

766 غافر 14.

767 الفاتحة 5.

الصّلاة وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}768

* متبرئا من عبادة ما سواه، معتقدا بطلانها، {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّه سَيَهْدِينِ}769

* لا يوالي من يشرك به، مصداقا لقوله تعالى: {لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ}770

هذه هي ملة الأنبياء والرّسُل بل ملة الخلق التي فطر الله تعالى عليها البشر،

وعليه فالحنفية هي:

. فطرة الله، مصداقا لقوله تعالى: {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاس عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النّاس لَا يَعْلَمُونَ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصّلاة وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ}771

. صبغة الله، مصداقا لقوله تعالى: {صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ}772

---

768 التوبة 71.

769 الزخرف 26، 27.

770 آل عمران 28.

771 الروم 30، 31.

772 البقرة 138.

وقد أمر الله تعالى نبينا محمّد عليه الصّلاة والسّلام بعبادته تعالى: {قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ}773

والقلب لا يصلح ولا يفلح، ولا يستقيم ولا يطمئن، إلا بالإخلاص في عبادة الله الواحد الأحد، وهذا يشمل كلّ عبادةٍ يقوم بها الخلق، فلا فرق بين ما إذا كانت العبادة قوليةً أو فعليةً أو قلبية، واجبةً أو مستحبة، فيجب أن تكون العبادة بجميع أنواعها لله سبحانه وتعالى وحده لا شريك له.

فالمخلص هو الذي خلَّصت عبادته من أي نوع من أنواع الشرك.

والحنيفية هي الملة التي بشر بها إبراهيم الحنيف عليه الصّلاة والسّلام، ودعا بها جميع الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام وهي أن:

توحد الله تعالى يقينا لا شريك له

تعبد الله تعالى مخلصا له الدين

وهذا هو حقّيقة وأساس ملة إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام (عبادة الله بالإخلاص)، والإخلاص: حب الله وإرادة وجهه تعالى واستحالة الشرك به

وعليه فالحنيف هو الذي يؤمن متعلقا متعشّقا بالله تعالى.

ولذا كانت:

---

[773] الزمر 11، 12.

. ملة إبراهيم منهاجا يُتّبَع، ولا يأمرنا الله تعالى إلا باتباع كلّ صحيح وسليم، مصداقا لقوله تعالى: {قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}774

. ملة إبراهيم شهادة براءة من الشرك بالله تعالى، مصداقا لقوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّه سَيَهْدِينِ وَجَعَلَهَا كَلِّمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}775

وهناك ارتباط بين ملة إبراهيم وما تبعها من رسالات سماويّة آخرها الرّسالة المحمّدية، وطالما أمر المولى عزّ وجلّ آخر الرّسُل باتباعها قال تعالى: {ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِين}776

وهذا بحد ذاته يوضّح أن الملة التي دعا إليها محمّد – عليه الصّلاة والسّلام– ما هي إلا امتداد لملة إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام.

وقال الله تعالى: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}777

في هذه الآية الكريمة أربّع صفات متلازمة في شخص إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام وهي:

أمّة

قانتا

[774] آل عمران 95.

[775] الزخرف 26 28.

[776] النحل 123.

[777] النحل 120.

حنيفا

متبرئا من الشرك

ولنا أن نتساءل:

ما سبب هذا التلازم؟

نقول:

أوّلا: كان إبراهيم أمّة في أخلاقه، إذ تجمّعت فيه خصال الخير فكان أمة في إخلاصه وحبه وعبادته لله تعالى، وهذا يستوجب دوام الطاعة المتمثلة في القنوت لله تعالى.

ثانيا: إنّ القنوت لله تعالى معناه إظهار الخشوع، ودوام الطاعة لله تعالى، فهو ملازم لطاعة الله، غير منفك عنها.

ثالثا: حنيفا موحدا تجمعت فيه خصال النبل والسماحة بقنوته فهو بذلك قد حقّق مبدأ الحنيفية التي تدعو لدوام الخشوع والطاعة لله تعالى.

رابعا: من نتائج الخصال الثلاثة الأُولى كانت براءته من الشرك، والميل عن طريق الضلال إلى طريق الحقّ.

وعليه:

فإن الدين الذي لا يُقبَل عمل المرء إلا بإتباعه هو ملة إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ

وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ}778

وقوله تعالى: {أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ}779

وقوله تعالى: {وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّه فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ}780

وقوله تعالى: {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ}781 وقوله تعالى: {أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِّمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}782

وقوله تعالى: {وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا}783 وغيرها من الآيات.

فالحنيف هو من يستقيم على الحقّ موحدا لله، والمائل عن الحقّ مشركا بالله هو الصابئ،

---

[778] آل عمران 19.

[779] آل عمران 83.

[780] البقرة 130.

[781] آل عمران 85.

[782] الشورى 21.

[783] النساء 125.

فالحنفاء هم من على فطرة الله، قال تعالى: {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النّاس عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النّاس لَا يَعْلَمُونَ}784

والفطرة هي القدرة على الوصول لوحدانية الله تعالى بالعقل أو بنبي.

أما الصابئة فهم على مذهب ابتدعوه واكتسبوه.

ونقول:

إن الحنيفية بالنسبة للأنبياء عموما هي مرحلة ما قبل الاجتباء مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}785 فإبراهيم عليه الصّلاة والسّلام كان حنيفا موحدا لله تعالى قبل اجتباء الله تعالى له.

أما بالنسبة لغير الأنبياء فهم على ملة إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام مسلمين حنفاء، مصداقا لقوله تعالى: {قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}786

وعليه فالحنيفية نجدها في قوله تعالى: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ}787

---

[784] الروم 30.

[785] النحل 120، 121.

[786] آل عمران 95.

[787] الإخلاص.

فهذه السورة حددت طبيعة العلاقة بين الخالق وعباده، وكيف يجب أن يكون المنهاج الذي يسير عليه العباد للوصول لحب الله تعالى، وهذه علاقة قائمة على:

أن هناك خالق عظيم لا شريك له

توحيد الله تعالى

تنزيه الله عن النقص والتبديل

نفي الشبيه والشريك لله تعالى

واجبنا عبادته وحده بإخلاص

وعليه فالذي يتَّبع إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام، يكون صاحب قضية دائمة، وهي التي تستوجب:

الدّعوة

الجهاد

المواجهة في سبيل إحقّاق حقّ

ولذا فمن لم يتبعه ليس له قضية باقية، وقضاياه كلّها سطحية منتهية.

ولذا كان إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام صاحب قضية، فهو لم يدع من أجل هدف شخصي، بل كان داعيا من أجل الآخرين؛ لأنّه يريدهم على الفضائل.

ولذا فالحنيفية تربّط الإنسان

بربّه

بضميره

بغده

بمحيطه

ببني جنسه

فالحنيفية هي أن يكون الحنيف متعلقا وباحثا في الوجود وفي الدلائل التي ما وراء الوجود عما يوصله إلى توحيد الله تعالى.

وعليه

فالحنيفية تفتح باب التوحيد، وهي التي فتحت باب نزول الرسالات من بعد إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام؛ لأن النّاس بدأت تبحث عن واحد لا متعدد.

ولذا فالعظة التي يجب أن نأخذها هي أن نكون باحثين على الحقّيقة بالتدبر والتأمل في أنفسنا وما حولنا من المخلوقات، مصداقا لقوله تعالى: {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ}[788]

وعليه فالحنيفية

تحقّق وحدة الاتجاه

تحقّق وحدة العقيدة

تحقّق وحدة المعبود

[788] الغاشية 17. 21.

تحقّق وحدة الدين

وهي (الحنيفية) أول من أسس قواعد المنهج فهي علاج:

للكفر

للشرك

للانحراف

والحنيفية هي التي وصى بها إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام بنيه مصداقا لقوله تعالى: {وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ}[789]

ونقول:

إن هناك فرق بين حنفية إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام ورسالته

فالحنيفية: توحيد لله

والرّسالة:

عمل

تنظيم

تفصيل

حدود

ثواب

عقاب

[789] البقرة 132.

ومع أنّ البعض أورد أن الحنيفية تعني الميل، ألا أننا نعتقد أن الحنيفية تعني الاستقامة مصداقا لقوله تعالى: {وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ}790

وهذه هي الحنيفية بحقّ أن نكون لله موحدين لا نشرك به شيئا، والحنيفية في الأصل كما قلنا: مأخوذة من (حنف) وهو الميل من الضلال إلى الاستقامة، ويقابلها (الجنف) وهو الميل من الاستقامة إلى الضلال.

ولسائل أن يتساءل:

ما مميزات الحنيفية؟

نقول:

إنّ للحنيفية مميزات وخصائص منها:

1 . أن نوحد الله تعالى وحده فلا نشرك به شيئا، قال تعالى: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ}791

2 . الإخلاص في التوحيد: وهو بصفاء نوايانا ونقائها تجاه المولى عزّ وجلّ، مصداقا لقوله تعالى: {وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا}792

---

790 الشورى 15.

791 الإخلاص 1: 4.

792 النساء 125.

3 . أمر الله تعالى فيما بعد إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام جميع النّاس بها، مصداقا لقوله تعالى: {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصّلاة وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ}793

4 . فطر الله تعالى عليها الخلق، مصداقا لقوله تعالى {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النّاس عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النّاس لَا يَعْلَمُونَ}794

5 . هي حقّ الله تعالى على العباد وواجبهم نحوه، مصداقا لقوله تعالى: {ربّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِربّكُمْ فَآمَنَّا ربّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ}795

6 . الحنيفية دعوة الخالق تعالى للبشر بالهداية:

وهو الاستقامة لله تعالى، كما جاء في قوله تعالى: {وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}796

7 . الاستمرارية على الفطرة، قال تعالى: {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النّاس عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النّاس لَا يَعْلَمُون}797

8 . الحنيفية توحد البشر على الحقّ، قال تعالى: {ما كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ

---

793 البينة 5.

794 الروم 30.

795 آل عمران 193.

796 البقرة 135.

797 الروم 30.

الْمُشْرِكِينَ إِنَّ أَوْلَى النّاس بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِين} 798

9 . الحنيفية إقرار بالهداية، مصداقا لقوله تعالى: {قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي ربّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمّاتِي لِلَّهِ ربّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ} 799

10 . الحنيفية قنوت وشكر لله تعالى، مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ} اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} 800

11 . الحنيفية بعد إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام أمر باتباع مصداقا لقوله تعالى: {ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} 801

12 . الحنيفية ملة تدعو للتعلّم والتهذيب والحوار:

من سيرة إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام، نجد أن محور وأساس ملته الحنيفية، هو العلم القائم على البحث والتجريب للوصول للحقّائق، فلنتأمل قول الله تعالى: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا ربّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ

---

798 آل 67: 68.

799 الأنعام 161: 163.

800 النحل 120، 121.

801 النحل 123.

بَازِغًا قَالَ هَذَا رِبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رِبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رِبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رِبِّي شَيْئًا وَسِعَ رِبِّي كلّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحقّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ}[802]

وعليه نتساءل:

ما غرض الخليل عليه الصّلاة والسّلام من تحقّير ما يُعبد من دون الله أمام قومه؟

كيف كان إعلان تبرئه من الضلال والشرك؟

نقول:

أراد إبراهيم الحنيف عليه الصّلاة والسّلام، أن يلفت نظر قومه إلى ضآلة وضعف ما يعبدون، وفساد ما يعتقدون، كالكواكب والشمس والقمر، باستخدام المنطق الذي به سيصل إلى تحقّيق عدم جدوى هذه المعبودات، بما لديه من علمٍ وحكمة، ليعلن النتيجة في نهاية هذا العرض بإنّه بريء من معتقداتهم الباطلة.

فالتصريح والتقرير جاء على لسان الخليل قبل أن يأتي الرفض من قومه ليكون أولهم في اتخاذ القرار محرّضا.

---

[802] الأنعام 74: 81.

ومدلول ذلك إنّه عليه الصّلاة والسّلام يؤكد لهم إنّه على حقّ، وهم على باطل، وهذا تنبه من العقل البشري حين يُنعم الله عليه بالهداية والعلم.

ويوضح ذلك إنّه عليه الصّلاة والسّلام اختار أقربّ دليل وأكبره وهو الماثل أمام أعين قومه ولا يمكنهم رفضه أو التعامي عنه (السماوات والأرض) مصداقا لقوله تعالى: {إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ}

ولنا هنا أن نتساءل:

كيف حسم أول الحنفاء هذه القضية؟

نقول:

لقد حسم إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام القضية بالعلم والبرهان، فبعقله استطاع أن يدلّل على معتقده الحقّ ويدافع عنه بعقله وإيمانّه، وهو على ثقة كاملة بأن قومه ليسوا على يقين بما يعتقدون.

وكذلك انتصر بالحجّة على كبيرهم وهو الملك أو السلطان، حين أراد أن يحاججه في ربّه بالقدرة على الإحياء والإماتة، مصداقا لقوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ أَنْ آَتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِّ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}803

وكأن الحقّ يريد أن نتعلم من حكمة سيدنا إبراهيم الحنيف وعلمه، أن لا يمكن الانتصار والوصول للحقّ إلا عن طريق العقل

[803] البقرة 285: 289.

المتأمل، والقلب السليم فكان إبراهيم الحنيف معلما حكيما للحنفاء من بعده.

فقد أراد إبراهيم الحنيف أن يصل بخصمه إلى مستوى لا يستطيع معه الآخر الخلاص أو الخروج منه.

فكان باستطاعة سيدنا إبراهيم أن يقول: أنت لا تستطيع أن تميت بل تقتل، (فالقتل غير الموت، والفرق بينهما كبير)، لكنه كان الأكثر علما وإيمانا وصدقا، فواجهه بالحجّة التي لا يمكن أن ينفيها أي عقل بشري ولو كان غاية في الكفر والضلال.

فماذا كانت نتيجة الجدل؟

نقول:

كانت نتيجته كما قال الله تعالى: (فَبُهِتَ الذي كَفَر).

وكلّ هذه حجج يوضحها قول الله سبحانه: {وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ آتَيْنَاهَآ إِبْرَاهِيمَ على قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ ربّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ}804

لقد أعطى الله سبحانه إبراهيم الحجّة على قومه، فكانت له عليهم درجات وسمو وارتفاع؛ لأن إقامة الحجّة هزيمة للغير، وانتصار ورفع لمكانة الموضوع والعمل.

13) الموازنة في الاختيار:

قال الله تعالى: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إنّه كَانَ صِدّيقًا نَبِيًّا إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا

804 الأنعام 83.

يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحمن فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آَلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ ربِّي إنّه كَانَ بِي حَفِيًّا وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو ربِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ ربِّي شَقِيًّا}[805]

ونتساءل:

كيف وازن إبراهيم الخليل بين حبه لأبيه ورغبته في نجاته من العذاب وحبه لله تعالى؟

نقول:

إن دعوة إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام تخالف نهج أقربّ النّاس إليه (عمه آزر)، ونلاحظ التكرار الحنون للفظة (يَا أَبَتِ) في الحوار الذي تسلسل بشكلّ لطيف وعقلاني، لكنه بالرغم من هذا العطف والحنان الذي امتلأت به كلّماته عليه الصّلاة والسّلام إلا أن ذلك لم يكن ليجعله مائلا للباطل، بل استقام حنيفا ليكون مع الحقّ.

فالحنيفية تدعو للموازنة بين أنواع الحب التي تحيط بالإنسان من اتجاهات متباينة، وعلى من أراد أن يكون حنيفا فلابدّ من اختيار الاتجاه الصحيح بالرّحمة واللين والقوّة في آن واحد.

وعليه فصفات الحنيف منها أن يكون:

أواهً

[805] مريم 41: 48.

حليما

رشيدا

منيبا

حكيما

شكورا

صبورا

موقنا

كريما

متسامحا

رحيما

صادقا

ودودا

هاديا

متبرئا من الشرك

مجادلا بالحقّ وللحقّ

ذو قلبٍ سليم

إنّه إبراهيم الحنيف وأبو الأنبياء عليه الصّلاة والسّلام، صدق الله وأخلص في توحيده لله، فاتخذه تعالى خليلا، وكان إبراهيم عليه

السلام يدرك مكانته عند خالقه كما في قوله تعالى: {قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّه كَانَ بِي حَفِيًّا}806

اللهم اجعلنا من الهادين المهديين المنتهجين نهج الحنفاء، ملة جميع الأنبياء والرّسُل، مسلمين له تعالى ومخلصين في طاعته.

قضية الحنيفية:

وعليه يتم طرح قضية الحنيفية:

قلنا: إنّ الحنيفية هي الاستقامة على دين القيمة،

ولقائل أن يقول: إن كلّ من اتبع دينا من الأديان السماوية، أو غيرها يكون حنيفا وفق منظوره باعتباره على الدين القيم.

نقول:

لا يكون على حنيفية إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام إلا من كان على ما كان عليه إبراهيم من توحيد وعبادة ودين.

ونحن نعلم يقينا أن إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام لم يكن مشركا بل كان موحدا لله تعالى لا شريك له، مصداقا لقوله تعالى: {إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ}807

ومصداقا لقوله تعالى: {إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ}808

---

806 مريم 47.

807 البقرة 131.

808 الأنعام 79.

فمن هذا القول حكايةً على لسان إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام يظهر لنا الآتي:

1. إبراهيم مؤمن بالله تعالى، بدليل قوله: (إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ) وما يفيد الوحدانية هنا في قوله هذا، اسم الموصول (الذي) المستعمل للدلالة على الفردية، فهو لم يقل (اللذان) الدال على المثنى أو (الذين) الدال على الجمع.

فالذي فطر السماوات والأرض واحد أحد (الله)

والذي وجّه إليه إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام وجهه مؤمنا عابدا، واحد أحد (الله)

2. إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام موحد، بدليل قوله (حَنِيفًا)، وقد قلنا أن الحنيف هو القادر على الوصول إلى الله تعالى بدون نبي أو رسول أو داعية.

وهذا ما حصل مع سيدنا إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام بعد أن تأمل في ملكوت السماوات والأرض محاجا قومه بما برعوا فيه من جدل وحجج عقلية ومنطقية، حتى توصل بهم إلى معرفة الله تعالى المعبود بحقّ (إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)

فهو لا يعبد إلا الله تعالى وحده، ولا يشرك معه شيئا في العبادة، ولذا ما كان من المشركين.

3. إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام ليس مشركا، بدليل قوله: (وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

ولو سأل سائل:

لماذا نفي إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام الشرك، ولم ينفي عن نفسه اليهودية والنصرانية؟

وهل في عدم نفيه ذلك ما يدل على إنّه يهوديا أو نصرانيا كما يدعون؟

نقول:

إنّ السبب الذي لأجله نفي إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام عن نفسه الشرك، ولم ينف اليهودية والنصرانية هو:

أنّ الشرك بالله كان موجودا في عهد سيدنا إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام، فقومه كانوا يعبدون من دون الله أصناما وتماثيل مصداقا لقوله تعالى: {إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ قَالُوا وَجَدْنَا آَبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآَبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}[809] وقوله تعالى: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ}[810]

ولم ينف إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام عن نفسه اليهودية ولا النّصرانية لأنّهما لم يكونا في عهده، وما كانا إلا من بعده مصداقا لقوله تعالى: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ}[811]

فقد ادعى كلّ من اليهود والنصارى أن إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام كان منهم، فاليهود كانوا يقولون: إن إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام كان على دينهم، والنصارى كذلك كانوا يقولون: إن إبراهيم

---

[809] الأنبياء 52، 54.

[810] الشعراء 69، 71.

[811] آل عمران 65.

عليه الصّلاة والسّلام على دينهم، وفي هذا جادلوا رسول الله عليه الصّلاة والسّلام والمؤمنين بغير علم مصداقا لقوله تعالى: {هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ}812

وهنا لنا أن نتساءل:

هل ينتسب الأبناء إلى الآباء وينتمون إليهم أم العكس؟

إنّ بني إسرائيل يقرون إنّهم من أبناء إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام، وبما إنّهم على اليهودية، فإنّهم نسبوا أبوهم إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام بالضرورة إلى دينهم (اليهودية) بدل أن ينتسبوا هم إلى دينه (حنيفا مسلما).

فبني إسرائيل من بعد موسى عليه الصّلاة والسّلام يهود؛ وذلك لأنّ اليهودية إنّما حدثت بعد نزول التوراة عليه،

أمّا بني إسرائيل (يعقوب عليه الصّلاة والسّلام) قبل موسى فهم ليسوا كذلك بل هم على ما وصّاهم به أبوهم يعقوب عليه الصّلاة والسّلام {أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ}813

وهذا لا يعني أن موسى عليه الصّلاة والسّلام خارج هذه الوصية، وهذا ما سنبينه لاحقّا.

---

[812] آل عمران 66.

[813] البقرة 133.

وكذلك النصرانية حدثت بعد نزول الإنجيل على عيسى عليه الصّلاة والسّلام، وبين إبراهيم وموسى، وعيسى عليهم الصّلاة والسّلام من الزمن ما لا يخفي على أحد.

فكيف يكون إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام على دين لم يكن إلا بعده بزمن طويل؟!

(أَفَلاَ تَعْقِلُونَ)

وقد أبطل الله تعالى ادعائهم ذلك، بأنّ التوراة والإنجيل ما أنزلا إلا من بعد إبراهيم عليه الصّلاة. فكيف يعقل أن يكون يهوديا أو نصرانيا؟

فإن قيل: هذا أيضا ينطبق على نسبته إلى الدين الإسلامي، والإسلام إنما أنزل بعده بزمن أطول، فكون التوراة والإنجيل نازلين بعد إبراهيم لا ينافي كونه يهوديا أو نصرانيا، كما إن كون القرآن نازلا بعده لا ينافي كونه مسلما.

نقول: إنّ الله تعالى أخبر في القرآن الكريم الذي بين أيدينا وهو الذي أنزله على نبيه محمّد عليه الصّلاة والسّلام أن إبراهيم كان حنيفا مسلما، مصداق لقوله تعالى: {مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}814 وليس في التوراة والأناجيل التي بين أيديكم الآن مع إنّها غير التي نزلت على موسى وعيسى عليهما الصّلاة والسّلام، أن إبراهيم كان يهوديا أو نصرانيا، وهذا أول فرق.

814 آل عمران 67.

ثم نقول: كون اليهود والنصارى ليسوا على ملة إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام، فالأمر فيه ظاهر، وذلك من خلال التأمل في معطيات كلّ من:

اليهودية

النصرانية

الشرك

الكفر

الإسلام

معطيات اليهودية:

لليهود أقوال وأفعال يقومون بها منها:

1. يده مغلولة: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ}815

فاليهود الذين حرفوا ما أنزل إليهم من ربّهم، وصفوا الله تعالى بقولهم: (يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ) كناية عن البخل الذي ما عرفوا هم إلا به، وسبحان الله الكريم المطلق عن ذلك.

2. الله فقير: {لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حقّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيق}816

ومن هذه الآية الكريمة نقف على بعض صفاتهم:

---

[815] المائدة 64.

[816] آل عمران 181.

تطاول وكذبٌ على الله تعالى (إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ)

تعالي وتكبر على الله تعالى (وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ)

يكذبون الأنبياء ويقتلونهم (وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حقّ) فالقتل كان نتيجة تكذيبهم للأنبياء أولا فيما جاؤوا به.

3. إنّهم أبناء الله: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ}[817]

وهذا ادعاء آخر من اليهود بأنّهم أبناء الله وأحباؤه، فهو إقرار منهم بأن الله له ولد وذرية، وفي ذلك تسوية بين الخالق والمخلوق.

وجاء إبطال هذا الإدعاء من الله تعالى بدليل عقلي لمن يتدبر ويتفكر (قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ) أي إنّ كنتم حقّا كما تدعون فلم يعذبكم الله بذنوبكم، وأنتم أبناءه وأحباءه!!

ثم جاءت بعده الإجابة الواضحة التي تبطل إدعاءهم (بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ)

4. قولهم إنّ لله ولد: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ}[818]

---

[817] المائدة 18.

[818] البقرة 30.

5. نبذهم كتاب الله وراء ظهورهم: {وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}[819]

6. لا يؤمنون بأنبياء الله وكتبه: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ}[820]

7. قتلهم الأنبياء بغير حقّ: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الحقّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}[821]

فمن صفات اليهود إنّهم لا يؤمنون بما أنزل الله مصدقا لما معهم من الكتاب، ويقتلون أنبياء الله لأنّهم يدعونهم إلى ما يخالف أهواءهم.

8. تكذيبهم الأنبياء: {أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ}[822]

وهذا يعكس صورة تعاملهم مع الأنبياء والرّسُل باستكبارهم عليهم، وتكذيب بعضهم وقتل البعض الآخر؛ وذلك لأن ما جاء به أولئك الرّسُل لم يوافق هواهم.

---

[819] البقرة 101.

[820] البقرة 113.

[821] البقرة 91.

[822] البقرة 87.

9. يتخذون أحبارهم أربّابا: {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سبحانه عَمَّا يُشْرِكُونَ}823

وذلك بأنّهم كانوا يطيعونهم ويتبعونهم في تحليل ما حرم الله، وتحريم ما حلل وفي ذلك شرك وكفر بالله تعالى، وابتعاد منهم عما أمروا به من عبادة الله وحده، وطاعته.

10. يشترون بآيات الله ثمنا قليلا: {وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ}824

11. يلبسون الحقّ بالباطل ويكتمونه: {وَلَا تَلْبِسُوا الحقّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الحقّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ}825 وقوله تعالى: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الحقّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الحقّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ}826

وقوله: (وَلاَ تَلْبِسُواْ الحقّ بالباطل) أمر بترك الإغواء والإضلال، وإضلال الغير يحصل بطرق منها:

. تشويش الدلائل على من كان سمع دلائل الحقّ وتوصل إليها بأن يلبسوها بالباطل.

. إخفاء تلك الدلائل عمن لم يسمعها، ومنعه من الوصول إليها.

---

[823] التوبة 31.

[824] البقرة 41.

[825] البقرة 42.

[826] آل عمران 71.

فقوله تعالى: (وَلاَ تَلْبِسُواْ الحقّ بالباطل) إشارة إلى القسم الأول وهو تشويش الدلائل، وقوله تعالى: (وَتَكْتُمُواْ الحقّ) إشارة إلى القسم الثاني وهو منعه من الوصول إلى الدلائل.

12. ينقمون على الذين آمنوا: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ}[827]

وقوله تعالى: {لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ}[828]

13. يسارعون في الإثم والعدوان: {وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ}[829]

14. يأكلّون السحت: {وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[830]

15. عدم إقامتهم التوراة: {وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ}[831]

وما يدل على عدم إقامتهم للتوراة التي أنزلها الله تعالى على نبيهم هو حرف الشرط غير الجازم والذي يفيد امتناع جواب الشرط

---

[827] المائدة 59

[828] المائدة 82.

[829] المائدة 62.

[830] المائدة 62.

[831] المائدة 66.

لامتناع فعل الشرط، ويكون المعنى إنّهم لم يأكلّوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم بسبب عدم إقامتهم التوراة وما أنزل الله تعالى، بالعلم والعمل.

16. نقضهم عهد الله بعد ميثاقه: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}832

وقوله تعالى: {الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ}833

وقوله تعالى: {وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ}834

17. يكفرون بآيات الله: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ}835

18. يصدون عن سبيل الله: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ}836

---

[832] البقرة 93.

[833] البقرة 27.

[834] الرعد 25

[835] آل عمران 98.

[836] آل عمران 99.

معطيات النصرانية:

1. يقولون عيسى ابن الله: {وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ}837

2. يقولون عيسى هو الله: {وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ}838

3. إنّهم أبناء الله: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ}839

4. قولهم إنّ لله ولد: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ}840

5. لا يؤمنون بأنبياء الله وكتبه: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ}841

---

837 البقرة 30.

838 المائدة 116.

839 المائدة 18.

840 البقرة 30.

841 البقرة 113.

6 . يتخذون رهبانهم أربّابا: {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سبحانه عَمَّا يُشْرِكُونَ}[842]

7. يقولون الله ثالث ثلاثة: {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}[843]

8. ينقمون على الذين آمنوا: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ}[844]

9. يسارعون في الإثم والعدوان: {وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ}[845]

10. يأكلّون السحت: {وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[846]

11. لا يتمون عبادة الله: {ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا

[842] التوبة 31.

[843] المائدة 73.

[844] المائدة 59

[845] المائدة 62.

[846] المائدة 62.

رَعَوْهَا حقّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ}[847]

(ورهبانية): هي الانفراد في الجبال، والانقطاع عن النّاس في الصوامع، ورفض النساء وترك الدنيا.

(ابتدعوها) أي أحدثوها من غير أن يشرعها الله لهم، ورهبانية معطوف على رأفة ورحمة التي قبلها أي جعل الله في قلوبهم الرأفة والرّحمة والرهبانية، وابتدعوها صفة للرهبانية، والجعل هنا بمعنى الخلق.

(فَمَا رَعَوْهَا حقّ رِعَايَتِهَا) أي لم يداوموا عليها، ولم يحافظوا عليها، فهم ابتدعوا الرهبانية وكان يجب عليهم إتمامها، لأن من دخل في شيء من النوافل يجب عليه إتمامه.

12. عدم إقامتهم الإنجيل: {وَلَوْ إِنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُّوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ}[848]

13. يكفرون بآيات الله: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ}[849]

14. يصدون عن سبيل الله: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ}[850]

---

[847] الحديد 27.

[848] المائدة 66.

[849] آل عمران 98.

[850] آل عمران 99.

معطيات الكفر:

1. عدم الاعتراف بالله: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ}[851]

2. الشرك بالله تعالى: {أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ}[852]

3. أن يسلم ثم يرتد عن الإسلام: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا}[853]

4. عدم اجتناب ما نهى الله:

5. اقتراف ما حرم الله تعالى:

6. تحليل ما حرم الله تعالى: {إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ}[854]

7. تحريم ما حلل الله تعالى:

---

[851] البقرة 170.

[852] الزمر 3.

[853] النساء 137.

[854] التوبة 37.

8. لا يحبون الخير للذين آمنوا: {مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ}855

9. يسخرون من الذين آمنوا: {زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ}856

10. أولياؤهم الطاغوت: {اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النّار هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}857

11. يقاتلون في سبيل الطاغوت: {الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا}858

12. يفترون على الله الكذب: {مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ}859

13. يمكرون بالأنبياء: {وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ}860

---

[855] البقرة 105.

[856] البقرة 212.

[857] البقرة 257.

[858] النساء 76.

[859] المائدة 103.

[860] الأنفال 30.

14. يستهزئون بالأنبياء: {وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الحقّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ}[861]

15. يعتدون على الرّسُل ويؤذونهم: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ}[862]

معطيات الشّرك:

1. يعادون الذين أمنوا: {لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النّاس عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَإِنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ}[863]

2. لا يحبون الخير للذين آمنوا: {مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ}[864]

3. يقولون على الله الكذب: {سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ}[865]

---

[861] الأنفال 31، 32.

[862] إبراهيم 13.

[863] المائدة 82.

[864] البقرة 105.

[865] الأنعام 148.

4. يعبدون من دون الله ما لا ينفع ولا يضر: {أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفي إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ}[866]

ويمكن أن نقول باختصار فإن معطيات الشرك هي معطيات الكفر السابقة الذكر حيث هناك مساحة التقاء كبيرة بين الشر بالله تعالى وبين الكفر به، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا

معطيات الحنيفية:

1. يوحدون الله
2. يؤمنون بالله
3. لا يعبدون إلا الله
4. مسلمين لله تعالى
5. طائعين لله فيما أمر
6. يؤمنون بكلّ الأنبياء والرّسُل
7. يأمرون بالمعروف
8. ينهون عن المنكر
9. يجتنبون ما حرم الله
10. يفعلون ما أحل الله
11. يقيمون الصّلاة

---

[866] الزمر 3.

12. يؤتون الزكاة

13. يذكرون الله كثيرا

14. يؤمنون بالقضاء والقدر

15. يؤمنون بالغيب

16. يؤمنون باليوم الآخر

17. يفعلون الخيرات

18. يحقّون الحقّ

19. ينصرون المظلوم

20. يغيثون المستغيث

21. يجيرون المستجير

22. يكونون دائما على القيم

23. يفعلون الفضائل

وغير ذلك كثير من الأفعال والأقوال التي تدعو إليها الحنيفية، وما هذه وتلك إلا أوامر الدين الإسلامي ونواهيه التي جاء بها النبي الخاتم محمّد عليه الصّلاة والسّلام لإتمام الدين من الله تعالى، مصداقا لقوله تعالى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا}867

[867] المائدة 3.

وسبق أن قلنا أنّ الحنيفية الحقّة على طريقة سيدنا إبراهيم الحنيف عليه الصّلاة والسّلام تؤدي إلى الإسلام بالله تعالى، مصداقا لقوله تعالى: {إِذْ قَالَ لَهُ ربّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِربّ الْعَالَمِينَ}868

وقد وصانا إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام بالإسلام مصداقا لقوله تعالى: {وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ}869

وسنفصل القول عن هذه الوصية في موضعه إن شاء الله.

ولهذا فإبراهيم الحنيف عليه الصّلاة والسّلام هو الذي سمانا مسلمين مصداقا لقوله تعالى: {وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حقّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرّسول شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النّاس فَأَقِيمُوا الصّلاة وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ}870

وهنا لنا أن نتساءل

ما المعطيات التي تتفق مع حنفية إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام؟

هل هي معطيات:

اليهودية؟

النصرانية؟

الكفر؟

---

[868] البقرة 131.

[869] البقرة 132.

[870] الحج 78.

الشرك؟

الحنيفية؟

نقول:

من الواضح بعد استعراض معطيات كلّا من اليهودية والنصرانية والكفر والشرك والحنفية أن إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام لم يكن على أي منها سوى الحنيفية فهو:

1. موحد لله تعالى: {إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ}[871]

2. متبرئ ممّا يعبد من دون الله تعالى: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّه سَيَهْدِينِ}[872]

وقوله تعالى: {فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ}[873]

3. حنيف لله: {مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}[874]

4. قانتا لله: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}[875]

---

[871] الأنعام 79.

[872] الزخرف 26، 27.

[873] الأنعام 78، 79.

[874] آل عمران 67.

[875] النحل 120.

5. خليلا لله: {وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا}876

وهل يمكن أن يتخذ الله تعالى خليلا لا يؤمن به أو يشرك به أو لا يطيعه؟!

6. يدعو لعباد الله تعالى وحده: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّه كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا}877

7. ينهى عن عبادة الشيطان وما يزينه: {يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا}878

8. رحيم بالغير: {يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرّحمن فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا}879

9. جعله الله تعالى للناس إماما: {وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ ربّهُ بِكلّمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ}880

10. مطهرا للبيت للركع والسجد: {وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصلّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ}881

---

876 النساء 125.

877 مريم 41 ـ 43.

878 مريم 44.

879 مريم 45.

880 البقرة 124.

11. يدعو الله مطيعا ومسلما له: {إِذْ قَالَ لَهُ ربّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِربّ الْعَالَمِينَ}882

وقوله تعالى: {وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ ربّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ربّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرّحيم}883

12. محاجج بالحقّ وللحقّ: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي ربّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ ربّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْربّ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}884

13. محب الخير للغير: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ ربّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ربّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النّاس فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنّه مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}885

وعليه نقول:

إن الحنيفية تتفق مع الإسلام، ولذا فإبراهيم عليه الصّلاة والسّلام الحنيف ليس يهوديا ولا نصرانيا ولا مشركا وليس من الكافرين؛ لعدم توافق معطيات كلّا من منها لما عليه إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام

---

[881] البقرة 125.

[882] البقرة 131.

[883] البقرة 127، 128.

[884] البقرة 258.

[885] إبراهيم 35، 36.

ولذا فإنّه لا يمكن أن يكون اليهودي، والنصراني، والمشرك، والكافر حنفاء إلا إذا التزموا بمعطيات الإسلام المتوافقة مع معطيات الحنيفية.

ولهذا كان أولى النّاس بإبراهيم عليه الصّلاة والسّلام نبي الله محمّد عليه الصّلاة والسّلام والذين أمنوا مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّ أَوْلَى النّاس بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ}886

وعليه:

فكلّ من كان لله موحدا، وبه مؤمنا، وبرسله مصدقا، ولكتبه حافظا، ولشرعه مطبقا، ومات على ذلك فبكلّ تأكيد هو حنيف مسلم على ملة أبينا إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام، أما من مات على غير ذلك فلا يكون كذلك.

اللهم أحيينا على طاعتك بالإسلام وَأَمِتْنَا على طاعتك بالإسلام واجعلنا يا الله ممن يتحنفون لك باتباع هديك وشرعك، آمين.

وصية إبراهيم:

قال تعالى: {وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ

---

[886] آل عمران 68.

إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ}887

وهنا نتساءل:

ما هي التي وصى بها إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام بنيه؟

ومن هم الموصَّى لهم؟

هل الموصَّى مفرد أم مثنى أم جمع؟

هل يكون الموصَّى إسماعيل أو إسحاق عليهما الصّلاة والسّلام أم غير ذلك؟

ما دلالة الوصية؟ وما كيفية تطبيقها؟

نقول:

إن الوصية في اللغة العهد، أَوْصى الرجلَ ووَصَّاه عَهِدَ إليه.888 ومع قول البعض بأن الوصية تكون في الخير والشر، إلا أننا نرى أن الوصية حين تكون من الآباء إلى الأبناء لابدّ أن تكون في الخير فكيف وإن كانت من خليل الله وأبو الأنبياء إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام!

والوصية هي عظة تحب أن يستمسك بها من تنصحه، وتقولها له مخلصا، وهكذا يريد الله سبحانه أن يبين لنا أن الوصية دائما تكون لمن تحب، قال تعالى: (وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ) فحب الإنسان لبنيه أمر

---

[887] البقرة 132، 133.

[888] لسان العربّ 15، 394.

أكيد سواء أكان هذا الإنسان مؤمنا أم كافر، فلا يحب الإنسان أن يكون من هو أفضل منه غير أبناءه.

ولذا فلابدّ أن يتوفر في الوصية الآتي:

. الإخلاص

. الصدق

. الحب

. أن تكون صادرة عن علم وخبرة

. أن تكون موجهة للخير والصلاح

.أن يكون لها هدف

وقد ورد ذكر الوصايا في القرآن الكريم في أكثر من موضع، ولأكثر من سبب

منها قوله تعالى: {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}889

وقوله تعالى: {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ}890

وقوله تعالى: {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى

[889] العنكبوت 8.

[890] لقمان 14.

وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ}[891]

وقوله تعالى: {وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا}[892]

وقوله تعالى: {شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ}[893]

ومن ضمن هذه الوصايا وصية إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام لبنيه والتي نحن بصدد البحث في معانيها ومدلولاتها، قال تعالى: {وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ}[894]

وهنا نتساءل:

ما الوصية؟

ومن الموصِّي؟

ومن الموصَّى؟ وهل هو معين أو غير معين؟

---

[891] الأحقّاف 15.

[892] النساء 131.

[893] الشورى 13.

[894] البقرة 132.

وللإجابة على هذه التساؤلات علينا أن نتأمل ونحلل آية الوصية الإبراهيمية (وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَي لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)

وهنا نقول: إن من قوله تعالى (وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ) نرى أن للتوصية عدة محاور:

الأول: الوصية، وهي الموصى بها (وَوَصَّى بِهَا)

الثاني: الموصِّي، وهو مقدم الوصي (إِبْرَاهِيمُ) عليه الصّلاة والسّلام.

الثالث: الموصَّى، وهو الذي قدمت له الوصية من الموصِّي (بَنِيهِ)

أوّلا الوصية:

قيل في تفسير الوصية التي وصى بها إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام بنيه إنّها:

1. كلّمة الإخلاص:(لا إله إلا الله)

2. الملة: (ملة إبراهيم) عليه الصّلاة والسّلام وذلك لورود ذكر الملة في الآيات السابق لهذه الآية، {وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنّه فِي الْآَخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ}895

3. الإسلام: وذلك لأن إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام كان قد قال كلّمة استجابة منه لأمر الله (أَسْلِمْ) وهذه الكلّمة هي (أَسْلَمْتُ)

---

[895] البقرة 130.

ونقول:

إن الوصية التي وصى بها إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام، هي طاعة الله تعالى فيما أمر ونهى وعلى لسان أي من الأنبياء الذين سيأتون بعده من أبنائه.

وما دفعنا لهذا القول الفعل الذي حدث من إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام والذي ذكره الله تعالى في الآية السابقة لآية الوصية، قال تعالى: {إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ}[896]

فهنا أمر من الله تعالى موجه إلى إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام (أَسْلِمْ) أعقبه استجابة سريعة لهذا الأمر، دون تلكؤ ولا تردد (أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ).

وهذا يعكس مدى الطاعة من خليل الله إبراهيم لأمر ربّه الذي وجه إليه وجهه حنيفا مسلما، مصداقا لقوله تعالى: {إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ}[897]

وهذه الطاعة لله الواحد الأحد هي التي رغب إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام أن يكون بنيه عليها حبا لهم ورحمة بهم وخوفا عليهم من أن يكونوا ممن يقع عليهم عقاب الله وغضبه.

وحبّ إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام لغيره يتجلى في أكثر من موضع من القرآن الكريم منها

---

[896] البقرة 131.

[897] الأنعام 79.

. قوله تعالى: {وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ ربّهُ بِكلّماتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ}898 فهنا تمنى الخير لمن بعده من ذريته وطلبه لهم.

. قوله أيضا: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ ربّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آَمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آَمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النّار وَبِئْسَ لْمَصِيرُ}899 وهنا دعا لغيره ممن آمن بالله، بالأمن والرزق.

. قوله تعالى: {وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ ربّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ربّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرّحيم ربّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آَيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}900

وهذه الطاعة التي وصى بها إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام تستوجب أن يكون بنيه مسلمين متبعين للدين الذي اصطفاه الله تعالى لعباده.

ولسائل أن يسأل:

ما الدين الذي اصطفاه الله تعالى لعباده؟ هل هو

اليهودية؟

النصرانية؟

---

898 البقرة 124.

899 البقرة 126.

900 البقرة 127. 129.

الإسلام؟

نقول:

. لا يمكن أن يصطفي الله تعالى للعباد دينا تكون من معطيات الكذب على الله والافتراء والتعالي عليه أو الشرك والكفر به كما وضحنا ذلك في قضية الحنفية.

. الدين الذي شرعه الله تعالى للبشر على أيدي أنبيائه هو دين واحد لا اختلاف بين ما جاء به نبي وما جاء به نبي آخر سابق عليه أو لاحقّ عليه مصداقا لقوله تعالى: {شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ}[901]

فالدين الذي شرعه الله تعالى للناس هو ما أوصاه الله تعالى لكلّ من نوح عليه الصّلاة والسّلام وهو أول الأنبياء بعد آدم عليه الصّلاة والسّلام، وما وصاه لإبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصّلاة والسّلام.

وهو ما أوحاه الله تعالى لخاتم الأنبياء والمرسلين عليه الصّلاة والسّلام، كاملا ومكملا لما جاء به كلّ الأنبياء قبله، ولهذا قال تعالى: (وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ) ولم يقل (أوصينا إليك) كما مع بقية الأنبياء وذلك لأن الوصية تكون جزئية وفي جزئية معينة وهذا حال الأنبياء والرّسُل السابقين عليه كانوا مرسلين لأقوامهم كعيسى وموسى عليهما الصّلاة والسّلام، ولعلاج ظاهرة مرضية معينة كشعيب عليه الصّلاة والسّلام.

[901] الشورى 13.

وفي موضع آخر قال تعالى: {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآَيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ}902

وقال أيضا: {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآَخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ}903

وباتباع هذا الدين الذي شرعه الله تعالى جاء فحوى وصية إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام،

(يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)

وعليه:

فالوصية لم تكن أمرا من عند إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام، ولكن كانت أمرا اختاره الله للناس فلم يوصِّ إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام بنيه إلا بما اختاره الله تعالى لهم؛ لأن فيه الخير والصلاح، فالله تعالى لا يرضى لعباده إلا الأفضل والأصلح.

لذا فوصية إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام لبنيه تتضمن عدة مفردات منها:

. توحيد الله تعالى، مصداقا لقوله تعالى: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ}904

---

[902] آل عمران 19.

[903] آل عمران 85.

[904] سورة الإخلاص

. لا عبادة إلا لله وحده، مصداقا لقوله تعالى: {فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ}905

. امتثال لأوامر الله تعالى، مصداقا لقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرّسول وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ}906

. اجتناب لنواهي الله تعالى، مصداقا لقوله تعالى: {وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آَخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالحقّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا}907

. إقامة الصّلاة، مصداقا لقوله تعالى: {وَأَنْ أَقِيمُوا الصّلاة وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ}908

. إيتاء الزكاة، مصداقا لقوله تعالى: {وَأَقِيمُوا الصّلاة وَآَتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}909

. حجّ البيت، مصداقا لقوله تعالى: {فِيهِ آَيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آَمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النّاس حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ}910

. تحريم ما حرم الله تعالى، مصداقا لقوله تعالى: {قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ

---

[905] المؤمنون 32.

[906] محمّد 33.

[907] الفرقان 68.

[908] الأنعام 72.

[909] البقرة 110.

[910] آل عمران 97.

دِينَ الحقّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ}911

تحليل ما حلل الله تعالى، مصداقا لقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ وَكلُوا مِمّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلاَلًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ}912

ثانيا الـموصِّي:

وهو مقدم الوصية

قال تعالى: (وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ)

وهنا نتساءل:

هل كلّ من إبراهيم ويعقوب عليهما الصّلاة والسّلام موصي؟

وهل لكلّ منهما وصية خاصة؟ أم لهما وصية واحدة؟

ما الفائدة من ذكر يعقوب عليه الصّلاة والسّلام مع كونه داخلا في (بَنِيهِ)؟

نقول:

إنّ الموصي الأوّل لهذه الوصية هو إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام إذ هو قائل الكلّمة (أَسْلَمْتُ) التي تتضمن الموصى بها (طاعة الله تعالى) وهو الجد الأول للعربّ أبناء إسماعيل، واليهود أبناء يعقوب الذي هو ابن لإسحاق عليهم جميعا الصّلاة والسّلام.

---

911 التوبة 29.

912 المائدة 87، 88.

ونرى هنا أنّ هذه الوصية لها موصِّي ثاني على قراءة من قرأ برفع (يعقوبُ) وهذا ما عليه الجمهور، وعليه فإن:

الوصية وقعت مرتين في زمنين مختلفين ومتتابعين

مرّة في زمن إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام لبنيه الذين يدخل فيهم يعقوب عليه الصّلاة والسّلام مع إنّه ابن ابنه، وسنفصل القول في هذا حين نتناول الموصَّى

ومرّة في زمن يعقوب لبنيه من بعده

وهذا التكرار للوصية يفيد الآتي:

1. التأكيد على الوصية (وصية إبراهيم)

2. ديمومة الوصية واستمرارها

3. صلاحية الوصية لكلّ الأجيال والأزمان

ثالثا الـموصَّى:

(بَنِيهِ): هناك عدة أقال حول من كانت له الوصية فمنهم من قال: إنّه إسماعيل، ومنهم من قال: إنّه إسحاق، ومنهم من قال إن المختصين بهذه الوصية هم أولاده الثمانية الذين وردت أسماءهم في بعض كتب التفاسير نقلا عن الإسرائيليات.

ولنا في هذا رأي مفاده:

إنّ الموصَّى جمع بدليل قوله تعالى مخبرا عمن كانت الوصية لهم: (بَنِيهِ) وقول إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام مناديا لمن أراد توصيتهم (يَا بَنِيَّ)

ولم يكن الموصَّى مفردا، لعدم استعمال صيغة المفرد (ابنه . يا بُنَي)

ولم يكن كذلك مثنى، لعدم استعمال صيغة المثنى (ابنيه . يا ابْنَيَّ)

إنّ الموصَّى عموم وليس خصوص، فإبراهيم عليه الصّلاة والسّلام لم يحصر وصيته في أولاده من صلبه فقط بل جعلها باقية في أبنائه من ذريته مصداقا لقوله تعالى: {وَجَعَلَهَا كَلِّمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}913

وهذا المعنى يستفاد أيضا من لفظة (بنيه) وقد أوضحنا في موضع سابق من هذا الكتاب الفرق بين (الابن، والولد)

فقلنا:

إنّ (الولد) تعني الأبناء من الصلب فقط دون أن تتعداهم إلى غيرهم من الأحفاد مصداقا لقوله تعالى: {وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا}914

فالرجل كان إن خشي الفقر قتل أولاده من صلبه باعتباره ملزما بالإنفاق عليهم ولا يقتل أولاد ابنه لأن نفقتهم ليست لازمة عليه.

أمّا (الابن) فهي تشمل أولاد الصلب وغيرهم من الأبناء وإن سفلوا، مصداقا لقوله تعالى: {وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آَلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ

---

913 الزخرف 28.

914 الإسراء 31.

رَبِّكُمْ عَظِيمٌ}915 فسوم العذاب والتذبيح هنا كان من آل فرعون لكلّ أبناء بني إسرائيل دون التفريق بين أولاد الرجل من صلبه أو من غيره، كما أن فعل الاستباحة كان لعموم النساء منهم دون التفريق بين ابنة الرجل من صلبه أو حفيدته أو أمّه وزجه وأخته غيره من النساء.

كما أن لفظة الأبناء تشمل الذكر والأنثى مصداقا لقوله تعالى: {مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الحقّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ}916

وعليه:

فكلّمة(بَنِيَّ) تتعدى إسماعيل وإسحاق عليهما الصّلاة والسّلام، لتشمل كافة من هم من سلالة إبراهيم عله الصّلاة والسّلام، وبذلك يدخل فيها الأحفاد وأبناء الأحفاد بشكلّ مستمر على استمرار الأجيال، فلو أراد إبراهيم عليه الصّلاة والسلام اختصاص أحدا من أبنائه لخاطبه بقوله:(ولدي) ولو أراد بها أولاده جميعا، أو ولديه إسماعيل وإسحاق من أولاده فقط لخاطبهما بصيغة الجمع أو المثنى، ولكن رسالته التي أراد أن يتركها في وصيته أكبر وأعم من أن يحصرها في شخص أو أشخاص وإن كانوا من أقربّ النّاس إليه.

وبذلك تكون هذه الوصية:

. الوصية الإبراهيمية عامة وغير محصورة في أشخاص، فهي تعم بنيه من صلبه وما تناسل من ذريته إلى قيام الساعة.

915 البقرة 49.

916 الأحزاب 4.

. الوصية الإبراهيمية متسعة تشمل الذكر والأنثى.

. الوصية الإبراهيمية متناقلة ممتدة من غير انقطاع جيلا بعد جيل.

. الوصية الإبراهيمية باقية حية إلى قيام الساعة بحياة الأجيال المتواصلة.

. الوصية الإبراهيمية شاملة جامعة لكلّ مكامن الخير لذا كانت مفردة وغير مرتبطة بوصية أخرى.

وبهذا يكون ادعاء اليهود بأن إسحاق هو الموصَّى من أبيه إبراهيم عليهما الصّلاة والسّلام ادعاء باطل لا أساس له من الصحة.

وكذلك ادعاءهم أن يعقوب عليه الصّلاة والسّلام وصى أبناءه باليهودية باطل أيضا، ولا معنى لقول من قال ذلك؛ لأن الذي أوصى به يعقوب بنيه، هو نظير الذي أوصى به إبراهيم بنيه، من الحث على طاعة الله، والخضوع له، والإسلام لله تعالى، فالوصية واحدة وإن تكررت من أكثر من موصِّي.

ولنا أن نقف على مميزات الوصية الإبراهيمية.

فنقول إن من مميزاتها الآتي:

. مزج الوصية بالوعظ:

وهذا يستفاد من النهي (فَلَا تَمُوتُنَّ) حيث جاء اللفظ موجزا متضمنا وعظا وتذكيرا بالموت الذي يكون الإنسان عنده في أكثر الأوقات خوفا وقربًا من الله تعالى.

. الثبات والاستمرارية:

فوصية إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام تشمل حياة الإنسان من بدايتها إلى نهايتها، وذلك لأن الموت لا يعلم وقته أحد إلا الله تعالى مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}917

ولذا كان لزاما على المؤمن أن يتمسك بوصية إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام حتى لا يباغته الموت وهو على غيرها والعياذ بالله، مصداقا لقوله تعالى: {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآَخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ}918

ـ إقامة الحجّة على الوثنية واليهودية والنصرانية:

حيث أن وصية إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام صريحة في دعوتها إلى توحيد الله تعالى، واختيار الدين الذي جاء به نبي الله الخاتم محمّد بن عبد الله عليه الصّلاة والسّلام، والذي بشر به جميع الأنبياء والرّسُل من قبله ودعوا إليه بتوحيد الله تعالى المعبود الحقّ دينا.

ـ تتجلى فيها روح الإمام:

حيث كان إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام إماما جعله الله تعالى قدوة يأتمن به كلّ من أراد اتباع الدين الحقّ مصداقا لقوله تعالى: {وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ ربّهُ بِكلّمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ}919

917 لقمان 34.
918 آل عمران 85.
919 البقرة 124.

وقد أيقن أن من أبنائه من سيكونون هم أيضا أئمة يُقتدى بهم، فيكون صلاح حالهم صلاح لمن حولهم، وهذا ما جعل من وصيته سبيلا إلى صلاح حال المأمومين.

ولذا:

فتوصية إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام هي توصية تعشق روحية لا مادية، وبالمنطق فإن جميع الأنبياء والرّسُل لا يمكن أن يكونوا خارجين عن وصية إبراهيم عليهم جميعا الصّلاة والسّلام؛ لأن وصيته كانت في ضوء التحنف لله تعالى وطاعته والإسلام له وحده لا شريك له.

وهنا نتساءل:

لماذا كانت وصية من إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام ولم تكن أمرا؟

نقول:

كانت توصية ولم تكن أمرا لأن:

ـ الوصية تكون في الخير على خلاف الأمر فإنّه يكون في الخير وغيره.

ـ الوصية تذكر في الساعات الأكثر قربًا إلى الله تعالى.

ـ في التوصية محبة وألفة وقربٌ ورحمة أكثر منها في الأمر.

ـ الوصية أبقى عمرا من الأمر حيث أن الوصية يتناقلها النّاس جيلا عن جيل على خلاف الأمر الذي يختص بمن صدر إليه وينتهي بمجرد تطبيقه.

. قد يأمر الشخص غيره بفعل ما لا يفعله، أم الوصية الروحية بالذات فهي تتضمن اتباع ما كان عليه الشخص الموصي {أَتَأْمُرُونَ النّاس بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ}920

ولذا ففي وصية إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام نجد:

. اصطفاء الدين المتكامل للناس.

. تفضيل لأتباع هذه الوصية باختيار الله تعالى الدين لهم.

. طلب ملازمة هذا الاختيار الرّباني والنهي عن مفارقته (فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) ويكون ذلك بالتوحيد.

اللهم اجعلنا ممن يلتزمون بتنفيذ وصية أبينا إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام واجعلنا اللهم ناقلين لها لمن بعدنا من أبنائنا ونكون ثابتين عليها فلا نموت إلا ونحن مسلمون. آمين

الكلّمات:

قال الله تعالى: {وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ ربّهُ بِكلّمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ}921

من هذه الآية الكريمة نرى أن هناك أربّعة مرتكزات ارتكز عليها الخبر الإلهي وهي:

1. الابتلاء (وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ ربّهُ بِكلّمَاتٍ)

2. الإتمام (فَأَتَمَّهُنَّ)

920 البقرة 44.

921 البقرة 124.

3. التكريم (قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا)

4. الطلب (قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي)

أولا . الابتلاء:.

قيل الابتلاء هو الاختبار والامتحان، وقيل هو التجريب، وقلنا إن الله تعالى ليس في حاجة ليختبر أو يمتحن أو يجربّ لكي يعلم ما ينتج عن كلّ من الاختبار والامتحان والتجربّة، فهو العليم بالمطلق والخبير بالمطلق مصداقا لقوله تعالى: {قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ}[922]

وقوله تعالى: {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ}[923]

وقوله تعالى: {إِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ}[924]

وسبق وأن تناولنا هذا الموضوع بالتفصيل في نبي الله آدم، ويمكن أن نؤكد على ما قلناه ببيان الفرق بين الابتلاء والاختبار.

فنقول:

إنّ هناك فرقا من حيث المفهوم بين الابتلاء والاختبار:

فالابتلاء لا يكون إلا بتحميل المكاره والمشاق، والاختبار يكون بها وبغيرها من المحبوب فيقال: اختبره بالإنعام عليه ولا يقال

[922] البقرة 32.

[923] الملك 14.

[924] التحريم 3.

ابتلاه بذلك، ولا يقال: هو مبتلى بالنعمة، كما يقال إنّه مختبر بها925.

وعليه:

فالابتلاء يقتضي استخراج ما عند المبتلى من الطاعة والمعصية، والاختبار يقتضي وقوع الخبر بحاله في ذلك

وهنا نتساءل:

هل الابتلاء تكلّيف؟

نقول:

هناك أيضا فرق بين الابتلاء والتكلّيف، فالتكلّيف إلزام بما يشق، وأصله في العربيّة اللزوم والمتكلّف للشيء الملزم به على مشقة وهو الذي يلتزم ما لا يلزمه أيضا ومنه قوله تعالى: {قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ}926

والابتلاء هو استخراج ما عند المبتلى وتعرف حاله في الطاعة والمعصية بتحميله المشقة وليس هو من التكلّيف في شيء، فإن سُمِيَ التكلّيف ابتلاء في بعض المواضع فقد يجري على الشيء اسم ما يقاربّه في المعنى، واستعمال الابتلاء في صفات الله تعالى مجاز معناه إنّه يعامل العبد معاملة المبتلى المستخرَج لما عنده927

ولنا هنا أن نتساءل:

هل يمكن أن يكون الابتلاء تكلّيفا؟

925 الفروق اللغوية 1، 10.

926 ص 86.

927 الفروق اللغوية 1، 139.

نقول:

لا يكون الابتلاء تكلّيفا، ولكنه يكون بالتكلّيف بأمور أو أشياء فيها من المشقة ما يُسْتَخْرَجُ بها ما في نفس المبتلى من الطاعة والمعصية لا ليعلمه الله تعالى منه بل ليعلمه العبد من نفسه فتوقن نفسه أنّ ما سيحل به يوم الحساب من عذاب أو ثواب هو عدل لا ظلم فيه قال تعالى: {ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}928

وقوله تعالى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا ربّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}929

مثل الابتلاء التكلّيفي مع سيدنا إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام بذبح ابنه.

وعليه:

فالابتلاء من الله تعالى وفق منظورنا هو دائما في دائرة الموجب، ولا يمكن أن يكون في دائرة السالب وذلك لأن أفعاله تعالى كلّها حسان لأنّها مرتبطة بصفاته وأسمائه وهي كلّها حسان مصداقا لقوله تعالى: {هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}930

ولذا فإن كان فعل المبتلى في الابتلاء هو الطاعة كان ذلك خيرا له بزيادة حسناته مكافأة له على طاعته، وإن كان خارجا عن الطاعة ففيه احتمالان:

---

928 آل عمران 182.

929 فصلت 46.

930 الحشر 24.

الأوّل: أن يعلم المبتلى من حاله العصيان والتقصير فيندم ويراجع نفسه ممّا يؤدّي به إلى الاستغفار والتوبة وهذا خير

الثاني: أن يعلم من حاله العصيان ويصر على معصيته فيستحقّ بذلك ما سيقع عليه من عذاب فيتحقّق عدل الله فيه وهذا أيضا خير

مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا}931

وقوله تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ}932

وهذا قد تطرقنا إليه بالتفصيل في موسوعتنا (أسماء الله الحسنى وأثرها في الاستخلاف في الأرض)

ثانيا ـ الإتمام:

هو فعل من المبتلى الطائع فيما ابتلي فيه، وذلك يكون بتوفية كلّ الذي طُلِبَ منه، وأدائه على الوجه الذي أُمِرَ به، وهذا ما كان من سيدنا إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام بأن أتم الكلّمات التي بها ابتلاه ربّه على أكمل وجه مصداقا لقوله تعالى: {وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ ربّهُ بِكلّمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ}933

وقد شهد الله تعالى لإبراهيم عليه الصّلاة والسّلام في موضع آخر من كتابه الكريم بالوفاء بالتزاماته على الوجه الذي يرضي الله تعالى

---

[931] الكهف 7.

[932] الملك 1، 2.

[933] البقرة من الآية 124.

عنه فاستحقّ بذلك شهادته تعالى الجليلة بقوله تعالى: {وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى}934

وهذا مقام عظيم ناله إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام بإتمامه لما أُبْتُلِيَ به من ربّه.

ثالثا ـ التكريم:

بما أن الابتلاء المراد منه هو استخراج ما في نفس المبتلى من طاعة ومعصية فإنّه يترتب عليه:

1 ـ تكريم بثواب، للطائع.

2 ـ عقاب بعذاب، للعاصي.

مصداقا لقوله تعالى: {يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النّاس أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ}935

ولذا كان التكريم لسيدنا إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام بجعله إماما مصداقا لقوله تعالى: {قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا}936

وأي تكريم أعظم من أن يجعله الله تعالى، لأتباعه من النّاس قدوة في أقواله وأفعاله وأعماله وسلوكه ونهجه ومنهجه، فيكون بذلك قدوة لهم في إمامته (إمامة الهدى)، مع كون النّاس جميعا معنيون باتباعه باعتباره إماما للناس وأمة قانتا لله مصداق لقوله تعالى: {قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا}937

934 النجم 37.

935 الزلزلة 6 .8.

936 البقرة من الآية 124.

937 البقرة من الآية 124.

وقوله تعالى: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}938

وقد فرقنا في معرض حديثنا عن إمامة إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام بين الإمامة في الهدى، والإمامة في الضلال.

رابعا . الطلب:

وهنا بعدما استشعر إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام المبتلى الطائع، مكانته عند ربّه الذي ابتلاه بالكلّمات التي جُعِلَ لإتمامهن، للناس إماما؛ تكريما له، توجه إلى ربّه بطلبٍ يعكس مدى حبه وحرصه على أتباعه من ذريته مصداقا لقوله تعالى: {قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي}939

وواضح من خلال قول إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام أن طلبه لم يكن لذريته كلّها بل كان للبعض منهم، وهذا يستفاد من (مِنْ) التبعيضية.

ويمكننا أن نجزم بأنّ هذا البعض الذين قصدهم عليه الصّلاة والسّلام في طلبه، هم كلّ من اتبعه واقتدى به وسار على هديه.

فجاء رد الله تعالى على طلبه هذا بالاستجابة وحاملا معه معنى الطمأنة لقلب إبراهيم بأنّ هذه المكرمة (الإمامة) لن تكون في البعض من ذريته عليه الصّلاة والسّلام الظالمين لأنفسهم بالمعاصي ولغيرهم بالاعتداء، قال تعالى: {قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ}940

وعليه:

---

[938] النحل 120.

[939] البقرة من الآية 124.

[940] البقرة من الآية 124.

لا يمكن أن يكون إمام من بعد الأنبياء والرّسُل صلوات الله وسلامه عليهم جميعا يقتدي به النّاس إلا من كان مقتديا بإبراهيم عليه الصّلاة والسّلام قولا وفعلا وعملا.

ولذا:

كان إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام إماما للناس وعلينا الاقتداء به في:

رشده

تحنفه

إيمانه

توحيده

طلبه للطمأنينة

طاعته

إخلاصه

السعي لتحقّيق هدفه

محاججته بالعقل

محاجته بالمنطق

جدله بالحقّ وللحقّ

جدله بالتي هي أحسن

ثباته على المبدأ

تضحيته من أجل المبدأ

صبره

تحمله

إنابته لله تعالى

حلمه على الآخر

تأوهه على الآخر

تأوهه من أجل الآخر

وُدِّه وحبه للآخر

استيعابه للآخر

تقديره للآخر

وعليه:

فإنّ كلّ من يقتدي بإبراهيم عليه الصّلاة والسّلام في ذلك، يكن مجتازا لابتلاء الكلّمات.

وهنا تتبادر إلى ذهننا تساؤلات عن الكلّمات

ما هي؟

ما حقّيقتها؟

هل الكلّمات محصورة في أشياء محددة أم إنّها تتسع للعديد من المعاني؟

وهل الكلّمات مختصة فقط بإبراهيم عليه الصّلاة والسّلام أم لا؟

ألا تكون كلّمات إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام ابتلاءً للذين من بعده باعتبار الإمامة والاقتداء؟

ألا يكون شرط إمامة الهدى فينا (أتباع إبراهيم) هو اجتياز الابتلاء بهذه الكلّمات؟

وقبل الإجابة على كلّ هذه التساؤلات لابدّ أن نقف على ما قيل في كتب التفاسير حتى يتسنى لنا الإدلاء برأينا فيها.

* قيل إنّها التكاليف من أمر ونهي وتشريع

* وقيل: إنّها عشرُ خصال كانت فرضا في شرع إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام، وهُن سنةٌ في شرعنا تنقسم إلى قسمين:

1. خمسٌ في الرأس: المضمضةُ، والاستنشاقُ، وفرقُ الرأس، وقصُّ الشاربّ، والسواكُ.

2. خمس في البدن: الختِانُ، وحلقُ العانة، ونتفُ الإبْطِ، وتقليمُ الأظفار، والاستنجاءُ بالماء.

* وقيل ثلاثين خَصلةً من خصال الإسلام:

. عشرٌ منها في سورة براءة من قوله تعالى: {التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ}[941]

[941] التوبة 112.

. وعشر في سورة الأحزاب من قوله تعالى: {إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا}[942]

. وعشر في سورة المعارج من قوله تعالى: {إِلَّا الْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حقّ مَعْلُومٌ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ}[943]

* وقيل: ابتلاه الله سبحانه بسبعة أشياءَ:

بالشمس، والقمر، والنجوم، والاختتان على الكِبَر، والنّار، وذبحِ الولدِ، والهِجْرة.

وقيل: هن مُحاجَّتُه قومَه، والصّلاة، والزكاةُ، والصوم، والضيافة، والصبرُ عليها.

وقيل: هي المناسكُ:

كالطواف، والسعي، والرمي، والإحرام، والوقوف بعرفة، وغيرِهن.

---

[942] الأحزاب 35.

[943] المعارج 22 34.

* وقيل: هي قوله عليه السلام في قوله تعالى: {قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا ربّ الْعَالَمِينَ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ}944

هذا مجمل ما اطلعنا عليه من أقوال العلماء والمفسرين في الكلّمات التي كثر الخلاف حول تفسيرها ولنا في هذا قول مفاده:

إنّ هذه الكلّمات بالتأكيد هي لله تعالى، وليست لإبراهيم عليه الصّلاة والسّلام ونحن في ذلك نخالف من قرأ قوله تعالى: {وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ ربّهُ بِكلّمَاتٍ}945 برفع إبراهيم، ونصب ربّه فيكون عندهم الابتلاء واقع من إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام لربّه عزّ وجلّ

وقد فسروا قوله تعالى: {وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى}946 بقولهم: الذي وفى الله تعالى له ما طلبه.

ونقول:

إنّ الابتلاء من العبد لربّه لا يستقيم عقلا، بل يدل على قلة ثقته بربّه، وهذا لا يجوز في حقّ إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام الذي آتاه الله رشده من قبل مصداقا لقوله تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ}947 ويعلم الله تعالى صلاح حاله لحمل الرّسالة، التي أعده الله تعالى لحملها وتبليغها للناس ليأتموا به فيها.

---

[944] الشعراء 65. 82.

[945] البقرة من الآية 124.

[946] النجم 37.

[947] الأنبياء 51.

وأيضا: نسبة الوفاء بالشيء، والتوفية به لا تكون إلا لمن يتوقع منه عدم الوفاء أو الإنقاص فيما طُلِبَ منه وهذا يستحيل في حقّ الله تعالى الحسيب القدير، الذي عنده كلّ شيء بحسبان مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّا كلّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ}948

إذا ما هي الكلّمات؟

نقول:

الكلّمات جمع كلّمة، ويرجع تحقّيقها إلى كلّام الباري تعالى، لكنّه عبرّ عنها عن الوظائف التي كلّف بها إبراهيم عليه السلام؛ ولما كان تكلّيفها بالكلّام سُمِّيت به، كما سُمِّيَ عيسى كلّمة؛ لأنّه صدر عن كلّمة وهي (كُن) وهكذا كلّ شيء كلّمة(كُن).

والكلّمة في القرآن الكريم عندما تكون منسوبة إلى الله تعالى تكون بمعنى الأمر والشيء الذي يشاؤه الله تعالى أن يكون، مصداقا لقوله تعالى: {وَلَوْلَا كلّمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ ربّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى}949 فهنا الكلّمة بمعنى ما أراده الله تعالى من تأخير عقاب أمة محمّد عليه الصّلاة والسّلام، ولا يفعل بهم ما فعل بسابقيهم من الأمم من تعجيل العقاب لهم في الدنيا.

وقوله تعالى: {أَفَمَنْ حقّ عَلَيْهِ كلّمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النّار}950

وقوله تعالى: {أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كلّمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ

948 القمر 49.

949 طه 129.

950 الزمر 19.

أَلِيمٌ}951 وكلّمة الفصل هنا تعنى القضاء السابق بتأخير الجزاء لهم إلى يوم الحساب

وقوله تعالى: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الحقّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلّمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سبحانه أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفي بِاللَّهِ وَكِيلًا}952 كلّمته هنا بمعنى أمره فعيسى عليه الصّلاة والسّلام خلق بالأمر كن فكان.

وعليه:

فالكلّمات عندما تنسب إلى الله تعالى لابدّ وأن تكون بهذا المعنى أيضا وهي (الأوامر وما شاءه الله تعالى، من أشياء)

وهنا نتساءل:

هل تنحصر الكلّمات في أشياء محددة وعدد محدد؟

نقول:

بما أنّ الكلّمات هي أوامر الله تعالى وإرادته للأشياء وفق علمه المطلق، فإننا نوقن أنّ الكلّمات لا يمكننا حصرها في معنى أو عدة معاني وذلك لأنّ أوامر الله تعالى وأفعاله تتعلق بصفاته وأسمائه الحسنى؛ فالله تعالى يرزق باسمه الرازق، ويقدر الأشياء باسمه القدير، وينتقم ويعذب باسمه المنتقم، ويغفر لعباده باسمه الغفور.

---

[951] الشورى 21.

[952] النساء 171.

ولقد أسهبنا في توضيح ذلك في موسوعتنا (أسماء الله الحسنى وأثرها في الاستخلاف في الأرض)

فإذا كانت نعم الله تعالى لا يمكن حصرها مصداقا لقوله تعالى: {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ}953

فهل يمكن حصر أفعاله؟!

وهل يمكن حصر أوامره؟!

بكلّ تأكيد فإن الإجابة ستكون بالنفي وعليه:

كلّماته لا يمكن أن تنحصر في شيء ولا أشياء، أو في عدد ولا أعداد، مصداقا لقوله تعالى: {قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلّمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلّمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا}954

وقوله تعالى أيضا: {وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلّمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}955

وهنا يمكن أن تظهر لنا عدة احتمالات للكلّمات التي ابتُلِيَ بها إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام منها إنّها قد تكون:

1 . التكاليف والشرائع.

2 . سنن الفطرة.

3 . خصال الإسلام.

---

953 النحل 18.

954 الكهف 109.

955 لقمان 27.

4 . محاجته لقومه.

5 . الصّلاة

6 . الزكاة

7 . الصوم

8 . رفع القواعد

9 . تطهير البيت

10 . الهجرة

11 . الابتلاء

12 . المناسك: كالطواف والسعي والرمي والإحرام والتعريف وغيرها.

13 . مجموع هذه الاحتمالات.

14 . أشياء أخرى يعلمها الله تعالى المبتلي بها، وإبراهيم عليه الصّلاة والسّلام المبتلى بها وأتمهن، ولا نعلمها.

ونعود هنا إلى تساؤلاتنا السابقة:

هل الكلّمات مختصة فقط بإبراهيم عليه الصّلاة والسّلام أم لا؟

ألا تكون كلّمات إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام ابتلاء للذين من بعده باعتبار الإمامة والاقتداء؟

ألا يكون شرط إمامة الهدى في أتباع إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام (المسلمين) هو اجتياز الابتلاء بهذه الكلّمات؟

فنقول:

بناء على ما توصلنا إليه من معنى للكلّمات واحتمالات لها، فإننا نرى جازمين بأن هذه الكلّمات التي ابتُلِيَ بها إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام من ربّه وأتمها، فكان لذلك إماما وقدوة لنا من بعده، بل نحن مأمورون باتباعه في ملته والتي من معانيها طريقته ونهجه ومنهجه مصداقا لقوله تعالى: {قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}956

وبما أنّنا مأمورون باتباع ملته، ومن ملته التوفية بما أمر به، وهو قدوة لنا في ذلك

إذا فأوامر الله تعالى لإبراهيم عليه الصّلاة والسّلام (الكلّمات) هي بكلّ تأكيد أوامر لنا،

وإلا ما معنى الأمر باتباع ملته؟

وما معنى جعله إماما يقتدي به من معه من النّاس، ويهتدي به الذين من بعده منهم؟

ونحن نعلم علم اليقين أنّ النبوّة قد اختتمت بمحمّد عليه الصّلاة والسّلام، فيستحيل أن يكون هناك من بعده نبي، أما الإمامة فهي ليست منحصرة في الأنبياء فقط، بل تتعداهم إلى غيرهم من العباد الطائعين لله الممتثلين لأوامره، المصدقين برسله وأنبيائه، المقتدين بهم مصداقا لقوله تعالى: {وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ}957

---

[956] آل عمران 95.

[957] القصص 5.

وقوله تعالى أيضا: {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُون}958

وقد أوضحنا ذلك في ثنايا موضوع إمامة إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام.

وهي فينا باقية إلى يوم يرث الله تعالى الأرض ومن عليها.

ولذا ألا ترى أن تحقّق الإمامة من بعد إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام، مرهون بالاقتداء به في اجتياز ابتلاء الكلّمات بتوفيتهن، لمن أراد أن يكون إماما؟

فبالنسبة لنا لا نرى غير ذلك.

وإلا بماذا نفعل ما نفعل من طاعات؟

ألم نؤمن بالله بالكلّمات؟

ألم نسلم وجوهنا لله تعالى بالكلّمات؟

ألم نصدق الرّسُل ونطيعهم بالكلّمات؟

ألم نطف بالبيت بالكلّمات؟

ألم نسعَ بين الصفا والمروة بالكلّمات؟

ألم نؤمر بتطهير البيت بالكلّمات؟

ألم نذبح الأضاحي في الحج بالكلّمات؟

ألم نرمِ الجمرات في الحج بالكلّمات؟

---

[958] السجدة 24.

ألم نقف بعرفة بالكلّمات؟

ألم نصم رمضان بالكلّمات؟

ألم نصلِ الصّلاة بالكلّمات؟

ألم نزكِ بالكلّمات؟

ألم نصل الرحم بالكلّمات؟

ألم نبر الولدين بالكلّمات؟

ألم نتراحم فيما بيننا بالكلّمات؟

ألم نؤدِ الأمانات إلى أهلها بالكلّمات؟

ألم نجاهد في سبيل الله بالكلّمات؟

ألم ننتهِ عن المنكر بالكلّمات؟

ألم نأمر بالمعروف بالكلّمات؟

وإبراهيم عليه الصّلاة والسّلام في كلّ ذلك إمام للمسلمين من بعده.

الكلّمات بين آدم وإبراهيم ومريم:

نحاول في هذا المبحث إلقاء الضوء على علاقة الكلّمات التي لإبراهيم عليه الصّلاة والسّلام ببقية الكلّمات في القرآن الكريم التي كانت لغيره.

وردت لفظة (كلّمات) في القرآن الكريم ثلاث مرات، مرة مجردة من حرف الجر الباء، ومرتين مقرونتين به، وذلك في قوله تعالى: {فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ ربّهِ كلّمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إنّه هُوَ التَّوَّابُ الرّحيم}959

وقوله تعالى: {وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ ربّهُ بِكلّمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ}960

وقوله تعالى: {وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكلّمَاتِ ربّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ}961

وهنا نتساءل:

ما العلاقة بين الكلّمات التي ابتلي بها إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام والكلّمات التي تلقاها آدم عليه الصّلاة والسّلام والكلّمات التي صدقت بها مريم ابنة عمران؟

من خلال ما قلناه في كلّمات إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام نرى أن المعنى الذي توصلنا إليه يتناسب مع كلّمات آدم عليه الصّلاة والسّلام، فلا ينحصر معنى الكلّمات التي تلقاها آدم من ربّه فيما اختُلِفَ فيمن أقوال ومعاني فمنهم من حصرها في:

. قولهما (آدم وزوجه) في قوله تعالى: {قَالَا ربّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ}962

---

959 البقرة 37.

960 البقرة 124.

961 التحريم 12.

962 الأعراف 23.

. وقوله سبحانك اللَّهُمَّ لا إله إلاّ أنت ربّي ظلمتُ نفسي فاغفر لي إنك أنت الغفور الرّحيم.

ـوقيل: إنّه رأى مكتوبا على ساق العرش «محمّد رسول الله» فتشفّع بذلك[963].

. وقيل: المراد بالكلّمات البكاء، والحياء، والدعاء.

. وقيل: هي الندم، والاستغفار، والحزن.

. وقيل: إن الكلّمات هي قوله سبحانك اللّهُمّ وبحمدك، لا إله إلا أنتَ عملتُ سوءا وظلمتُ نفسي فاغفر لي إنك خير الغافرين، سبحانك اللّهُمّ وبحمدك، لا إله إلا أنتَ عملتُ سوءا وظلمتُ نفسي فتُبْ عليّ إنك أنت التواب الرّحيم.

ونقول:

ينفتح أمام الكلّمات التي تلقاها آدم عليه الصّلاة والسّلام، من ربّه في المعنى باب الاحتمالات منها.

. أن تكون كلّ ما قاله المفسرون على اعتبار أن كلّ تلك العبارات مأمور آدم عليه الصّلاة والسّلام بأن يقولها.

. أن تكون مجموعة الأوامر والشرائع أداها، فتاب الله عليه.

. أن تكون جميع تلك الاحتمالات مجموعة.

. كما يمكن أن تكون كلّمات مخصوصة لأحداث مخصوصة.

. ويمكن أن تكون أشياء لم يطلعنا الله تعالى عليه.

---

[963] تفسير القرطبي 1، 142.

وكذلك بالنسبة للكلّمات التي صدقت بها مريم ابنة عمران ينفتح أمامها عدة احتمالات منها:

. إنّها صحف إدريس عليه الصّلاة والسّلام.

. أوامر الله تعالى لها على لسان الملائكة مصداقا لقوله تعالى: {وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ}964

ـأو جميع ما قيل في ذلك من أقوال.

وعليه فالرابط بين هذه الكلّمات الثلاث هو:

إنّها من الله تعالى.

إنّها بأمر الله تعالى وإرادته.

إنّها كانت من الله لأنبياء ورسل ومصطفين مباشرة.

إنّها تكون لمن بعدهم بالاقتداء والامتثال.

إنّها جميعا تستوجب الطاعة لله تعالى فيما أمر ونهى بكلّماته جلّ وعلا.

مع العلم أن كلّمات الله تعالى ليست أصواتا ولا حروف متتالية في زمن مخصوص من الأزمان، بل هي وحيه الذي يوحى بطريقة وكيفية الله تعالى عليم بها، يعلمها الأنبياء والرّسُل ويبلغونها إلى أقوامهم بألسنتهم مصداقا لقوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ

964 آل عمران 42، 43.

لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}965

اللهم اجعلنا يا الله من المصدقين برسلك وأنبيائك، الطائعين المستجيبين لكلّماتك المحافظين عليها وأجعلها لنا حافظة. أميـن

965 إبراهيم 4.

النبي

إبراهيم من السُنّة

إبراهيم خير البريّة:

ولد إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام في أور الكلّدانيين في العراق، وكان قومه الذين ولد فيهم يعبدون الكواكب السيّارة والأصنام، حتى كاد أن يكون لكلّ منهم صنم خاصّ به؛ فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ "جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ عليه الصّلاة السّلام؛ فَقَالَ: يَا خَيْرَ الْبَرِيَّةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ عليه الصّلاة السّلام: ذَاكَ إِبْرَاهِيمُ"966.

قال النووي: "قَالَ الْعُلَمَاء: إِنَّمَا قَالَ هَذَا تَوَاضُعًا وَاحْتِرَامًا لِإِبْرَاهِيم؛ لِخُلَّتِهِ وَأُبُوَّته، وَإِلَّا فَنَبِيُّنَا عليه الصّلاة السّلام أَفْضَل كَمَا قَالَ عليه الصّلاة السّلام: أَنَا سَيِّد وَلَد آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ"967 وَلَمْ يَقْصِد بِهِ الِافْتِخَار وَلَا التَّطَاوُل عَلَى مَنْ تَقَدَّمَهُ، بَلْ قَالَهُ بَيَانًا لِمَا أُمِرَ ببيانه وَتَبْلِيغه، وَلِهَذَا قَالَ عليه الصّلاة السّلام: (وَلَا فَخْر) لِيَنْفِيَ مَا قَدْ يَتَطَرَّق إِلَى بَعْض الْأَفْهَام غير الصحيحة.

فَالْجَوَاب إنّه لَا يُمْتَنَعُ إنّه أَرَادَ أَفْضَل الْبَرِيَّة الْمَوْجُودِينَ فِي عَصْره، وَأَطْلَقَ الْعِبَارَةَ الْمُوهِمَةَ لِلْعُمُومِ؛ لأنّه أَبْلَغُ فِي التَّوَاضُع، وَقَدْ جَزَمَ صَاحِب التَّحْرِير بِمَعْنَى هَذَا فَقَالَ: الْمُرَادُ أَفْضَلُ بَرِيَّةِ عَصْرِهِ.

وَأَجَابَ الْقَاضِي عَنِ التَّأْوِيلِ الثَّانِي بأنّه وَإِنْ كَانَ خَبَرًا؛ فَهُوَ مِمَّا يَدْخُلُهُ النَّسْخُ مِنَ الْأَخْبَار؛ لأَنَّ الْفَضَائِل يَمْنَحُهَا اللَّهُ تَعَالَى لِمَنْ يَشَاءُ،

966 رواه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل باب من فضائل إبراهيم رقم: 150.

967 رواه مسلم في صحيحه رقم: 2278، وأبو داود - واللفظ له – رقم: 2834.

فَأَخْبَرَ بِفَضِيلَةِ إِبْرَاهِيمَ عليه الصّلاة السّلام إِلَى أَنْ عَلِمَ تَفْضِيلَ نَفْسِهِ عليه الصّلاة السّلام؛ فَأَخْبَرَ بِهِ.

وَيَتَضَمَّنُ هَذَا جَوَازُ التَّفَاضُلِ بَيْنَ الأَنْبِيَاءِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ968".

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ عليه الصّلاة السّلام: "أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرُ، وَأَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ"969.

قَالَ الْهَرَوِيُّ: "السَّيِّد هُوَ الَّذِي يَفُوقُ قَوْمه فِي الْخَيْر، وَقَالَ غَيْره: هُوَ الَّذِي يُفْزَعُ إِلَيْهِ فِي النَّوَائِب وَالشَّدَائِد، فَيَقُومُ بِأَمْرِهِمْ، وَيَتَحَمَّلُ عَنْهُمْ مَكَارِهِهِمْ، وَيَدْفَعُهَا عَنْهُمْ.

وَأَمَّا قَوْله عليه الصّلاة السّلام: (يَوْم الْقِيَامَة) مَعَ إِنّه سَيِّدهمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَة، فَسَبَبُ التَّقْيِيد أَنَّ فِي يَوْم الْقِيَامَة يَظْهَرُ سُؤْدُده لِكلّ أَحَدٍ، وَلَا يَبْقَى مُنَازِع، وَلَا مُعَانِد، وَنَحْوه، بِخِلَافِ الدُّنْيَا فَقَدْ نَازَعَهُ ذَلِكَ فِيهَا مُلُوكُ الْكُفَّار وَزُعَمَاء الْمُشْرِكِينَ.

وَهَذَا التَّقْيِيد قَرِيب مِنْ مَعْنَى قَوْله تبارك وتَعَالَى: {لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ}970 مَعَ أَنَّ الْمُلْكَ لَهُ سبحانه قَبْل ذَلِكَ، لَكِنْ كَانَ فِي الدُّنْيَا مَنْ يَدَّعِي الْمُلْكَ، أَوْ مَنْ يُضَافُ إِلَيْهِ مَجَازًا، فَانْقَطَعَ كلّ ذَلِكَ فِي الْآخِرَة.

---

968 شرح صحيح مسلم لأبي زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، 15، ص 121-122.

969 مسند إسحاق بن راهويه ، 1، ص 227.

970 غافر 16.

قَالَ الْعُلَمَاء: وَقَوْله عليه الصّلاة السّلام: (أَنَا سَيِّد وَلَد آدَم) لَمْ يَقُلْهُ فَخْرًا، بَلْ صَرَّحَ بِنَفْيِ الْفَخْر فِي غَيْر مُسْلِم فِي الْحَدِيث الْمَشْهُور (أَنَا سَيِّد وَلَد آدَم وَلَا فَخْرَ) وَإِنَّمَا قَالَهُ لِوَجْهَيْنِ:

أَحَدهمَا: اِمْتِثَال قَوْله تَعَالَى: {وَأَمَّا بِنِعْمَةِ ربّكَ فَحَدِّثْ}971.

وَالثَّانِي: إنّه مِنَ الْبَيَان الَّذِي يَجِبُ عَلَيْهِ تَبْلِيغُهُ إِلَى أُمَّته لِيَعْرِفُوهُ، وَيَعْتَقِدُوهُ، وَيَعْمَلُوا بِمُقْتَضَاهُ، وَيُوَقِّرُوهُ عليه الصّلاة السّلام بِمَا تَقْتَضِي مَرْتَبَتُهُ كَمَا أَمَرَهُمْ اللَّه تَعَالَى.

وَهَذَا الْحَدِيث دَلِيل لِتَفْضِيلِهِ عليه الصّلاة السّلام عَلَى الْخَلْقِ كلّهِمْ؛ لأنَّ مَذْهَب أَهْل السُّنَّة أَنَّ الْآدَمِيِّينَ أَفْضَل مِنَ الْمَلَائِكَة، وَهُوَ عليه الصّلاة السّلام أَفْضَل الْآدَمِيِّينَ وَغَيْرهمْ.

وَأَمَّا الْحَدِيث الْآخَر: (لَا تُفَضِّلُوا بَيْن الأَنْبِيَاء) فَجَوَابه مِنْ خَمْسَة أَوْجُه:

أَحَدها: إنّه عليه الصّلاة السّلام قَالَهُ قَبْل أَنْ يَعْلَمَ إنّه سَيِّد وَلَد آدَم، فَلَمَّا عَلِمَ أَخْبَرَ بِهِ.

وَالثَّانِي: قَالَهُ أَدَبًا وَتَوَاضُعًا.

وَالثَّالِث: أَنَّ النَّهْيَ إِنَّمَا هُوَ عَنْ تَفْضِيلٍ يؤدّي إِلَى تَنْقِيص الْمَفْضُول.

وَالرَّابع: إِنَّمَا نَهْيٌ عَنْ تَفْضِيلٍ يؤدّي إِلَى الْخُصُومَة وَالْفِتْنَة، كَمَا هُوَ الْمَشْهُور فِي سَبَب الْحَدِيث.

---

971 الضحى 11.

وَالْخَامِس: أَنَّ النَّهْيَ مُخْتَصٌّ بِالتَّفْضِيلِ فِي نَفْس النبوّة، فَلَا تَفَاضُلَ فِيهَا، وَإِنَّمَا التَّفَاضُل بِالصِّفَاتِ وَفَضَائِلَ أُخْرَى، وَلابدّ مِنَ اِعْتِقَادِ التَّفْضِيل، فَقَدْ قَالَ اللَّه تَعَالَى: {تِلْكَ الرّسُل فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ}972.

قَوْله عليه الصّلاة السّلام: (وَأَوَّل شَافِع وَأَوَّل مُشَفَّع) إِنَّمَا ذَكَرَ الثَّانِي لأنّه قَدْ يَشْفَعُ اِثْنَانِ، فَيَشْفَعُ الثَّانِي مِنْهُمَا قَبْل الْأَوَّل973".

وإنّنا لنجد فريقا من العلماء قد فهم من قوله تبارك وتعالى: {وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ}974 أنّ رسول الله عليه الصّلاة السّلام هو أوّل مخلوق خلقه الله سبحانه وتعالى على الإطلاق، ولكن الشيخ محمّد متولي الشعراوي رحمه الله تعالى قد فتح الله عزّ وجلّ عليه فتحا أزال به هذا الخلاف؛ فقال: "وحين يقول عليه الصّلاة السّلام: {وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ} في أمّته - فهذا قول صحيح صادق؛ لأنّه قبل أن يأمر غيره بالإسلام آمن هو بالإسلام، وكلّ رسول أوّلُ المسلمين في أمته، لكن هناك أناسا يقولون: لنأخذ العبارة هكذا، ونقول: إنّ الرّسول عليه الصّلاة السّلام له منزلة بين رسل الله أجمعين تتجلى في إنّه عليه الصّلاة السّلام أُخِذَ العهدُ على غيره له، ولم يُؤْخَذِ الْعَهْدُ عليه لأحدٍ من الأنّبياء: {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ}975؛ فإن كان أوّلَ المسلمين في أمّته، فهو أوّل المسلمين

---

972 البقرة 253.

973 شرح صحيح مسلم لأبي زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، 15، ص 137-138.

974 الأنعام: 162-163.

975 آل عمران: 81.

بين الرّسُل أيضا، وإن لم تأخذها حَدَثًا وَمَكَانًا وَزَمَانًا – فَخُذْهَا مَكَانَةً وَرِفْعَةً وَتَفْضِيلًا.

وأضربّ هذا المثل: لو أن كلّية الحقّوق أنشئت مثلا في عام ألف وتسعمائة وخمسة وعشرين للميلاد، لكلّ عام لها أولٌ من التلاميذ، ثم جاء واحد وحصل على الدرجات النهائية في جميع المواد هذا العام فنقول عنه: إنّه الأول على كلّية الحقّوق من يوم أن أنشئت"976.

ونحن نقول: قال الله تعالى: {لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ ربّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ}977. ومع ذلك نحن نعلم قوله تعالى: {تِلْكَ الرّسُل فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ}978، أي: أنّ جميع الأنّبياء مفضلون وكلّ منهم مفضل بالنبأ الذي أخصّه الله به، وكلّ مفضل بالرّسالة التي أخصّه الله بها، وكلّ مفضل بالقوم أو الشعب أو الأمة التي أرسل إليها، وأنا أقول: لو لم أكن مؤمنا بمحمّد عليه الصّلاة السّلام لقلت عند الكتابة عن أيّ رسول هو ذا هو رسولي؛ فسبحان الله إنّهم المفضلون ولكلّ درجة عند الله عزّ وجلّ، أمّا نحن فلا نفرّق بينهم عليهم جميعا الصّلاة السّلام.

حبّ النبي لاسم إبراهيم:

قال الله تعالي: {وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا}979 فثنى سبحانه وتعالي بالوالدين لما لهما من فضل على

976 تفسير الشعراوي، 7، ص 4024.

977 البقرة 285.

978 البقرة 253.

979 النساء: 36.

الأنّسان؛ فلابدّ من برّهما أحياء وأمواتا، وتسمية بعض الأولاد باسمهما تعدّ تفضيلا عند البعض، وتتفاوت من أب لآخر، ولكن التفضيل الحقّيقي هو البرّ بهما، والتواضع لهما، وطاعتهما في كلّ شيء يرضي الله تعالى ورسله الكرام البررة.

ولقد سَمَّى رسول الله عليه الصّلاة السّلام أبنه من مارية باسم أبيه إبراهيم, فَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِك قَال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ عليه الصّلاة السّلام: (وُلِدَ لِي اللَّيْلَةَ غُلَامٌ؛ فَسَمَّيْتُهُ بِاسْمِ أَبِي إِبْرَاهِيمَ، ثُمَّ دَفَعَهُ إِلَى أُمِّ سَيْفٍ – امْرَأَةِ قَيْنٍ يُقَالُ لَهُ: أَبُو سَيْفٍ – فَانْطَلَقَ يَأْتِيهِ؛ وَاتَّبَعْتُهُ؛ فَانْتَهَيْنَا إِلَى أَبِي سَيْفٍ وَهُوَ يَنْفُخُ بِكِيرِهِ قَدْ امْتَلَأَ الْبَيْتُ دُخَانًا، فَأَسْرَعْتُ الْمَشْيَ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللَّهِ عليه الصّلاة السّلام فَقُلْتُ يَا أَبَا سَيْفٍ أَمْسِكْ جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ عليه الصّلاة السّلام فَأَمْسَكَ؛ فَدَعَا النَّبِيُّ عليه الصّلاة السّلام بِالصَّبِيِّ فَضَمَّهُ إِلَيْهِ، وَقَالَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقُولَ، فَقَالَ أَنَسٌ: لَقَدْ رَأَيْتُهُ وَهُوَ يَكِيدُ بِنَفْسِهِ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللَّهِ عليه الصّلاة السّلام ؛ فَدَمَعَتْ عَيْنَا رَسُولِ اللَّهِ عليه الصّلاة السّلام فَقَالَ: تَدْمَعُ الْعَيْنُ، وَيَحْزَنُ الْقَلْبُ، وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَى ربّنَا، وَاللَّهِ يَا إِبْرَاهِيمُ إِنَّا بِكَ لَمَحْزُونُونَ"[980].

(الْقَيْن) بِفَتْحِ الْقَاف الْحَدَّادُ.

وَفِيهِ جَوَاز تَسْمِيَة الْمَوْلُود يَوْم وِلَادَته، وَجَوَاز التَّسْمِيَة بِأَسْمَاءِ الأَنْبِيَاء صَلَوَات الله عَلَيْهِمْ وَسَلَامه.

وَفِيهِ اِسْتِتْبَاع الْعَالِم وَالْكَبِير بَعْض أَصْحَابه إِذَا ذَهَبَ إِلَى مَنْزِل قَوْم وَنَحْوه.

وَفِيهِ الْأَدَب مَعَ الْكِبَار.

---

[980] الآداب للبيهقي ، ص 305..

قَوْله: (وَهُوَ يَكِيد بِنَفْسِهِ) أَيْ: يَجُود بِهَا، وَمَعْنَاهُ: وَهُوَ فِي النَّزْع.

قَوْله: (فَدَمَعَتْ عَيْنَا رَسُول اللَّه عليه الصّلاة السّلام) فِيهِ جَوَاز الْبُكَاء عَلَى الْمَرِيض وَالْحُزْن، وَأَنَّ ذَلِكَ لَا يُخَالِفُ الرِّضَا بِالْقَدَرِ، بَلْ هِيَ رَحْمَةٌ جَعَلَهَا اللَّهُ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ، وَإِنَّمَا الْمَذْمُومُ النَّدْبُ وَالنِّيَاحَةُ، وَالْوَيْلُ وَالثُّبُورُ، وَنَحْوُ ذَلِكَ مِنْ الْقَوْلِ الْبَاطِلِ، وَلِهَذَا قَالَ عليه الصّلاة السّلام: (وَلَا نَقُول إِلَّا مَا يُرْضِي رَبّنَا).

أي: من القول الطيب من نحو: {إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ}[981].

ومن نحو ما علمنا إيّاه رسولنا عليه الصّلاة السّلام عندما مات سبطه عَلِيُّ بْنُ أَبِي الْعَاصِ بْنِ الرّبيع؛ فَعَنْ أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ أَرْسَلَتْ زَيْنَبُ ابْنَةُ النَّبِيِّ عليه الصّلاة السّلام إِلَيْهِ إِنَّ ابْنًا لِي قُبِضَ فَأْتِنا؛ فَأَرْسَلَ يُقْرِئُ السَّلَامَ وَيَقُولُ: (إِنَّ لِلَّهِ مَا أَخَذَ، وَلَهُ مَا أَعْطَى، وَكلّ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُسَمًّى؛ فَلْتَصْبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ، فَأَرْسَلَتْ إِلَيْهِ تُقْسِمُ عَلَيْهِ لَيَأْتِيَنَّهَا؛ فَقَامَ وَمَعَهُ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ، وَمَعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، وَأُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ، وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ، وَرِجَالٌ فَرُفِعَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ عليه الصّلاة السّلام الصَّبِيُّ وَنَفْسُهُ تَتَقَعْقَعُ، قَالَ حَسِبْتُهُ إنّه قَالَ كأنّها شَنٌّ؛ فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ؛ فَقَالَ سَعْدٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا هَذَا؟ فَقَالَ: هَذِهِ رَحْمَةٌ جَعَلَهَا اللَّهُ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ، وَإِنَّمَا يَرْحَمُ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ"[982].

قَوْله: (إِنَّ لِلَّهِ مَا أَخَذَ وَلَهُ مَا أَعْطَى) "قَدَّمَ ذِكْر الْأَخْذ عَلَى الْإِعْطَاء – وَإِنْ كَانَ مُتَأَخِّرًا فِي الْوَاقِع – لِمَا يَقْتَضِيه الْمَقَام، وَالْمَعْنَى: أَنَّ الَّذِي أَرَادَ اللَّه أَنْ يَأْخُذهُ هُوَ الَّذِي كَانَ أَعْطَاهُ، فَإِنْ أَخَذَهُ أَخَذَ مَا

[981] البقرة، 156.

[982] سنن ابن ماجه،1، ص 506..

هُوَ لَهُ، فَلَا يَنْبَغِي الْجَزَعُ لأنَّ مُسْتَوْدَعَ الْأَمَانَةِ لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَجْزَع إِذَا اسْتُعِيدَتْ مِنْهُ.

وَيَحْتَمِل أَنْ يَكُون الْمُرَاد بِالْإِعْطَاءِ إِعْطَاء الْحَيَاة لِمَنْ بَقِيَ بَعْد الْمَيِّت، أَوْ ثَوَابهمْ عَلَى الْمُصِيبَة، أَوْ مَا هُوَ أَعَمّ مِنْ ذَلِكَ.

وَ(مَا) فِي الْمَوْضِعَيْنِ مَصْدَرِيَّة، وَيَحْتَمِل أَنْ تَكُون مَوْصُولَة وَالْعَائِد مَحْذُوف، فَعَلَى الْأَوَّل التَّقْدِير: لِلَّهِ الْأَخْذ وَالْإِعْطَاء، وَعَلَى الثَّانِي: لِلَّهِ الَّذِي أَخَذَهُ مِنْ الْأَوْلَاد، وَلَهُ مَا أَعْطَى مِنْهُمْ، أَوْ مَا هُوَ أَعَمّ مِنْ ذَلِكَ[983]".

وفي تسمية الأبناء باسم الآباء نوع من التخليد، الداعي إلى ذكرهم بالثناء عليهم، والدعاء لهم، وبخاصة إذا وافق اسما من أسماء الأنّبياء؛ فكيف إذا كان الاسم اسم خليل الرّحمن عليه السّلام!

من أوصافه التي وصفه بها النّبي محمّد:

إنّ بني البشر يقع على رأسهم زمرتان، هم الأنّبياء والأقوياء، الأقوياء ملكوا الرّقاب بقوّتهم، والأنّبياء ملكوا القلوب بكمالهم، الأقوياء عاش النّاس لهم، أمّا الأنّبياء فعاشوا للناس، الأقوياء يُمدحون في حضرتهم، والأنّبياء يُمدحون في غيبتهم، هذه المفارقة الحادة بين الأقوياء والأنّبياء تعني أنّ النّاس جميعًا تبع لقوي أو نبي.

فالذي يسعده أن يُعطي من علمه، ومن ماله، ومن جاهه، ومن خبرته، ومن حكمته – من أتباع الأنّبياء.

والذي يسعده أن يأخذ من النّاس أموالهم، ويأخذ منهم حريتهم – من أتباع الأقوياء.

---

[983] فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلانيَّ، 3، ص 157.

وشتان بين من يملك قلوب النّاس وبين من يملك رقابهم، فالأنَّبياء جاءوا الحياة فأعطوا ولم يأخذوا، والأقوياء أخذوا ولم يعطوا؛ فكانت النتيجة الحتمية أنّ الأقوياء ملكوا الرّقاب فقط، أمّا الأنَّبياء فملكوا القلوب والأفئدة؛ لأنّهم عاشوا للنّاس، وبالنّاس، ومع النّاس. وأمّا الأقوياء فعاش لهم النّاس.

والحياة تنتهي؛ لأنَّ لها أمدا تنتهي إليه، وكلّ إنسان يحاسب على عمله، فالبطولة أن تكون من أتباع الأنَّبياء؛ وذلك بأن تبني حياتك على العطاء؛ لأنَّك كما قال الإمام الجليل الحسن البصري: "يا ابْنَ آدَمَ، إِنَّمَا أَنْتَ أَيَّامٌ، كلّما ذَهَبَ يَوْمٌ ذَهَبَ بَعْضُكَ[984]".

وكان يقول: "مَا مِنْ يَوْمٍ يَنْشَقُّ فَجْرُهُ، إِلَّا وَيُنَادِي: يَا ابْنَ آدمَ، أَنَا خَلْقٌ جَدِيدٌ، وَعَلَى عَمَلِكَ شَهِيدٌ؛ فَتَزَوَّدْ مِنِّي؛ فَإِنِّي إِذَا مَضَيْتُ لَا أَعُودُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ[985]".

قال أحمد شوقي في رثاء مصطفي كامل:

دقات قلب المرء قائلة له إنَّ الحياة دقائق وثواني

فارتفع لنفسك بعد موتك ذكرها فالذّكر للإنسان عمر ثاني[986]

ولأنّ العمر زمن، وأثمن ما يملكه الأنَّسان هو الزّمن؛ فهو رأس ماله الحقّيقي؛ لذا أقسم الله له بمطلق الزّمن فقال تعالى: {وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ}[987]

---

[984] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني، 2، ص 148.

[985] المرجع السابق، 2، ص 147.

[986] ديوان شوقي، 5، ص 356

عجيب لماذا هو خاسر يا ربّ؟ قيل: لأنَّ مُضِيَ الزّمن يستهلكه.

الأنَّسان زمن والعاقل من ينفق وقته إنفاقًا استثماريًّا: الأنّسان زمن، أي: بضعة أيّام، فهذا الزّمن هو رأس ماله، أو أثمن شيء يملكه، فهو ينفقه استهلاكًا أو استثمارًا.

فإذا أكلّنا، وشربّنا، واستمتعنا بالحياة، ونمنا، واستيقظنا، وذهبنا إلى أعمالنا، ورجعنا إلى بيوتنا، وسهرنا – فهذا هو إنفاق الوقت استهلاكًا، وإنفاق الوقت استهلاكًا ليس له أثر مستقبلي إطلاقًا.

أما العقل والتفوق فهو أن ننفق أوقاتنا استثمارًا، أي: أن يفعل أحدنا في هذا الزّمن الذي سينقضي عملًا ينفعه بعد انقضاء الزّمن، هذا هو الأنَّفاق الاستثماري؛ لذلك جاءت كلّمة (إلَّا): ﴿وَالْعَصْرِ إِنَّ الأنَّسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا﴾.

(إلَّا) أداة استثناء، ما بعد (إلَّا) مستثنى من الخسارة، فالأنَّسان بإمكانه ببساطة بالغة أن يتلافي الخسارة إذا فعل أربّعة أشياء: {إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالحقّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ}988. أي:

. أن يكونوا على الإيمان بالحقّ.

. أن يعملوا الصّالحات، ولابدّ لهم أن يعملوا بها ويعملوا عليها.

. أن يتواصوا بالحقّ، ولا شيء غيره، وأن يأخذوا به، وبه يحتكموا.

---

987 العصر 1، 2.

988 العصر 3.

. أن يصبروا على العمل الصّالح والأخذ بالحقّ والاحتكام به، وأن يصبروا على ذلك ولا يبدّلوا تبديلا.

ولهذا فقد بَحَثَ عنِ الحقّيقةِ حتى عرفها، بحث عن حقّيقة هذا الدّين، عن حقّيقة ربّ العالمين، عن حقّيقة هذا الإسلام، عن حقّيقة الدنيا، عن حقّيقة الآخرة، بحث عن الحقّيقة، ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

ولما بحث عن الحقّيقة جاءت حركته موافقة لشرع الله سبحانه وتعالى: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.

عرف أن سرَّ وجوده في هذه الحياة هو العمل الصّالح، وأنّ الله جاء به إلى الدنيا ليدفع ثمن الجنّة، وثمن الجنّة هو العمل الصالح: {ادْخُلُوا الجنّة بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}[989].

إذًا إنفاق الوقت إنفاقًا استثماريًا يكون في مثل: طلب العلم، والعمل وفق العلم الذي تعلمه، والصّبر على طلب العلم، وعلى العمل به، وعلى التقربّ إلى الله تعالى بالعمل الصّالح؛ فهذا الذي قاله الله عزّ وجلّ في كتابه الكريم: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا، وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، وَتَوَاصَوْا بِالحقّ، وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾.

فالأنّسان بضعة أيام، كلّما انقضى يوم انقضى بضع منه، هذا المعنى الدقيق جدًا فهمه الإمام الشافعي، وهو يقرأ هذه السورة الكريمة؛ فقال: "لَوْ تَدَبَّرُ النّاس هَذِهِ السُّورَةَ لَكَفَتْهُمْ[990]".

---

[989] النحل: 32.

[990] تفسير القرآن العظيم لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، 1، ص 203.

فالأنَّسان خاسر؛ لأنَّ مضي الوقت يستهلكه، كإنسان ركب قطارًا ليوصله إلى مكان ما، المحطة الأخيرة معلومة ومحددة، ولو نظر إلى ساعته فكلّ حركة يتحركها عقربّ الثواني يقربّه من الهدف المنشود.

وخير من آمن وعمل الصالحات وتواصى بالحقّ وتواصى بالصبر الأنَّبياء، وعلى رأسهم أبو الأنَّبياء خليل الرّحمن إبراهيم.

ولقد كان آية من آيات الله في الجود والكرم، والبذل والعطاء، فلقد وصَفَهُ رَسُولُ اللهِ عليه الصّلاة السّلام بالْكَرِيمِ؛ فَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ عليه الصّلاة السّلام قَالَ: "الْكَرِيمُ ابْنُ الْكَرِيمِ ابْنِ الْكَرِيمِ ابْنِ الْكَرِيمِ: يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمْ السَّلَام"991.

لأنَّ الكرم أصل المحاسن كلّها؛ "فَصَنَائِعُ الْمَعْرُوفِ تَقِي مَصَارِعَ السُّوءِ"992، "وَالْجُودُ حَارِسُ الْأَعْرَاضِ993".

والكرم اسم واقع على كلّ نوع من أنواع الفضل، ولفظ جامع لمعاني السماحة والبذل، والكرم صفة أصيلة في النفس الإنسانية، ومعناه الإعطاء، والأنَّفاق، وطيب النفس، وهو ضد اللؤم والنذالة، والبخل والشّح، وهو من أجمل الصفات العربّية التي تفضل الله تعالى بها علينا حتى توارثها الأجيال جيلا بعد جيل.

وقال يحيى البرمكي: "أَعْطِ مِنَ الدُّنْيَا وَهِيَ مُقْبِلَةٌ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ لا يُنْقِصُكَ مِنْهَا شَيْئًا، وَأَعْطِ مِنْهَا وَهِيَ مُدْبِرَةٌ؛ فَإِنَّ مَنْعَكَ لَا يُبْقِى عَلَيْكَ مِنْهَا شَيْئًا"994.

---

991 مسند أحمد ط الرّسالة، 9، ص 523.

992 الطبراني في الأوسط، 1، ص 289.

993 نهج البلاغة علي بن أبي طالب: باب الحكم، الحكمة، ص 208.

فكيف بخليل الرّحمن، وهو من هو في الكرم والجود؛ فلقد اشتق صفته من اسمه؛ قيل: إنّ أصل الاسم هو (إبرام)، ومعناه: الأب رفيع المقام، وإبراهيم – أيضا – تعني: إنّه أبو الجمهور، أو أبو الجماعة.

وكما قيل: لكلّ من اسمه نصيب؛ فقد قال محمّد بْنُ يَزِيدَ الرَّاسِبِيُّ: حَدَّثَنِي صَدِيقٌ لِي: "أَنَّ أَعْرَابِيًّا انْتَهَى إِلَى قَوْمٍ، فَقَالَ: يَا قَوْمُ، أَرَى وُجُوهًا وَضِيئَةً، وَأَخْلَاقًا رَضِيَّةً، فَإِنْ تَكُنِ الْأَسْمَاءُ عَلَى إِثْرِ ذَلِكَ؛ فَقَدْ سَعِدَتْ بِكُمْ أُمُّكُمْ، فَبِمَ تُسَمَّوْنَ، بِأَبِي أَنْتُمْ؟ قَالَ أَحَدُهُمْ: أَنَا عَطِيَّةُ، وَقَالَ الْآخَرُ: أَنَا كَرَامَةُ، وَقَالَ الْآخَرُ: أَنَا عَبْدُ الْوَاسِعِ، وَقَالَ الْآخَرُ: أَنَا فَضِيلَةُ؛ قَالَ: فَكَسَوْهُ، وَأَحْسَنُوا إِلَيْهِ، وَانْصَرَفَ شاكرا[995]".

فإذا كان عَطِيَّةُ، وَكَرَامَةُ، وَعَبْدُ الْوَاسِعِ، وَفَضِيلَةُ فعلوا هذا فكيف بأبي الجمهور وأبي الجماعة؛ إنّه عليه السّلام لا يبخل أن يذبح لضيفه –كما حكى القرآن عنه – عجلا حنيذا.

(والحَنِيذ هو: العجل السمين المشوي على الحجارة؛ لأنَّ الشواء كما نعلم قد يكون على اللهب أو على الفحم، أو على الحجارة {وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ}[996].

ومثل ذلك يحدث في البلاد العربيّة حين يأتون بحجر رقيق جدًّا، ويحمُّونه على النّار، ثم يشوون عليه اللحم، وهذا ما يضمن عدم

---

[994] المستطرف في كل فن مستظرف للأبشيهي، ص 166.

[995] المنتقى من كتاب مكارم الأخلاق ومعاليها ومحمود طرائقها لأبي أحمد بن محمّد السلفي الأصبهاني، ص 135.

[996] هود، 69.

حدوث تفاعلات بين اللحم والحجر؛ لأنَّ هناك تفاعلات تحدث من الحديد أو من الفحم؛ ولذلك فهذه أنظف طريقة للشواء.

أو أنّ كلّمة: ﴿بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ أي: ينزل منه الدّهن بعد الشواء.

وقول الحقّ سبحانه: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ يبين أنّ طبيعة سيدنا إبراهيم عليه السلام هي محبة الضيوف وإكرامهم.

ومن عادة الكرام أن يُعجّلوا بإكرام الضيف، وتقديم الطعام لهم، والكريم هو من يفعل ذلك؛ لأنّه لا يعلم ما قد مر على الضيف من أحداث، فإن كان الضيف جائعًا أكلّ، وإن كان شبعان فهو يعلن ذلك ويمتنع.

ويقول الحقّ سبحانه ما حدث بعد أن جاء لهم إبراهيم عليه السلام بالعجل المشوي: ﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾.

وحين رأى إبراهيم أنّ أيديهم لا تصل إلى الطعام توجس من ذلك شرًّا، ونَكِرَهُمْ، أي: استنكر إنّهم لم يأكلّوا من طعام قدَّمه لهم، فهل علم إبراهيم إنّهم ملائكة؟

لقد علم إبراهيم إنّهم ملائكة من كلّامهم.

وقد بيَّن ذلك قول الحقّ سبحانه في موضع آخر من القرآن: {إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلاَمًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالحقّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ ربّهِ إِلَّا

الضَّالُّونَ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ}997.

إذن: فهم لم يقولوا له مثلما قالوا للوط: {إِنَّا رُسُلُ ربّكَ}998.

وهنا حين قالوا لإبراهيم عليه السلام: {لاَ تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلى قَوْمِ لُوطٍ}999.

أي: إنّهم فهموا أنّ إبراهيم عليه السلام يعلم إنّهم ملائكة؛ لأنَّ الْمَلَك قد يتشكلّ في هيئة إنسان، مثلما تشكلّ جبريل عليه السّلام أمام سيدنا محمّد عليه الصّلاة السّلام.

وكذلك الجنّ لهم قدرة على التشكلّ، إلّا أنّ هناك فارقًا بين تشكلّ الْمَلَكِ وتشكلّ الجن، فالجن إن تشكلّ تحكمه الصورة، فإن تشكلّ في صورة رجل فيمكنك أن تمسك به وتؤذيه.

وقال جعفر بن محمّد الصَّادق: "إِنَّ للهِ وُجُوهًا مِنْ خَلْقِهِ، خَلَقَهُمْ لِقَضَاءِ حَوَائِجِ عِبَادِهِ، يَرَوْنَ الْجُودَ مَجْدًا، وَالْإِفْضَالَ مَغْنَمًا، وَاللهُ يُحِبُّ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ1000".

نجاة إبراهيم من النّار:

لقد كانت عصور الأنبياء جميعهم عصور إظهار المعجزات، ولهذا فُضّلوا اصطفاء، فبشّروا وأنذروا وحرّضوا على أفاعل الخير، وهدوا بالتي هي أحسن؛ ومن هنا جاءت الهداية تنزيلا؛ فمن اهتدى فقد

997 الحجر: 52- 58.

998 هود: 81.

999 هود: 70.

1000 ربيع الأبرار ونصوص الأخيار للزمخشري، 2، ص 357.

أهتدى لنفسه، {قُلْ يَا أَيُّهَا النّاس قَدْ جَاءَكُمُ الحقّ مِنْ ربّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ}1001.

عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ عليه الصّلاة والسّلام: "لَوْ جُعِلَ الْقُرْآنُ فِي إِهَابٍ ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النّار لَمَا احْتَرَقَ"1002 فَتَأَمَّلْنَا هَذَا الْحَدِيثَ فَوَجَدْنَا مَنْ تَقَدَّمَنَا مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ بِهَذَا الْمَعْنَى قَدْ قَالُوا فِيهِ قَوْلَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَإِخْبَارُ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ أُمَّتَهُ بِقَوْلِهِ هَذَا أَنَّ مَنْ كَانَ مَعَهُ الْقُرْآنُ مَنَعَهُ أَنْ تَعْمَلَ فِيهِ النّار وَلَوْ أُلْقِيَ فِيهَا وَكَانَ مُرَادُهُ بِالْإِهَابِ الأنَّسَانَ الَّذِي يَكُونُ مَعَهُ الْقُرْآنُ، وَإِنّه تَعَالَى يَقِيهِ بِهِ مِنَ النّار كَمِثْلِ مَا وَقَى إِبْرَاهِيمَ خَلِيلَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لمكانة مِنْهُ مِنْ عَمَلِ النّار فِيهِ، وَمِنْ قَوْلِهِ لَهَا: {كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ}1003.

أمّا الْقَوْلُ الْآخَرُ أَنَّ الْإِهَابَ الْمَذْكُورَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ هُوَ الْإِهَابُ الَّذِي يُكْتَبُ فِيهِ الْقُرْآنُ، فَيَكُونُ اللهُ تَعَالَى؛ لِتَنْزِيهِهِ الْقُرْآنَ عَنَ النّار يَمْنَعُهَا مِنْهُ فَيَنْزِعُهُ مِنَ الْإِهَابِ حَتَّى يَكُونَ ذَلِكَ الْإِهَابُ خَالِيًا مِنَ الْقُرْآنِ، ثُمَّ تُحْرِقُ النّار الْإِهَابَ وَلَا قُرْآنَ فِيهِ وَكلّ وَاحِدٍ مِنْ هَذَيْنِ الْمَعْنَيَيْنِ فَحَسَنٌ مُحْتَمِلٌ هَذَا الْحَدِيثُ لَهُ"1004.

ونحن لا نستغربّ شيء يمكن أن يكون على الخصوص (على أيدي الأنبياء) عليهم الصّلاة والسّلام، ذلك لأنّه عصر الخصوصية المفضّلة اصطفاء من الله تعالى؛ فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُلَيْلٍ، عَنْ عَلِيٍّ، فِي

1001 يونس 108.

1002 شرح مشكل الآثار، 2، ص 360.

1003 الأنبياء 69.

1004 شرح مشكل الآثار، 2، ص 363.

قَوْلِهِ {يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ}1005، قَالَ: " لَوْلَا إنّه قَالَ: (وَسَلَامًا) لَقَتَلَهُ بَرْدُهَا"1006. ونحن نعتقد أنّ ما قاله إبراهيم هو الوحي الذي أوحاه الله إليه، ولهذا فلا إمكانية للنار المخلوقة أن تعصى أمر الخالق، ولا خوف في نفس إبراهيم من النّار، ومن هنا كانت النّار منهزمة مع إنّهزام أولئك الذين لم يؤمنوا طاعة لأمر الله وهو الذي جاء به إبراهيم نبيا مرسلا.

عَن ابْن عَبَّاس قَالَ: "كَانَ آخر كلّام إبراهيم حِين أُلقي فِي النّار حسبي الله وَنعم الْوَكِيل"1007 قَالَ وَقَالَ نَبِيكُم عليه الصّلاة والسّلام مثلهَا {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النّاس إِنَّ النّاس قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ}1008.وعَنْ بَكْرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الْمُزَنِيُّ؛ قَالَ: لَمَّا أَرَادُوا أَنْ يُلْقُوا إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي النّار؛ ضَجَّتْ عَامَّةُ الْخَلْقَةِ إِلَى رَبِّهَا عزّ وجلّ، فَقَالُوا: يَا ربّ خَلِيلُكَ يُلْقَى فِي النّار، ائْذَنْ لَنَا فَنُطْفِئَ عَنْهُ. فَقَالَ جَلَّ وَعَزَّ: هُوَ خَلِيلِي، لَيْسَ لِي خَلِيلٌ غَيْرُهُ فِي الْأَرْضِ، وَأَنَا إِلَهُهُ، لَيْسَ لَهُ إِلَهٌ غَيْرِي، فَإِنِ اسْتَغَاثَ بِكُمْ؛ فَأَغِيثُوهُ، وَإِلَّا؛ فَدَعُوهُ. قَالَ: وَجَاءَ مَلَكُ الْقَطْرِ، فَقَالَ: يَا ربّ خَلِيلُكَ يُلْقَى فِي النّار؛ فَائْذَنْ لِي، فَأُطْفِئَ عَنْهُ بِقَطْرَةٍ وَاحِدَةٍ. فَقَالَ جَلَّ وَعَزَّ: هُوَ خَلِيلِي، لَيْسَ لِي فِي الْأَرْضِ خَلِيلٌ غَيْرُهُ؛ وَأَنَا إِلَهُهُ، لَيْسَ لَهُ إِلَهٌ غَيْرِي، فَإِنِ اسْتَغَاثَ بِكَ؛ فَأَغِثْهُ، وَإِلَّا؛ فَدَعْهُ. قَالَ: فَلَمَّا أَنْ أُلْقِيَ فِي النّار؛1009 قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: {يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى

1005 الأنبياء 69.

1006 مصنف ابن أبي شيبة، 6، ص 330.

1007 عمل اليوم والليلة للنسائي، ص 393.

1008 آل عمران 173.

1009 المجالسة وجواهر العلم، 1، ص 371.

إِبْرَاهِيمَ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ}[1010].

وعليه: متى ما توكلّ المؤمن على الله بملء قلبه كان ربّه مجيب لتوكلّه الحقّ، ومن هنا يولد النصر من الناصر جلّ وعلا؛ فعَنِ الْحَسَنِ، إنّه قَالَ فِي قَوْلِ اللهِ عزّ وجلّ: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ}[1011]، قَالَ: "كَانَ إِذَا قَالَ: قَالَ لِلَّهِ، وَإِذَا عَمِلَ عَمِلَ لِلَّهِ، وَإِذَا نَوَى نَوَى لِلَّهِ"[1012].

وإلى جانب معجزة إبراهيم (نجاته من النّار) فله من المعجزات ما له؛ فهو الصّبور، فكان صبره على عدم الإنجاب، وصبره على ترك الطفل الرّضيع وأمّه في وادي غير ذي زرع امتثالا لأمر الله، وصبره خاضعا لأمر الله تعالى عندما أمره بذبح ابنه إسماعيل.

رمي الجمرات:

كان إبراهيم عليه السّلام أوّل من رمى الجمرات وذلك حينما تهيأ له إبليس؛ فرماه بسبع حصيات حين اعترضه في ثلاث مواقع كان أوّلها في موقع الجمرة العقبة، ثمّ في موقع الجمرة الصّغرى، ثمّ في موقع الجمرة الوسطى، عن خُصَيْفُ بْنُ عَبْدِ الرّحمن، عَنْ مُجَاهِدٍ، إنّه حَدَّثَهُ قَالَ: لَمَّا قَالَ إِبْرَاهِيمُ، عَلَيْهِ السَّلَامُ: ربّنَا {وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا}[1013]، أُمِرَ أَنْ يَرْفَعَ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ، ثُمَّ أُرِيَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ، وَقِيلَ: هَذَا مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ، ثُمَّ خَرَجَ بِهِ جِبْرِيلُ، فَلَمَّا مَرَّ بِجَمْرَةِ الْعَقَبَةِ إِذَا بِإِبْلِيسَ، فَقَالَ جِبْرِيلُ: كَبِّرْ وَارْمِهِ ثُمَّ ارْتَفَعَ إِبْلِيسُ إِلَى الْجَمْرَةِ الثَّانِيَةِ، فَقَالَ جِبْرِيلُ: كَبِّرْ

[1010] الأنبياء 69 . 71.

[1011] هود 75.

[1012] شعب الإيمان، 9، ص 190.

[1013] البقرة 128.

وَارْمِهِ ثُمَّ ارْتَفَعَ إِبْلِيسُ إِلَى الْجَمْرَةِ الْقُصْوَى، فَقَالَ جِبْرِيلُ: كَبِّرْ وَارْمِهِ ثُمَّ انْطَلَقَ إِلَى الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ، ثُمَّ أَتَى بِهِ عَرَفَةَ، فَقَالَ لَهُ جِبْرِيلُ: هَلْ عَرَفْتَ مَا أَرَيْتُكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَأَذِّنْ فِي النّاس بِالْحَجِّ قَالَ: كَيْفَ أَقُولُ؟ قَالَ: قُلْ: يَا أَيُّهَا النّاس أَجِيبُوا رَبَّكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ قَالُوا: لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، قَالَ: فَمَنْ أَجَابَ إِبْرَاهِيمَ يَوْمَئِذٍ فَهُوَ حَاجٌّ قَالَ خُصَيْفٌ: قَالَ لِي مُجَاهِدٌ حِينَ حَدَّثَنِي بِهَذَا الْحَدِيثِ: أَهْلُ الْقَدَرِ لَا يُصَدِّقُونَ بِهَذَا الْحَدِيثِ"1014.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ عليه الصّلاة والسّلام، قَالَ: "إِنَّ جِبْرِيلَ ذَهَبَ بِإِبْرَاهِيمَ إِلَى جَمْرَةِ الْعَقَبَةِ، فَعَرَضَ لَهُ الشَّيْطَانُ، فَرَمَاهُ بِسَبْعِ حَصَيَاتٍ، فَسَاخَ، ثُمَّ أَتَى بِهِ الْجَمْرَةَ الْوُسْطَى، فَعَرَضَ لَهُ الشَّيْطَانُ، فَرَمَاهُ بِسَبْعِ حَصَيَاتٍ، فَسَاخَ، ثُمَّ أَتَى بِهِ الْجَمْرَةَ الْقُصْوَى، فَعَرَضَ لَهُ الشَّيْطَانُ، فَرَمَاهُ بِسَبْعِ حَصَيَاتٍ، فَسَاخَ، فَلَمَّا أَرَادَ إِبْرَاهِيمُ أَنْ يَذْبَحَ ابْنَهُ إِسْحَاقَ، قَالَ لِأَبِيهِ: يَا أَبَتِ، أَوْثِقْنِي لَا أَضْطَرِبُ، فَيَنْتَضِحَ عَلَيْكَ مِنْ دَمِي إِذَا ذَبَحْتَنِي. فَشَدَّهُ، فَلَمَّا أَخَذَ الشَّفْرَةَ فَأَرَادَ أَنْ يَذْبَحَهُ، نُودِيَ مِنْ خَلْفِهِ1015: {أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا}1016.

وقد ضعف هذه الرواية الشيخ الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة، وأصل القصة دون ذكر كون الذبيح إسحاق رواها البيهقي في سننه، والحاكم في مستدركه مرفوعة إلى النبي عليه الصّلاة والسّلام. وقال الحاكم: هذا حديث على شرط الشيخين ولم يخرجاه؛ فرمي الجمرات هو اقتداء بإبراهيم عليه السّلام، لذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية البيهقي بعد أن ذكر القصّة: الشيطان ترجمون، وملّة

1014 أخبار مكة للأزرقي، 2، ص 175، 176.

1015 مسند أحمد ط الرّسالة، 5، ص 13.

1016 الصافات 105.

أبيكم إبراهيم تتبعون. وقال الشيخ محمّد الأمين الشنقيطي في تفسيره أضواء البيان: فكان الرّمي رمزا وإشارة إلى عداوة الشيطان التي أمرنا الله تعالى بها[1017] في قوله: {إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا}[1018].

رفع البيت:

البيت الحرام كما سبق تبانه كان آدم أوّل من بناه، ثمّ جاء إبراهيم ورفع القواعد؛ فعن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ قَالَ: "لَمَّا كَانَ زَمَنُ الطُّوفَانِ رُفِعَ الْبَيْتُ وَكَانَ الأَنْبِيَاءُ يَحُجُّونَهُ وَلَا يَعْلَمُونَ مكانه حَتَّى بَوَّأَهُ اللَّهُ لِإِبْرَاهِيمَ وَأَعْلَمَهُ مَكَانه وَرَوَى الْبَيْهَقِيُّ فِي الدَّلَائِلِ مِنْ طَرِيقٍ أُخْرَى عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو مَرْفُوعًا بَعَثَ اللَّهُ جِبْرِيلَ إِلَى آدَمَ فَأَمَرَهُ بِبِنَاءِ الْبَيْتِ فَبَنَاهُ آدَمُ ثُمَّ أَمَرَهُ بِالطَّوَافِ بِهِ وَقِيلَ لَهُ أَنْتَ أَوَّلُ النّاس وَهَذَا أَوَّلُ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنِ بن جُرَيْجٍ عَنْ عَطَاءٍ أَنَّ آدَمَ أَوَّلُ مَنْ بني الْبَيْت[1019].

وعن محمّد بْنُ إِسْحَاقَ، قَالَ: " بَلَغَنِي أَنَّ مَلَكًا، أَتَى هَاجَرَ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ حِينَ أَنْزَلَهَا إِبْرَاهِيمُ بِمَكَّةَ، قَبْلَ أَنْ يَرْفَعَ إِبْرَاهِيمُ وَإِسْمَاعِيلُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ، فَأَشَارَ لَهَا إِلَى الْبَيْتِ، وَهُوَ رَبْوَةٌ حَمْرَاءُ مَدَرَةٌ، فَقَالَ لَهَا: هَذَا أَوَّلُ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ فِي الْأَرْضِ، وَهُوَ بَيْتُ اللَّهِ الْعَتِيقُ، وَاعْلَمِي أَنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ يرفعانه لِلنَّاسِ، قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: "بَلَغَنِي أَنَّ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ هَزَمَ بِعَقِبَةَ فِي مَوْضِعِ زَمْزَمَ، قَالَ لِأُمِّ إِسْمَاعِيلَ: وَأَشَارَ لَهَا إِلَى مَوْضِعِ الْبَيْتِ، هَذَا أَوَّلُ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ، وَهُوَ بَيْتُ اللَّهِ الْعَتِيقُ، وَاعْلَمِي أَنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ يرفعانه لِلنَّاسِ، ويعمرانه فَلَا يَزَالُ

[1017] المستدرك على الصحيحين للحاكم، 1، ص 128.

[1018] فاطر 6.

[1019] فتح الباري لابن حجر، 6، ص 402.

مَعْمُورًا، مُحَرَّمًا، مُكَرَّمًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: فَمَاتَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ قَبْلَ أَنْ يَرْفَعَهُ إِبْرَاهِيمُ وَإِسْمَاعِيلُ، وَدُفِنَتْ فِي مَوْضِعِ الْحَجَرِ"1020.

حديث الأسرة:

سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عن ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: أَوَّلَ مَا اتَّخَذَ النِّسَاءُ الْمِنْطَقَ مِنْ قِبَلِ أُمِّ إِسْمَاعِيلَ، اتَّخَذَتْ مِنطَقًا لَتُعَفِّيَ أَثَرَهَا عَلَى سَارَةَ.

وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ بنُ نَافِعٍ عَنْ كَثِيرٍ فِيهِ، قَالَ: لَمَّا كَانَ بَيْنَ إِبْرَاهِيمَ عليه الصّلاة والسّلام وَبَيْنَ أَهْلِهِ مَا كَانَ خَرَجَ بِإِسْمَاعِيلَ وَأُمِّ إِسْمَاعِيلَ مَعَهُمْ شَنَّةٌ فِيهَا مَاءٌ، فَجَعَلَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ تَشْرَبُ مِنْ الشَّنَّةِ فَيَدِرُّ لَبَنُهَا عَلَى صَبِيِّهَا حَتَّى قَدِمَ مَكَّةَ فَوَضَعَهَا تَحْتَ دَوْحَةٍ.

قَالَ الْبُخَارِيُّ: "أَقْبَلَ إِبْرَاهِيمُ بِإِسْمَاعِيلَ وَأُمِّهِ عَلَيْهِمْ السَّلَام وَهِيَ تُرْضِعُهُ مَعَهَا شَنَّةٌ لَمْ يَرْفَعْهُ ثُمَّ جَاءَ بِهَا إِبْرَاهِيمُ وَبِابْنِهَا إِسْمَاعِيلَ، حَتَّى وَضَعَهُمَا عِنْدَ الْبَيْتِ عِنْدَ دَوْحَةٍ فَوْقَ زَمْزَمَ فِي أَعْلَى الْمَسْجِدِ، وَلَيْسَ بِمَكَّةَ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ، وَلَيْسَ بِهَا مَاءٌ، فَوَضَعَهُمَا هُنَالِكَ، وَوَضَعَ عِنْدَهُمَا جِرَابًا فِيهِ تَمْرٌ وَسِقَاءً فِيهِ مَاءٌ، ثُمَّ قَفي إِبْرَاهِيمُ مُنْطَلِقًا، فَتَبِعَتْهُ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ وهي تناديه مِنْ وَرَائِهِ: يَا إِبْرَاهِيمُ إِلَى مَنْ تَتْرُكُنَا؟ قَالَ: إِلَى الله عزّ وجلّ قَالَتْ: رَضِيتُ بِالله"1021.

وَقَالَ ابنُ جُرَيجٍ فِيهِ: فَقَالَتْ: يَا إِبْرَاهِيمُ أَيْنَ تَذْهَبُ وَتَتْرُكُنَا بِهَذَا الْوَادِي الَّذِي لَيْسَ فِيهِ إِنْسٌ وَلَا شَيْءٌ؟ فَقَالَتْ لَهُ ذَلِكَ مِرَارًا، وَجَعَلَ لَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا، فَقَالَتْ لَهُ: أَاللهُ الَّذِي أَمَرَكَ بِهَذَا؟ قَالَ: نَعَمْ قَالَتْ: إِذَنْ لَا (يُضَيِّعُنَا) ثُمَّ رَجَعَتْ، فَانْطَلَقَ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام حَتَّى إِذَا كَانَ عِنْدَ

1020 أخبار مكة للأزرقي، 1، ص 56.

1021 المختصر النصيح في تهذيب الكتاب الجامع الصحيح، 4، ص 21.

الثَّنِيَّةِ حَيْثُ لَا يَرَوْنَهُ اسْتَقْبَلَ الْبَيْتَ بِوَجْهِهِ ثُمَّ دَعَا بِهَؤُلَاءِ الدعوات فَرَفَعَ يَدَيْهِ فَقَالَ: ربّ {ربَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ربّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النّاس تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ}1022، وَجَعَلَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ تُرْضِعُ إِسْمَاعِيلَ وَتَشْربُ مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ، حَتَّى إِذَا نَفِدَ مَا فِي السِّقَاءِ عَطِشَتْ وَعَطِشَ ابْنُهَا وَجَعَلَتْ تَنْظُرُ إِلَيْهِ يَتَلَوَّى، أَوْ قَالَ: يَتَلَبَّطُ، فَانْطَلَقَتْ كَرَاهِيَةَ أَنْ تَنْظُرَ إِلَيْهِ، فَوَجَدَتْ الصَّفَا أَقْربَ جَبَلٍ فِي الْأَرْضِ يَلِيهَا، فَقَامَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ اسْتَقْبَلَتْ الْوَادِيَ تَنْظُرُ هَلْ تَرَى أَحَدًا، فَلَمْ تَرَ أَحَدًا، فَهَبَطَتْ مِنْ الصَّفَا حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ الْوَادِيَ رَفَعَتْ طَرَفَ دِرْعِهَا ثُمَّ سَعَتْ سَعْيَ الْأِنْسَانِ الْمَجْهُودِ حَتَّى جَاوَزَتْ الْوَادِيَ، ثُمَّ أَتَتْ الْمَرْوَةَ فَقَامَتْ عَلَيْهَا فَنَظَرَتْ هَلْ تَرَى أَحَدًا فَلَمْ تَرَ أَحَدًا، فَفَعَلَتْ ذَلِكَ سَبْعَ مَرَّاتٍ. فَلَمَّا أَشْرَفَتْ عَلَى الْمَرْوَةِ سَمِعَتْ صَوْتًا فَقَالَتْ: صَهٍ، تُرِيدُ نَفْسَهَا، ثُمَّ تَسَمَّعَتْ فَسَمِعَتْ أَيْضًا فَقَالَتْ: قَدْ أَسْمَعْتَ إِنْ كَانَ عِنْدَكَ غِوَاثٌ، فَإِذَا هِيَ بِالْمَلَكِ عِنْدَ مَوْضِعِ زَمْزَمَ، فَبَحَثَ بِعَقِبِهِ أَوْ قَالَ: بِجَنَاحِهِ حَتَّى ظَهَرَ الْمَاءُ، فَجَعَلَتْ تُحَوِّضُهُ وَتَقُولُ بِيَدِهَا هَكَذَا، وَجَعَلَتْ تَغْرِفُ مِنْ الْمَاءِ فِي سِقَائِهَا وَهِيَ تَفُورُ بِقَدْرِ مَا تَغْرِفُ1023. فَشَرِبَتْ وَأَرْضَعَتْ وَلَدَهَا، فَقَالَ لَهَا الْمَلَكُ: لَا تَخَافُوا الضَّيْعَةَ، فَإِنَّ هَا هُنَا بَيْتَ اللهِ يَبْنِيه هَذَا الْغُلَامُ وَأَبُوهُ، وَإِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَهْلَهُ، وَكَانَ الْبَيْتُ مُرْتَفِعًا مِنْ الْأَرْضِ كَالرَّابِيَةِ، تَأْتِيهِ السُّيُولُ فَتَأْخُذُ عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ، فَكَانَتْ كَذَلِكَ حَتَّى مَرَّتْ بِهِمْ رُفْقَةٌ مِنْ جُرْهُمَ أَوْ أَهْلُ بَيْتٍ مِنْ جُرْهُمَ مُقْبِلِينَ مِنْ طَرِيقِ كَدَاءٍ، فَنَزَلُوا فِي أَسْفَلِ مَكَّةَ فَرَأَوْا طَائِرًا عَائِفًا، فَقَالُوا: إِنَّ هَذَا الطَّائِرَ لَيَدُورُ عَلَى مَاءٍ، لَعَهْدُنَا بِهَذَا الْوَادِي وَمَا فِيهِ مَاءٌ، فَأَرْسَلُوا جَرِيًّا

[1022] إبراهيم 37.

[1023] المختصر النصيح في تهذيب الكتاب الجامع الصحيح، 4، ص 22.

أَوْ جرِيَّيْنِ فَإِذَا هُمْ بِالْمَاءِ، فَرَجَعُوا فَأَخْبَرُوهُمْ بِالْمَاءِ، فَأَقْبَلُوا، قَالَ: وَأُمُّ إِسْمَاعِيلَ عِنْدَ الْمَاءِ، فَقَالُوا: أَتَأْذَنِينَ لَنَا أَنْ نَنْزِلَ عِنْدَكِ، قَالَتْ: نَعَمْ وَلَكِنْ لَا حقّ لَكُمْ فِي الْمَاءِ، قَالُوا: نَعَمْ؛ فَنَزَلُوا فَأَرْسَلُوا إِلَى أَهَالِيهِمْ فَنزَلُوا مَعَهُمْ، حَتَّى إِذَا كَانَ بِهَا أَهْلُ أَبْيَاتٍ مِنْهُمْ وَشَبَّ الْغُلَامُ وَتَعَلَّمَ الْعَرَبِيَّةَ مِنْهُمْ وَأَنْفَسَهُمْ وَأَعْجَبَهُمْ حَتَّى شَبَّ، فَلَمَّا أَدْرَكَ زَوَّجُوهُ امْرَأَةً مِنْهُمْ، وَمَاتَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ، فَجَاءَ إِبْرَاهِيمُ بَعْدَمَا تَزَوَّجَ إِسْمَاعِيلُ يُطَالِعُ تَرِكَتَهُ، فَلَمْ يَجِدْ إِسْمَاعِيلَ، فَسَأَلَ امْرَأَتَهُ عَنْهُ فَقَالَتْ: خَرَجَ يَبْتَغِي لَنَا، ثُمَّ سَأَلَهَا عَنْ عَيْشِهِمْ وَهَيْئَتِهِمْ فَقَالَتْ: نَحْنُ بِشَرٍّ، نَحْنُ فِي ضِيقٍ وَشِدَّةٍ فَشَكَتْ إِلَيْهِ، قَالَ: فَإِذَا جَاءَ زَوْجُكِ فَاقْرَئِي عَلَيْهِ السَّلَامَ وَقُولِي لَهُ: يُغَيِّرْ عَتَبَةَ داره أي بَابِهِ, فَلَمَّا جَاءَ إِسْمَاعِيلُ كأنّه آنسَ شَيْئًا فَقَالَ: هَلْ جَاءَكُمْ مِنْ أَحَدٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، جَاءَنَا شَيْخٌ كَذَا وَكَذَا فَسَأَلَنَا عَنْكَ فَأَخْبَرْتُهُ، وَسَأَلَنِي كَيْفَ عَيْشُنَا فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّا فِي جَهْدٍ وَشِدَّةٍ، قَالَ: فَهَلْ أَوْصَاكِ بِشَيْءٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ السَّلَامَ وَيَقُولُ: غَيِّرْ عَتَبَةَ بَابِكَ، قَالَ: ذَلكِ أَبِي، وَقَدْ أَمَرَنِي أَنْ أُفَارِقَكِ، الحقِي بِأَهْلِكِ فطَلَّقَهَا وَتَزَوَّجَ مِنْهُمْ أُخْرَى، فَلَبِثَ عَنْهُمْ إِبْرَاهِيمُ مَا شَاءَ الله ثُمَّ أَتَاهُمْ بَعْدُ فَلَمْ يَجِدْهُ، فَدَخَلَ عَلَى امْرَأَتِهِ فَسَأَلَهَا عَنْهُ، فَقَالَتْ: خَرَجَ يَبْتَغِي لَنَا.

زَادَ إِبرَاهِيمُ عَنْ كَثِيرٍ: فَقَالَتْ امْرَأَتُهُ: ذَهَبَ يَصِيدُ، فَقَالَتْ: أَلَا تَنْزِلُ فَتَطْعَمَ وَتَشْربَ، فَقَالَ: وَمَا طَعَامُكُمْ، الحَدِيث.

وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: قَالَ: كَيْفَ أَنْتُمْ؟ وَسَأَلَهَا عَنْ عَيْشِهِمْ وَهَيْئَتِهِمْ فَقَالَتْ: نَحْنُ بِخَيْرٍ وَسَعَةٍ، وَأَثْنَتْ عَلَى الله عزّ وجلّ، فَقَالَ: مَا طَعَامُكُمْ؟ قَالَتْ: اللَّحْمُ، قَالَ: فَمَا شَرَابُكُمْ؟ قَالَتْ: الْمَاءُ قَالَ: اللهمَّ بَارِكْ لَهُمْ فِي اللَّحْمِ وَالْمَاءِ. قَالَ: فَإِذَا جَاءَ زَوْجُكِ فَاقْرَئِي عَلَيْهِ السَّلَامَ وَمُرِيهِ يُثْبِتُ عَتَبَةَ بَابِهِ، فَلَمَّا جَاءَ إِسْمَاعِيلُ قَالَ: هَلْ أَتَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ أَتَانَا شَيْخٌ حسَنُ الْهَيْئَةِ وَأَثْنَتْ عَلَيْهِ فَسَأَلَنِي عَنْكَ فَأَخْبَرْتُهُ

فَسَأَلَنِي كَيْفَ عَيْشُنَا فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّا بِخَيْرٍ قَالَ: فَأَوْصَاكِ بِشَيْءٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ هُوَ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلَامَ وَيَأْمُرُكَ أَنْ تُثْبِتَ عَتَبَةَ بَابِكَ، قَالَ: ذَاكِ أَبِي وَأَنْتِ الْعَتَبَةُ أَمَرَنِي أَنْ أُمْسِكَكِ، ثُمَّ لَبِثَ عَنْهُمْ مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ جَاءَ بَعْدَ ذَلِكَ وَإِسْمَاعِيلُ يَبْرِي نَبْلًا لَهُ تَحْتَ دَوْحَةٍ قَرِيبًا مِنْ زَمْزَمَ، فَلَمَّا رَآهُ قَامَ إِلَيْهِ فَصَنَعَا كَمَا يَصْنَعُ الْوَالِدُ بِالْوَلَدِ وَالْوَلَدُ بِالْوَالِدِ ثُمَّ قَالَ: يَا إِسْمَاعِيلُ إِنَّ اللهَ عزّ وجلّ أَمَرَنِي بِأَمْرٍ قَالَ: فَاصْنَعْ مَا أَمَرَكَ ربّكَ، قَالَ: وَتُعِينُنِي قَالَ: وَأُعِينُكَ قَالَ: فَإِنَّ اللهَ أَمَرَنِي أَنْ أَبْنِيَ بَيْتًا هَا هُنَا وَأَشَارَ إِلَى أَكَمَةٍ مُرْتَفِعَةٍ عَلَى مَا حَوْلَهَا، فَعِنْدَ ذَلِكَ رَفَعَ الْقَوَاعِدَ مِنْ الْبَيْتِ، فَجَعَلَ إِسْمَاعِيلُ يَأْتِي بِالْحِجَارَةِ وَإِبْرَاهِيمُ يَبْنِي حَتَّى ارْتَفَعَ الْبِنَاءُ جَاءَ بِهَذَا الْحَجَرِ فَوَضَعَهُ لَهُ فَقَامَ عَلَيْهِ.

زَادَ إِبْرَاهِيمُ: فَقَامَ عَلَى حَجَرِ الْمَقَامِ. وَهُوَ يَبْنِي وَإِسْمَاعِيلُ يُنَاوِلُهُ الْحِجَارَةَ، وَهُمَا يقولان: {ربّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}1024 قَالَ: فَجَعَلَا يَبْنِيَانِ حَتَّى يَدُورَا حَوْلَ الْبَيْتِ وَهُمَا يقولان: (ربّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) 1025.

البشارة بإسماعيل:

مع أنّنا لا نفرّق بين أحدٍ من رُسله، ولكن هناك اختلاف من حيث أيهما المبشر به وأيهما الذبيح؛ فهناك من يبرهن على إنّه إسماعيل، وهناك من يبرهن على إنّه إسحاق، {فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ}1026، قَالَ الفاكهي وَقد قَالَ النّاس فِي الذَّبِيح مَا قَالُوا فَقَالَت الْعَربّ هُوَ إسماعيل وَقَالَت طَائِفَة من الْمُسلمين وَأهل الْكتاب جَمِيعًا إنّه إِسْحَاق فَإِنّ أَقْوَال الْعَربّ فِي ذَلِك أثبت، وَاسْتدلَّ الفاكهي على ذَلِك

1024 البقرة 127.

1025 المختصر النصيح في تهذيب الكتاب الجامع الصحيح، 4، ص 21- 25.

1026 الصّافات 101.

بِمَا مَعْنَاهُ أنَّ الله تَعَالَى عبّر عَن قصَّة إسماعيل بقوله (فبشرناه بِغُلَام حَلِيم) إِلَى قَوْله (إنّه من عبادنَا الْمُؤمنِينَ) وَأخبر عَن قصَّة إسحاق بقوله: (وبشرناه بِإسْحَاق نَبيا من الصَّالِحين) وَإِنّ ذكر قصَّة إِسْحَاق بعد الْقِصَّة الَّتِي قبلهَا دَلِيل على أَنّ إِسْحَاق غير الذَّبِيح وَأَن ذَلِك يتأيد بِكَوْن سارة بشرت بِإسْحَاق"1027.

وَعَنِ الْأَصْمَعِيّ قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا عَمْرِو بْنَ الْعَلَاءِ عَنِ الذَّبِيحِ، فَقَالَ: يَا أَصْمَعِيُّ أَيْنَ عَزَبَ عَنْكَ عَقْلُكَ! وَمَتَى كَانَ إِسْحَاقُ بِمَكَّةَ؟ وَإِنَّمَا كَانَ إِسْمَاعِيلُ بِمَكَّةَ، وَهُوَ الَّذِي بَنَى الْبَيْتَ مَعَ أَبِيهِ وَالْمَنْحَرَ بِمَكَّةَ. وَرُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ عليه الصّلاة والسّلام:" أن الذبيح إِسْمَاعِيلُ" عَنِ النَّبِيِّ عليه الصّلاة والسّلام وَعَنْ أَصْحَابِهِ وَعَنِ التَّابِعِينَ. وَاحْتَجُّوا بِأَنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ قَدْ أَخْبَرَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ حِينَ فَارَقَ قَوْمَهُ، فَهَاجَرَ إِلَى الشَّامِ مَعَ امْرَأَتِهِ سَارَةَ وَابْنِ أَخِيهِ لُوطٍ فَقَالَ: (إِنِّي ذاهِبٌ إِلى ربّي سَيَهْدِينِ) إنّه دَعَا فَقَالَ: (ربّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ) فَقَالَ تَعَالَى: {فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وما يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ}1028، ولأنّ اللَّهَ قَالَ: (وَفَدَيْناهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ) فَذَكَرَ أنّ الفداء في الغلام الحليم الذي بشره بِهِ إِبْرَاهِيمُ وَإِنَّمَا بُشِّرَ بِإِسْحَاقَ، لأنّه قَالَ: "وَبَشَّرْناهُ بِإِسْحاقَ"، وَقَالَ هُنَا:" بِغُلامٍ حَلِيمٍ" وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يَتَزَوَّجَ هَاجَرَ وَقَبْلَ أَنْ يُولَدَ لَهُ إِسْمَاعِيلُ، وَلَيْسَ فِي الْقُرْآنِ إنّه بُشِّرَ بِوَلَدٍ إِلَّا إِسْحَاقَ. احْتَجَّ مَنْ قَالَ إنّه إِسْمَاعِيلُ: بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَصَفَهُ بِالصَّبْرِ دُونَ إسحاق في قول تَعَالَى: {وَإِسْماعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كلّ مِنَ الصَّابِرِينَ}1029، وَهُوَ صَبْرُهُ عَلَى الذَّبْحِ، وَوَصَفَهُ بِصِدْقِ الْوَعْدِ في قوله: {إنّه كانَ صادِقَ

1027 أخبار مكة للفاكهي، 5، ص 80.

1028 مريم 49.

1029 الأنبياء 85.

الْوَعْدِ}1030، لأنّه وَعَدَ أَبَاهُ مِنْ نَفْسِهِ الصَّبْرَ عَلَى الذَّبْحِ فَوَفِي بِهِ، ولأنّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: (وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحاقَ نَبِيًّا)؛ فَكَيْفَ يَأْمُرُهُ بِذَبْحِهِ وَقَدْ وَعَدَهُ أَنْ يَكُونَ نَبِيًّا، وَأَيْضًا فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: {فَبَشَّرْنَاها بِإِسْحاقَ وَمِنْ وَراءِ إِسْحاقَ يَعْقُوبَ}1031 أي كَيْفَ يُؤْمَرُ بِذَبْحِ إِسْحَاقَ قَبْلَ إِنْجَازِ الْوَعْدِ فِي يَعْقُوبَ. وَأَيْضًا وَرَدَ فِي الْأَخْبَارِ تَعْلِيقَ قَرْنِ الْكَبْشِ فِي الْكَعْبَةِ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الذَّبِيحَ إِسْمَاعِيلُ، وَلَوْ كَانَ إِسْحَاقُ لَكَانَ الذَّبْحُ يَقَعُ بِبَيْتِ الْمَقْدِسِ"1032. ومع ذلك فهناك اختلافا كبيرا فهناك من يقول إنّه إسماعيل وآخرون يقولون إنّه إسحاق عليهما الصّلاة والسّلام.

إبراهيم أمّة:

الأمّة هي القوم الذي لهم آمال وآلام مشتركة وينتمون إلى ما يمكّنهم من الذات العامّة، ولهذا كان إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام أمّة كون شعوره الفردي هو شعور الأمّة، وآلامه من آلام الأمّة وجهل الأمّة وعلم الأمّة كلّها يتجسّد فيه حتى أصبح وكأنّه الأمّة بكاملها؛ فكان إبراهيم أمّة في أخلاقه، إذ تجمّعت فيه خصال الخير فكان أمّة في إخلاصه وحبّه وعبادته لله تعالى، وهذا يستوجب دوام الطّاعة المتمثلة في القنوت لله تعالى. فإبراهيم أُمَّة في الفضل والسّمو والنبل والخير. وقد ذكرت له مزايا وفضائل كثيرة في القرآن الكريم منها:

أنّ الله تعالى اتخذه خليلا ذلك لأنّه أمّة.

جعله للناس إمامًا لأنّه أمّة.

اجتباه واصطفاه نبيا للأمّة.

[1030] مريم 54.

[1031] هود 71.

[1032] تفسير القرطبي، 15، ص 100 . 101.

آتاه رُشده أمّة

جعل النبوّة في ذريته أمّة.

أمر باتخاذ مقامه مصلّى أمّة

إضافة إلى اتصافه بالحلم والإنابة والصِّدّيقيّه والشكر والقنوت وسلامة القلب والكرم والوفاء؛ فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، فِي قَوْلِهِ: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}1033، قَالَ: كَانَ عَلَى الْإِسْلَامِ وَهُوَ الْإِيمَانُ بِاللَّهِ وَلَمْ يَكُنْ فِي زمانه فِي قَوْمِهِ أَحَدٌ عَلَى الْإِسْلَامِ غَيْرُهُ، فَلِذَلِكَ كَانَ مُطِيعًا. " قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ: وَمِنْ أَعْظَمِ حُجَجِ الْمُرْجِئَةِ الَّتِي يَقُولُونَ بِهَا عِنْدَ أَنْفُسِهِمُ: اللُّغَةُ، وَذَلِكَ إِنَّهُمْ زَعَمُوا أَنَّ الْإِيمَانَ لَا يُعْرَفُ فِي اللُّغَةِ إِلَّا بِالتَّصْدِيقِ، وَزَعَمَ بَعْضُهُمْ أَنَّ التَّصْدِيقَ لَا يَكُونُ إِلَّا بِالْقَلْبِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا يَكُونُ إِلَّا بِالْقَلْبِ وَاللِّسَانِ1034

قصّة الذّبح:

عن عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَعِيدٍ الصُّنَابِحِيُّ، قَالَ: حَضَرْنَا مَجْلِسَ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ فَتَذَاكَرَ الْقَوْمُ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ بْنَ إِبْرَاهِيمَ فَقَالَ بَعْضُهُمُ: الذَّبِيحُ إِسْمَاعِيلُ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ إِسْحَاقُ الذَّبِيحُ، فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: " سَقَطْتُمْ عَلَى الْخَبِيرِ كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ عليه الصّلاة والسّلام فَأَتَاهُ الْأَعْرَابِيُّ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، خَلَّفْتُ الْبِلَادَ يَابِسَةً وَالْمَاءَ يَابِسًا هَلَكَ الْمَالُ وَضَاعَ الْعِيَالُ، فَعُدْ عَلَيَّ بِمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ يَا ابْنَ الذَّبِيحَيْنِ، فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ عليه الصّلاة والسّلام وَلَمْ يُنْكِرْ عَلَيْهِ، فَقُلْنَا: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، وَمَا الذَّبِيحَانِ؟ قَالَ: إِنَّ عَبْدَ الْمُطَّلِبِ لَمَّا أَمَرَ

1033 النحل 120.

1034 تعظيم قدر الصلاة لمحمّد بن نصر المروزي، 2، ص 716.

بِحَفْرِ زَمْزَمَ نَذَرَ لِلَّهِ إِنْ سَهَّلَ اللَّهُ أَمْرَهَا أَنْ يَنْحَرَ بَعْضَ وَلَدِهِ فَأَخْرَجَهُمْ، فَأَسْهَمَ بَيْنَهُمْ فَخَرَجَ السَّهْمُ لِعَبْدِ اللَّهِ فَأَرَادَ ذَبْحَهُ فَمَنَعَهُ أَخْوَالُهُ مِنْ بَنِي مَخْزُومٍ وَقَالُوا: ارْضِ ربّكَ وَافْدِ ابْنَكَ. قَالَ: فَفَدَاهُ بِمِائَةِ نَاقَةٍ، قَالَ: فَهُوَ الذَّبِيحُ وَإِسْمَاعِيلُ الثَّانِي"[1035]

وعَن ابْن إسحاق قَالَ: أن إبراهيم أَمر بِذبح ابْنه قَالَ "أَي بني خُذ الْحَبل والمدية وَهِي الشَّفْرَة ثمَّ امش بِنَا إِلَى هَذَا الشّعب لنحتطب لأَهْلك مِنْهُ قبل أَن يذكر لَهُ مَا أَمر بِهِ فَلَمَّا توجه بِهِ اعْتَرَضَهُ إبليس ليصده عَن أَمر الله عزّ وجلّ فِي صُورَة رجل فَقَالَ: أَيْن تُرِيدُ أَيهَا الشَّيْخ قَالَ أُرِيد هَذَا الشّعب لحَاجَة لي فَقَالَ وَالله إِنِّي لأرى الشَّيْطَان قد أَتَاك فِي مَنَامك فأمرك أَن تذبح ابنك هَذَا فَأَنت تُرِيدُ أَن تذبحه فَعرفهُ إِبْرَاهِيم فَقَالَ عني أَي عَدو الله فوَاللَّه لأمضين لأمر ربّي فَلَمَّا يئس من إِبْرَاهِيم اعْترض لإسماعيل وَهُوَ وَرَاء أَبِيه يحمل الْحَبل والمدية فَقَالَ أَيهَا الْغُلَام هَل تَدْرِي أَيْن يذهب بك أَبوك قَالَ نحتطب لأهلنا قَالَ لَا وَالله مَا يُرِيد إِلَّا أَن يذبحك قَالَ وَلم قَالَ يزْعم أَنّ ربّه أمره بذلك قَالَ فَلْيفْعَل مَا أمره بِهِ ربّه سمعا وَطَاعَة. فَلَمَّا امْتنع مِنْهُ الْغُلَام ذهب إِلَى هَاجر أم إسماعيل وَهِي فِي منزلهَا فَقَالَ يَا أم إسماعيل أَتَدْرِينَ أَيْن ذَاهِب إبراهيم بِإِسْمَاعِيل قَالَت ذهَبا يحتطبان فَقَالَ مَا ذهب إِلَّا ليذبحه قَالَت كلّا إِنّه أرْحم من ذَلِك وَأحب إِلَيْهِ قَالَ يزْعم أَنّ الله أمره بذلك قَالَت إِن كَانَ الله أمره بذلك سلمنَا لأمر الله فَرجع عَدو الله بغيظه لم يصب مِنْهُم شَيْئا ممّا أَرَادَ وَقد منع الله مِنْهُ إبراهيم وَآل إِبْرَاهِيم وَأَجْمعُوا لأمر الله بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَة فَلَمَّا خلا إبراهيم فِي الشّعب وَيُقَال ذَلِك إِلَى ثبير قَالَ لَهُ: يَا بني إِنِّي أرى فِي الْمَنَام أَنِّي أذبحك فَانْظُر مَاذَا ترى قَالَ يَا أَبَت افْعَل مَا تُؤمر ستجدني إِن شَاءَ الله من الصابرين. قَالَ فَحدثت أَن إِسْمَاعِيل قَالَ لَهُ

[1035] المستدرك على الصحيحين للحاكم، 2، ص 604.

عِنْد ذَلِك يَا أبتاه إِذا أردْت ذبحي فأشدد ربّاطي لَا يصيبك من دمي فينقص أجري فَإِنّ الْمَوْت شَدِيد وَلَا آمن أَن اضْطربّ عِنْده إِذا وجدت مَسّه واشحذ شفرتك حَتَّى تجهز عَليّ فتذبحني فَإِذا أَنْت أضجعتني فأكببني على جَنْبي وَلَا تضجعني لشقي فَإِنِّي أخْشَى إِن أَنْت نظرت إِلَى وَجْهي أَن تدْرك الرّقة فتحول بَيْنك وَبَين أَمر ربّك فِي وَإِن رَأَيْت أَن ترد قَمِيصِي إِلَى أُمِّي فَإِنّه عَسى أَن يكون أسلى لَهَا فافعل فَقَالَ إِبْرَاهِيم نعم العون أَنْت يَا بني على أَمر الله وَيُقَال إِنّه ربّطه كَمَا أمره بالحبل فأوثقه ثمَّ شحذ شفرته ثمَّ تله للجبين وَاتَّقَى النّظر إِلَى وَجهه ثمَّ أَدخل الشَّفْرَة حلقه فقلبها جِبْرِيل عَلَيْهِ السَّلَام لقفائها فِي يَده ثمَّ اجتذبها إِلَيْهِ وَنُودِيَ (أَن يَا إِبْرَاهِيم قد صدقت الرُّؤْيَا) فَهَذِهِ ذبيحتك فدَاء لابنك فاذبحها دونه"1036.

شكّ إبراهيم:

بدأ إبراهيم عليه السلام حوارا مع أبيه بالدعوة إلى الله فنهاه عن عبادة الأصنام، قال عزّ وجلّ: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}1037 حرص إبراهيم كلّ الحرص على هداية أبيه آزر وضمّه إلى دعوة التوحيد وترك الشرك بالله عزّ وجلّ، فكان عليه السّلام صريحا معه، يصارحه فيما هو عليه من الكفر، ويقول له إنّ هذا الكفر إن لم تقلع عنه وتتركه سيذهب بك إلى النّار.

لذلك فقد كان إبراهيم عليه السّلام لطيفا ليّنا مع أبيه فهو يكرر دعوته له بغاية التلطّف واللين معه، مستعملا في حديثه كلّمة (يا أبت) ليشعره إنّه ابنه البار الحريص على ما ينفع أباه. وقد جاء حديثه

[1036] أخبار مكة للفاكهي، 5، ص 75.

[1037] الأنعام 74.

في القرآن الكريم مع أبيه فقال له: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّه كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا}1038 هنا لقد سلك إبراهيم عليه السّلام في دعوته لأبيه مسلكا عظيما, ومنهجا حسنا, ثمّ احتج عليه أبدع احتجاج كلّ ذلك بحسن أدب وخلق جميل, حتى لا تأخذه عزّة نفسه؛ فيرتكب ذنبا ويستمر في شركه وكفره، فقد طلب إبراهيم من أبيه معرفة السّبب في عبادته لما لا ينفع ولا يستحقّ العبادة أصلا, وكيف له أن يترك عبادة الله الخالق الرازق النافع الضار الذي يحيي ويميت؟! وهل يستسيغ ذلك عاقل؟ وابتعد إبراهيم عليه السلام عن وصف أبيه بالجهل فقال {يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا}1039؛ ف

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ عليه الصّلاة والسّلام: " نَحْنُ أَحقّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ، إِذْ قَالَ: ربّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى، قَالَ: أَوَلَمْ تُؤْمِنْ؟ قَالَ: بَلَى، وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي، وَيَرْحَمُ اللَّهُ لُوطًا، لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ، وَلَوْ لَبِثْتُ فِي السِّجْنِ طُولَ مَا لَبِثَ يُوسُفُ لَأَجَبْتُ الدَّاعِيَ"1040، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ عليه الصّلاة والسّلام قَالَ: " نَحْنُ أَحقّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ1041، إِذْ قَالَ: {ربّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى، قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ: بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي}1042.

1038 مريم 41، 42.

1039 مريم 43.

1040 سنن ابن ماجه، 2، ص 1335.

1041 مسند أحمد مخرجا، 14، ص 74.

1042 البقرة 260.

شكّ إبراهيم من أجل المعرفة المتيقّنة والتسليم المطلق، ولم يكن الشكّ وكأنّ الشكّ غاية؛ فالشكّ الإبراهيمي عليه الصّلاة والسّلام شكّ عن عقل مستنير قادر على المحاورة حجّة بحجّة؛ فعَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ، قَالَ: اتَّعَدَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ أَنْ يَجْتَمِعَا، قَالَ: وَنَحْنُ يَوْمَئِذٍ شَبَبَةٌ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: أَيُّ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ أَرْجَى لِهَذِهِ الْأُمَّةِ[1043]؟ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو: {يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ}[1044]. قَالَ: فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَمَّا إِنْ كُنْتَ تَقُولُ إِنَّهَا قَالَ: فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَإِنَّ أَرْجَى مِنْهَا لِهَذِهِ الْأُمَّةِ قَوْلُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ[1045] {أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ: أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي}[1046]. فقَالَ أَبُو حَاتِمٍ: "قَوْلُهُ عليه الصّلاة والسّلام: (نَحْنُ أَحقّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ) وهو لم يُرِدْ بِهِ إِحْيَاءَ الْمَوْتَى، إِنَّمَا أَرَادَ بِهِ فِي اسْتِجَابَةِ الدُّعَاءِ لَهُ، وَذَلِكَ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عليه الصّلاة والسّلام قَالَ: (ربّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى) وَلَمْ يَتَيَقَّنْ إنّه يُسْتَجَابُ لَهُ فِيهِ، يُرِيدُ: فِي دُعَائِهِ وَسُؤَالِهِ ربّهُ عَمَّا سَأَلَ، فَقَالَ عليه الصّلاة والسّلام: "نَحْنُ أَحقّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ"[1047].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللهِ عليه الصّلاة والسّلام, " نَحْنُ أَحقّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ: (ربّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى) فَوَجَدْنَا إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ اللهِ فِي نَفْسِهِ الْآيَةَ الَّتِي لَمْ يَرَ مِثْلَهَا, وَهُوَ إِلْقَاءُ أَعْدَائِهِ إِيَّاهُ فِي النّار فَلَمْ تَعْمَلْ فِيهِ شَيْئًا لِوَحْيِ اللهِ

[1043] الزهد لأبي داود، ص، 258.

[1044] الزمر 53.

[1045] الزهد لأبي داود، ص 258.

[1046] البقرة 260.

[1047] صحيح ابن حبان - محقّقا، 14، ص 89، 90.

إِلَيْهَا: {يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ}1048 فَكَانَتْ آيَةً مُعْجِزَةً لَمْ يُرَ مِثْلُهَا قَبْلَهَا وَلَا بَعْدَهَا فَقَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِيَنْفِيَ الشَّكَّ عَنْ إِبْرَاهِيمَ عِنْدَ قَوْلِهِ: (ربّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى) أَيِّدْ إِنَّا وَلَمْ نَرَ مِنْ آيَاتِ اللهِ الْآيَةَ الَّتِي أُرِيَهَا إِبْرَاهِيمُ فِي نَفْسِهِ"1049.

الجدل حجّة:

مع أنَّ الإنسان خُلق من طين، لكنّه خُلق معدًّا للتفكير؛ فكانت الفكرة نتاج عقله ومن إعماله، وأوّل فكرة كانت هي من عقل أوّل من خُلق في أحسن تقويم، (آدم) ثمّ تعدّدت الفِكَر بتعدّد البشرية وبتعدّد ما تفكّر فيه، ولهذا أصبحت فِكَرا بعد أن كانت فكرة. أي: في هذا المسار الأمر يتعلّق بالفكرة التي أصبحت بتكاثرها فِكَرا، ولكن هذا لا يعني أنّ الأمر لا يتعلّق بالفِكْرِ الذي هو مكمن التفكير؛ فالفِكْرُ من معطيات العقل، وفي المقابل الفكرة لا تكون إلّا من التفكير وإنتاج العقل، وفيما يُفكَّر فيه. ولذلك، يؤسّس التطوّر على قاعدتين:

الأوّلى: تطوير الفِكْرِ بما يمكّن الإنسان من التفكير، وهو يُفكّر فيما يُفكّر فيه قبل أن يتّخذ القرار تجاه ما فكّر فيه بداية حتى يُحسم الأمر تطوّرا.

الثانية: تطوير الفكرة بفكرة أكثر ارتقاء، حتى تتولّد الرّؤى المتجاوزة للمألوف والمعتاد التفكير فيه.

وعلى هاتين القاعدتين تطوّرت رؤى البشريّة وهي على التخيير بين اختلاف وخلاف، ولا حاسم للأمر إلّا المحاجّة والمجادلة، أي: لا حاسم للأمر إلّا الالتقاء الذي فيه تُدحض الحجّة بالحجّة، وحتى إن

1048 الأنبياء 69.

1049 شرح مشكل الآثار، 1، ص 298.

امتلأت الحجج والجدل شدّة، لكنّ الشدّة الجدلية ضرورة؛ فهي لا تكون إلّا من أجل الحرص، وهي كذلك، لا تكون إلّا بغرض التسوية لما سلف من انحدار وسُفلية، وهي بغاية الارتقاء عن كلّ ما يؤدّي للفرقة والخصام. ولهذا؛ فمن أجل التطوّر والارتقاء لا يجادلك إلّا من هو حريص عليك، ويأمل أن لا تظل تائها عن ممّارسة وتأدية ما يجب أن يكون من أجلك وأجل من تربّطك به علاقات.

ولذا؛ فأصحاب الحُجج تطوّرا يسعون إلى إحداث النُقلة، والارتقاء بالنّاس إلى ما يجعلهم قمّة، وفي المقابل من يخالفهم بغير حجّة يشدّ إلى الخلف إعاقة، وبين هذا وذاك؛ فلا استقرار، ولا أمن، ولا ارتقاء ولا تطوّر لأحد ما لم يؤخذ بالحجّة ارتقاء واستيعابا، ولا استثناء لأحد بأيّة علّة، إلّا إذا كان أحد علّة في ذاته، ولا استغراب من هذا الأمر، حيث لكلّ قاعدة شواذ، ومع ذلك، الحجّة الجدباء لا تصمد أمام الحجّة الحلّ التي تعلو بأصحابها تطوّرا وارتقاء إلى ما يمكّن من المعرفة، التي بها سترتق الأرض والسّماوات كما كانت أوّل مرّة.

ولأنّها المجادلة تطوّر وارتقاء؛ فهي لا تكون إلّا بالتي هي أحسن، {وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إلّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}[1050]؛ أي: لا ينبغي أن تكون المجادلة بالتي هي أسوء؛ فالأسوء لا يقود إلّا للخلاف والصّدام والاقتتال، ومن هنا، يلد الألم ألما.

وحتى لا يسود الألم بين النّاس، ينبغي الأخذ بمبدأ المجادلة حرصا وتطوّرا وارتقاء، ويجب أن تبدأ المجادلة مع المختلفين من حيث هم عليه اختلافا، لا من حيث ما يجب أن يكونوا عليه اتفاقا؛ فما ينبغي أن يكونوا عليه اتفاقا هو المأمول الذي من أجله تجري المجادلة

[1050] العنكبوت 46.

بالتي هي أحسن، أمّا المجادلة غِلظة؛ فلا تكون إلّا مع من يستغلظ على الحقّ بغير حقّ، وهنا، يصبح المستثنى من جنس المستثنى منه (غلظة بغلظة) ومع ذلك؛ فللعفو والصّفح مكانة لا يبلغها إلّا من تدبّر أمره حكمة.

ولأنّ الجدل بالتي هي أحسن وسيلة للارتقاء؛ فينبغي أن تكون أساليبه على الترغيب والتشويق والنّهي والرّهبة والتحذير والإنذار مع مراعاة الفروق الفردية بين المجادلين ارتقاء؛ ففي الجدل الرّسائل تُرسل بين المجادلين لكلّ حسب ما هو عليه من معرفةٍ، وثقافةٍ، ومعتقدٍ، ومنّطقٍ، مع عدم الإغفال عن أهمية الحكمة في إدارة الجدل؛ فالإنسان مع إنّه خُلق من نطفة، ولكنّه خصيم، ولهذا؛ فهو مجادل، ولأنّه كذلك؛ فمن حقّه أن يجادل، ولكن حرصا وتطوّرا وارتقاء ينبغي أن يجادل بالتي هي أحسن؛ فهو كلّما جادل بالتي هي أحسن، كسب قلوب النّاس، وفي المقابل متى ما استغلظ عليهم استغلظت قلوبهم عليه.

ولذلك؛ فالجدل تطوّرا وارتقاء لا ينفصل عن الحجّة، مع أنّ الحجّة أساسا هي معلومة مستقلّة بذاتها، وستظل إلى أن تُستخدم أو تُوظّف جدلا، بما يقرّ حقّا أو يؤدّي واجبا، أو يُمكّن من حمْل مسؤولية، ومن ثمّ، فالحجّة تُفحِم أو تُلزِم من كان على غير حجّة حتى يُغيّر ما بنفسه، ومن هنا، تلد الموعظة والعبرة ارتقاء. وفي المقابل الجدل غِلظة يدخل المجادلين في حلقة الصّدام الذي كلّما انتهى بدأ.

ولأنّ الجدل بالتي هي أحسن جدل حجّة؛ فينبغي أن يكون على اللين مع تبيان الدّليل والبرهان شاهدا بين أيدي المتخالفين، ولنا في إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام القدوة الحسنة حينما جادل أباه آزر وهو يخاطبه بقوله، {إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي

أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرّحمن فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا}1051؛ فقوله وهو يجادله رأفة وودّا: (يَا أَبَتِ) وهو يكررها مرات (يَا أَبَتِ)، هي: بهدف صحوة أبيه آزر من الغفلة التي ألمت به، والجهل الذي استحوذ على عقله، وبخاصّة أنّ إبراهم لم يخفي علمه وحرصه ومحبّته له، ولذلك؛ كان ارتقاء إبراهيم مؤسّسا على عدم الإكراه؛ فالإكراه هو: حجّة من ليس له حجّة، {وَلَوْ شَاءَ ربّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كلّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النّاس حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ}1052.

ولأنّه الجدل ارتقاء؛ فهو لا يكون إلّا عن صبر، وسعة صدر، بهدف استيعاب المختلفين، وأخذ الحجر من أيديهم التي به امتلأت، ولذا، ينبغي أن يمتلك المجادل المقدرة على استجلاب الدّلائل والبراهين لإثبات قضيّته، وفكّ القيد عنها، مع فكّ اللبس والغموض عمّا يستخدمه من مفاهيم؛ وفي هذا الشأن أتذكّر تلك المجادلة التي جرت بين النبي إبراهيم ومن حاجّه في ربّه، {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي ربّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ ربّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ}1053؛ فاللبس في ذهن من جادل إبراهيم في ربّه كان متعلّقا بمفهوم الإحياء والإماتة؛ فإبراهيم قال: (ربّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ) وفي المقابل كان قول المجادل له: (أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ). واللبس هو: أنّ إبراهيم يجال بحجّة من يحيي ويميت، وفي المقابل فهم المجادل، أن الإماتة هي القتل، ولهذا، أجابه بقوله: (أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ) أي: وكأنّه يقول: إذا أردت أن أقتل أحدا، قتله، وإذا أردت عدم قتله تركته حيّا. ولكنّ

1051 مريم 42 . 45.

1052 يونس 99.

1053 البقرة 250.

الفرق كبير بين القتل الذي يكون على أيدي المتقاتلين أو القتلة، وبين الموت الذي لا يكون إلّا بيد الله.

ومن ثمّ؛ فالحجّة يمكن أن تكون مُعجزة تفحم المجادل بغير حجّة، {قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ}1054، وفي المقابل يمكن أن تكون حلّا، ويمكن أن تكون موعظة، ويمكن أن تكون عبرة، ويمكن أن تكون دليلا ملاحظا أو مشاهدا (قولا وعملا وفعلا وسلوكا) {وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا}1055.

وعليه:

فالجدل تطوّرا هو ما ليس بتفاوض؛ بل هو: التوجُّه للنّاس بالحجّة تطوّرا وارتقاء، وهي الحجّة التي لا تقبل التنازلات، ذلك لأنَّ الحجّة ينبغي أن يؤخذ بها، أمّا التفاوض؛ فلا ينتهي إلّا بتقديم التنازل الذي من وراءه تنازلات.

ولذلك؛ فالمجادلة تطوّرا وارتقاء فيها مكابدة وعُسرة، وهي في معظم الأحيان تستدعي تقديم المزيد من الحُجج الدّامغة التي لا تستفز أحدا، وبتقديم المزيد من الحجج ينبغي أن ينبهر الخصم بما يجذبه إلى الحقّ حجّة بعد حجّة.

ولذا؛ فالصّبر حجّة المتجادلين؛ فعليهم به دون استرخاء؛ ولا داعي للقلق حتى وإن كانت الاستفزازات من ورائه، بل كلّما طال زمن التجادل والصّبر لم يفارق المتجادلين حجّة بحجّة كلّما اختنقت أنفاس من لا حجّة له.

[1054] البقرة 158.

[1055] يوسف 26.

ومن ثمّ؛ ففي المجادلة إصرار، وعدم إعطاء الفرصة لمن يريد أن ينهي الجدل قبل الوصول إلى نتائج مقنعة، أمَّا الحوار فقد لا تكون فيه مكابدة، والمتجادلون عندما يفقدون قواعد الرّكون إلى المحاجّة المنطقية، قد يضطروا إلى الخصام الذي لا طائل من ورائه إلّا الخلاف والفرقة. ومن هنا، يصبح كلّ شيء ممكن سواء أكان متوقّعا أم غير متوقّع.

ولذا؛ فعندما تغيّب الحجّة بين المتجادلين ارتقاء، يصبح المجال بينهم مفسوحا للخصام والاقتتال، ومن ثمّ؛ فالجدل وما فيه من شدّة؛ فهو منطق السّلام، الذي إن لم يؤخذ به، قد تصبح مصارف الدّم بين النّاس في حاجة للمزيد.

ومن هنا؛ فالمحاجّة تطوّرا وارتقاء ليست نقاشا بلا دراية، ولا مفاوضات بلا خبرة ولا مهارة، بل المحاجّة تحاور يتكئ على حُجج بيّنة بغرض تنقية الشوائب التي نُسجت بين المتخالفين أو المختلفين، الذين يميلون عن صائبة المطّلب والقول بعلل فيها علّة.

ومع أنّ الإنسان ارتقاء قد خُلق في أحسن تقويم، لكنّه خُلق ليجد نفسه بين قيم حميدة وفضائل خيّرة، وبين استفزاز الحاجات المتطوّرة في مقابل قصور مشبعاتها؛ ممّا يدعوه إلى قبول التكيّف بتنازلات، أو أن ينتظر زمن التوافق الذي قد يطول ويجعله على غير أملٍ.

ومع أنّ الإنسان خُلق على الارتقاء مقوّما، لكنّه لم يُخلق نسخة واحدة وكانّه أوراق سحب، بل لكلّ خصوصيته التي بها يتميّز عن غيره كما غيره يتميّز عنه؛ فالنّاس مختلفون، ولكلّ بصمته الخاصّة التي لا تتكرّر، {وَلَوْ شَاءَ ربّكَ لَجَعَلَ النّاس أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا

مَنْ رَحِمَ ربّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ}1056؛ فما أعظم هذه الآية (وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)، أي: مع إنّهم من نفس واحدة ولكنّهم لا يتطابقون، وإن تماثلوا صفة؛ فهم مختلفون بصمة ومقدرة وتذكّرا وتدبّرا وتفكّرا، ولهذا؛ فهم يختلفون، وسيظلون مختلفين (وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)، أي: إنّهم خُلقوا على الاختلاف الذي جعلهم في حاجة لحشد الطّاقات حيث لا إمكانية للتطوّر والبقاء بغير الاختلاف.

ولأنّهم خلقوا على الاختلاف؛ فهم في حاجة لِما يجمع شملهم متى ما اختلفوا، أو تخالفوا؛ فالمحاجّة والجدل جهود تُبذل لإظهار الحقّيقة التي لا تكون إلّا بامتلاك السّند الذي يَحتكم به ويُحتكم إليه، ومع ذلك تختلف المجادلة عن المحاجة من حيث كون المجادلة تتمركز على التمسّك بالحجّة دون تفريط ولا يأس ولا قنوط، أمّا المحاجّة فالأمر يقتصر على تقديم الحجّة لتكون شاهدة على القضية، ولمن شاء أن يحكم بها عدلا؛ فليحكم.

ولأنّه الجدل؛ فلا يكون إلّا عن شكّ من أجل اليقين؛ ذلك لأنَّ الشكّ متعلّق إدراكي يتمّ به التمييز بين ما هو كائن بالفعل، وبين الذي تصاحبه الظنون، والذين يشكون هم الذين ترافقهم الفطنة والحذر معا، وبه يتمّ فكّ اللبس وإزالة الغموض حتى التمكُّن من معرفة الحقّيقة كما هي لا كما يراد لها أن تكون عليه.

ولذا فإنَّ الشكّ للتأكد. وعندما تحدث الأشياء أو تظهر فإنّ الشكّ لا يصاحب وجودها، بل يصاحب مدى مصداقيتها، فأيّ شيء قد وقع أو حدث هو مثبت لا شكّ فيه، لكن الذي توجّه له

[1056] هود 118، 119.

سهام الشكّ هو مدى علاقة ما حدث أو وقع بالموضوع قيد البحث أو الدراسة التي تستهدف كشف الحقّيقة.

ولهذا لا شكّ فيما قد حدث، الشكّ فيما سيحدث؛ الشيء الذي حدث أو وقع لا يندرج تحت الشكّ، بل قد يندرج تحت طائلة الظنّ، ولذلك ليس دائما الظنّ صادقا. الظنّ في بعض الأحيان يخلو من برهنة الإثبات، ولهذا بعض الظنّ أثم، ومن هنا نهي عنه، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ}[1057].

وبطبيعة الحال بما أن بعض الظن إثما. إذن بعضه الآخر يقع في المكان الصّائب، فيأتي بنتيجة موجبة. حيث بالبحث والدراسة يتم التأكد من سلامة أو عدم سلامة الذي قيل أو كُتب، وفي كثير من الأحيان الذي قيل هو حكما. وبالتقصي والمتابعة والمراجعة يتمّ التأكد من مصداقية أو بطلان هذا الحكم، ولذا فبإثبات الحكم باطلا يصبح الحكم ظنّا وليس حقّيقة.

ولهذا فالقاعدة هي:

1 . الشكّ للتأكد.

2 . الشكّ تمييزي.

3 . الشكّ فطنة.

4 . الشكّ حذري.

والاستثناء هو:

1 . الشكّ للشكّ.

[1057] الحجرات 12.

2 . الشكّ بلا تمييز.

3 . الشكّ بسذاجة.

4 . الشكّ بلا حذر.

وعليه فإنّ الشكّ مثبت إثبات قاعدة الاحتمالات، ولأنّه ليس كلّ ما يقال أو يُسمع دائما في حالة مصادق، لذا يستوجب التأكد قبل الحكم. ولهذا سيظل الشك إلى أن ينفي باليقين. وفي المقابل سيظل الظنّ إلى أن يثبت باليقين.

ولذا فإنّ القاعدة هي:

1 . الشكّ احتمالي.

2 . الشكّ يحدث النقلة.

3 . الشكّ يصنع المستقبل.

والاستثناء هو:

1 . الشكّ قطعي.

2 . الشكّ لا يحدث النقلة.

3 . الشكّ لا يصنع المستقبل.

وعليه:

. شُكَّ حتى تُحدث النقلة.

. شكّ حتى تصنع المستقبل.

. شُكّ حتى تميّز بين ما يجب وما لا يجب.

ـ شكّ حتى تعرف الحقّيقة.

ـ شكّ حتى تكتشف القوانين.

ومن هنا؛ فالفرق كبير بين التسليم بمصداقية الأشياء، وبين الشكّ فيها؛ فالتسليم قبول بمصداقية كلّ ما يُسمع أو يُكتب أو يُفعل.

ولكن هل كلّ ما يُسمع أو يُكتب أو يُفعل هو الصواب بعينه؟

وفقا لدائرة الممكن (المتوقّع وغير المتوقّع) فلا مطلق إلّا من عند الله تعالى. أمّا ما دونه فكلّ شيء ممكن.

وبما أنّ كلّ شيء مكمن.

إذن الشكّ وجوبي حتى بلوغ اليقين الذي لا شكّ فيه.

وبما أنّ الشكّ عدم القبول بمصداقية لكلّ ما يُسمع أو يُكتب أو يُفعل حتى التيقّن.

إذن التسليم إثبات لأمر واقع، والشكّ من أجل سلامة ما قد يقع أو يحدث.

ولهذا الشكّ حرصي، أي لتفادي المشاكلّ التي قد تحدث عمّا هو متوقّع الحدوث. ممّا يجعل أخذ الحيطة والحذر منه أو له قبل وقوعه أو ظهوره أو حدوثه. ولهذا الشك من أجل اليقين يُسهم في إحداث النقلة إلى المستقبل الأفضل.

وعليه:

ـ شكّ في نفسك حتى تطمئن.

ـ شُكّ فيما حولك أو فيمن حولك من أجل مستقبلٍ أفضل.

. شُكّ في قدراتك واستعداداتك وخبراتك بكلّ قوّة حتى تتبيّن مكامن الضعف فيك وتتجاوزها بنقاط القوّة.

. تأكد ممّا تتعلم أو تسمع أو تعمل قبل أن تقدم على التأييد أو المعارضة أو تقديم التقدير والاعتراف.

. تيقّن أنّ المسلمات لا شك فيها، وأنّ ما دونها موضع شكّ.

ولذلك فإنّ الشكّ يتعلق بالمستقبل، والظن يتعلق بالماضي. حيث كلّ ما وقع أو حدث أو ظهر في الماضي هو حقّيقة سواء كانت ذات أثر موجبا أم أثر سالبا. أمّا الشك فاحتمالي المظهر فعندما تستمع لخبر ما فلا تصدّقه بالمطلق إلا بعد تأكدك بأنّه لا يتعارض مع اليقين، فعلى سبيل المثال: لو جاءنا غزاة الفضاء بخبر مفاده أن القمر لم ينشق، فلن نصدق لأنّ اليقين عندنا القمر منشق. ولهذا يُصنَّف خبرهم عن القمر في دائرة التكذيب.

أمّا الشكّ فارتباطي الاتصال بالمستقبل، أي يمتد زمان توقّعه من الزّمن الآن إلى الزّمن المستقبل وفقا للمعطيات المتاحة، كأن يُقال لك (فلان من النّاس عمره خمسين عاما وسيفوز في سباق العشرة أميال مع المتسابقين الشبان). هذا الافتراض في دائرة الشكّ لن يتحقّق. ولكن في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع قد يحدث. ومع ذلك وفقا للمعطيات العمرية ينبغي أن أشك حتى يأتي اليقين يوم مشاركته في السّباق.

تحدّي إبراهيم للصّعاب:

عن الْهَيْثَمُ بْنُ جَمِيلٍ قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الْغَفُورِ، عَنْ هَمَّامٍ، عَنْ كَعْبٍ قَالَ: "رَأَى إِبْرَاهِيمُ قَوْمًا يَأْتُونَ النَّمرُودَ الْجَبَّارَ فَيُصِيبُونَ مِنْهُ طَعَامًا، فَانْطَلَقَ مَعَهُمْ، فكلّمَا مَرَّ بِهِ رَجُلٌ، قَالَ لَهُ: مَنْ ربّكَ؟ قَالَ:

أَنْتَ رَبِّي وَسَجَدَ لَهُ، وَأَعْطَاهُ حَاجَتَهُ، حَتَّى مَرَّ بِهِ إِبْرَاهِيمُ عليه الصّلاة والسّلام، فَقَالَ: مَنْ رَبّكَ؟ قَالَ: رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ، قَالَ: فَأَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ، قَالَ {فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ}1058، فَخَرَجَ وَلَمْ يُعْطِهِ شَيْئًا، فَعَمَدَ إِبْرَاهِيمُ إِلَى تُرَابٍ، فَمَلَأَ بِهِ وِعَاءَهُ وَدَخَلَ مَنْزِلَهُ، وَأَمَرَ أَهْلَهُ أَنْ لَا يَحُلُّوهُ، فَوَضَعَ رَأْسَهُ فَنَامَ، فَحَلَّتِ امْرَأَتُهُ الْوِعَاءَ، فَإِذَا أَجْوَدُ دَقِيقٍ رَأَتْ، فَخَبَزَتْهُ، فَقَرَّبَتْهُ إِلَيْهِ، فَقَالَ لَهَا: مِنْ أَيْنَ هَذَا؟ قَالَتْ: سَرَقْتُهُ مِنَ الْوِعَاءِ، فَضَحِكَ، ثُمَّ حَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ"1059.

ولأنّ الإيمان يملأ قلب إبراهيم؛ فما دونه لا يخيف، ولا يصمد أمام التحدّي ارتقاء، ولهذا بالنسبة له؛ فلا مستحيل في دائرة الممكن، حتّى وإن كان الصّعب يملأ نصفها، ومن هنا، وجب العمل على تدليل الصّعاب كي تتيسّر الأمور ارتقاء؛ فالصّعاب إن لم تداهم ارتقاء، لابدّ وأن تداهم من لم يداهمها، وحتى لا يحدث ما لم يحمد عقباه ينبغي تحدّي الصّعاب تهيؤا، واستعدادا، وتأهّبا، وعملا راقيا تنجزه الإرادة والأمل لا يفارق.

ولأنّه لا صعب أمام إبراهيم؛ فكان دائما على مزيد من التحدّي، ولهذا فالقدوة الحسنة إبراهيم لمن أراد التحدّي الحقّ، وكذلك لمن أراد مزيد من بذل الجهد ارتقاء، ولكن لا ارتقاء لخرق المستحيل؛ فمن المستحيل أن يكون الإنسان عالما بلا علم، وفي المقابل يمكن له أن يصبح عالما بالرّغم من الصّعاب.

وعليه:

1058 البقرة 258.

1059 الزهد والرقائق لابن المبارك والزهد لنعيم بن حماد، 1، 370.

فالقاعدة: (تحدّي الصِّعاب) أمّا لاستثناء: (الاستسلام إليها).

ولأنّ الممكن ارتقاء يُمكّن من تحدّي الصّعاب، فَلِمَ لا يتهيأ الإنسان إليها قوّة تدبّر حتى يقهرها إرادة، ممّا يجعل التهيّؤ للعمل لا مكان فيه للتردّد في نفس المتهيئ لأدائه، ولذلك فمن يتوقّع أنَّ أداء العمل ميسَّر؛ فلا يستغربّ إن واجهته صعاب تحول بينه وبين تنفيذه.

فالتهيّؤ في دائرة الممكن لتحدي الصّعاب ارتقاء يُمكّن من أداء العمل الموجب، وكذلك هو ارتقاء لمواجهة ما يمكن أن يكون من فعل سالب؛ فكما تُرسم الخطط لتنفيذ العمل؛ فهي تُرسم لمقاومة المعيقين له، ومتى ما بلغ الإنسان التهيؤ إرادة، بلغ القناعة المحفّزة والدّافعة إلى تنفيذ العمل ومواجهة ما يعيقه من صعوبات، ولذلك؛ فالذين يتهيّؤون إلى ارتكاب أعمال التطرُّف بإرادة في معظم الأحيان هم يُقْدِمُون على تنفيذها دون تردّد، والذين يقاومون أعمال المتطرفين بإرادة هم الآخرون يقدمون على مقاومتهم ومقاتلهم بكلّ قوّة، أمَّا أولئك الموظّفون الذين تُصدر لهم أوامر تنفيذ التطرُّف، أو أوامر مقاومته؛ فلن يكونوا فاعلين، بل ستكون أيدهم على الزّناد مرتعشة، وهنا تكمن العلّة.

ومن تهيّأ واستعدَّ لتحدي الصّعاب وأقدم عليها ليس بالأمر الهين أن يتهيّأ لِما يُغيِّره عن الاستمرار فيها، إلّا إذا فكَّر وتذكَّر وقَبِلَ إرادة أنَّ المعلومة في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع، لا تُصحح إلّا بالمعلومة الحاملة للحجّة، ومن هنا؛ فكلّما توفَّرت الأفكار والحُجج تجاه القضية الخارجية مثار الانتباه والاهتمام، كانت استجابة التهيّؤ للحدث أسرع، وكلّما تضاءلت الأفكار أو انعدمت، كانت عملية التهيّؤ متباطئة لحين استجماع الأفكار عن الحدث الخارجي الذي يُودّ الوقوف عليه.

ولذا؛ فالتهيّؤ للقول الصّعب يؤدّي إلى الاستعداد لأنّ يقال بإرادة، وكذلك التهيّؤ للعمل يؤدّي إلى الاستعداد لأن يُفعل بعد تأهّب.

ومع أنّ الممكن ارتقاء لا استحالة فيه، ولكن إن لم يعقب التهيؤ استعدادا؛ فلا إمكانية، حيث لا إرادة، ولذلك؛ فإنّ غياب الإرادة يغيّب كلّ من التهيؤ والاستعداد، ومن ثمّ، تقوى درجة الاستعداد المترتِّبة على الإرادة والتهيّؤ بقوّتهما وتضعف بضعفهما وحينها لا إمكانية لتحدي الصّعاب؛ أي لا تحدّي بلا إرادة، ولا تهيؤ، ولا استعداد، وحتى وأن اجتمعت في دائرة الممكن تظلّ منقوصة ما لم يتمكّن الإنسان من التأهب لأداء العمل وبلوغ الارتقاء قمّة.

فالتأهّب لتحدّي الصّعاب يؤجج في النّفس حرارة الاندفاع تجاه الهدف دون خوف مع إصرار على الإنجاز، ومن يتأهّب للشيء عن عزيمة بعد تهيّؤ وإرادة واستعداد يستطيع في دائرة الممكن ارتقاء أن يُنفِّد ما يشاء، وكيفما يشاء، ومتى ما يشاء في مشيئة الله تعالى.

ولأنّ لكلّ فعل ردّة فعل، إذا؛ فمن يتأهّب لأداء الفعل الصّعب ارتقاء لابدّ وأن يكون متأهّبا لما يترتّب عليه من ردّت فعل، وإلّا سيفاجأ بما هو مؤلم.

وحتى لا تحدث المفاجئات في كلّ مرّة؛ فأخذ الحيطة والحذر عند تحدّي الصّعاب ضرورة لمن شاء أن يتدبّر أمره بلا عِلل، ولكن هذه ليست الغاية، بل الغاية أن تسود الحياة بين النّاس بلا مغالبة، ولا هيمنة، ولا حرمان، ولا تمدّد على حساب الآخرين، ولا اتكالية على الغير، ومن هنا، تصبح الغاية هي تجاوز الحلّ المتجاوز للإصلاح وإن كان إصلاح مساندا.

ولذلك؛ فالغاية من بعد الحلّ هي بلوغ المكانة الممكّنة من بلوغ رفعة الشّأن، وعيش النّعيم، وهذه مع إنّها غايات، ولكنّها ستظل في دائرة الممكن ارتقاء بين متوقّع وغير متوقّع، والعاملون عليها هم وحدهم يتهيؤون لها، ويستعدّون إليها، ويتأهبون لتحدي الأمر الصّعب، ثمّ يفعلون ويعملون حتى يبلغوا الغايات غاية بعد أمل1060. فعَنِ الشَّعْبِيِّ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، فِي قَوْلِهِ {الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ}1061، قَالَ: كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ عليه الصّلاة والسّلام فَضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ وَقَالَ: (هَلْ تَدْرُونَ مِمَّا ضَحِكْتُ)؟ وَذَكَرَ شَيْئًا، ثُمَّ قَالَ: "فِي مُجَادَلَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَقُولُ: يَا ربّ، أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ؟ قَالَ: بَلَى قَالَ: فَإِنِّي لَا أُجِيزُ عَلَيَّ الْيَوْمَ شَاهِدًا إِلَّا مِنْ نَفْسِي قَالَ: {كَفي بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا}1062، وكَذَا قَالَ وَيَخْتِمُ عَلَى فِيهِ وَيُقَالُ لِأَرْكَانِه: انْطِقِي، فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ ثُمَّ يُخَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكلَامِ فَيَقُولُ: بُعْدًا لَكُنَّ، فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِلُ، وَقَالَ: (إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ ربّكُمْ تَخْتَصِمُونَ) وَقَالَ: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي ربّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ ربّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْربّ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ}1063، يَقُولُ: فَانْقَطَعَ وَخُصِمَ وَلَحِقَهُ الْبُهْتُ عِنْدَ أَخْذِ الحجّة لَهُ وَوَصَفَ اللَّهُ عزّ وجلّ خُصُومَةَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَوْمَهُ وَرَدَّهُ عَلَيْهِمْ وَعَلَى أَبِيهِ فِي عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ {إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالحقّ أَمْ

1060 عقيل حسين عقيل، منابع الأمل ص 88.

1061 يس 65.

1062 الإسراء 14.

1063 البقرة 258.

أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ قَالَ بَلْ ربّكُمْ ربّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّه لَمِنَ الظَّالِمِينَ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النّاس لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ}1064، وهكذا كان الجدل على أشده بين من يمثل الحقّ وبين من يمثل الباطل، قال تعالى: {إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ}1065 وهنا فقد حَادُوا عَنْ جَوَابِ سُؤَالِهِ هَذَا إِذِ انْقَطَعُوا وَعَجَزُوا عَنِ الحجّة فَقَالُوا {بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ}1066، ثم قال تعالى: {وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ}1067 قَالُوا: بِالْعِلْمِ وَالحجّة1068.

هكذا حو الجدل الحقّ في سبيل إحقّاق الحقّ، إنّه جدل إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام؛ فعَنْ أَبِي جَمْرَة، قَالَ: سَمِعْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ يَقُولُ – فِي قَوْلِهِ عزّ وجلّ: {فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ}1069،

1064 الأنبياء 52 . 67.

1065 الشعراء 71.

1066 الشعراء 74.

1067 الأنعام 83.

1068 جامع بيان العلم وفضله، 2، ص 955.

1069 البقرة 260.

قَالَ: قَطّع أَجْنِحَتَهُنَّ أَربّاعًا، ربّعًا هَاهُنَا، وَربّعًا هَاهُنَا فِي أَربّا عِ الْأَرْضِ، (ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا) قَالَ: هَذَا مَثل، كَذَلِكَ يُحْيِي الله الموتى مثل هذا"1070.

والحمد لله ربّ العالمين

2017م

1070 التفسير من سنن سعيد بن منصور، 3، ص 973.